رجال الفكر والدعوة في الإسلام

الجزء الثالث

الإمام السرهندي

حياته وأعماله

تأليف

أبو الحسن علي الحسني الندوي

دار القلم

رجال الفكر والدعوة

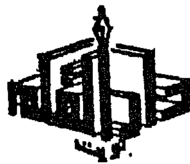
الجُزء الثالث

الإمام السّرهندي

حياته وأعماله

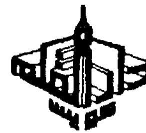
تأليف

ابو الحسن علي الحسني الندوي



الطبعة الثانية

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م



دار القلم للنشر والتوزيع

شارع السور - عمارة السور - الطابق الأول
هاتف: ٢٤٥٧٤٠٧ - ٢٤٥٨٤٧٨ - برقيا توزيعكو
ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة 13062 الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد فإن الحكاية يرجع تاريخها إلى عام ١٣٥٤ ـ ١٣٥٥ هـ (٣٥ أو ١٩٣٦م) حين أوصاني أخي ومربيّ الدكتور السيد عبد العلي الحسيني رحمه الله أمين ندوة العلماء ـ سابقاً ـ بقراءة «رسائل الإمام الرباني مجدد الألف الثاني الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي» وقد كنت ـ إذ ذاك ـ في الثانية والعشرين ، أو الثالثة والعشرين من عمري وكنت انخرطت ـ حديثاً ـ في سلك المدرسين بدار العلوم ندوة العلماء ، ولم يكن لي آنذاك اتجاه كبير إلى الأبحاث العميقة في الحقائق الدينية ، وحقيقة الإحسان ، كما لم أكن على اطلاع على مصطلحات القوم وتعبيراتهم ، بل كان يغلب عليّ الذوق الأدبي ، وغرام بالكتابات الأدبية العربية ، والدراسات التاريخية ، وكنت ولوعاً بالكتب التي كانت تصدر من دور النشر والمطابع الرئيسية في القاهرة وبيروت بطباعة أنيقة ، وفي مظهر جميل جذاب ، وقد كان أخي الأكبر ـ الذي كنت تربّيت في حجره ، ونشأت في عطفه وكنفه ، نشأة علمية وعقلية ـ يعرف هذه النزعة الموجودة عندي معرفة جيدة ، ولكن لعله بإشارته عليّ بقراءة تلك المجموعة من الرسائل للإمام السرهندي كان يريد أن يذكّرني بما امتازت به أسرتي ، التي أنتمي إليها ، من أصالة في الفكر ، وعمق في البحث ، وتقدير للقيم الروحية ، والمثل الخلقية .

وكانت أسرتي منذ ثلاثة قرون ـ على أقل تقدير ـ ذات اتصال وثيق ـ فكرياً وروحياً ـ مع أسرتيْ الإمام السرهندي ، والإمام أحمد بن عبد الرحيم المشهور بولي الله الدهولي .

وكانت عندنا في مكتبة والدي نسخة عتيقة من مجموعة «رسائل الإمام السرهندي» صدرت من إحدى المطابع الهندية ، وكانت هذه النسخة تشتمل على ثلاثة مجلدات ، فبدأت بمطالعتها نزولاً على رغبة أخي الأكبر ، وبدافع الطاعة له ، إلاّ أنني لم أستطع المُضّي في الطريق ، ولم أصبر معها طويلاً ، حتى تركت الكتاب ، وقد كانت أكبر معاناتي ، من الرسائل التي كتبها الإمام إلى شيخه ، ومربِّيه الروحي الشيخ الكبير الشيخ عبد الباقي البدخشي الدهلوي النقشبندي ، والتي شرح فيها تجاربه وخواطره الشخصية في مجال التربية والسلوك إلى الله ، ولكن إلحاح أخي الأكبر وتوجيهه - باستمرار - إلى قراءة هذه الرسائل ، وقراءة «إزالة الخفاء» للإمام ولي الله الدهلوي ، و«الصراط المستقيم» للسيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، و«منصب الإمامة» للعلامة محمد إسماعيل الشهيد ، دفعني إلى اجتياز هذه العقبة ، مهما كلف ذلك من مشقة وعنت ، وهاجت الغير في نفسي وتحمّست وقلت لا يتسنّى لي إهمال وصية أخي الأكبر ، وهو من هو في عطفه وحنانه ، ثم يسبب هذا الإهمال الحرمان من قراءة كتاب مبارك ، عرف كبار العلماء المشايخ الأجلاء بإجلاله وتقديره والعناية به .

وحالفني التوفيق فمضيت ، وكلما إزددت قراءة لهذه الرسائل ازددت رغبة فيها وتذوّقاً لها ، وبدأت أسيغ الموضوع في حدود علمي وقدرتي على الفهم ، حتى أخذ الكتاب بمجامع قلبي وأصبحت له أسيراً ، أشعر فيه بلذة غريبة ، وطعم لذيذ ، لا أكاد أجده في الكتب الأدبية الممتعة ، وكانت هذه الفترة الزمنية من أدق فترات حياتي ، فقد كان الزمن زمن المراهقة الفكرية وشرخ الشباب ، والصراع النفسي والعقلي ، لأسباب يطول ذكرها ، اعتورتني فيهما بعض الإبتلاءات القاسية ، فكان الكتاب في كل ذلك خير مرشد وموجّه ، فقد كنت أشعر أثناء قراءة الكتاب ، بسكينة تغشاني ، وتملأ جوانحي ، وتغمر قلبي ، لعلها كانت جديدة عليّ تماماً ، لم يسبق لها في حياتي مثيل ، وقد انتهى هذا السير الذي كنت أسير في الكتاب لمجرد طاعة أخي الأكبر ، والذي كان يغلب عليه دافع الغيرة و اتباع الأمر ،

إلى سرور ونشوة ، ومتعة روحية .

ثم بعد مدة يسيرة من الزمن بدأت بقراءة هذا الكتاب مرة ثانية ، أقصد فيها جمع ما تكرر وانتثر في مواضع مختلفة من الكتاب في موضوع واحد ، وفي مقصد من المقاصد التي يتناولها الإمام ، ووضع العناوين لها ، وكانت الخطوة الأولى لهذا العمل إعداد فهرس جامع لموادّ الكتاب ومحتوياته ، كالتوحيد الخالص ، وإبطال الشرك ، وغير ذلك ، فتتبعت ما جاء في كل موضوع من هذه المواضيع ، وأشرت إليه بذكر الأرقام المتسلسلة للرسائل وأرقام الصفحات فبحثت ـ مثلاً ـ عن المواضع التي طرق فيها الإمام موضوع النبوة والرسالة والرسائل التي جاء فيها الحديث عن السنة والبدعة ، وأين تعرض لإبطال البدعة الحسنة ، وأنها ليس لها وجود ، وفي أي الرسائل تناول البحث في «وحدة الوجود» و«وحدة الشهود» ، وفي أيها وردت الأبحاث العميقة في موضوع «العقل المجرد» و«الكشف المجرد» ، وبالجملة ، فبعد أن اشتغلت بالفحص والتتبع عدة أسابيع تهيّأ لديّ كشف جامع لجميع المواضيع التي تعرض لها الإمام ، ووضعت هذا الكشف في داخل هذه النسخة من الكتاب على عزم ترتيب هذه المواد المنثورة في الكتاب تحت عناوين مختلفة ، ثم حدث أن هذا الكتاب استعير من المكتبة ولم يعد إليها كما يقع كثيراً ، وكان أسفي على ذهاب الفهرس الذي أجهدت في وضعه نفسي ، أكثر بكثير ـ بطبيعة الحال ـ من ذهاب تلك النسخة من الكتاب التي تستبدل بها غيرها ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

ثم خطرت فكرة في بالي ، وذلك حوالي ٦٤ ـ ١٣٦٥هـ (٤٥ ـ ١٩٤٦م) وهي أن أرتب هذه الرسائل ترتيباً جديداً ، مراعياً فيه المواضيع والأبحاث المختلفة ، وأقدمها بشرح وتعريف يتلاءم مع العقلية الجديدة للنشء الجديد ، بحيث تكون أنفع وأشوق للقارىء الجديد ، وتلقى فيه الأضواء على المآثر التجنديدية للإمام السرهندي ، وبما كان يتبوأه في تاريخ الإسلام من مكانة الإمامة والاجتهاد ، فشرعت في هذا العمل ، وأحببت أن أقدّم لكل فصل بكلمة تمهيدية تلخص الفكرة

الأساسية ، ولباب التحقيقات العلمية ، والأبحاث الدقيقة المبثوثة في مختلف رسائله ، في موضوع واحد ، ثم أقدم مقتبسات الرسائل في تنسيق علمي ، وترتيب موضوعي مفيد ، فأكتب على جانب من الصفحة متن الرسائل بالفارسية وعلى الجانب الآخر ترجمتها الأردية ، وأذكر في الحاشية شرح الألفاظ الغريبة ، والمصطلحات العلمية ، وأخرج الأحاديث ، ثم أسوق بعض ما كتب المتقدمون من كبار العلماء المحققين ، مما يؤيد ما ذهب إليه الإمام السرهندي ، كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه ، وأئمة الإسلام ، عبر القرون والأقطار .

وقد كان هذا العمل واسع النطاق يتطلب مراعاة دقيقة للجوانب الكثيرة وتوفراً كاملاً على دراسة العلوم المتنوعة ، ولم يكن إنجاز هذه المهمة الضخمة بميسور على شاب مثلي في مقتبل العمر ، تتنازع فيه الأعمال التدريسية مع الأشغال التأليفية ، مع الدعوة الشعبية ، والجولات المتصلة .

ولأجل ذلك لم أستطع أن أنجز من هذا العمل إلاّ أبواب التوحيد والنبوة والرسالة ، ثم شغلتني الشواغل ، وصرفتني من هذا العمل الصوارف ، إلاّ أن ما وفّقت إليه من العمل في هذه المدة كان ذا قيمة كبيرة وفوائد كثيرة ، ونشره الصديق الفاضل الشيخ محمد منظور النعماني في مجلته الإسلامية الشهيرة «الفرقان» في أربع حلقات ما بين ٦٦ ـ ١٣٦٧هـ .

وبعد أن انقطعت عن هذا العمل بأعوام ، ثم حين بدأت بتأليف سلسلة «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» شعرت بضرورة الكتابة في ترجمة حياة الإمام السرهندي بصورة مستقلة ، بدل أن أقوم بترتيب جديد لرسائله ، وعمل مرهق في تنسيق محتوياتها ، وموضوعاتها ، ثم لما نشر المجلد الثاني من «رجال الفكر والدعوة» وكان يتضمن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحتم عليَّ أن أبدأ بترجمة حياة الإمام السرهندي ، وأصبح لزاماً أن يحلّ بهذه الترجمة العظيمة المجلد الثالث من «رجال الفكر والدعوة» ، إذ أن هذا العصر المضطرب بالفتن والثورات ، أحوج إلى ذلك

بالنظر إلى بعض الجوانب الخاصة ، وأن تنوير منهج الإمـام السرهنـدي وحكمتـه العملية لأبناء هذا العصر وقادة الحركات ، والتنظيمات الإسلامية ، الذين يسرعون في تحدّي الحكومات والقوى السياسية ، ويعلنون الحرب عليها من غير هوادة ومن غير استعداد وتريث ، ويجرّونها إلى جبهة معارضة في بداية المرحلة وأول الطريق ، وتحدُث في طريق الدعوة ، والعمل البنّاء ، عقبات من دون ضرورة شديدة ومبرّر قوي ، إن عصرنا هذا يحتاج إلى هذه التجربة وإلى هذا المثال العملي أكثر من كل عصر مضى ، فكيف كان ـ يا ترى ـ ذلك المنهج الذي استطاع به إنسان أعزل لا يملك حولاً ولا طولاً ، وهو في زاوية من زواياه ، أن يغير مجرى التـاريخ ويحـوّل وجهة الامبراطورية المغولية ؟ .

لقد استرعى انتباهي ـ أول مرة ـ إلى هذه الحقيقة العظيمة أحاديث أخي الأكبر ومجالسه العلمية ، ثم عندما قرأت ذلك المقال العلمي المثير الذي دبّجه يراع العلامة السيد مناظر أحسن الكيلاني في مجلة «الفرقان» الشهرية الغـراء ، العـدد الخـاص بالإمام المجـدد السرهنـدي ، قوي إيمانـي بهـذه الحقيقـة وأنـا بنفسي في كثـير من مقالاتي ، وخطبي ومحاضراتي[1] ، أوضحت هذه الحقيقة ، وأشرت إلى هذه الناحية التجديدية ، ولا يزال هذا المنهج الرباني المؤثر ، هو المنهج الميسرّ الذي حقق من النجاح والتوفيق ما لم يحققه غيره ، وازددت ثقة به ، واعتماداً عليه ، على مرّ الأيام وطول الدراسة ، والعناء والبحث .

ولكنني كلما فكرت في إفراد كتاب لترجمة هذا الإمام اعترضتني عقبتان :

أولاهما أن أي كتاب يتناول سيرة الإمام السرهندي لا يمكن أن يخلو من إثارة

(١) كالمحاضرة التي ألقاها المؤلف في حفلة تكريم وترحيب ، عقدتها جمعية شبان المسلمين في ٤ من جمادي الأخرة سنة ١٣٧٠ هـ بالقاهرة، حضرها عدد وجيه من علماء مصرَ ، وأساتذة الأزهر ، وأعضاء هيئة كبار العلماء وقادة الجماعات ، بعنوان « الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها » ، أو كالمحاضرة التي ألقاها في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بعنوان « منهج أفضل في الاصلاح للدعاة والعلماء » في شعبان سنة ١٣٨٩ هـ .

قضية «وحدة الوجود» و«وحدة الشهود» وشرحهما وإفهامهما للنشء الجديد ، والمقارنة بينهما ، وترجيح نظرية «وحدة الشهود» مع الأدلة العلمية ، والمناقشة الناقدة الدقيقة ، فحين كانت تتمثل لي هذه المهمة الضخمة تكلّ عنها قواي ، وينصرف عنها قلمي لأمور ، منها : أن هذا الموضوع قد تكونت فيه مكتبة واسعة لا يتيسر الاختيار منها ، وتلخيصها واختصارها ، ثم أن هذه القضية تحتاج إلى المباحث الفلسفية الدقيقة ، وتفسير المصطلحات الفنية التي كثر فيها النزاع ، وثار حولها الجدال ، ولا يمكن بدون ذلك الخوض في الموضوع ، أضف إلى ذلك أن هذه القضية عملية ذوقية تجريبية ـ أكثر منها نظرية وعلمية ، تعتمد على أحاسيس ومشاعر خاصة ، وتجارب شخصية وليس المؤلف منها في عير ولا نفير ، كما أن كثيراً من قارئي هذا الكتاب لا يجهلون هذه العلوم فحسب ، بل ينفرون منها ، ويستوحشون من ذكرها ، فما كنت أعرف تجاه هذه المشاكل طريق التغلب عليها ، ومن لي بالظفر في هذه المفازة الطويلة ؟ ، وإذا تجرد الكتاب عن هذه الفصول المهمة ـ التي يعتبرها بعض العلماء مجالاً حقيقياً لتجديده ، ويتركز عندهم فيها سرّ عظمته ومأثرته التجديدية ـ فكيف يعتبر الكتاب ترجمة جامعة لحياته ، وتعريفاً كاملاً بأعماله ؟ .

كان يعترضني ، ويمسك بعنان قلمي عن الجريان ، في هذا المجال وجود مكتبة ضخمة في هذا الموضوع ، وصدور كتب وبحوث حدثت بين آونة وأخرى ، لا يتيسر للمؤلف زيادة ذات قيمة فيها ، وقد غلب على ظنه أن كتابه لا يملأ فراغاً واقعاً في المكتبة الإسلامية .

وبعد طول تفكير وتردد ونظر ، انحلت المشكلة الأولى ، فقلت : ينبغي أن آخذ بمبدأ «ما لا يدرك كله لا يترك كله» وأقدم على حل هذه المصطلحات وشرحها مستعيناً في ذلك بما جاء في كتب الشراح المحققين من علماء المدرسة الفكرية للشيخ محيي الدين بن عربي ، وما جاء في هذه الرسائل نفسها من إشارات وتفسيرات ، حتى يتيسر للقارىء الوقوف على هذا العلم ـ بصورة إجمالية ـ ومن أحب أن يستزيد

وساعده التوفيق يرجع إلى المصادر الأساسية ، أو يراجع العلماء المتخصصين في هذا الفن ، والغواصين في هذا البحر الزاخر ممن رسخوا في هذا العلم ، وتذوقوه وفقهوه ، «وقليل ما هم» .

أما العقبة الثانية ، فهو النظر إلى المكتبة العظيمة الواسعة التي تكونت في سيرة الإمام السرهندي ، والتعريف برسائله العظيمة ، ومآثره الخالدة ومناقبه ، الجمة ، وقد كنت أقف حائراً متهيباً أمامها ، أستصغر نفسي واستبعد الزيادة فيها أو الإضافة إليها بشيء جديد ، وقد هداني لتذليل هذه العقبة المثل العربي العلمي «كم ترك الأول للآخر» ، لقد تناول تجديد الإمام السرهندي وأعماله العظيمة ، الكثير من الكتّاب والمؤلفين ، وكتبوا في هذا الموضوع الشيء الكثير ، ولكن لا يزال هناك جوانب بحث وتحقيق تحتاج إلى رفع اللثام ، ومسك الختام ، ومغامرة جديدة واقتحام .

ثم إن تغيرُ الأساليب ، وطرائق البيان ، وتغير الأوضاع والظروف ، والمثل والقيم ، والمناهج في الإفهام والتعبير ، يجعل الكتب التي ألفت قبل مدة من الزمن - في بعض الأحيان - في حاجة إلى نقل وتعبير جديد ، كأنها كانت مكتوبة بلغة أخرى ، كما أن كل مؤلف له طريقته ومنهجه في الاستنتاج من الوقائع والاستنباط من الأحداث ، وربط النتائج العلمية بالأسباب المؤثرة .

ورأى المؤلف أنه إذا تم هذا العمل بإخلاص وصفاء نية وجهود موفقة ، فإنه لا يكون عملاً نافعاً مستمراً فحسب ، بل سيكون - إذا قدر الله تعالى - هدية قيمة ، ورسالة حية للقرن الخامس عشر الهجري ، ووثيقة تاريخية لمنجزات عبد صالح من عباد الله المخلصين ، قام بها في دأب وصمت ، وتواضع وخشوع ، ولم يقتصر تأثيرها على قرن واحد ، بل امتد حتى شمل الألف الثاني كله، وهي تحمل لهذا القرن الذي نفتتحه ، والذي تغيرت فيه الأوضاع تغيراً كبيراً ، درساً للعظة ، والعبرة ، والاستفادة .

وإنه يلهج قلب المؤلف وقلمه بشكر الله تعالى وبحمده ، والثناء عليه إذ وفقه بعد فترة طويلة دامت ربع قرن[1]، لاستئناف سلسلة «رجال الفكر والدعوة» ، وتأليف الجزء الثالث منها ، وقد طالت هذه الفترة حتى خاف المؤلف أن ينتهي الأجل دون استكمال هذه السلسلة الطيبة التي باركها الله تعالى ، ونفع بها خلقاً كثيراً ، وكان هذا الجزء الثالث يبحث عن الشخصية الفريدة التي حازت من القبول والعظمة والصيت البعيد في جهوده الموفقة لتجديد الدين ، ما لم يحظ به أي مصلح وداع في تاريخ الإصلاح والتجديد في القرون الأخيرة ، حتى إن اشتهاره بـ «مجدد الألف الثاني» طغى على اسمه ، وحل محله ، ولا يعرفه كثير من المثقفين إلاّ بهذا اللقب ، هذا في جانب ، وفي الجانب الآخر كتب لجهوده التجديدية العظيمة من النجاح والتوفيق ، ومن النتائج الباهرة المستمرة ، ما يندر نظيره في تاريخ الدعوة والإصلاح والتجديد في الإسلام ، كان ذلك يحثني على وضع هذا الكتاب ، كما أن إلحاح القراء لسلسلة «رجال الفكر والدعوة» والمقدرين لفضلها بلغ من الجد والصرامة حتى دفعني إلى التفكير في إكمال هذا الجزء بأسرع وقت ممكن ، بل إن كثيراً من أصدقاء المؤلف المخلصين ممن يمتازون بدراسة هذا الموضوع والتعمق فيه ، كانوا يشيرون عليّ بأن أتفرّغ لهذا الموضوع تفرغاً كاملاً وأقدّمه على سائر الأعمال التأليفية الأخرى .

ولكن معالجة هذا الموضوع لم تكن بالأمر الميسور كما كان يبدو لكثير من الناس ، فما كان يغني ـ نظراً إلى مقتضيات العصر الحاضر ، والمقاييس الجديدة للبحث والدراسة والتحقيق ـ أن يقتصر على عرض وتلخيص واختيار ، مما جاء في كتب التاريخ والتراجم القديمة ، بل كان الموضوع يحتاج إلى دراسة العصر الذي عاش فيه الإمام السرهندي وخلفياته ، والبيئة التي تربى فيها ، والأجواء التي قام

---

(١) كان صدور المجلد الثاني من «رجال الفكر والدعوة» وهو خاص بسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية ، ودوره في الاصلاح والتجديد ، سنة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) وقد تأخر صدور ترجمته بالعربية الى سنة ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) فكان بين تأليف الجزء الثاني والجزء الثالث فترة ثلاث وعشرين سنة .

فيها بدوره التجديدي ، علمياً وتاريخياً ، وسياسياً وخلقياً ، واجتماعياً وعقائدياً ، دراسة ناقدة دقيقة ، فما هي الحركات التي كانت تعمل آنذاك ؛ وكيف كان الاضطراب الفكري ، والقلق الديني سائداً في الهند ، وما يجاورها من البلدان ، وكيف بدت طلائع الثورة على الشريعة والسنة في الأوساط العلمية والعقلية ؟ ، وما هي تلك المؤامرات والدسائس التي كانت تحاك حول الإسلام ، وما هي تلك الأماني اللذيذة ، والأحلام المعسولة التي راودت كثيراً من المغامرين الطموحين ، لقرب انتهاء الألف الأول من التقويم الإسلامي وغرست شكاً وارتياباً في القلوب المريضة ، والنفوس القلقة ، فكانت فتنة الفلسفة والعلوم العقلية في جانب ، وفتنة الإشراق والباطنية التي حاولت النيل من عظمة النبوة والرسالة المحمدية ، وادعت أن العقل والفلسفة ، والرياضيات الشاقة ، والمجاهدات الرهبانية ، وقمع الشهوات النفسانية ، كفيل بمعرفة الله معرفة صحيحة ، والوصول إليه ، ونيل الحظوة عنده ، والنجاة من عذابه ، وما جرته عقيدة «وحدة الوجود» المتطرفة من حرية مطلقة ، وإلحاد وزندقة .

زد إلى ذلك أنه لم تعد في هذا العصر للسنة النبوية ، والشريعة الإلهية أهمية ومكانة إلاّ عند القليل من العلماء الراسخين ، والمشتغلين بعلوم السنة والحديث ، وسيطرت البدع بصورة علنية ـ تارة ، ومتسترة بستار «البدعة الحسنة» أخرى ، على المجتمع المسلم ـ وسرت أدواؤها في حياة المسلمين العملية ، ولم يكن هناك من يتشجع على مقاومة فكرة «البدعة الحسنة» .

وأدهى من كل ذلك وأمرّ أن الامبراطورية المغولية العظيمة ـ التي كانت تلي الامبراطورية العثمانية في السعة والقوة[1] والمجتمع المسلم الكبير الذي كان يعيش تحت ظل هذه الامبراطورية ـ بدأت وجهتها تتحول ـ بتأثير بعض الأغراض الشخصية ، والميول والاتجاهات الفردية ، والتأثيرات الخارجية والمصالح السياسية

---

(١) كانت الامبراطورية المغولية تلي الامبراطورية العثمانية في الرقعة ، والقوة العسكرية ، والوسائل والذخيرة ، وكانت حدودها تمتد من بنغال الشرقية الى حدود أفغانستان الغربية .

المزعومة ، من الارتباط بالدين الإسلامي ، والتمسك بأهداب النبوة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ وتمثيل الحضارة الإسلامية ، إلى الفلسفة البرهمية ، والحضارة الهندية ، ونظرية «وحدة الديانات»[1] ، وكان في مقدمة المخططين لهذه السياسة والمدبرين لهذه المؤامرة ، من يعتبر من نوابغ هذا العصر ذكاءً وعلماً ، وعبقرية أدبية وعقلية ، فكانوا يهتفون بأعلى صوتهم «قد أظل العالم الإنساني ـ بما فيه العالم الإسلامي ـ بدخول الألف الثاني ، عصر جديد ، يحتاج إلى دستور جديد للحياة ، وقيادة جديدة فتية للمجتمع البشري والإسلامي» .

فكيف تغلّب الإمام على هذا الوضع الشاذ ، وكيف غير هذا التيار الجارف ؟ وكيف كانت عملية «صناعة الرجال» وصنع العبقريات ، في زاوية بعيدة عن صخب الحياة ، وما هي تلك التربية الخلقية ، والتزكية الربانية التي تخرج في مدرستها رجال يتجمل بهم التاريخ ، والذين ألقوا رحالهم في مختلف أقطار الهند ، واتخذوها مركزاً وقاعدة ، لنشاطهم الدَّعَوي وعملهم التربوي ، وانتشر كثير منهم في أفغانستان وتركستان ، وامتدوا إلى العراق والشام ، ورحلوا إلى الحجاز وتركيا ، فقاموا بجهود جبارة ، وحركة قوية ، منتجة لإعلاء كلمة الله ، وإحياء السنن المماتة ، والذب عن الشريعة الغراء ، ومقاومة البدع والمنكرات ، وإزالة الآثار التي خلفها دعاة «وحدة الوجود» المتطرفون والصوفية المتحررون المنحرفون .

وخلاصة جهودهم أنهم نفخوا روحاً جديدة في المجتمع المسلم لعبادة الله وحده ، وابتغاء مرضاته ، وتعظيم شريعته ، وحرماته ، ولم يزالوا على هذا الدرب ثلاثة قرون متوالية ، مواصلين جهادهم وجهودهم بقوة إرادة ، وعلو همة ،

---

(١) يعني ان الاديان كلها سواء ، وكلها طرق موصلة الى الله ، تتحد في الغاية والصحة ، وتختلف في بعض المظاهر والشعارات ، وتسمي الله باسماء مختلفة تتفق في الحقيقة الجوهر ، ولا تزال لها دعوة قائمة يدين بها ، ويدعو اليها بعض كبار المفكرين والزعماء السياسيين القوميين في الهند ولعل الزعيم غاندي كان من أصحاب هذه الفكرة .

وانصراف تام ، حتى شمل تأثيرهم العالم الإسلامي كله ، فلا نجد بقعة من بقاع العالم الإسلامي إلاّ وتشهد فيها آثارهم وثمرات جهودهم وحُقَّ لهم أن تنسب هذه القرون الثلاثة إلى إمامتهم وقيادتهم وتربيتهم ، وعندما يشهد المؤرخ المنصف هذا التأثير العالمي العظيم ، يمتلىء قلبه إعجاباً بهذه الشخصية الفريدة ، التي غيرت مجرى التاريخ .

وقد كان مما ينبغي ملاحظته بهذا الصدد والعناية به لمؤرخ حاذق ، أمران آخران ، أولهما : أنه لا ينبغي الاقتصار في إلقاء الضوء على عصر الإمام السرهندي ، وتصوير الفترة التي تربع فيها الملك جلال الدين أكبر التيموري عرش المملكة الهندية العظيمة على كتاب «منتخب التواريخ» للعلامة عبد القادر البدايوني[1] ، وعلى تلك المراجع التاريخية التي وصفت في الأيام الأخيرة بأنها أُلّفت تحت ضغط عواطف دينية حادة ، أو من وجهة نظر خاصة وتواضعت على تصوير عهد الملك أكبر تصويراً قاتماً مظلماً ، بل ينبغي الاستفادة من كتب أولئك المؤرخين المحايدين ، أو من تقريرات أولئك المحررين وأصحاب الأقلام في البلاط الملكي ، الذين لم يكونوا ممن يخالفون الملك أكبر فحسب ، بل كانوا يدافعون عنه ، ويدعون إلى أفكاره وأهدافه ، وكانوا معجبين بدستور الدولة ، الذي وضعه ، كما أنهم يتغنون بفضله ، وعبقريته ، ومواهبه الفذة ، وينبغي أن ندرس تلك التطورات والتغييرات ، التي بدأت من

(١) كان العلامة عبد القادر بن ملوك شاه البدايوني (م ١٠٠٤ هـ) مؤرخاً أميناً ، دقيق الملاحظة والنظر ، مؤلفاً شجاعاً ، لا يحابي أحداً ، (اقرأ ترجمته في الجزء الخامس من « نزهة الخواطر » للعلامة السيد عبد الحي الحسني رح) وقد انتقد الامبراطور « أكبر » انتقاداً لاذعاً ، وصوره تصويراً لا يرضي متملقيه ومطريه ، من أنصار التسامح الديني المزعوم الذي اشتهر به « أكبر » والدعوة الى الدين الإلٰهي (وبالأصح الأكبري) التي قادها ، وتزعمها ، من المؤرخين « العلمانيين » الأحرار في هذا العصر ، وقد قاموا بحملة هوجاء ضد البدايوني وكتاباته ، وقللوا من قيمة الكتب التي تعتمد على شهاداته ومعلوماته .

وقد رأى المؤلف من المصلحة أن لا يعتمد هذا الكتاب الجديد على ما جاء في كتاب « منتخب التواريخ » للبدايوني فحسب ، لئلا يتخذ ذلك المغرضون وسيلة للحط من قيمة كتابه العلمية والتاريخية ، فاستشهد في وصف « أكبر » وعرض عقائده واتجاهاته وتقنياته على بيان أصدقائه ، ورجال بلاطه الأوفياء المتشيعين له .

عهد الملك جهانكير ، وتكاملت في عهد السلطان أورنك زيب عالمكير ، دراسة تاريخية ناقدة ، ويستفاد في ذلك من كتب مؤرخي الهند المحايدين ، ونبرهن على هذه الدعوى في ضوء كتاباتهم ، لا في ضوء كتابات المؤلفين عن الأسرة المجددية والمؤرخين المتحمسين لهذه القضية ، حتى تكون الدراسة محاية منصفة للفريقين .

وكان من اللازم أيضاً أن تستعرض تلك الكتب والمقالات التي ظهرت في الخمسينات الأخيرة من هذا القرن عن الإمام السرهندي باللغتين الأردية والإنجليزية في الهند وخارج الهند ، وفي بعض هذه الكتابات تحدَّى المؤلفون كثيراً من الحقائق المعروفة والمسلمة ، وأثاروا أسئلة جديدة ، وعرضوا صورة ـ لاستنتاجهم من الوقائع والأحداث على منهجهم الخاص ـ تختلف كل الاختلاف عن تلك الصورة الوضاءة النيرة التي دأب أكثر المؤرخين على إبرازها وعرضها ، ولا يستلزم ذلك أن يسمى كل واحد من هؤلاء المؤلفين والكتاب ، ويرد على دعاويهم واحداً واحداً ، بل إن هذه السيرة المعروضة للإمام السرهندي عرضاً جديداً ، وهذه الدراسة لأعماله التجديدية ، وعصره وبيئته ، سوف تكون رداً حاسماً على شبهاتهم وتفنيد لدعاويهم .

وإنني ـ مع زحمة الأشغال ، وكثرة الأسفار داخل البلاد وخارجها ، وقلة المساعدين في هذا العمل ـ حاولت جهدي أن يظهر هذا الجزء من سلسلة «رجال الفكر والدعوة» الذي يشتمل على حياة الإمام السرهندي ومنجزاته وأعماله ، يحمل مواد جديدة ، لم تعرض بعد ، ونتائج جديدة ، تدعو إلى التفكير والتأمل ، وتبعث على الأمل والتفاؤل ، لعلنا بذلك نقوم ببعض واجبنا نحو هذا العصر ، ونحقق بعض متطلباته ، ونستقبل به القرن الخامس عشر الهجري .

وإلى القراء هذا الكتاب ـ الذي ألّف في لغة أردو ـ منقولاً إلى اللغة العربية ، وقد قام بعملية الترجمة والتعريب ـ العسيرة الدقيقة لاختلاف نفسيتي اللغتين ومحيطهما ، ودقة الموضوع ـ العزيز السيد سلمان الحسيني الندوي ـ بارك الله في

حياته ونفعه ونفع به ـ خير قيام ، وقد انجز العمل وأتمه في مدة قريبة ، فله دعـاء المؤلف وشكر القراء ، والأجر من الله الكريم .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

٢٦ / جمادى الأولى ١٤٠٠ هـ
١٣ / إبريل ١٩٨٠ م

أبو الحسن علي الحسني . الندوي
دارة الشيخ علم الله الحسني ، راىء بريلي

الباب الأول

العالم الإسلامي في القرن العاشر
أهمية الدراسة التاريخية للقرن العاشر الهجري

ولد الإمام السرهندي في شوال عام ٩٧١ هـ ، وتوفي في صفر عام ١٠٣٤هـ ، وهكذا يحتوي عصره على التسع والعشرين سنة الأخيرة من القرن العاشر ، وما يقارب الثلاث والثلاثين سنة الأولى من القرن الحادي عشر ، فالذي يؤرخ عصره وحياته ، ينبغي أن يعني بهذه الثلاث والستين سنة إذ هي مدة حياته ، وهي التي تمتد من الثلث الأخير للقرن العاشر إلى الثلث الأول من القرن الحادي عشر .

ولكن ليست ولادة إنسان ـ مهما امتاز به من قوة الشخصية ، وتأثير في عهده وبيئته ـ بداية حتمية لعهد جديد ، يبرز من كتم العدم إلى حيز الوجود كما أنه ليس من المعقول أن لا تؤثر فيه تلك الوقائع والأحداث ، والعوامل التاريخية ، والخلفيات العلمية والعقلية ، والقوى المسيطرة ، والحكومات الموجودة التي كانت تعمل عملها قبل أن يولد ، وكانت تترك على البيئة والمجتمع آثاراً كبيرة ، ولذلك فإنه يتحتم علينا عند الحديث عن حياة الإمام السرهندي ، ودراسة أعماله الإصلاحية والتجديدية ، وإدراك طبيعة عصره ، وتقييم ما كان يواجهه في عمله التجديدي من صعوبات وتسهيلات ، والمقارنة بينه وبين غيره ، أن ندرس العالم الإسلامي ـ كما كان في عصره ـ سياسياً ودينياً ، وعلمياً وخلقياً ، ذلك العالم الإسلامي الذي واجهه الإمام منذ عقل وبدأ يعي ويشعر ، والذي كان عليه أن يقوم فيه بدوره التجديدي الإصلاحي الذي حول تيار الحوادث ، وأرغم التاريخ على أن ينحو نحواً جديداً ، واستحق به ـ عن جدارة كاملة ـ أن يلقّب بمجدد الألف الثاني .

وينبغي ـ ونحن في هذه الدراسة ـ أن لا نغفل حقيقة ذات شأن وهي أن العصر الذي يولد فيه الإنسان ، والعالم الذي يعاصره ، والمجتمع الإنساني الذي يعيش فيه ، هو كالنهر الجاري ، تتصل كل موجة فيه بالموجة الأخرى ، وتتّسق معها ، فلا يمكن ـ لأجل ذلك ـ أن يبقى بلد ـ مهما كان بعيداً نائياً ، يعيش في عزلة عن سائر العالم ـ غير متأثر بالأحداث الخطيرة والثورات العظيمة ، والقوى المتحاربة ، والحركات المؤثرة القوية ، التي تجري في بلدان العالم الأخرى ، لا سيما إذا كان مركز هذه الأحداث والوقائع ، والثورات والتطورات ، بلداً يشاركه في العقيدة والمذهب ، والمشرب ويجاوره في المكان ، ولذلك فلا يجوز للمؤرخ البصير في هذه الدراسة التاريخية أن يقتصر على الهند فحسب ، بل يلزمه أن يلقي نظرة عامة على العالم الإسلامي كله في القرن العاشر ، لا سيما البلدان المسلمة المجاورة ، التي كانت بينها وبين الهند أواصر علمية ، ودينية وحضارية ، وكانت تصل إليها لفحاتها الشديدة اللاذعة ، ونفحاتها الرخية الناعمة ، على بعد الدار وطول المسافة .

الوضع السياسي :

لقد نال الشرق الأوسط ـ وهو المنطقة المركزية للعالم الإسلامي ـ في أوائل القرن العاشر ـ بعد زمن طويل ـ (ولعله بعد السلطان صلاح الدين الأيوبي المتوفى ٥٨٩ هـ) استقراره السياسي ، واجتمعت البلدان العربية الواقعة في آسيا الغربية تحت الراية التي كان رافعوها يعتزون بلقب « حامي الإسلام ، وخادم الحرمين الشريفين ، وحارس المسلمين » وكانوا قد نفخوا في الخلافة الإسلامية ـ التي عادت في مصر كالبابوية النصرانية بعد استشهاد آخر الخلفاء العباسيين «المستعصم بالله » عام ٦٥٦ هـ ـ حياة جديدة ، ولو كان ذلك تحت مصالحهم السياسية ، فقد فتح ياور السلطان سليم الأول مؤسس الخلافة العثمانية ـ ٩١٨ ـ ٩٢٦ هـ بلاد الشام عام ٩٢٢ هـ ، ومصر عام ٩٢٣ هـ ، التي كانت تحت حكم المماليك منذ قرنين ونصف قرن من الزمان ، وكان حاكم مصر ـ حين زحف إليها السلطان سليم ـ قانصوه الغوري ، وأعلن السلطان سليم في نفس سنة ٩٢٣ هـ إعادة الخلافة ، وأنه خادم

الحرمين الشريفين ، ووصّي أميناً عليهما من قبل المسلمين ، ودخلت بعد ذلك جزيرة العرب ، ثم البلدان العربية الإسلامية ، الواقعة في أفريقيا الشمالية - عدا المغرب - تدريجياً تحت حكم السلطان سليم ، ثم تحت حكم خليفته السلطان سليمان القانوني ، (٩٢٦ - ٩٧٤ هـ) الذي يذكره المؤرخون الغربيون باسم (Sulaiman The Magnificent) يعني سليمان الكبير العظيم .

وقد كان عهد سليمان - الذي ولد الإمام السرهندي قبل وفاته بثلاث سنوات - عهد ازدهار الامبراطورية العثمانية ورقيها ، إذ كانت ترفرف رايتها على النمسا والمجر في أوروبا ، وتزحف جيوشها المنتصرة - في جانب آخر - إلى إيران ، وكانت العراق كذلك ، مثل الشام ومصر ، انضمت إلى مملكة الواسعة ، فكانت حاكماً لأكبر إمبراطورية على الأرض في عصره ، أما في عهد السلطان مراد الثالث ٩٨٢ - ١٠٠٤ هـ فقد اشتملت مملكته على جزيرة قبرص وتونس ، وعدد من ولايات إيران ذات الخصب والريع الكثير ، واليمن ، وتمّ في عصره عام ٩٨٤ هـ بناء الحرم المكي الشريف ، وكان الإمام السرهندي - إذ ذاك - قد بلغ سن الشعور ، وليس ببعيد أن يكون على علم بهذه الأحداث ، وطبيعي أن يكون المسلمون في ذلك العصر - ولو كانوا مسلمي الهند - يشعرون بفرح واعتزاز إزاء فتوح الدولة العثمانية ، واتساع رقعتها ، وقد كان الأتراك العثمانيون معروفين بصلابتهم في العقيدة السنّية ، وتمسكهم بالمذهب الحنفي ، الذي كانت تدين به أكثرية مسلمي الهند .

وظهرت في بداية هذا القرن عام ٩٠٥ هـ الأسرة الصفوية في إيران وكان مؤسس الدولة الصفوية الشاه إسماعيل الصفوي ٩٠٥ - ٩٣٠ هـ ، وقد أحكمت هذه الأسرة - تدريجياً - استيلاءها على هذه المنطقة كلها ، واستقلت استقلالاً تاماً ، وكانت حكومة قوية إزاء الدولة العثمانية ، وقررت المذهب الإمامي الجعفري - خلافاً للدولة العثمانية - مذهب الدولة الرسمي ، واستخدم إسماعيل الصفوي كل الوسائل ، واستغلّ السلطة لنشر هذا المذهب ، والدعوة إليه ، وحاز في سبيل ذلك

نجاحاً عظيماً منقطع النظير في تاريخ الحكومات التي تعني بتحويل الاتجاه الديني للمصالح السياسية ، فأصبحت هذه الحكومة ـ بعد أن أقامت على حدودها سور بشرياً يقوم على الخلاف المذهبي ـ بمعزل عن أن تذوب في دولة العثمانيين التي انتشر فيها من يشاركهم في المذهب السني الحنفي ، من القسطنطينية إلى لاهور ودلهي ، وكانت الأسرة الصفوية تحكم من بغداد إلى هرات .

وكان شاه عباس ٩٩٥ ـ ١٠٣٧ هـ الذي هو أعظم سلاطين هذه الأسرة ، ويعرف في التاريخ بشاه عباس الكبير ، والذي يستحق لأعماله البنائية أن يدعى شاهجهان[١] أسرته ، معاصراً للإمام السرهندي ، وقد بلغت الدولة الصفوية في عصره أوجهاً ، وذروة مجدها ، فحارب الأتراك ، واحتل نجف وكربلا ، وكان هو معاصراً للملك جلال الدين أكبر ، والملك نور الدين جهانكير ، وأصيبت هذه الأسرة بعد شاه عباس بالضعف والزوال .

وكانت البقعة الثانية من بقاع العالم الإسلامي الهامة بلاد تركستان التي دامت لقرون طويلة مركزاً للحضارة الإسلامية ، والثقافية العربية الدينية ، وتعرف في الكتب القديمة بـ « ما وراء النهر » وكانت لها مساهمة كبيرة ـ بعد العراق ـ في تدوين الفقه الحنفي ، وخلفت عدداً من الكتب القيِّمة الخالدة[٢] ، التي لا تزال مقررة في مناهج الجامعات الإسلامية في الهند ، ونشأت فيها الطريقة النقشبندية ـ التي ينتسب إليها الإمام السرهندي وشيوخه ـ ونمت وترعرعت ، وانتشرت منها في أجزاء العالم الإسلامي ، لقد دخلت هذه البلاد ، المخصبة الغنية بالثروات والعبقريات ، في حكم الأسرة الشيبانية فرع الأزبكية في بداية القرن العاشر عام ٩٠٥ هـ ، وبقيت تحت سلطانهم من تلك السنة إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي ـ إلى ثورة

(١) هو الامبراطور شهاب الدين شاهجان بن جهانكير التيموري (م ١٠٧٥ هـ) باني التاج محل في أكره والمسجد الجامع الكبير في دلهي .

(٢) كهداية الفقه للمرغيناني ، وشرح الوقاية وغيرهما لصدر الشريعة ، وظلا مقررين في المنهج الدراسي طوال قرون .

روسيا البلشفية - إلا فترة قصيرة حمل فيها الملك ظهير الدين بابر التيموري بمساعدة الصفويين ، على ما وراء النهر ، وسيطر على سمرقند عاصمتها - آنذاك - ثم أصبحت «بخارى» في القرن العاشر عاصمة الدولة الشيبانية في عهد الملك عبيد الله بن محمد ٩١٨ - ٩٤٦ هـ ، والملك عبيد الله بن اسكندر ٩٦٤ - ١٠٠٦ هـ ، وعادت بسببها بخارى مرة ثانية ، مركزاً للحياة السياسية والفكرية .

وأقرب البلدان المجاورة للهند الذي يقع غربيّها ، هو أفغانستان ، تداول الحكم عليها في بداية القرن العاشر أزابكة تركستان ، وصفويو إيران وغيرهما من الغزاة الطامحين المحليين ، في فترات متخللة بين حكم الأسرتين المتقدم ذكرهما ، وكان يحكم « كابل » و« قندهار » المغول تارة والإيرانيون أخرى ، أما هرات فلوقوعها على حدود إيران كانت أكثر الأحيان تحت سلطة الأسرة الصفوية ، وفي عام ٩٢٨ هـ فتح الملك بابر « قندهار » ، ثم لما أسس الدولة التيمورية في الهند ، جعل مقره كذلك في الهند ، وكان يحكم من هناك ولايات « كابر » و « بدخشان » و « قندهار » ، وافتتحت أفغانستان - في ذلك الوقت تحت تأثير دولتين عظيمتين قائمتين في الهند ، وإيران - عهداً جديداً ، أقرب إلى الأمن والتنظيم ، وكانت أن انقسمت بين هاتين الدولتين ، فدخلت ولايتا هرات وسيستان في إيران ، وإن كان الأزابكة يحملون عليهما حيناً لآخر وأصبح « كابل » جزءاً من الدولة المغولية ، وكان قندهار يتداول السلطة عليه المغول والإيرانيون ، وأنشأ الحاكم سليمان مرزا ابن أخي الملك بابر - الذي ولاه بابر ولاية بدخشان - في شمال كوهستان حكومة شبه مستقلة ، أما ما عدا هذه الولايات من سائر المناطق ، فكانت تحت حكم الشيبانيين ، وفي عام ٩٦٥ هـ احتل طهماسب ملك إيران ، ولاية « قندهار » واستمرت تحت إحتلال الإيرانيين إلى عام ١٠٠٣ هـ ، ثم سلمها ولي العهد مظفر حسين عام ١٠٠٣ هـ إلى الملك أكبر ، ومن ثم كانت أفغانستان ولاية من ولايات الدولة المغولية في الهند ، ودام الحال على ذلك إلى القرن الثاني عشر حتى زالت دولة

آل بابر التي استمرت مائتين وأربعين ٢٤٠ عاماً على أيدي نادر شاه افشار عام ١١٥١ هـ .

ولما بدأ القرن العاشر كانت الأسرة اللودهية تحكم الهند ، وقد قتل آخر ملوكها إبراهيم اللودهي عام ٩٣٢ هـ ، على يد مؤسس الدولة المغولية الملك ظهير الدين محمد بابر الكوركاني (٨٨٨ - ٩٣٩ هـ) ، وتأسست على أنقاض الدولة اللودهية ، المملكة المغولية ، التي كانت من أكثر دول الهند استحكاماً وتنظيماً ، وأوسعها رقعة ، وأطولها عمراً ، كانت الأسرة اللودهية - لتمسكها بالتقاليد الأفغانية ، والنسب الأفغاني - متمسكة بالإسلام ، متقيدة بالمذهب السنّي الحنفي ، لم تعرف التجدد و « العلمانية » والسياسة اللادينية ، وكان من أكثر هذه الأسرة تديناً ، وتقديراً للعلماء ، وتشجيعاً للعلوم الإسلامية الملك سكندر اللودهي (م ٩٢٣ هـ) وسعدت الهند خمس سنوات من هذا القرن بحكم الملك شيرشاه السوري (٩٤٦ - ٩٥٢ هـ) ، الذي لم ينهض في تاريخ الهند الإسلامي ملك متدين عالم ، أحسن منه تنظيماً وتقنيناً ، وأكثر منه توفيقاً للأعمال الخيرية ، وتحقيق المشاريع الهائلة في المصلحة العامة ، ولم يحصل للهند بعد وفاة الملك شيرشاه السوري ، إلى تولي الملك أكبر للدولة ، الاستقرار السياسي ، والتنظيم السليم ، ولم يقر للحكومة قرار ، ولم يذق سكان البلاد طعم الأمن والرخاء والراحة ، فقد كان الملك سليم شاه خليفة أبيه العبقري السلطان شيرشاه السوري لا يمت إلى أبيه في تنظيمه ، وتدبير مملكته بسبب ، ولم يستطع كذلك الملك نصير الدين همايون خليفة الملك بابر (٩٣٧ - ٩٦٣ هـ) أن يحكم الهند في أمن واستقرار ، فقد شردته حملات الملك شيرشاه السوري الظافرة ، وخذلان إخوته كل مشرد ، وكان شأنه هذا ، حتى اتصل بطهماسب الصفوي ملك إيران ، وطلب منه المساعدة ، فتهيأ له الاستقرار ، واعتلى الملك أكبر عام ٩٦٣ هـ عرش الدولة المغولية ، ودام في الحكم نصف قرن ، بأبهته وعظمته وسلطانه غير منازع .

. وتولى نور الدين جهانكير الملك في عصر الإمام السرهندي نفسه ، حينما كان ابن ثلاث وأربعين سنة ، وتوفي الإمام السرهندي في عهده ، وكانت هناك - عدا هذه الدولة المركزية التي جعلت عاصمتها دلهي - حكومات إقليمية في ولاية كجرات ، وبيجافور ، وكولكنده ، وأحمد نكر ، كانت تحكم هذه المناطق بصورة مستقلة ، وكانت الحكومات الثلاث المؤخرة الذكر من الحكومات التي كانت تعتنق المذهب الشيعي .

الوضع الديني والروحي :

لقد كان التدين سمة سائدة - إذ ذاك - على العالم الإسلامي كله ، فكان عامة الناس - رغم انحطاطهم الخلقي والعلمي - راسخي الايمان ، محبين للإسلام ، موالين له ، وكانوا يمتازون بالحمية الدينية ، والحماسة الإسلامية ، على تصورهم الخاص ، وبالرغم من أنهم كانوا يقترفون كثيراً من البدع ، ويرتكبون ما يخالف الإسلام - أحياناً - ولكن كانو شديد الكراهية للكفر والالحاد ، يشمئزون منهما ويتبرأون .

ولأجل هذا الذوق الديني العام ، والطبيعة الايمانية السائدة ، كان الملوك المسلمون - الذين لا يعبأون بأي قوة مناوئة كبيرة ، وكانت أوروبا ترتعد من قوتهم العسكرية - مضطرين لاحترام شعائر الإسلام ، وإعلان صيانة الدين ، وحماية بيضة الإسلام والمسلمين ، ولم تكن قلوب العامة من الناس ، تستشعر عظمتهم ، وتحبهم ، حتى يتظاهروا بهذه الناحية الدينية ، ولذلك لم تتوطد حكومة السلطان سليم الأول ، ولم تثبت جذورها ، حتى لقب نفسه بخليفة المسلمين ، وخادم الحرمين الشريفين ، وأبدى أثناء إقامته بدمشق الحب والتقديس للديار المقدسة ، والاجلال لها ، وأنفذ في شهر ذي الحجة عام ٩٢٣ هـ قافلة للحجاج من دمشق ، وبعث معهم - لأول مرة في الدولة العثمانية - بهدية كسوة الكعبة ، ومن ذلك اليوم تسمى السلاطين الأتراك بـ « خادمي الحرمين الشريفين » ، ومُهِّد لهم طريق المجد ،

وعظمت أقدارهم في أعين الناس ، ونجد أمثلة عديدة في حياة السلطـان سليمان الكبير للتواضع ، والعواطف الدينية العميقة ، فقد انتسخ بيده ثمانية مصـاحف للقرآن الكريم ، لا تزال محفوظة في المكتبة السليمانية ، ويظهر من ديوان شعره أنه مسلم راسخ العقيدة في الإسلام ، وأنه جدد عمارة الكعبة المشرفة بعد أن أخذ فتوى العلامة أبي السعود (م ٩٥٢ هـ) صاحب « تفسير أبي السعود » ، وبنى جداول مخصصة بجصصة في مكة المكرمة ،وأكمل السلطان مراد (م ٩٨٤ هـ) بناء الكعبة المشرفة ـ وهو البناء الذي لا يزال إلى الان ـ هذه بعض مآثر السلاطين العثمانيين في القرن العاشر الهجري .

وكان الناس في الدولة الشيعية بإيران كذلك متدينين ، عقليتهم عقلية دينية ، ويغلب عليهم الطابع الديني ، وكان السلاطين الصفويون يغذون هذه الناحية الدينية ، وينمون هذه العواطف ويتظاهرون بحب آل البيت وإجلالهم ويستغلون ذلك لقوتهم السياسية وإحكام الدولة ، ووقوعهم موضع القبول في الناس ، فقد تجشّم شاه عباس الأول ـ أعظم سلطـان في الدولـة الصفـوية ـ مشقـة السفـر من أصفهـان إلى « المشهـد » (مدفـن علي الرضـا) حوالي ثمانمائـة ميل ، مشياً على الأقـدام ، وحضر النجف ، وقـام بخدمـة الكناسـة لضريح سيدنـا علي ـ كرّم الله وجهه .

ويلغ حب الناس لشاه عباس واعتقادهم فيه ، وغلوهم في إجلاله ، إلى حد الخرافات والسخف العقلي ، وشاعت في النـاس عنـه قصص غريبـة ، وروايات طريفة .

أما سكان تركستان وأفغانستـان ، فإن رسوخهـم في العقيدة وصلابتهـم في التدين ، وتمسكهم بالسنية والمذهب الحنفي ، شيء يضرب به المثل ، فكان الحكام والأمراء والوزراء ، وأصحاب البلاط ـ كل حسب مستـواه في المعيشـة وحالـه من الترف ـ يتفقون معهم ويسايرونهم في كل ذلك .

وكان تأسيس الدولة الإسلامية في الهند على أيدي الحكام من الأسر الأفغانية أو التركية ، فكان ـ لأجل ذلك ـ تأثير الدين عميقاً في قلوب أهل هذه البلاد ، وإن كان هذا التأثير ساذجاً بسيطاً ، شأن العقلية الأفغانية والتركية ، وذوقها الخاص ، وما زال الناس متمسكين بالسنية والمذهب الحنفي ـ باستثناء بعض المدن الساحلية ، ومنطقة مالابار في جنوب الهند ـ وكان المذهب الحنفي هو الذي يطبق في الدولة ، ويتحكم في المحاكم ، وألّفت هنا بعض الكتب المهمة في الفقه الحنفي كـ « الفتاوي التتارخانية » و «فتاوي قاضي خان[1] » .

ويمتاز عدد من السلاطين في تاريخ الهند الإسلامي بحمايتهم الشريعة الإسلامية ، والسنة المطهرة ، وكراهة الكفر والإلحاد ، ومحاربة البدع والمنكرات ، والحمية الدينية والغيرة الإسلامية ، ويكفينا أن نذكر « محمد تغلق » و « فيروز تغلق » في القرن الثامن ، والسلطان سكندر اللودهي في القرن العاشر ، فقد كان التدين ـ حسب ما يروي لنا مؤلفو « طبقات أكبري » و « تاريخ فرشته » و « تاريخ داؤدي » ـ سائداً في عهد السلطان سكندر ، وكان يبدو من تمسك الناس بالدين ، وشدة أخذهم به أنه نفخت في الحياة روح جديدة ، وكان الدين أعز وأحب إلى السلطان من نفسه ، وكان السلطان من أول حياته ـ كما يصفه هؤلاء المؤلفون ـ متحمساً للدين ، يحب المذاكرة العلمية ، وبدأ الهنادك في عهده بدراسة اللغة الفارسية ، وقبلت طائفة «كائسته» الهندكية توجيه السلطان إلى دراسة اللغة الفارسية لغة الديوان ، فدرسوها وتولوا وظائف الكتابة والديوان في المملكة ، ونهى السلطان عن بدعة حمل الأعلام باسم السيد سالار مسعود غازي[2] ، التي كانت تحمل وفاءاً

(١) وهذا قبل تدوين « الفتاوي العالمكيرية » بزمن طويل ، وقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة في العالم الاسلامي ، ويعرف بـ « الفتاوي الهندية » في مصر والشام والعراق .

(٢) هو السيد سالار مسعود الغازي دفين مدينة بهرائچ في الولاية الشمالية الغربية ، وهو من أشهر الأعلام في الهند ، مات شهيداً سنة ٥٨٨ هـ ، بنى على قبره ملوك الهند عمارة سامقة البناء ، والناس يفدون اليه من بلاد شاسعة ويزعمون أنه كان عزباً شاباً لم يتزوج ، فيحتفلون لعرسه ، وينذرون له أعلاماً ينصبونها على قبره .

بالنذر ، واعتقاداً في البركة والنصر ، وكانت عادة سنوية مقدسة ، كما أصدر أوامر مشددة في منع النساء من زيارة الضرائح والمشاهد ، ويقول بعض المؤرخين أنه نهى حمل « الضرائح » المصنوعة من القرطاس والقصب المنسوبة إلى سيدنا الحسين بن علي الشهيد وعبادة « سيتلا » - آلهة الجدري - نهياً قاطعاً[1] ، ويقول مشتاقي : « إنه هدم كثيراً من المشاهد المزورة ، وسوّاها بالأرض ، وأجرى مكانها الأنهار[2] » .

وكان السلطان سليم شاه السوري يؤم الناس في الصلوات في المسجد ، وكان يجتنب المسكرات أشد الاجتناب .

لقد كان هذا العصر عصر رقي التصوف ، وازدهار السلاسل والطرق ، حتى لم تبق بقعة من بقاع العالم الإسلامي خالية من طريقة من طرق الصوفية ، وكانت الطرق حديث المجالس والنوادي ، وكانت « بخارى » و« سمرقند » - المركزان العلميان ، والروحيان ، والمدينتان المعروفتان - في تركستان ، و« بدخشان » وهرات في أفغانستان ، و« طنطا » و« الإسكندرية » في مصر ، و« تعز وصنعاء » في اليمن ، و« شحر » و« تريم » و« سيون » في حضر موت ، مراكز كبيرة للعلماء والصوفية ، ومشائخ الطرق ، وكانت أسرة باعلوي العيدروسية في حضر موت ذات شهرة وقبول في الناس ومعروفة بالفضل والعلم ، وفي هذا العصر كان الشيخ أبو بكر بن عبد الله بن أبي بكر شيخاً ذا مكانة مرموقة يعرف بقطب العالم ، وكانت مدينة « تريم » مركز أشراف آل باعلوي ، ومن مشاهير أولياء هذا العصر الشيخ سعد بن علي السويني بامدحج السعيد ، الذي ذكره الشيخ محيي الدين عبد القادر العيدروسي (٩٧٨ - ١٠٣٧ هـ) في كتابه الشهير « النور السافر في رجال القرن العاشر » ، وختم بترجمته - التي تمتد من صفحة ٤٦٦ إلى ٤٨٠ - الكتاب[3] .

---

(١) تاريخ هندوستان لذكاء الله الدهلوي ج ٢ ص ٣٧٤ .

(٢) انظر « واقعات مبشتاقي » .

(٣) ألف هذا الكتاب في أحمد آباد عام ١٠١٢ هـ

وقد كان للطريقة القادرية ، وللطريقة الجشتية ـ بفرعيها النظامية والصابرية ـ رواج وانتشار ، نبغ فيها شخصيات عديدة معروفة بالعلم والفضل والصلاح والزهادة ، ولكن من الحق أن يقال أن هذا القرن قرن الطريقة الشطارية العشقية ، التي تسلمت زمام القيادة الروحية لهذه البلاد من الطريقة الجشتية ، وسخرت الهند كلها .

أسس الطريقة الشطارية الشيخ عبد الله شطار الخراساني الذي نزل الهند ، في أوائل القرن التاسع بالتقريب ، واستوطن « ماندو » عاصمة الولاية الخليجية في الهند الوسطى ، وتوفي سنة ٨٣٢ هـ ، ودفن داخل القلعة في ماندو ، كانت حياته حياة الأمراء ، يمتاز بالجذب والتأثير ، إنتفع به خلق كثير ، وانتشرت طريقته في الهند بسرعة فائقة ، ولهذه الطريقة فرعان ، ينتمي فرع منهما إلى الشيخ محمد غوث الكوالياري ، وبينه وبين الشيخ الشطاري ثلاث وسائط ، وينتمي الفرع الثاني إلى الشيخ علي بن قوام الجونبوري ، ـ المعروف بشيخ علي عاشقان السرائي ميري[١] ـ بينه وبين الشيخ عبد الله الشطاري واسطتان ، وقد مزجت هذه الطريقة ، لأول مرة ، تعاليم « يوكا[٢] » بالتعاليم الصوفية ، واختارت من الأولى بعض الرياضات والأوراد ، وحبس النفس ، ولقنت هذه التعاليم المريدين والسالكين ، كما ضمت إلى الطريقة « علم السيمياء » ، وقد جاءت تفاصيل هذه الأوراد ، وشروح الرياضات الخاصة في الرسالة الشطارية التي ألفها الشيخ بهاء الدين بن إبراهيم

---

(٢) اقرأ ترجمته الحافلة في « نزهة الخواطر » للعلامة السيد عبد الحي الحسني الجزء الرابع .
(٣) نظام الرياضات الروحية والبدنية في الهند القديمة .

الأنصاري القادري[١]، وتوجد قصيدة للشيخ محمد الشطاري في كتابه « كليد مخازن » ـ مفتاح الخزائن ـ تفيد عقيدة وحدة الوجود ، وعدم التفريق بين المسجد والبيعة ، والمسلم والبرهمي ، وعقيدة ظهور الإله وتجلّيه في هذه المخلوقات كلها ، لأن كل ذلك ناشيء من هذه الوحدة ، وهي ألوانها ومظاهرها المتنوعة ، وجاء في آداب هذه الطريقة وشعرها ما قد يقلل من قيمة العلم الذي هو « الحجاب الأكبر » ، ومن قيمة العبادات ، ومن أهمية الإيمان وضرورته ، ويرفع شأن الحب الإلهي ، والسكر والتفاني فيه ، والتجرد عن كل ما يتصل بالمادة والجسم ، والحياة الدنيا .

وكان أشهر رجال هذه الطريقة الشطارية ، وأكثرها تأثيراً ، الشيخ محمد غوث الكوالياري (م ٩٧٠ هـ) الذي حصل له القبول العام ، وأصبح المرجع للناس ، وكانت تضاهي أبهته وفخفخته أبهة الملوك والأمراء وفخفختهم ، وتوازي دولته الروحية دولة البلاط ، وكان دخل عقاراته تسعمائة ألف عملة فضية[٢] ، وكان له أربعون فيلاً ، وجنود مجندة من الحاشية والخدم ، وكان عندما يخرج في سوق مدينة « آكره » تحتشد الحشود ، ويقف جموع الناس فكان يسلم على كل واحد منهم بانحناء ، حتى إنه لا يستقر جلوسه على السرج ، ولا تعود فقاره ظهره إلى مكانها ، وكان قد استمال الملك أكبر كما جاء في تصريح العلامة عبد القادر البدايوني ـ وأدخله في حلقة مريديه ، ولكن الملك لم يلبث أن خلع من رقبته طوق إرادته وبيعته ، وكان لزهده ـ رغم هذه الأبهة الملوكية والثروة الأميرية ـ صيت ذائع ، يتناقل الناس أخباره ، ويتحدثون به ، وكان عند تسليمه على الناس ينحني كانحناءة الركوع ،

(١) وكان في هذا القرن من الطرق المنتشرة في الهند الطريقة المدارية ، التي أسسها الشيخ بديع الدين المكن بوري (م ٨٤٤ هـ) وكان أساس هذه الطريقة على فكرة « وحدة الوجود » والكشف عن معانيها ومحتوياتها ، والتجريد الظاهري ـ حتى يقتصر على ستر العورة الغليظة ـ والتوكيل الصرف ، وكلما تطاول الزمن مالت هذه الطريقة الى التحلل والانحطاط ، حتى أطلق لفظ « مداري » على التكسب بالألعاب البهلوانية ، وقد فقدت هذه الطريقة في القرن العاشر تأثيرها وقبولها في الخاصة ، ولم نعثر بعد البحث والتنقيب في « نزهة الخواطر » ـ الجزء الرابع ـ الذي أحصى فيه مشائخ كل طريقة احصاءً كاملاً تقريباً ، إلا على رجلين كانا منخرطين في سلك الطريقة المدارية .

(٢) وفي بعض الروايات عشرة ملايين .

ولو كان من يسلم عليه مسلماً أو كافراً ، وكان العلماء ينتقدون ذلك ، ويعترضون عليه ، ومن مؤلفاته « جواهر خمسة » و« معراجية[1] » و« كنز الوحدة » و« بحر الحياة »[2] وكان له تأثير كبير على الهند ، وراجت الطريقة الشطارية[3] وانتشرت ، وكانت ولادة الإمام السرهندي بعد وفاته بعام .

وكان من كبار أصحاب هذه الطريقة ومشايخها الأجلة الشيخ علي بن قوام الجونبوري المعروف بعلي عاشقان السرائي ميري (م ٩٥٥ هـ) ، والشيخ لشكر محمد البرهانبوري (م ٩٩٣ هـ) ، والشيخ الله بخش الكده مكتيسري (م ١٠٠٢ هـ) كانوا مرجع خلق كثير من عباد الله ، وقد ذكر بعض المؤرخين عن الشيخ علي عاشقان السراىء ميري أنه لم تظهر الكرامات العجيبة على يد أحد بعد الشيخ عبد القادر الجيلاني ، مثل ما ظهرت على يديه[4] ، وكان خليفة الشيخ محمد غوث الكواليري ، الشيخ ضياء الله الأكبر آبادي (م ١٠٠٥ هـ) تلميذ العلامة الشيخ وجيه الدين ، سكن في « أكبر آباد » ـ وكانت عاصمة الملك أكبر ـ ٣٥ عاماً ، وحصل له القبول في الناس ، ودُعي إلى بلاط الملك أكبر عدة مرات ، يقول العلامة عبد القادر البدايوني : « سلمت عليه مرة فثقل عليه وساءه ، وشعر بأني أهنته » ، واستهزأ بهذا الشعار الإسلامي والسنة الطيبة ، وقد صوره البدايوني تصويراً سيئاً ، وذكر أخباراً وروايات تدل على استخفافه بالشريعة الإسلامية[5].

---

(١) كان ادعى لنفسه انه عرج به الى السماء مثل معراج الرسول ـ ﷺ ـ وأحدث ذلك فوضى وشغباً في علماء كجرات .

(٢) راجع للتفصيل في تاريخ المشائخ الشطارية ، « نزهة الخواطر » ج ٤ .

(٣) هذا الكتاب ترجمة لكتاب « امرت كند » ، يقول الأستاذ محمد اكرام عنه في كتابه « رود كوثر » : « نقل فيه تفاصيل العادات ، والأعمال ، والأوراد ، التي يشتغل بها العباد الهنادكة ، وأصحاب « اليوك » الى اللغة الفارسية ، وكان تعرض لهذه الأعمال في كتابه الذي ألفه من قبل « جواهر خمسة » تعرضا قليلاً ، وتدل هذه المعلومات على علاقة الطريقة الشطارية بـ « اليوك المندكي » (ص ٣٤ ـ ٣٦) .

(٤) راجع للتفصيل « العاشقية » تأليف عارف علي ؛ و« نزهة الخواطر » ج ٥ .

(٥) راجع للتفصيل « منتخب التواريخ » للعلامة عبد القادر ، و« نزهة الخواطر » ج ٥ .

عدا هؤلاء المشائخ المذكورين ـ أعلاه ـ كان الشيخ عبد الله السنديلوي (٩٢٤ ـ ١٠١٠ هـ) والشيخ عيسى بن قاسم السندي خليفة الشيخ لشكر محمد عارف بالله ـ وكان معاصراً للإمام السرهندي ، ويقاربه في السن ـ من مشاهير مشايخ الطريقة الشطارية العشقية[1] .

وكان هناك مشائخ كبار ـ غير هؤلاء المشائخ المشهورين من السلسلة الشطارية العشقية ـ ينتمون إلى سلاسل وطرق أخرى ، كان منهم الشيخ جائين لده السهنوي[2](م ٩٩٨ هـ) كان يدرس كتاب « الفصوص » و « نقد النصوص » ، وكان الملك أكبر يعتقد فيه ويجله ، وشاهده يوماً يصلي « الصلاة المعكوسة » فإنصرف عنه ، وشيخ آخر يسمى الشيخ عبد الرزاق الجهنجهانوي (٨٨٦ ـ ٩٤٩ هـ) كان من أصحاب الطريقة القادرية الجشتية ، وكان ـ رغم كونه عالماً كبيراً يزاول التدريس والتصنيف ـ يدعو إلى « وحدة الوجود » ، ويتحمس لمذهب الشيخ محيي الدين بن عربي وقد ألف في هذا الموضوع عدة رسائل ، وكان الشيخ عبد العزيز شكر بار (٨٥٨ ـ ٩٧٥ هـ) كذلك يقول « بوحدة الوجود » ، وكان صوفياً يمتاز بالأحوال والمقامات ، وكان يلقي دروساً في « فصوص الحكم » وشروحه ، وهو من أجداد الإمام ولي الله الدهلوي لأمه .

ونبغ في هذا القرن الشيخ عبد القدوس الكنكوهي (م ٩٤٤ هـ) وعلا صيته ، وطنّت حصاته ، ونالت الطريقة الجشتية الصابرية منه حياة جديدة ، وعادت غضة طريقة ، مؤثرة قوية ، وكان يبوح بأسرار « وحدة الوجود » على ملأ من الناس ، يدعو إليها وينادي بها ، وكان الشيخ قطب الدين بينادل (٧٧٦ ـ ٩٢٥ هـ) مرشد الطريقة القلندرية ، والشيخ كمال الدين (م ٩٧١ هـ) في قرية كيتهل ـ بمديرية إنباله ـ من رؤساء الطريقة القادرية ، ومرشديها الكبار ،

---

(١) انظر « نزهة الخواطر » ج ٥ .

(٢) سهنة قرية في مديرية كركانوه ، في بنجاب الشرقية ، يوجد فيها عين حارة مشهورة .

وقد استعادت بهما هاتان الطريقتان رونقهما ورواءهما ، وذكر الإمام السرهندي عن الشيخ كمال المذكور ـ أعلاه ـ نقلاً عن والده الشيخ عبد الأحد ، أنه قال : « عندما ينظر بنظر « الكشف » ، يتبين لنا أنه لم يوجد في السلسلة القادرية العالية بعد شيخ المشائخ الشيخ عبد القادر الجيلاني أفضل ولا أكمل حالاً من الشيخ كمال[1] » .

وكان الشيخ نظام الدين الأميتهوي (٩٠٠ ـ ٩٧٩ هـ) في ولاية « اوده » من كبار رجال السلسلة الجشتية مع الدفاع عن الشريعة الإسلامية والإتباع للسنة النبوية ، وصلاح السيرة ، كان يعتمد على « إحياء العلوم » و « العوارف » و « الرسالة المكية » ، وقع بصره على كتاب « الفصوص » في يد بعض الناس ، فنزعه من يده ، وأعطاه كتاباً آخر للمطالعة والقراءة ، وكان « السماع[2] » عادة متبعة في طريقته ، إلا أنه كان يجتنب ذلك ، ويتحاشاه[3].

هذه هي الأوضاع الروحية والدينية السائدة في العالم الإسلامي ـ آنذاك ـ وهؤلاء هم مشايخ الطرق وأصحاب السلاسل في الهند على اختلاف مسالكهم ومشاربهم ، وتفاوت مراتبهم ودرجاتهم ، الذين كانوا أسسوا في القرن العاشر الهجري ـ في الأماكن المختلفة مراكز تربوية روحية وكان أصحاب العاطفة الدينية العميقة من الطالبين للسلوك والمحبين للزهاد والصالحين من عامة الناس وخاصتهم يتصلون بهم وينتمون إليهم ، ويتمسكون بطريقتهم ، وقد شرحت هذه الأوضاع ، وتناولت هذا التاريخ بشيء من الإفاضة وإطالة النفس ، ليتيسر للقارىء تقدير الجوّ الذي تنفس فيه الإمام السرهندي ، والعهد الذي عاصره ، وذوقه وميوله ، وما كانت من الإمكانيات والصعوبات للعمل الإصلاحي التجديدي العظيم الذي قام به الإمام خير قيام .

---

(١) انظر « زبدة المقامات » ، ص ١٠٨ .

(٢) الغناء تارة بالمزامير ، وتارة بغيرها .

(٣) راجع للتفصيل « نزهة الخواطر » ج ٤ .

الوضع العلمي :

لم يكن القرن العاشر الهجري قرن الابتكار والاختراع في العلوم والفنون والأصالة العلمية ، والنظر الدقيق الـذي يتسـم « بالاجتهـاد » والتـدوين الجـديد للعلوم ، والـزيادات ذات القيمـة العلمية الكبـيرة ، فإن هذه الميزات إنمـا تتجلى بوضوح إلى منتصف القرن الثامن الهجري ، حيث ظهر نوابغ الرجال والعبقريون في فنون كثيرة كشيخ الإسلام الحافظ ابـن تيمية الحرانـي الدمشقـي (م ٧٢٨ هـ) ، وشيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق العيد (م ٧٠٢ هـ) ، والعلامـة علاء الـدين الباجـي (م ٧١٤ هـ) ، والعلامـة الحافـظ جمـال الـدين أبــو الحجـاج المزّي (م ٧٤٢ هـ) ، والعلامة الحافظ شمس الدين الذهبي (م ٧٤٨ هـ) ، والعلامـة أبو حيّان النحوي (م ٧٤٥ هـ) الذين خلفوا لنا في علوم الحديث ، والأصـول ، والكلام ، وأسماء الرجال والعربية آثاراً عظيمة ، ومؤلفات ضخمة ثمينـة ، وكان عصر الحافظ ابن حجر العسقلاني (م ٨٥٢ هـ) إمام العصر في الحديث وصاحب « فتح الباري » الذي وصفه بعض الناس بقولهم « لا هجرة بعد الفتح » كذلك ولىّ من غير رجعة .

فكان القرن العاشر الهجري قرن الجمع والترتيب ، والتسـهيل والتلخيص لكتب المتقدمين ، وإن كان يتجمل رأس هذا القرن بوجود أمثال العلامـة شمس الـدين السخـاوي (م ٩٠٢ هـ) ، والعلامـة الحافـظ جلال الــدين السيوطــي (م ٩١١ هـ) من بحور العلم الزاخرة ، وكبار المؤلفين في تاريخ الإسلام ، يقول بعض العلماء عن الحافظ السخاوي : إنه لـم ينجب التاريخ مثله في علم الحديث وفن الرجال والتـاريخ بعـد الإمـام الحافـظ الذهبـي ، وآذن علـم الحـديث بعـده بالانحطاط والتدهور ، ويعدّ كتابه « فتح المغيث بشرح ألفية الحديث » في أصول الحديث ومصطلحه ، و « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » في التاريخ والرجال ، من الكتب التي لا يوجد لها نظير ، والعلامة السيوطي غني عن التعريف ، فإنه من نبغاء الرجال المؤلفين ، ومشاهيرهم في تاريخ الإسلام ، وتقوم بعض مؤلفاته مقـام

الموسعات العلمية في مواضيعها ، ولا يزال اسمه حياً خالداً في الأوساط العلمية بتأليفه النصف الأول من تفسير الجلالين ، وبقي مقرراً ـ إلى يومنا هذا ـ في المناهج الدراسية في شبه القارة الهندية وبعض البلاد الإسلامية .

يمتاز هذا القرن بازدهار علوم الحديث والرجال في مصر والشام والعراق ، وبازدهار العلوم العقلية ـ المنطق والفلسفة ـ في إيران ، وازدهار الفقه الحنفي في الهند ، وتركستان ، وكانت هذه العلوم المختلفة في البلدان المشار إليها ـ آنفاً ـ مقياس الفضل والنبوغ والكمال ، فكانت مصر تزدان بالعلامة أحمد بن محمد القسطلاني مؤلف « إرشاد الساري » شرح صحيح البخاري (م ٩٢٣ هـ) ، وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري (م ٩٢٥ هـ) وكان زينة تركيا العلامة أبو السعود صاحب التفسير (م ٩٥٢ هـ) ، وكان في الحجاز العلامة ابن حجر المكي الهيثمي (م ٩٧٤ هـ) مؤلف « الصواعق المحرقة » وكتب أخرى كثيرة ، والعلامة علاء الدين علي المتقي البرهانفوري المكي مؤلف « كنز العمال » (م ٩٧٥ هـ) ، وكان رواد العلم يردون مناهل علمهم فيروونهم ، وطبقت علومهم الآفاق وعمت إفادتهم الخلائق ، وكان العلامة نور الدين علي بن سلطان محمد الهروي المعروف بملا علي القاري ـ العالم الحنفي المحقق الذي لتسمت كتبه بالإنصاف العلمي ـ رغم أنه ولد في « هرات » من أفغانستان إلاّ أنه بتدبّره بمكة المكرمة نشر علمه في منتجعي العلم والمعرفة من أطراف العالم الإسلامي ، وهو ـ وإن كانت وفاته في أوائل القرن الحادي عشر عام ١٠١٤ هـ ـ إلاّ أن عهد خدماته العلمية والتأليفية هو القرن العاشر ، وتوفي في أواخر هذا القرن العلامة الأديب والمؤرخ الكبير الشيخ قطب الدين النهروالي[1] ، صاحب « الإعلام في أخبار بيت الله الحرام » سنة ٩٩٠ هـ ، الذي يرجع في أصله إلى أرض الهند ، وخضع لعلمه وفضله سلاطين تركيا ، وأمراء الحجاز ، وأكرموه وبجّلوه .

---

(١) « نهر واله » في الأصل معرب « انهلواره » وهو اسم مدينة في ولاية كجرات قديماً ، فتحها السلطان محمود الغزنوي عام ٤١٦ هـ ، وتسمى الآن بـ « بتن » ، واليها ينسب العلامة محمد طاهر الفتني مؤلف « مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار » (م ٩٨٦ هـ) .

وكانت إيران تزهو وتفتخر بالعلامة جلال الدين الدوّاني (م ٩١٨ هـ) والعلامة عماد بن محمود الطارمي (م ٩٤١ هـ) والعلامة غياث الدين منصور (م ٩٤٨ هـ) الذين أفاضوا العلوم ، وكانت تتفجر منهم ينابيع العلوم الحكمية وقد وصلت أمواج علومهم الزاخرة إلى الهند ، وأوغلت فيها ، وكان من بين كبار علماء هذا العصر الشيخ محمد بن الشيخ أبي الحسن الصديقي الشافعي الأشعري المصري ، الذي يذكر في كتب الرجال « بالأستاذ الأعظم » و « قطب العارفين » كان فريد عصره في بيان دقائق المعاني ، ولطائف الأسرار ونسيج وحده في بيان نظم القرآن والتفسير ، والحديث والفقه ، كان يدرس في الجامع الأزهر ، ويتهافت عليه طلاب العلم تهافت الفراش على النور ، وكان يجمع إلى هذا العلم الغزير صلاح الباطن ، وتقوى السر ، وشياخة الطريق ، وذوق الشعر والأدب[1]، توفي عام ٩٩٣ هـ ، وكذلك المحدث الهندي الشهير الشيخ رحمه الله بن عبد الله السندي الحنفي (م ٩٩٤ هـ) الذي بقي في ربوع الحجاز يوزع تراث الحديث النبوي الشريف ، وأثبت براعته في فن الحديث وعبقريته فيه ، وكان ملك العلماء العلامة وجيه الدين بن نصر الله الكجراتي ـ الذي استمر يدرس طوال نصف قرن من الزمن في العلوم النقلية والعقلية وبقي تلامذته يملأون الدنيا علماً وبحثاً ، ويدرسون ويفيدون أكثر من قرن ـ بركة النصف الأخير من هذا القرن ، وتوفي في أواخر هذا القرن عام ٩٩٨ هـ ، وكانت بلاد اليمن الميمونة ـ إذ ذاك ـ مركزاً لرواية الحديث ، والاعتناء بالأسانيد ، وكان محدث اليمن الشيخ طاه بن حسين ابن عبد الرحمن الأهدل يزين كرسي التدريس للحديث ، وتوفي هو أيضاً في العام نفسه ٩٩٨ هـ[2] .

بدأت في هذا العصر رحلات العلماء الأفاضل الذين تتلمذوا على العلامة جلال الدين الدواني ، والعلامة عماد الدين محمود الطارمي والشيخ مير غياث الدين

---

(١) راجع للتفصيل «النور السافر»ص ٤١٤ ـ ٤٣٩ .

(٢) راجع للوقوف على فضائله وسجاياه الطيبة « البدر الطالع » العلامة محمد بن علي الشوكاني .

منصور من إيران إلى الهند ، وجاء في عهد الملك همايون بن بابر التيموري ، الشيخ زين الدين محمود كمان كربهدائي - تلميذ مولانا عبد الرحمن الجامي ، ومولانا عبد الغفور اللاري - إلى الهند ، واستقبله الملك بحفاوة بالغة ، وأكرم مثواه وعظمه ، وتوجه في عهد الملك أكبر الحكيم أبو الفتح الكيلاني ، والطبيب همايون (المعروف بحكيم همام) ونور الدين قراري ، الأخوة الثلاثة إلى الهند ، وحازوا ثقة الملك والحظوة لديه ، ثم جاء بعد فترة العلامة محمد اليزدي من إيران ، ونزل الأمير فتح الله الشيرازي - وقد مر في طريقه ببيجابور ، ومكث فيها مدة يسيرة - ببلاط الملك أكبر ، وكان تلميذ الشيخ غياث الدين منصور ، وتولى منصب الرئاسة للعلماء سنة ٩٩٣ هـ ، وهو الذي جلب مؤلفات علماء إيران ، وترك آثاراً بعيدة المدى على المناهج الدراسية ، وأسلوب التدريس في الهند ، حتى كانت نتيجة هذا التأثير أخيراً المنهج الدراسي النظامي[١] ، الذي لا يزال هو المنهج المقرر ، والسائد على الأوساط العلمية والتدريسية ، ويسيطر عليها[٢] .

ونقف في هذا العصر على أسماء لعدد وجيه من العلماء والأدباء المنسوبين إلى « نيسابور » و « استر آباد » و « جرجاني » و « مازندران » و « كيلان » كانوا في الهند ، ولا سيما في جنوب الهند ، وكان لهم تأثير على الأمراء ، ومكانة محترمة في البلاط[٣] .

ولم تكن أفغانستان رغم روح الجندية والعسكرية ، وحمل السيف والسنان ، أقل شأناً في العلم ، والتدريس ، والتعمير في المسائل العلمية ، فكان القاضي محمد

(١) هذا هو المنهج المقبول المقرر للدراسة ، والمقياس للتحصيل والكمال في شبه القارة الهندية ، وأفغانستان وتركستان اخيراً ، وينسب الى العلامة نظام الدين بن قطب الدين اللكنوي (م ١١٦١ هـ) الذي تناوله بالتهذيب والاكمال ، ولا يزال مطبقاً تطبيقاً حرفياً في مدارس الهند القديمة على غرار الأزهر القديم .

(٢) راجع للتفصيل « الثقافة الاسلامية في الهند » (طبع المجمع العلمي بدمشق) للعلامة عبد الحي الحسني ، ومقالاً له بعنوان « المنهج الدراسي في الهند » .

(٣) راجع للتفصيل « نزهة الخواطر » ج ٤ .

أسلم الهروي ، (الذي توفي في الهند سنة ١٠٦١ هـ) ولد في هرات ، وأخذ العلم عن الشيخ محمد فاضل البدخشاني ، في أفغانستان وكان الشيخ محمد صادق الحلوائي كذلك من جلّة علماء عصره ، وكانت « هرات » لوقوعها على تخوم إيران مركزاً للعلوم العقلية ، وقد اشتهر من أبنائها القاضي محمد أسلم الهروي ، ونجله النابغة المعروف بالشيخ محمد زاهد - الذي يعرف في أوساط المدارس الدينية في الهند بـ « ميرزاهد » - في العلوم العقلية ، وطبّق صيتهما الآفاق ، وكان لشروح الشيخ محمد زاهد ، التي تعرف بالزواهد الثلاثة صولة وقبول عند العلماء وأساتذة الفن ، ويعتنون بها اعتناءاً كبيراً ، ويقيسون بمعرفتها العلم والنبوغ .

ولم يقتصر تتلمذ أبناء الهند ، واستفادتهم العلمية على علماء إيران ، وأفغانستان ، وأساتذتها البارعين ، بل استفادوا من علماء مصر والحجاز ، واليمن ، ومحدثيها النابغين ، فكان الشيخ راجح بن داؤد الكجراتي (م ٩٠٤ هـ) من تلامذة العلامة السخاوي ، أخذ عنه الحديث ، وأرشده العلامة السخاوي إلى رأي الشيخ العلاء البخاري الحنفي في ابن عربي ، وموقفه منه ، ليحمل هذا الرأي إلى علماء الهند ومشايخها ، ويعلمهم بذلك ، حتى يصححوا موقفهم منه ، ويزول اعتقادهم فيه[1] ، وقد ذكر العلامة السخاوي ترجمة تلميذه الهندي في كتابه « الضوء اللامع » واعترف بفضله ونبوغه العلمي ، وكان الشيخ علي بن حسام الدين المتقي - إمام فن الحديث في عصره - ومؤلف « كنز العمال » - الذي قيل عنه : « إن للسيوطي منة على الدنيا ، وإن لعلي المتقي منة على السيوطي » - كان من التلامذة النجباء لأبي الحسن الشافعي البكري ، مدرس الحرم المكي ، والعلامة شهاب الدين أحمد بن حجر المكي ، مفتي مكة المكرمة ، ومحدثها في عصره .

ظهر لنا مما تقدم أن الهند - رغم إحاطة البحر والجبال الشاهقة بها حيث لم تبق طريق للعلاقة بينها وبين العالم الخارجي ، إلا ممرّ بولان في بلوجستان وممرّ خيبر في

(١) راجع « نزهة الخواطر » ج ٤ .

الحدود الغربية الشمالية ـ لم تكن بمعزل في الحياة العلمية والثقافية عن البلاد الأخرى ، بل كانت تأخذ وتعطي ، وتستفيد وتفيد وإن كانت استفادتها أكثر من إفادتها ، ودائرة استيرادها أوسع من دائرة تصديرها ، وكان ذلك أمراً طبيعياً ، لأن الدين والعلم لا يصلا إلى الهند إلا عن طريق إيران وتركستان .

الاضطراب في الأفكار ، والفوضى في العقائد :

إن الدراسة العلمية والدينية ، والسياسية للقرن العاشر تبقى غير مستكملة إذا لم نتعرض لذلك الاضطراب الفكري ، والفوضى في العقائد ، التي نلمس آثارها في الهند ، وفي ما يجاورها من البلدان في العصر الذي نؤرخه حتى تتضح ملامح هذا القرن ، والأوضاع السائدة فيه ، وحتى لا يقع القارىء في الخطأ ، ويظن أن بحر الحياة الزاخر ـ الذي كان يمتد ويفيض على آلاف الأميال ـ كان في هدوء تام ، وكان من السهل تجذيف سفينة التعليم والتربية ، والتزكية ، والاصلاح والتجديد فيه ، وأنه لم يكن هناك داع للإشفاق من طغيان هذا البحر ، أو تورط السفينة في لجته ، إذا كان هذا التصور صحيحاً لكان هذا العصر أحق بأن يختار له عنوان « التعليم والتربية » و« النشر والتوزيع » بدل من أن يكون له عنوان « الإصلاح والتجديد » ولقد تضافرت عوامل كثيرة من أهمها بُعد الهند عن مركز الإسلام الديني والثقافي ، ـ بلاد الحجاز ومصر والشام والعراق ـ ووصول الإسلام إلى الهند بعد تعريجه على تركستان وإيران ، وقلة شيوع اللغة العربية فيها ، وعدم الاعتناء بنشر علم الحديث ـ الذي لا يزال يبث روح الدين الصحيح ، ويميز السنة عن البدعة ، ويقوي الشعور بضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويوجد ملكة الاحتساب الديني الصحيح ـ ومنها صعوبة السفر للحج ، والرحلة في طلب العلم إلى البلدان الأخرى ، وبقاء أقلية المسلمين مغمورة في أكثرية غير المسلمين ـ الذين كانوا متشبثين بعقائدهم ، متمسكين بتقاليدهم وعاداتهم غير الإسلامية ، وغارقين في الخرافات والأوهام ، وتضافرت هذه العوامل كلها على تحويل المسلمين مرتعاً

خصبا ، للدعوات المضطربة ، والفرق الضالة ، والمحترفين بالدين الذين خرجوا يمثلون دورهم ويجربون حظهم في إضلال المسلمين .

وكان في مقدمة هذه الدعوات الهدامة ذلك التشيّع المتطرف المهاجم الذي نشأ وترعرع بتأثير الايرانيين في بعض مناطق الهند الجنوبية ، وفي كشمير ، فقد اعتنق برهان نظام شاه ـ أمير ولاية أحمد نكر ـ في أواسط القرن العاشر ، المذهب الشيعي بتأثير الشيخ طاهر بن رضى الاسماعيلي القزويني ـ الذي فرّ من إيران خوفاً من الشاه اسماعيل الصفوي إلى أحمد نكر ، وسكن هنا ـ وغلا برهان نظام شاه في مذهبه الجديد ، وتطرف ، حتى أمر الناس بسبّ الخلفاء الراشدين الثلاثة ـ علناً وجهراً ـ في المساجد والرباطات ، وعلى الشوارع ، وفي الأسواق ، وعين رواتب ضخمة مغرية لمن يقومون بهذه « الخدمة » ، وقتل كثيراً من أهل السنة والجماعة ، وأسر كثيراً منهم[1] وانتشر المذهب الشيعي في كشمير بجهود مير شمس الدين العراقي ، الذي بذل مساعي كبيرة في نشر هذا المذهب ، وتحمس للدعوة إليه ، ويقال إنه أدخل ٣٤ الفاً من الهنادك في المذهب الشيعي كما يذكر أيضاً أنه اخترع ديناً جديداً سماه « نور بخشي » ، وألّف كتاباً في الفقه ، يخالف فقه أهل السنة وفقه الإمامية كذلك ، ويقولون إن فرقة جديدة نشأت في كشمير كانت تعتقد أن السيد محمد نور بخش « مهدي موعود »[2] .

ولما توجه الملك همايون عام ٩٥٠ هـ إلى إيران لطلب المساعدة العسكرية ، وكسب تأييد المملكة الايرانية ، كان شاه طهماسب يتولى الحكم فيها فعرض على الملك همايون مذهب الشيعة ، وراوده إلى أن يعتنق هذا المذهب فقال همايون : أرى أن تكتبوا لي جميع عقائد الشيعة ، فلما كتبوا له ، قرأها همايون بنية

---

(١) راجع للتفصيل « تاريخ فرشته » تأليف محمد قاسم البيجابوري (وكان محمد قاسم هذا من الفرقة الإمامية » .

(٢) راجع « تاريخ فرشته » لمحمد قاسم البيجابوري .

الإسماع[1]، ولا توجد لدينا وثيقة صحيحة تثبت اعتناق همايون للتشيع ، ولكن لا يستبعد - بعد إقامته في إيران ، وضيافة شاه إيران له بسخاء وأريحية ، وإكرام وفادته ، وإيواء هذا الغريب ، والمساعدة العسكرية السخية ، وما أنتج كل ذلك من عواطف تقدير وشكر - أن يكون قلبه قد مال إلى المذهب الإمامي ، الذي لم يكن مذهب سلفه التيموريين ، وكانوا متمسكين بالعقيدة السنية والمذهب الحنفي ، وكان بعضهم له ارتباط وثيق بالمشايخ النقشبندية ، فما كان لأفراد أسرته ورجال بلاطه ، أن يقبلوه ، أو يفسحوا له صدورهم ، وصحب الملك همايون إلى الهند ، أمراء قزلباش لمساعدته ، وكان الملك همايون في نفسه طيب القلب ، سليم الصدر ، متخلقاً بأخلاق كريمة ، وثقافة واسعة ، يحافظ على الوضوء ، وكان لا يسمي الرسول - ﷺ - إلاّ على طهارة تأدبا معه ، وتعظيماً لحرمته ، وكان نازلاً من درج مكتبته يوماً من الأيام إذ سمع الأذان ، فجلس تأدُّبا ، فزلّت قدمه وسقط ، ثم توفي في ١٥ ربيع الأول عام ٩٦٣ هـ .

وكان من خاصة أصحابه وأمراء البلاط ، وأركان دولته بيرم خانخانان الذي كان متفنّناً في الفضائل العلمية والعملية ، وكان من خيار القادة العسكريين والأمراء النابغين ، يمتاز برقة القلب ، والمحافظة على الجمعة والجماعة ، يكرم العلماء والمشايخ ويحترمهم ، ولكنه يعتقد تفضيل علي - رضي الله عنه - على غيره من الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم - ، وله بيت معروف ، يقول فيه :

« إن الملك الكبير الذي يبلغ علمه عنان السماء ، إذا لم يكن من خدم عليٍّ فقد تربت يمينه ، ورغم أنفه » .

وكان لمير شريف الآملي اليد الطولى في العلوم العقلية ، نزل الهند في عهد الملك الأكبر ، فاستقبله أكبر بحفاوة بالغة ، وعظم شأنه ، وولاه رئاسة كابل عام ٩٩٣ هـ ، ثم رئاسة بنكالة عام ٩٩٩ هـ ، وأقطعه الأراضي في « أجمير »

---

(١) انظر « منتخب التواريخ » ج ١ ، ص ٤٤٥ .

و « موهان » ، يقول خافي خان مؤلف « مآثر الأمراء » :

« إنه كان ملحداً زنديقاً ، خلط التصوف بالفلسفة ، وكان يقول بـ « العينية » .

وكانت ـ إذ ذاك ـ في الهند حركتان هدامتان تشكلان الخطر على الإسلام ، وتثيران الفوضى والاضطراب في العقائد والأفكار ، إحداهما حركة ذكرى » التي كانت مؤسسة على عقيدة انتهاء نبوة محمد ﷺ عند انتهاء الألف الأول من الهجرة، وبداية نبوة جديدة ، ودعوة جديدة لبداية الألف الثاني ، نشأت هذه الحركة في بلوجستان ، ونمت وقويت ، وقد ظهر ملا محمد الذي تزعم هذه الفرقة في قرية « أتك » عام ٩٧٧ هـ ، يقول مؤلف كتاب « من هم ذكرى » ؟ ، الذي هو الكتاب المعتمد عند هذه الفرقة والحركة ـ عن مؤسسها ملاً محمد :

« ظهر (ملا محمد) ليلة الاثنين عند السحر ، نازلاً من بلد « قطب » إلى الأرض بالصورة الإنسانية ، وفي كسوة أهل الفقر والزهد ، في منطقة اتكا الجبلية ، بوضع قدمه المباركتين على جبل عال عام ٩٧٧ هـ[1] .

ويعتبر اتباع حركة« ذكرى » أن مؤسسها ملا محمد ، أفضل الرسل ، وخاتم النبيين ، نور الأولين والآخرين ، جاء في « موسى نامه » النسخة الخطية :

« قال الله تعالى : يا موسى لم أخلق نبياً بعد المهدي ، وهذا هو نور الأولين والآخرين ، الذي سأخلقه بعد »[2] .

وقد وردت في كتب هذه الفرقة مثل « معراج نامه » و« ثناء مهدي » و « سفرنامه » « مهدي » و « ذكر إلهي » وغيرها من الكتب عبارات صريحة تدل على العقائد المتطرفة ، في تنزيه ملا محمد مؤسس هذه الفرقة وتقديسه ، وترجيحه على

(١) انظر كتاب « من هم ذكرى ؟ » ص ١٣ .
(٢) المصدر السابق ص ١١٨ .

جميع الأنبياء والمرسلين ، وتفضيله على خاتم النبيين محمد ﷺ ، وتتجلى فيها نماذج غريبة للكذب والافتراء والتدجيل ، والتلبيس الباطل والجرأة الوقحة على الله ورسوله ، وكانوا ابتدعوا كلمة جديدة إزاء كلمة التوحيد ، وهي « لا إله إلا الله نور باك محمد مهدي رسول الله » ، وكانوا يضحكون على المصلين ، ويستهزئون بهم ويكفرونهم[1] ، ويكفرون القائمين بالصوم والزكاة والحج من المسلمين ، ويرون حج جبل « مراد » واجباً بدل حج بيت الله[2] ، يقول مؤلف « تاريخ خوانين بلوج » إن هذه الديانة « الذكرية » المعارضة للإسلام كانت سائدة في بعض مناطق بلوجستان ، وكان أتباع هذه الديانة يرون قتل المسلمين بجناية إقامتهم للصلوات المكتوبة ومحافظتهم عليها ، فقام الأمير مير نصير خان حاكم بلوجستان بتنفيذ الشريعة الإسلامية وقتال « الذكريين » ومكافحة بدعهم وشركهم وعداوتهم للإسلام ، حتى وقعت معارك دامية حاسمة استؤصلت على أثرها شوكة هؤلاء المارقين وقضي على بدعهم وخرافاتهم »[3] .

والفرقة الثانية المشبوهة في الهند كانت « الفرقة الروشنائية » ، وأن ما قامت به هذه الفرقة من مساندة قوة العنصر الأفغاني السياسي والعسكري الذي آل إلى الانقراض ، ومقاومة السيطرة المغولية التي كانت تمتد شرقاً وغرباً ، وما قامت به في هذا الصدد من دور كبير[4] ، يجعل كتابات المؤلفين في هذا العصر وتصريحاتهم ، في

---

(١) انظر « اعتقاد نامه » (النسخة الخطية) .

(٢) راجع مؤلفات أصحاب الفرقة الذكرية « ذكر توحيد » (مطبوع) و« انا ذكرى » و« تفسير ذكر الله » (مطبوع) ، الكتب المذكورة أعلاه ، وراجع (Baluchistan District Gazettier) التي جاءت فيه تصريحات أن عقائد الفرقة الذكرية تختلف عن عقائد اهل السنة اختلافاً جذرياً (ص ١١٦ من المطبوعة) .

(٣) انظر « تاريخ بلوج » ، استفدت في موضوع الفرقة الذكرية من مقال نشر في مجلة « الحق » الصادرة من « أكوره ختك » مجلد ١٩٧٩ م ، كتبه الشيخ عبد الحق رئيس المعلمين بدار العلوم تربت بلوجستان ، وراجع أيضاً مقالاً بعنوان « دراسة تفصيلية للديانة الذكرية » « مجلة الحق » عدد شهر يناير ١٩٨٠ .

(٤) من الممكن - بالنظر الى ما كان للتصوف من تأثير وقبول عام في ذلك العصر - ان يكون بعض الطامحين البعيدي النظر يريدون من وراء هذه الحركة جمع شمل الافغان ، وتوحيد كلمتهم تحت راية حركة دينية ، لمحاربة الدولة المغولية الفتية ، واستعادة سلطة الأفغان الذاهبة ، واقامة دولتهم من جديد .

حاجة إلى التأمل الكثير ، والتحقيق الدقيق ، ليعلم إلى أي حد عملت فيه المصالح السياسية ، وما هي حقيقتها التاريخية الصحيحة ؟ ، فإنه يوجد هناك تعارض واسع المدى في تصريحات أتباع هذه الفرقة وحماتها ، وتصريحات مخالفيها وأعدائها ، فيسمي أتباعها مؤسس الفرقة بـ « بير روشن » (أي الشيخ المنور) ، ويسميه المعارضون بـ « بيرتاريك » (اي الشيخ المظلم) ، وكان مؤسس هذه الفرقة « بايزيد الأنصاري » ، وكان يقال له « بير روشان » (اوروشن) .

ولد بايزيد بن عبد الله عام ٩٣١ هـ في « جالندهر » قبل تولي الملك بابر بسنة واحدة ، ولقد قضى طفولته ويفاعته في صراع قائم في أسرته ، وفي عدم اهتمام بشأنه وقلة مبالاة به ، فشبّ ولم يكمل دراسته ، واتفق أنه في بعض أسفاره التقى - كما تقول بعض الروايات - بسليمان الاسماعيلي ، ويذكر أيضاً أنه صحب « اليوكيين »[١] ، ويقول المترجمون له : إنه بدأ من ذلك الحين يرى رؤى ، ويسمع أصواتاً تناديه من وراء الغيب ، فاشتغل بالذكر الخفي ، ثم استغرق في ورد « الاسم الأعظم » ، فلما بلغ الحادية والأربعين من عمره ، هتف به هاتف من السماء أنه لم يعد في حاجة إلى الطهارة الشرعية ، وينبغي له أن يصلي صلاة الأنبياء[٢] ، بدل صلاة المسلمين ، ثم جعل يعتقد أن الناس كلهم منافقون ومشركون ، وانصرف إلى « الرياضة الأربعينية » ، ثم أمر بأن يصدع بدعوته ، ويبلغ دينه ، واهتم بدعوى المهدية ، والإلهامات الربانية[٣] وظل مريدوه يزدادون كل يوم، وعين بعضاً منهم خلفاء ليقوموا بالدعوة والتبليغ ، ويوسعوا نطاق حركته .

ولكن تعاليمه التي وردت في كتابه « صراط التوحيد » يظهر عليها أثر التعاليم

---

(١) أصحاب الرياضات من البراهمة ، والنساك منهم .

(٢) وقد صرح الشيخ بايزيد نفسه في كتابه « مقصود المؤمنين » : « ان الشريعة مثل لحاء الشجرة وانه لا حياة للشجرة بدون لحاء » (ص ٤٤٤) النسخة الخطية ، مكتبة جامعة بنجاب .

(٣) وقد رد الشيخ بايزيد نفسه على هذا الاتهام بأنه « مهدي » كما جاء في المناقشة التي جرت بينه وبين قاضي خان الكابلي (انظر النسخة الخطية بجامعة بنجاب) .

الصوفية الغالية ، والاعتداد بالنفس المتطرف الذي ينشأ عند أصحاب الرياضات والمجاهدات الذين لا يرجعون فيها إلى مرشد روحي خبير ، ولا يحملون العلم الصحيح من كتاب الله ـ تعالى ـ وسنة رسوله ـ ﷺ ـ كما ذكر فيها شيئاً من عقائده وأصوله ، ولعلها عنده أصول الحرب وقواعدها حسب مستوى تلك الفترة التي كان يحارب فيها المغول ، والقبائل الأفغانية المعارضة .

وبايعته عدة قبائل أفغانية بمنطقة بشاور ، ودخلت في دائرة مريديه وأتباعه ، وبدأت قبيلة « مهمندزئي » بنشر هذه الدعوة ، وتأثر بذلك السنديون والبلوجيون ، وكتب له النجاح الكبير رغم معارضة العلماء ومشايخ الطرق ، وبعث الشيخ بايزيد دعاته إلى حكام البلدان المجاورة ، وأمرائها وعلمائها فجاء حاكم من هؤلاء الحكام إلى بلاط الملك أكبر ، وقضى عامين وشطر عام من أيام حياته الأخيرة في حرب مع المغول ، وأدركه الأجل عام ٩٨٠ هـ بمنطقة « كالاباني » ، ودفن في « هشت نكر » ، وبقيت من مؤلفاته ثلاثة كتب ، وهي « خير البيان » و « مقصود المؤمنين » و « صراط التوحيد » ، التي تناول فيها أصول فرقته وعقائدها بالإيضاح والتفصيل ، ويعتبر « خير البيان » و « مقصود المؤمنين » كتابين شبه مقدسين عند أتباع هذه الفرقة ، وكان أكبر معارضيه أخوند درويزه ، الذي كان مريداً للسيد علي الترمذي المعروف بـ « بير بابا » (م ٩٩١ هـ) ، وألف في الرد عليه كتاب « مخزن الإسلام » ، وألف الشيخ بايزيد ترجمة حياته باسم « حال نامه بير دستكير » (بالفارسية) ورتبه علي محمد مخلص مع زيادات وإضافات ترتيباً جديداً .

وتفرق أتباع هذه الفرقة بسبب الحروب الداخلية والخارجية الطاحنة ومعارضة العلماء الشديدة في مختلف أنحاء الهند ، وما زال ينقص عدد المعتنقين لها حتى انقرضوا ، وانقرضت هذه الفرقة[1] .

---

(١) استفدت هذه المعلومات من مقال للمرحوم البروفيسور محمد شفيع تضمنته دائرة المعارف الاسلامية (باللغة الأردية) ج ٤ .

يتحدث مرزا نصر الله خان فدائي مؤلف « داستان تركتازان هند » (قصة غزاة الهند) عن هذه الفرقة ، فيقول .

« إن الفرقة الروشنائية هي تلك الفرقة التي أسسها « بايزيد » أحد أبناء الهند ، أنه دخل في الأفغان وادعى النبوة ، وتسمى بـ « النبي الروشنائي » وكسب أتباعاً وأنصاراً ، فرفضوا الصحف السماوية ونبذوا عبادة الله ، وتفيد أقواله أنه كان يقول بوحدة الوجود[1] ، ويعتقد أنه ليس هناك إلاّ « واجب الوجود » وكان يمجد الرسول العربي -ﷺ- وكان يبشر الناس بقرب اليوم الذي تخضع فيه الدنيا كلها لحكمه ، يتصرف فيها كما يشاء » .

« ويستفاد من كتاب بايزيد في ترجمة حياته أنه كان مخاطباً بالإلهامات ، وأن جبريل كان ينزل عليه ، وأن الله شرفه بالنبوة ، وكان هو نفسه يعتقد فيه النبوة ، وكان يصلي إلا أنه لم يكن يرى للتوجه إلى القبلة لزوماً ، وكان يستدل على مسلكه هذا بقوله ـ تعالى ـ فأينما تولوا فثم وجه الله » ، ولم يكن يرى الغسل بالماء واجباً ، وكان يعتقد جواز قتل معارضيه[2] » .

وذكر مرزا نصر الله شيئاً من أقواله التي يغلب عليها طابع التصوف . والمعاني الروحية ، إلاّ أنه يتجاوز إلى آراء غير إسلامية ، وأفكار غير سليمة ، يقول :

« كان أهم ما يعتني به ويحث عليه ، معرفة الله ومعرفة الذات ، فإذا وجد هندوكياً ، يعرف نفسه ، يرجحه على المسلم الذي لا يعرف نفسه ، ويأخذ الجزية من المسلمين ، وكان يضع الخمس في بيت المال عنده ، ويوزع منه على الفقراء والمساكين ، وكان جميع أبنائه يجتنبون الفسق والفجور ، والظلم والعدوان ، له مؤلفات عديدة في العربية والفارسية ، والهندية والبشتوية ، وله كتاب « خير

(١) ولم يكن ذلك بدعا في ذلك العصر ، فقد كان اكثر الصوفية والمشايخ (لا سيا في الهند) يبالغون في هذه العقيدة (المؤلف) . .

انظر « داستان تركتازان هند » ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ .

البيان » ، الذي ألفه في أربع لغات ، وهو ـ كما يعتقدون ـ كلام الله المباشر إليه ، والصحيفة السماوية ، المنزلة عليه»(1).

وتدل كتب التاريخ التي ألفت في عصره ، أن الشيخ بايزيد كان قد جمع حوله عدداً كبيراً من الأفغان ، وكون منهم قوة مهابة ، واستولى على ممرخيبر بعد أن جعل مقرّه في « كوه سليمان» وكان يقوم بالغارات على القرى المجاورة ، فأنفذ الملك أكبر جيشاً لمقاومته ، وكسر شوكته ، ولكن لم يستطع هذا الجيش التغلب عليه واستئصال شأفة هذه الحركة ، واستمر أبناء بايزيد وخلفاؤه بعد وفاته ، على معارضة الحكومة المغولية ،وخطراً دائماً لهذه الدولة ، ولم يستطع كبار قواد الدولة المغولية ، كراجه مان سنكه ، وبيربل ، وزين خان أن ينتصروا عليهم ، بل إن « بيربل » لقي حتفه في معركة من المعارك معهم ، وباء مان سنكه كذلك بالفشل والخذلان عام ٩٩٥ هـ ، في كرة على الروشنائيين ولم يُقض على هذه الفتنة إلاّ في عهد الملك شاه جهان عام ١٠٥٨هـ(2).

المهدوية :

وكان من أنشط الحركات المتطرفة وأقواها في ذلك العصر ، حركة المهدوية ، التي هزت المجتمع الإسلامي في شبه القارة الهندية ، وما جاورها من البلاد هزاً لم يعرفه تاريخ الحركات والدعوات منذ زمن بعيد ، منشئها السيد محمد بن يوسف الجونبوري الذي ولد عام ٨٧٤ هـ ، وتوفي في أوائل القرن العاشر عام ٩١٠ هـ ، إلا أن حركته القوية خلفت آثاراً تمتد إلى أواخر القرن العاشر ، ونستنتج مما كتبه المؤرخون المعاصرون لهذه الحركة من معارضين وموافقين ما يلي :

١ ـ كان السيد محمد الجونوري من نوابغ الرجال خلقاً وديناً ، وتأثيراً روحياً قوياً ، لا تنجب أمثالهم الدنيا ، إلا بعد قرون وعهود طويلة ، كان شجاعاً جريئاً

---

(١) نقلاً عن « حال نامه بايزيد » المندرج في « ديستان مذاهب » للملا حسن خاني ، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٩ .

(٢) ملخص من كتاب « داستان تركتازان هند » .

منذ ريعان شبابه قلقاً على أوضاع عصره ، وظروفه ، صادعاً بالحق ، جاهراً بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، زاجراً عن المناهي ، مشدداً في الإنكار ، ولقب لأجل هذه الخصال في عصره بأسد العلماء ، أخذ علم السلوك والإحسان من الشيخ دانيال ، والتزم المجاهدات الشاقة ، والرياضات الشديدة ، وقضى أعواماً في الأودية والجبال ، معتزلاً عن الناس ، وذلك ما يؤدي في الغالب ـ لا سيما إذ لم تكن هذه التدريبات الروحية تحت إشراف مرشد خبير ، وإرشاداته وتعاليمه ـ إلى وقوع الإرشادات الغيبية ، والواردات القلبية التي يخاف منها زلة الأقدام ، والخطأ في الفهم والتفسير ، ويحمل مثل هذا الإنسان ـ الذي لم ترسخ قدمه في العلم ، ولم يبلغ درجة البحث والتحقيق ـ الكلمات على غير محاملها ، ويفهم الإشارات الغيبية في غير معانيها ، فكان منه أن ادعى في رحلة من رحلاته أنه « المهدي » وأعلن بعد ذلك ، عدة مرات في أمكنة مختلفة أنه المهدي الموعود ، ودعا الناس إلى الإيمان به .

٢ ـ وكان ـ لكثرة مجاهداته ورياضاته ، وقوته الروحية ، واهتمامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ يملك تأثيراً قوياً ، فكان يسحر الناس بشخصيته ومعاشرته ، ويأخذ بألباب الناس بحديثه وخطابه ، حتى كان من يحضره من العامة والملوك والأمراء ويجلسون عنده ، كأن على رؤوسهم الطير ويستمعون إليه في دهشة وتأثر وانبهار ، ويهون عليهم رفض المناصب الكبيرة ، والإعراض عن الجاه والسلطان ، والزهد في الدنيا وهجر الأوطان ، ومرافقته في السفر والحضر ، والتسليم له والانقياد لأمره ، حدث ذلك مع السلطان غياث الدين شاه الخلجي ، في عاصمة حكومته « ماندو » ، وكان ذلك شأن السلطان محمود شاه الكجراتي في جانبانير بكجرات ، وشوهد له هذا التأثير السحري العجيب في « أحمد نكر » و « أحمد آباد » و « بيدر » و « كلبركه » حيث تهافت عليه الناس ، وبايعه خلق كثير ، وانضم إلى ركبه آلاف من الناس ، وشهدت منطقة السند اجتماعاً حاشداً ، وجموعاً متدفقة كالسيل ، وكان لخطابه في « قندهار » دوي عظيم حرك ساكن البلد وهز الأرض ، ومال إليه حاكم قندهار مرزاشاه بيك وأكبره .

٣ ـ وكانت حياته حياة زهد وتجرد ، واستغناء ، وانقطاع كامل إلى الله ـ تعالى ـ وكان الناس يشاهدون منه ـ سفراً كان أو حضراً ـ مظاهر الزهد والإيثار ، والذكر والعبادة، يوزع الطعام على الناس بالسوية من غير تمييز بين غني وفقير ،

أهله وأفراد أسرته لا يمتازون عن الناس في شيء ، فكان هذا الجو الإيماني يؤثر على جميع الوافدين ، فلا يرجعون من عنده إلاّ معجبين به ، مأخوذين بتأثيره .

٤ ـ انجبت هذه الحركة رجالاً أقوياء مخلصين يستميتون في الدعوة ، ويجاهدون في سبيلها ، ولا يخافون سلطة وسطوة ، ويقومون بواجب « كلمة حق عند سلطان جائر » بشجاعة نادرة وجرأة خارقة ، يتحملون مشاق التعذيب والإيذاء الشديد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد وهبوا نفسوهم ومهجهم في هذا الطريق راضين مسرورين ، لا يقف الإنسان على هذه البطولات والمواقف الجريئة إلا بإعجاب وإكبار وانفعال ، ويضطر إلى أن يعترف بتأثير تربية السيد محمد الجونبوري وصحبته .

واقرأ ـ على سبيل المثال ـ ترجمة الشيخ علاء بن حسن البيانوي (الشيخ العلائي ـ م ٩٥٧ هـ) الذي قام بمسئولية الدعوة ، والوعظ والتذكير في بلاط السلطان سليم بن شيرشاه السوري ، واقتصر على تحية الإسلام عند السلطان ، ولم يفعل كما كان يفعله أصحاب البلاط ، والوافدون على السلطان من التزام الكلمات المعينة والانحناء والخضوع ، وضرب بالسياط ـ ذات مرة ـ في حال إصابته بمرض الطاعون ، وإعيائه بعد السفر ، فلم يتحمل هذا الضرب ومات ، وربط جسمه برجل الفيل وطيف به في العسكر[1] .

٥ ـ كانت دعوته مؤسسة على خمسة أصول : (١) الانصراف عن الدنيا ، (٢) العزلة عن الخلق ، (٣) الهجرة عن الوطن ، (٤) مصاحبة الصدِّيقين ،

(١) راجع للتفصيل ترجمة الشيخ علاء بن حسن البيانوي ، « نزهة الخواطر » ج ٤ ، و «منتخب التواريخ » للعلامة عبد القادر البدايوني .

(٥) دوام الذكر (على طريقة حفظ الأنفاس) ، وكان يرى مشاهدة الرب عز وجل - سواء كانت بالعين أو بالقلب ، في اليقظة أو في المنام - شرطاً لازماً لتحقق الإيمان .

٦ - وقد صدرت عنه في حال السكر ، أو بسبب خطأه في فهم المعنى والمراد كلمات وأقوال صريحة ودعاوي واضحة - مرات عديدة - ادعى فيها لنفسه ما لا نجد له تأويلاً أو محملاً سائغاً إلاّ بتكلف شديد ، والتي أدت بأتباعه - مهما كانت نيتهم في بداية الأمر ، ومهما كانت عواطفهم الدينية الطيبة - إلى استحالتهم فرقة جديدة ، تخالف ما عليه الجمهور ، وتعارض أهل السنة والجماعة ، وتستند إلى هذه الأقوال الشاذة ، وتؤسس عليها عقائدها وأصول ديانتها ، ثم أضاف فيها الغلاة من أتباعهم - كما هو المعروف في تاريخ الفرق - وبالغوا في تعظيمه وتقديسه ، حتى ساووه بالأنبياء والمرسلين ، بل فضلوه عليهم أحياناً ، وبلغ به بعض المتطرفين الغلاة إلى مرتبة النبي الخاتم - ﷺ - وإن كان السيد محمد في زعمهم واعتقادهم تابعاً لسيدنا محمد بن عبد الله - ﷺ - ومتقيداً بالشريعة المحمدية - على صاحبها الصلاة والسلام - وبلغ ببعضهم الغلو المفرط ، والتطرف الجانح إلى أن الكتاب والسنة إذا خالفا قولاً من أقواله ، أو فعلاً من أفعاله ، فكتاب الله وسنة رسوله تبع لأقواله وأفعاله ، وغلوا غُلوّاً عجيباً في عقيدة مشاهدة الله - تعالى - فمن لم يشاهد « الأنوار الإلهية » بعين الرأس أو عن طريق القلب أو في حال اليقظة أو المنام ، فليس بمؤمن ، وبدأ الخليج بين عامة المسلمين وبين هذه الفرقة - بعد ظهور هذه العقائد - يتسع ويعمق على مر الزمان حتى شذت هذه الفرقة المدعوة بـ « المهدوية » عن أهل السنة والجماعة ، وانقطعت صلتها بهم بصورة كاملة ، وضاعت تلك الأهداف التي أنشئت لها هذه الحركة ، وكان يستهدفها مؤسسها ويرمي إليها .

واستمرت آثار هذه الحركة على أفغانستان والهند إلى أواسط القرن العاشر ، وقامت لحماتها وأنصارها عدة دول في ولاية دكن ، ويقدر عدد أتباع هذه الفرقة وقوتها السياسية التي ظهرت في أواخر القرن العاشر بأن جمال خان المهدوي - الذي

كان من كبار أصحاب المناصب في البلاط ـ لما تولى زمام الشئون الملكية بولاية « أحمد نكر » ، في عهد السلطان اسماعيل نظام شاه بن برهان نظام شاه الثاني (٩٩٦ ـ ٩٩٨ هـ) استمال السلطان اسماعيل نظام شاه ـ وكان صغير السن إذ ذاك ـ إلى نحلته ، ثم لم يمض على ذلك كثير زمن حتى اجتمعت لديه طوائف من المهدوية من مختلف أنحاء البلاد ، والتفّ حول جمال خان من المهدويين حوالي عشرة آلاف شخص وخضعت له ولاية أحمد نكر ، واستولى عليها استيلاء كاملاً ثم لما عاد برهان شاه ـ وكان قد خرج في رحلة من الرحلات ـ إلى أحمد نكر ، ٩٩٨ هـ ، قضى على النحلة المهدوية التي كانت انتشرت انتشاراً واسعاً ، ونشر المذهب الإمامي الذي كان عليه من قبله ، وأحياه من جديد[1] .

وظهر في أواخر القرن العاشر إعياء وضعف شديد في الحركة المهدوية وقد كانت هذه الدعوة ، وادعاءات السيد محمد الجونبوري ، وتشدد أتباعه الغلاة المتطرفين ، تحدث رجة في معتقدات المجتمع المسلم ، واضطراباً في الأفكار ، وقلقاً في الأوضاع ، وهال ذلك ، وأفزع العلماء الراسخين ـ في ذلك العصر ـ الذين كانوا على بصيرة من الكتاب والسنة ، ومعرفة تامة بالعلوم الدينية ، وكانوا يتوجسون خيفة من هذه الفتنة العمياء ويرونها تمهيداً لضلال مستطير ، وانحراف كبير ، فنهض العلامة محمد طاهر الفتني مؤلف « مجمع بحار الأنوار » (٩١٣ ـ ٩٨٦ هـ) ، وهو أكبر عالم ومحدث في عصره ، بتفنيد هذه الدعاوي والرد عليها ، وسدّ هذه الثلمة في الدين ، وعاهد الله تعالى على محاربة هذه البدعة ـ التي سادت في ولاية كجرات ، وقام لها دعاة وأنصار ـ والقضاء عليها ، وأنه لا يلوث العمامة حتى يزهق هذا الباطل وينتصر للحق ، ثم لما فتح الملك أكبر ولاية كجرات عام ٩٨٠ هـ ، وقابله العلامة محمد طاهر الفتني ، لاث العمامة على رأسه بنفسه ، وقال له : « إن ما عاهدت الله عليه من نصر الدين وحمايته ، واستئصال هذه الفرقة الناشئة ، عليّ تنجيزه والقيام

(١) ملخص من « تاريخ هندوستان » ج ٤ ، تأليف الأستاذ ذكاء الله الدهلوي .

به » ، وولى بعد ذلك مرزا عزيز الدين أخاه من الرضاعة حاكم « كجرات » الذي شدّ أزر العلامة الفتني ، وساعده في عمله ، حتى كسر شوكتهم ، ولكن لما أقيل مرزا عزيز الدين من هذه الولاية ، وولى مكانه عبد الرحيم خانخانان ، قامت قائمة المهدويين من جديد ، وعادوا إلى نشاطهم ودعوتهم ، وبارزوا في الميدان ، فحسر العلامة الفتني رأسه من العمامة ، وقصد العاصمة ، وتبعته طائفة من المهدويين ، ولم يصل مدينة أجّين حتى قتلوه غيلة[1] .

أسباب القلق والفوضى في الأفكار :

إن دراسة التاريخ والتعمق في فلسفته يدل على أن الأسباب الأصيلة والدوافع القوية لمثل هذا القلق والاضطراب ، والحركات الهدامة الناشئة من ردود الفعل ، والفوضى في المعتقدات والأفكار تتحدد ـ بصفة عامة ـ فيما يأتي :

١ ـ تعارض القول والفعل ، والعقيدة والحياة ، والتناقض الموجود في المجتمع ، كان يحمل القلوب الحساسة ، والمشاعر المرهفة على القلق والتوجع ، وهذا القلق ـ عندما يبلغ مرحلة خاصة من مراحل تطوره ـ يجد متنفساً في الدعوات الثورية ، والحركات الهدامة ، وأصحاب النفوس المضطربة القلقة إذا لم يساعدهم الحظ في إنشاء حركة أو دعوة إيجابية بناءة ، فإنهم يصابون دائماً بالشك والارتياب ، وتزعزع العقائد والأفكار ، وتتحول مثل هذه الحركات ـ بصفة عامة ـ إلى دعوات سلبية متطرفة ، ومعتقدات شاذة وتصبح أكثر فساداً وأعمق ضلالاً ، وأوسع خطراً واضطراباً للبلاد ، وإثارة للفتن من ذلك المجتمع الفاسد الذي تقوم هذه الدعوات لإصلاحه ومعالجة فساده .

ويخيل إلينا أن الترف وكثرة الأموال ، والطمع في المناصب والوظائف والتنافس في الحصول عليها ، جرّ الناس إلى هذا التناقض والنفاق العملي ، ووجدت طبقة كبيرة من عبّاد المادة وأبناء الدنيا ، الذي تخطّوا حدود التعاليم الدينية

(١) راجع « نزهة الخواطر » ج ٤

والخلقية ، وتهافتوا على نيل الجاه والمنصب ، وتساقطوا على المتع واللذائذ في حل وغير حل ، غير مبالين بالقيم والآداب والحدود الإسلامية ، وتنشأ مثل هذه الطبقة - دائماً - في ظل حكومات واسعة قوية ، وفي عهود الأمن والاستقرار ، والرخاء ، ويبدو أن المجتمع الهندي في آخر عهد حكومة الأسرة السورية ، وبعد قيام الدولة المغولية أصيب بهذا الداء العضال ، واتجه هذا الاتجاه المتهور ، ونفذت قوانين معارضة للإسلام وطبقت عادات وأعمال تناوىء الدين ولا تمتّ إليه بأي صلة[1] ، وقد منيت الدولة الأموية ، والدولة العباسية أيضاً ، بظهور هذه الطبقة المترفة ، وهي الطبقة التي يسميهم سيدنا حسن البصري - رضي الله عنه - (م ١١٠ هـ) بـ «المنافقين» .

٢ - استبداد الحكام والسلاطين ، وسلطتهم المطلقة ، وظلمهم وعدوانهم وإعراضهم عن أحكام الشريعة الإسلامية ، وعبادتهم للنفس والأهواء مما يحمل الرجال الأقوياء الطامحين على ثورات وحركات قوية تهزّ الدولة ، وتلحق الأضرار بالمسلمين .

٣ - غلبة الطقوس والتقاليد ، والاهتمام البالغ بالمظاهر الجوفاء ، وانحطاط المجتمع الخلقي والعقلي ، وجمود الأوساط العلمية ، وسيطرة التقليد الأعمى عليها[2] ، وفقدان المناهج التعليمية المليئة بالحيوية والنشاط وبعدها عن الواقعية ، وفقرها في إقناع العقول المتطلعة ، والأذهان المتشككة ، كل ذلك يدفع الناس إلى

---

(١) يستفاد من كتب التاريخ انه في عهد السلطان سليم شاه (او اسلام شاه) كان يجتمع في عاصمة كل ولاية كبار اصحاب المناصب من الأمراء والوزراء يوم الجمعة ، ويوضع حذاء السلطان سليم شاه على كرسي في خيمة كبيرة ، فيحنون له رؤوسهم ، ويقرأ عليهم مجموعة القوانين الملكية (انظر تاريخ الهند للسيد هاشمي الفريد أبادي ، ج ٣ ، ص ٤٠ .

(٢) يصور البروفيسور خليق أحمد نظامي رئيس قسم التاريخ في جامعة عليكره الاسلامية ، هذا العهد ، ويشخص هذا الداء تشخيصاً صحيحاً ، فيقول :

« كانت أوضاع المسلمين الاجتماعية الخلقية تسير - بسرعة - نحو التدلي والانحطاط ، وان ما جاء من القصص والروايات الغريبة في « افسانه شاهان » و « تاريخ اؤدي » تنم عن التسفل الخلقي المشين

اعتناق دعوات وحركات تروي ظمأهم ويجدون فيها سلواهم ، وتنهج لهم مسالك جديدة - خاطئة أو صحيحة - وتخرج بهم عن الدائرة الضيقة المحدودة ، كما أن من البواعث الأساسية ، والدوافع القوية ، لهذا الاضطراب الفكري ، غفلة المجتمع عن تعاليم الكتاب والسنة ، وقلة العلم بالحديث الذي يساعد على تكوين تصور سليم وفهم صحيح للدين ، ويعرف من خلال دراسته مدى بعد المسلمين وانحرافهم عن الإدراك الصحيح لأصول الدين ، والعمل المستقيم وأسوة الرسول - عليه الصلاة والسلام - ومنهاج الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم أجمعين .

٤ - عدم وجود شخصية دينية قوية تسمو على المستوى العام في مقدرته العقلية ، والروحية ، تملك التأثير القوي ، وتجذب النفوس ، وتأخذ بمجامع القلوب ، وتزيل الريب والشكوك ، وتعالج الروح القلقة ، والنفس المضطربة ، وتنفخ في جسم المجتمع الخامد روحاً جديداً ، وتعيد الثقة والاعتماد على خلود الإسلام ، وصدق الرسالة المحمدية ، والشريعة الإسلامية ، وأن أسباب الرقي والكمال موصولة بها ، راجعة إليها .

وتدلنا دراسة تاريخ القرن العاشر - في ضوء كتب السير والتراجم ، وسجلات الوقائع والحوادث - على أن هذه الدوافع والأسباب الطبيعية للفوضى والاضطراب تضاعفت في الهند - على أقل تقدير - بالنسبة للقرون الماضية ، وكان من نتيجة ذلك ، ظهور هذا القلق الفكري ، والحركات الثورية الهدامة ، على هذا النطاق الواسع في القرن العاشر .

= والاضطراب العقائدي العظيم ، ان حياة « الدراوشة » المترفة الناعمة ، وانحراف طلبة العلم ، والعقائد الخرافية ، في التمائم والحجب وأساطير السعالى والجن ، وزوايات « مصباح سليمان » ليست علائم على مجتمع سليم ، ونظام خلقي قويم ، وقد كانت الحركة المهدوية - في حقيقة الأمر - محاولة للقضاء على هذا الانحطاط العقلي ، والتزمت الفكري ، والجمود المذهبي (انظر « سلاطين دهلي كي مذهبي رجحانات - الميول الدينية لدى سلاطين دهلي - ص ٤٥١ » .

فتنة القرن العاشر الكبرى
الاعتقاد ببداية نظام جديد للعالم على بداية الألف الثاني من الهجرة

مغالطة في قضية الألف الثاني :

تحمل أواخر القرن العاشر الهجري أهمية كبيرة ، من حيث إن التقويم الإسلامي كاد يطوي فيها مرحلة من مراحل عمره - وهي مدة ألف سنة - ويستأنف مرحلة ثانية ، وهو الألف الثاني الذي يبتدىء من ١٠٠١ هجرياً ، وليس هذا التحول - في الأوضاع العادية - أمراً خطيراً ، أو شيئاً يسترعي الانتباه ، فالدنيا - في عمرها الطويل - والحياة الإنسانية - في تقويمها المديد - تقلب ورقة من عمرها عند إيذان كل قرن بالرحيل ، وولادة قرن جديد ، كذلك كان القرن العاشر على انصرام وارتحال ، والقرن الحادي عشر على وصول واستهلال ، لا أقل ولا أكثر ، ولم يكن ذلك بدعاً من الأمر ، ولا حادثاً لم يسبق له نظير .

ولكن لا يعزب عن البال أن الزمن كان زمن اضطراب شديد في الأذهان والعقول ، وتزلزل في العقائد والأصول ، وغفلة عن التعاليم الصحيحة للكتاب والسنة ، وجهل مطبق ، ونفور من علوم الدين ، واستنكاف عن كتاب الله وسنة رسول الله - ﷺ - واعتبار علوم اليونان غاية مدارك العقول الإنسانية ، تسمى بـ « الحكمة » و « مقياس النبوغ والذكاء » والأفق البعيد في آفاق العلوم الإنسانية ، والمدارك البشرية الواسعة ، وكان شق الشعرة ، وصنع القبّة من الحبّة ، في البحوث المنطقية والفلسفية والكلامية ، هي السدرة المنتهى والغاية الكبرى من المناهج الدراسية ، وفي الأوساط العلمية ، وعمت فيها الاستهانة بقيمة العلوم النبوية ، والوحي والتنزيل ، والنصوص القرآنية التي لا يأتيها الباطل من بين يديه ولا من

خلفه ، ويعتبر الإيمان بها والإذعان لها جهلاً وتقليداً أعمى ، ومعاداة للعقل والتفكير ، هذا ، وكانت الثورة ضد حكومات ذلك العصر ، ونظمه السياسية . التي كانت تستند ـ مخلصة أو غير مخلصة ـ إلى الدين ، وتعتمد للحفاظ على سلطتها عليه ، « موضة » العصر وشعار الأحرار .

كل ذلك سبّب وجود بعض المغامرين الطامحين ، الأذكياء المتسلحين بعلوم عصرهم ، فأصبحوا يحلمون بالسلطة ، ونيل الجاه ، والريادة والقيادة للعصر الجديد ، وتدغدغ[1] قلوبهم الأماني المعسولة باستغلال تقلب الليل والنهار ، وأن يستمتعوا بخلاقهم كما استمتع الذين من قبلهم بخلاقهم ، ويستفيدوا من تداول الأيام بين الناس ، كما استفاد مؤسسو الديانات ـ في زعمهم ـ في العصور التي كانوا فيها ، وأن يبدأ بدعوتهم وحركتهم تقويم جديد في تاريخ الشعوب والبلاد ، كما بدأ التقويم الإسلامي الهجري بدعوة نبينا محمد ـ ﷺ ـ ، وظهوره في جزيرة العرب ، والذي كان بداية عهد جديد ، وتاريخ جديد احتضن العالم كله ، واعتبروا انتهاء الألف الأول في تقويم العالم وتاريخ هذا الدين ، واستئناف الألف الثاني حدثاً كبيراً ، وفرصة ذهبية سانحة لا تأتي بسهولة ، وفي فترات قريبة ، فلو أضاعوا هذه الفرصة الذهبية ، كان لا بد من انتظار ألف آخر ، ولا سبيل إليه ، فليس من الفطنة والكياسة ـ كما ظنوا ـ تفويت هذه الفرصة ، وإلا فسوف يندمون ولات ساعة مندم .

إننا لنشهد ظلال هذه الفكرة ، وآثار هذه الأماني الحالمة في مختلف مناطق العالم الإسلامي في النصف الأخير من القرن العاشر ، لا سيما في منطقة إيران ـ وهي جديرة بأن تسمى في ذلك العهد بيونان الشرق ـ التي كانت أكثر مناطق العالم الإسلامي قلقاً واضطراباً ، وذكاءاً ، وشدة حساسية ، توغلاً في العلوم العقلية اليونانية ، وافتتاناً بها ، وكان الألف الأول من التقويم الهجري على وشك الانتهاء ،

(١) الدغدغة تحميش في مواضع من البدن كأخمص القدم والابط يهيج له الضحك .

وكان ذلك للمرة الأولى بعد ظهور الإسلام وكان الألف الثاني يستعد ليبدأ دوره في التاريخ ، وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة ظهور مجدد على رأس كل مائة سنة[1] ، ويشهد عليه التاريخ ، فكان بعض الأذكياء يحلمون ـ عند بداية الألف الثاني ـ بنهوض مؤسس للدين الجديد ، مكان مجدد للدين القديم ، لما بين مائة سنة وألف سنة من الفرق الواسع ، والتفاوت العظيم ، وبدأ كثير من هؤلاء المغامرين الحالمين يحاولون أن يرشحوا نفوسهم لهذا المنصب الجليل ،ولم يكتب ـ مع الأسف ـ تاريخ مرتب يُعنى بعرض عقلية هذا العصر ، واستعراضه فكرياً ونفسياً ، تتجلى فيه ظلال العواطف والخواطر المعتلجة في القلوب ، والأحلام والأماني السارية في النفوس ، والتصورات والأخيلة المتحركة في الأذهان ، فإن كتب التاريخ القديمة والحديثة ، تدور كلها حول البلاط والملوك ، وتروي لنا قصص تداول الحكومات وانقلاب الدول ، والفتوح والهزائم ، وعطايا الملوك ، وعزل الأمراء والولاة ونصبهم ، وأحوال الترف والبذخ ، وروايات الحرب والضرب ، فلو كانْ بين أيدينا تاريخ مدون لعقلية العالم الإسلامي وفكره في القرن العاشر لرأينا بوضوح أنه عند قرب طلوع الألف الثاني راود الأمل كثيراً من النفوس ، وداعبت الأماني والأحلام كثيراً من القلوب ، وأنهم بدأوا يجمعون العدة والعتاد للتربع على عرش القيادة ، ويمدون أطناب سيادة جديدة لعصر جديد .

لقد طوى بساط دعاء الخلق إلى الله وتزكية النفوس (التي سميت في العهد الأخير بالتصوف) بعد قيام الدولة الصفوية التي جعلت المذهب الشيعي مذهباً سائداً في إيران ، وبالرغم من أن الجَدّ الأول لمؤسسي هذه الدولة الشيخ صفي الدين كان صوفي المشرب والمسلك ، ولكن لما أن التشيع يعادي التصوف ، عادت إيران ـ في عهد هذه الدولة الصفوية ـ التي أنجبت أمثال الامام الغزالي الطوسي ، والشيخ فريد الدين عطار النيسابوري ، ومولانا جلال الدين الرومي[2] ، ومولانا عبد

(١) مما رواه أصحاب السنن : « ان الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها » .
(٢) كان من سكان بلخ الواقع في خراسان ـ أصلاً وهو يقع الآن في أفغانستان .

الرحمن الجامي من العارفين المحققين ، والتي اتحفت بغداد ، و« دهلي » و« أجمير : بسيدنا عبد القادر الجيلاني ، وشيخ الشيوخ شهاب الدين السهروردي ، والشيخ معين الدين الجشتي ، والشيخ قطب الدين بختيار الكعكي الأوشي ـ لا تعرف إلا العلوم العقلية اليونانية ، أو « الحرفية » المذهبية الطائفية ، وعاد علم الحديث ـ الذي كانت إيران مركزاً كبيراً من مراكزه ، والتي أسعدت التاريخ الإسلامي بأمثال الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، وأبي عيسى الترمذي ، وأبي داؤد السجستاني ، وابن ماجة القزويني ، وأبي عبد الرحمن النسائي من أئمة الحديث وأصحاب الكتب الخمسة ، لا يعرف له أنيساً ولا جليساً ، واختفت معالم الكتاب والسنة ، واحتلت العلوم اليونانية من المنطق والفلسفة مكان الصدارة ، وأصبحت مقياس الفضل والكمال ، وأن هذه الثورة على العلوم الإسلامية الأصيلة التي كانت قطعت صلة هذه البلاد الخصبة ، الغنية بالعبقريات ، على صحابة الرسول ـ ﷺ ـ وسنته وأحاديثه ، أضعفت صلة الطبقة المثقفة الذكية ـ في هذه البلاد ـ بالنبوة المحمدية ، وعقيدة ختم الرسالة وخلود الإسلام ، وصلوحه للبقاء ، إن لم تقطعها بصورة كاملة ، وأنه لو لم يكن الانتماء إلى أهل بيت النبي ـ ﷺ ـ على أساس التشيع ـ والاعتقاد فيهم ، لكان يحلق على هذه البلاد خطر العودة إلى المجوسية ، وحضارة ما قبل الإسلام ، وعهد رستم ، واسفنديار أبطال « الشاهنامه » (الملحمة الإيرانية للفردوسي) وتحولها جاهلية بعدما دخلت في الإسلام .

ولا يستبعد ـ في مثل هذه الأوضاع المتردية بإيران ـ نشوء حركات هدامة ، ومؤامرات عقلية وفكرية للقضاء على الإسلام وهدم كيانه ، وقد بلغت هذه الفكرة أوجها في «الحركة النقطوية » التي ظهرت في أواخر القرن التاسع ، وأوائل القرن العاشر ، والتي تدل على الروح القلقة في إيران التي ظهرت في صورة « مزدك » تارة ، وفي مسلاخ « ماني » تارة ، وفي لباس حسن بن الصباح أخرى ، وكانت حركة إلحاد وزندقة ، يقول سكندر منشي :

« تعتقد هذه الفرقة بقدم العالم كاعتقاد الفلاسفة ، ولا تؤمن ببعث الأجسام

الإنسانية ، وبالحشر إطلاقاً ، وتعتبر الراحة والذلة في الدنيا مكان الجنة والنار ، عقاباً أو ثواباً على الأعمال الحسنة أو السيئة[1] » .

ويقول شاه نواز خان عنهم :

« علم « نقطة » عبارة عن الإلحاد والزندقة والإباحية ، واستحلال كل شيء ، إنهم يعتقدون كالفلاسفة المتقدمين بقدم العالم ، وينكرون الحشر والنشور ، ويرون ضيق الدنيا ورخاءها ثواباً أو عقاباً على حسن الأعمال أو قبحها بدل الجنة والنار[2] » .

إنهم يقولون بنظرية النشوء والارتقاء ويزعمون أن النباتات والجمادات تطورت إلى أن أصبحت إنساناً[3] ، وليس لقدرة الله ـ تعالى ـ أي دخل في زعمهم في الإنبات ، بل هو نتيجة تأثير العناصر والكوكب[4] . ويعتقدون أن القرآن الحكيم من تأليف محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ وأن الأحكام الشرعية هي آراء الرجال ، ويستهزئون بالصلاة ، والحج ، والأضحية[5] ويسمون شهر رمضان « بشهر الجوع والظمأ » ويسخرون من أحكام الطهارة والغسل[6] ، ولا يؤمنون بحرمة النساء المحرمات ، وينكرون الأمور المأثورة ويدعون إلى الأمور العقلية[7].

---

(١) انظر «تاريخ عالم ارائي عباس » ج ٢ ص ٣٢٥ .

(٢) مآثر الأمراء ج ٢ ، ص ٦١٩ .

(٣) دبستان مذاهب ص آ ٣٠٠ .

(٤) انظر «مبلغ الرجال» ورقة ٢٥ ـ النسخة الخطية الموجودة في جناح مولانا آزاد، بمكتبة جامعة عليكره الاسلامية.

(٥) المصدر السابق .

(٦) المصدر السابق .

(٧) المصدر السابق ، استفدت في هذا الموضوع من كتاب « الدين الإلهي ، وخليفته » للبروفيسور محمد اسلم ، وكتاب « الدراسات التاريخية والأدبية » للدكتور نذير احمد جامعة عليكراه الاسلامية ، (وكلاهما في اردو) ، وراجع أيضاً ان شئت التفصيل والمعلومات الصحيحة ، النقطويون أو البيساخانيون » للدكتور صادق كيا ، (بالفارسية) .

ويقال إن مؤسس هذه الفرقة رجل يدعى « محمود بسيخواني[1] » ، وقد أثرت هذه الفرقة ـ في القرن العاشر الهجري ـ على آلاف من أبناء الهند وإيران وبلغ عدد أتباعها في إيران وحدها إلى الألوف المؤلفة ، وكان النقطويون يعتقدون أن المدة بين النشأة الأولى على الأرض إلى عهد محمد بسيخواني تبلغ ثمانية آلاف سنة ، وكان هذا العهد الطويل عهد ازدهار العرب وسيادتهم إذ أن الأنبياء والمرسلين على مدى هذه الأزمان المتطاولة كانوا يبعثون في العرب فحسب ، وأن ظهور محمود بسيخواني قضى على السيادة العربية[2] ، فلا يبعث نبي أو رسول إلى ثمانية آلاف سنة أخرى ، إلاّ في الشعوب العجمية[3] .

إن للعقيدة الأساسية التي نادى بها محمود بسيخواني ، وهي « أن الدين الإسلامي أصبح منسوخاً ، فلا مناص من قبول الدين الجديد الذي جاء به محمود » و « إن الإسلام قد استنفد دوره ، وقضى عمره ، فمست الحاجة إلى دين جديد » ، صلةً خاصة بالعمل التجديدي الذي قام به الإمام السرهندي ، ويدل إعلان هذا الدين الجديد وظهوره في القرن العاشر على وجود هذه « العقيدة الألفية » لديهم ، وأنهم ـ منذ طلوع الألف الثاني ـ يبدأون بحركتهم ودعوتهم بجد واجتهاد .

---

(١) أعلن محمد البسيخواني او البيسخاني الكيلاني ظهور هذه الديانة الجديدة عام ٨٠٠ هـ في استر آباد ، وتوفي عام ٨٣٢ هـ ، وتأسست هذه الفرقة في ايران في أول القرن التاسع ، وظلت تنمو وتقوى حتى كان اتباعه في القرن العاشر والحادي عشر ، بلغوا الآلاف المؤلفة في الهند وايران، ويذكر المؤرخون الايرانيون ، والمؤلفون المسلمون هذه الفرقة باسم « الملاحدة التناسخية » وأهل الزندقة والالحاد ، ولما ان محمود بسخاني يعتقد خلق كل شيء من الطين ، ويسمى الطين « لقطة » أو استعان في بيان مفاهيم القرآن ـ في زعمه ـ بعدد الحروف والنقط ـ سميت هذه الفرقة بـ « النقطوية أو أهل النقطة » . من مقال« نظرة عابرة على الفرقة النقطوية » المذكور في « الدراسات التاريخية الأدبية » للدكتور نذير احمد باختصار وتلخيص .

(٢) ولمحمود أو لبعض مريديه بيت يقول فيه : « لقد جاءت نوبة أتباع محمود ، وذهب ما كان يتعاظم به العرب على العجم » .

(٣) « دبستان مذاهب » ، ص ٣٠١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٠٠ .

عامل شاه عباس الصفوي في إيران أتباع هذه الديانة النقطوية ، معاملة شديدة ، فقتل الألوف منهم ، وكان شاه عباس أشد من سابقيه في عقاب هؤلاء المارقين ، ولم تكن هناك فرقة ـ في نظر الشاه ـ أعظم خطراً ، وأكبر ضرراً من هذه الفرقة ، فقام سنة ١٠٠٢ هـ بعملية واسعة للتنكيل والتقتيل والتشريد ، ففرّ كثير منهم بسبب هذا التنكيل والتشريد إلى الهند ، وكان منهم الشيخ حياتي الكاشي ، الذي بقي في السجن عامين ، ثم أفرج عنه ، فقصد شيراز ، ثم مكث في وطنه أياماً عام ٩٨٦ هـ ، توجه على إثرها إلى الهند ، وكان هو في أحمد نكر عام ٩٩٣ هـ وكان شريف الآملي ـ الذي يعد من العلماء النابغين ـ ذا صلة وثيقة بكبار أصحاب هذه الفرقة ، سافر إلى الهند بعد ما ضاقت عليه أرض إيران ، وضاق ذرعاً بأهلها ، وكان الملك أكبر يعامله معاملة المريد لشيخه ، ويرى بعض المحققين أن شريف الآملي كان يستدل بكتابات محمود بسيخواني على ظهور الدين الجديد ويرغب الملك فيه ، ويستميله إليه ، وأخبره بنبوءة محمود أنه سوف يظهر في عام ٩٩٠ هـ رجل يمحو الباطل ويقيم الدين حق .

ويجمع البدايوني وخواجه كلان[1] ، على أن شريف الآملي فرّ من إيران إلى بلخ ، والتجأ إلى زاوية الشيخ محمد زاهد بن الشيخ حسين الخوارزمي وظل يعيش هناك في مظهر المتصوفة ، ولما لم تكن طبيعته تساير التنسك وتنسجم معه ، اتخذ شعاره الدعاوي الفارغة ، والشطحات الجوفاء ، والكذب والافتراء ، ولما اطلع الشيخ زاهد على عقائده ، طرده من زاويته ، ففرّ إلى دكن (جنوبي الهند) .

وكانت بلاد الدكن آنذاك ـ يسيطر عليها التشيع ، ويصول فيها ويجول فلما وصل إليها شريف الاملي استقبله أهلها كعالم شيعي كبير ، وبالغوا في الحفاوة به ، ثم لما عرف الناس ما في عقائده من زيغ وضلال ، قصدوا لإيذائه وتعذيبه .

وكما يقول البدايوني : « أراد حكام الدكن أن يقتلوه ، ثم قرروا بعد أن

(١) هو الشيخ خواجه عبيد الله (ابن الشيخ الكبير عبد الباقي النقشبندي) مؤلف « مبلغ الرجال » .

يركبوه الحمار ، ويطوفوا به ويشهروه[1] » .

وأسند إليه الملك أكبر قيادة الجيش المكون من ألف جندي ، وجعله من المقربين لديه[2] ، ونصبه داعياً في بنكاله » إلى « الدين الإلهي » ، وكان من أخص أصحاب الملك أكبر وأصدقائه الأربعة ، وكان ينوب عن الملك في مخاطبة أتباع الدين الإلهي ومريديه ، والمعتقدين فيه[3] .

وجاء في « ماثر الأمراء » : « اشتغل بالتصوف وبيان الحقائق ، وخلطه بالزندقة والإلحاد ، وادعى نظرية « الوحدة » ، وقال عن كل شيء إنه الله[4] » ، وتفيد بعض كتب التاريخ المعاصرة أن أبا الفضل العلامي[5] كان متأثراً بالحركة النقطوية ، ولما قتل شاه عباس الصفوي أكبر دعاة الحركة النقطوية وأعظم المسئولين عنها الشيخ مير سيد أحمد الكاشي ، ووقف على وثائقه ، والأوراق التي تركها ، فكانت فيها من بين مجموعة الرسائل رسالة لأبي الفضل العلامي وجهها إليه ، يقول معاصره المؤرخ سكندرمنشى في كتابه « تاريخ عالم آرائي عباس » :

« أخبرنا بعض الوافدين من الهند أن أبا الفضل بن الشيخ مبارك الذي هو من علماء الهند ، وله مكانة وحظوة عند السلطان ، يعتنق هذه الديانة وأثر على الملك أكبر ، ودعاه إلى التحرر من القيود وانحرف به عن جادة الشريعة ، وأن رسالته التي كتبها إلى مير أحمد الكاشي ، والتي عثر عليها في وثائقه ، تدل على أن أبا الفضل كان

---

(1) منتخب التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .
(2) انظر « مبلغ الرجال ورق » ٣٢ .
(3) منتخب التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ - ٢٤٨ .
(4) ماثر الأمراء ، ج ٣ ، ص ٢٨٥ .
(5) هو من أخص أصحاب السلطان جلال الدين أكبر ، والعقل المفكر الموجه في دينه الجديد وسياسته العلمانية الهندكية ، يشغل الحديث عنه حيزاً كبيراً في هذا الكتاب .

من أتباع الحركة النقطوية[1] » .

ويقول خواجه كلان في كتابه « مبلغ الرجال » عند ذكره لمحمود بسيخواني :

« نشر الشيخ أبو الفضل الناكوري بساط ذلك القانون الخاسر الكاسد في بلاد الهند[2] » .

ويمكن أن يقدر من خلال هذه الشواهد التاريخية ما قام به دعاة الحركة النقطوية ، وأنصارها في الهند ، من بسط النفوذ وتجهيز عرش الدولة لدين جديد وعهد جديد على طلوع الألف الثاني ، وقانون جديد ، وكانوا في حاجة بعد هذه الخطوة التمهيدية إلى شخصية قوية تملك السلطة وتتولى زمام البلاد ، ولم يكن هناك شخص أجدر وأحق بهذه المسئولية ـ في نظرهم ـ من الملك أكبر .

---

(١) مستفاد من مقال « نظرة عابرة على الفرقة النقطوية » المنشورة في كتاب « الدراسات التاريخية والأدبية » للدكتور نذير أحمد ، ص ٢٦١ .

(٢) « مبلغ الرجال » ورق ٢١ ، وانظر ورقة ٣٢ ـ ٣٣ أيضاً .

الباب الثاني

عهد الملك أكبر ، والفترتان المتعارضتان في حياته

حياة الملك أكبر الدينية ، وتدينه :

يجمع المؤرخون للهند ولعهد الملك أكبر ـ بصفة خاصة ـ على أن «أكبر» بدأ حكمه ومباشرته للإدارة ، ملماً راسخ العقيدة ، متنسكاً مع التقشف في الحياة والمغالاة في العقائد ، ونقتطف للدلالة على ذلك من الكتاب الشهير « منتخب التواريخ » للعلامة عبد القادر البدايوني (م ١٠٠٤ هـ) ـ الذي يعد من مشاهير العلماء ، وكبار مؤلفي البلاد في العهد الأكبري ، ومؤرخي عهده ـ وقائع متناثرة من تلك الفترة الأولى لعهد الملك أكبر ، ونبذة من أحواله وسيرته ، حين كان مسلماً ساذجاً على طريقة سلفه الملوك من آل تيمور ، وكان ـ لعدم تلقّي الدراسة ، وتأثير البيئة المحيطة ، وتقاليد عصره ـ الذي عمّت فيه البدع والمغالاة في تعظيم المشايخ ، واعتقاد مكانهم من الله ، وشفاعتهم للناس ، وزيارة الضرائح والمشاهد ـ يشد الرحال لزيارة قبور الصالحين من المشايخ المعروفين ، وكان يعاقب الناس على مخالفة عقائد الجمهور ، وقلة التدين ، وضعف الاعتقاد ، وكان يقدم النذور إلى ضرائح الأولياء والصالحين ، ويشتغل بالأذكار والأوراد في شغف واستغراق ؛ ويصاحب العلماء والصالحين ، ويحضر مجالس « السماع » .

ولا بأس بنقل تصريحات العلامة عبد القادر البدايوني عن تدين الملك أكبر ، ومغالاته في العقيدة والدين ، إذ أن ذلك مما اتفق عليه المؤرخون ، وهو جانب مشرق من حياة « أكبر » فلا يتهم الشيخ عبد القادر بالنيل منه ، والحط من شأنه ، وأنه كتب ذلك تحت ضغط عاطفة الكره والمعاداة ، أو التعنت والعناد .

أما الفترة الثانية من حياة الملك أكبر ـ وهي الفترة التي قام فيها بنشر نظرية

« الدين الإلهي » والدعوة إلى عقيدة وحدة الأديان ، والنفور من الإسلام والتسامح البالغ مع غيره من الديانات ، والموقف المعادي المعاند من الدين الإسلامي - فإنا نأخذ بالحيطة في ذكر تفاصيلها والاقتباس مكان تصريحات الشيخ عبد القادر التي أثار بعض الأوساط - أخيراً - الغبار حول صحتها وثبوتها وحيادها التاريخي .

فقد ظهرت حركة تأليفية منظمة - تشبه خطة مدبرة - في الهند في الستّينات يقودها بعض الأساتذة في الجامعات ، والمؤلفون العلمانيون لتفنيد كتابات العلامة عبد القادر البدايوني وتصريحاته في ما يتصل بالفترة الثانية من عهد الملك أكبر ، فيحملونها على التعصب الديني ، والمعارضة الشخصية والتعنت ضد الملك أكبر ، ويثيرون الشكوك والشبهات حول كتابه « منتخب التواريخ » ويقللون من قيمته العلمية والتاريخية وذلك يقوم على أساس إيجابي علمي وشواهد تاريخية أمينة ، إن أساس هذه التهمة ينبني على العاطفية ، واعتقاد عظمة الملك أكبر ، والنزوع إلى براءة ساحته من كل تهمة ، لأنه هو وحده - من بين ملوك المسلمين - يتفق مع الاتجاه اللعلماني الحديث ، والتحرر من ربقة الدين ويجدر لأن يتخذ زعيماً ، أو مثلاً كاملاً للسياسة اللادينية ، أو القومية الهندية ، المجردة من كل دين أو عقيدة ، وذلك نتيجة الأغراض السياسية ، بعيدة النظر والمرامي ، أو الأهداف الشخصية ، من نيل الجاه والشهرة والزلفى .

وكل من يراجع كتاب « منتخب التواريخ » بحياد وإنصاف ، لا بد أن يعترف بصدق المؤلف وإخلاصه ، وتوجعه للأوضاع ، وجراءته ، وصراحته بكلمة الحق ، وإن من له إلمام واسع بكتب التاريخ ، ودراسة طويلة لها تنشأ فيه ملكة التمييز بين الروايات التاريخية والأساطير الخرافية ، ويقدر على تقييم المؤلف ، وتحديد مكانته ومنزلة كتابه ، وينقد الزيف والصحيح كالصيرفي الماهر ، يقول المؤرخ الانجليزي الشهير « ELLiot » معلقاً على كتاب « منتخب التواريخ » : « ليس هناك إلاّ القليل من المؤرخين الذين يريدون أن يبدوا عواطفهم كما يريد البدايوني ، لا سيما ما تكون

ثقيلة على مسامع الملوك ، أو الذين يصرحون بأخطائهم وزلاتهم من غير مبالاة وفي غاية الوضوح[1] » .

وأما عند إبراز الجانب المعادي للإسلام في حياة أكبر، فلا نقتصر على شهادات الشيخ عبد القادر ، بل قد نسوقها أحياناً تأييداً لتصريحات بطانة الملك أكبر، وأركان دولته المخلصين الأوفياء ، وبيانات المؤرخين المحايدين لعصره وبلاطه .

واقرأ ـ فيما يلي ـ التصريحات التي جاءت في « منتخب التواريخ » عن حياة الملك أكبر الدينية في الفترة الأولى :

« تجشم الملك عناء السفر مشياً على الأقدام إلى « أجمير[2] » شكراً لِلّه تعالى على ولادة ابنه سليم ، وعرّج على دهلي في الرجوع منه ، وزار قبور الأولياء والصالحين[3] » .

توجه إلى « أجودهن » وزار شيخ المشايخ فريد الدين كنج شكر ، وعاقب مرزا مقيم الأصفهاني مع مير يعقوب الكشميري على تهمة الرفض و« التشيع[4] » .

« سافر إلى « أجمير » في أوائل شعبان ، ومشى سبعة فراسخ على الأقدام، حتى زار الضريح ، ونذر الطبول ، وقضى وقتاً طيباً في مصاحبة العلماء والصالحين ، وحضور مجالس الغناء[5] » .

« وكان يشتغل ـ باستغراق ـ في ذكر « يا هو » و« يا هادي » في مصلاه ، (وجاء في حوادث عام ٩٨٠ هـ حديث ضافت لبناء ثلاث عمارات خاصة بعبادته[6] » .

---

(١) انظر ج ٥ ، ص ٤٨٠ .

(٢) مدينة مشهورة في الهند ، فيها ضريح الشيخ الكبير معين الدين الجشتي (م ٦٢٠ هـ) الذي كان له فضل كبير في انتشار الاسلام في شبه القارة الهندية ومن أكبر شيوخ الطريقة والأولياء شهرة في الهند .

(٣) منتخب التواريخ ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

(٤) المصدر السابق ص ١٢٤ .

(٥) ايضاً ص ١٨٥ .

(٦) أيضاً ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

« كان يطلب ـ كل ليلة الجمعة ـ في مصلاه ، الأشراف والمشايخ والعلماء ويحضر الملك حلقة من العلماء ، ويباحثهم في المسائل والأحكام ، وصدر الأمر في هذه الفترة إلى القاضي جلال وغيره من العلماء بتفسير القرآن الكريم[1] » .

ويذكر في وقائع عام ٩٨٦ هـ مصاحبة العلماء والمشايخ ، ومجالستهم ، وإحياء ليلة الجمعة ، في مصلاه بـ « فتح بور سيكري » .

ولما خرج خان زمان على الملك أكبر ، وأعلن الثورة ، قام الملك إلى قبور الأولياء والصالحين للدعاء عندها قبل أن يتوجه لمقاومة خان زمان ومحاربته[2] .

« وأطلق رجل كان يدعى فولاذاً سهماً على الملك بإشارة شرف الدين حسين عند مروره بمدرسة « خير المنازل » التي أسسها وعمّرها « ماهم آنكه » وأصيب الملك بجرح خفيف ، برىء منه ـ بعد معالجته لأيام قليلة ـ فكان يعدّ النجاة من هذه الحملة الباغتة ـ كما يقول البدايوني ـ كرامة أولياء دهلى ، وتنبيهاً غيبياً له[3] » .

وحضر ـ مرة ـ في طريقه إلى أجمير ، في خدمة الشيخ نظام النارنولي ، الذي كان من المشايخ الصالحين المعروفين ، وذاع صيت زهده وورعه في الآفاق[4] .

« وزار سنة ٩٨٠ هـ ضريح السيد حسين خَنك سوار في أجمير ، ثم زار ـ بعد سنوات ـ قبر الشيخ قطب جمال في إعتقاد وحب وإكبار ، وقرأ الفاتحة[5] » .

« وكان يعظم الشيخ سليم الجشتي ويعتقد فيه ، وبنى على قبره قبة فخمة باهتمام بالغ ، ولأجل هذا الإجلال والتعظيم للشيخ سليم الجشتي سمى ولي عهده (جهانكير) الذي ولد ـ كما يقال ـ بدعائه ، « سليم » ، وكان الملك بعث بعقيلته الملكة « جودها بائي » إلى بيت الشيخ قبل الولادة ، حتى تكون موضع عناية الشيخ واهتمامه ، وتسعد بدعائه[6] » .

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ، ص ٢١١ .
(٢) أيضاً ج ٢ ، ص ٢٥٢ .
(٣) أيضاً ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ .
(٤) أيضاً ج ٢ ، ص ٢٥٢ .
(٥) أيضاً ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ .
(٦) أيضاً ج ٢ ، ص ١٠٨

وولد ابنه مراد كذلك في بيت الشيخ سليم[1] ، ولما أصبح ولي عهده ، سليم (جهانكير) في سن يبدأ فيها القراءة وأول ما يقرأ الطفل يكون « بسم الله الرحمن الرحيم » وهي عادة تسمى « باحتفال التسمية » في الهند - طلب من المحدث الشهير الشيخ ميركلان الهروي أن يشرف بهذه المناسبة فحضر وأقرأ « سليم » « التسمية » بحضور الملك مع جمع من أعضاء الدولة وأركان المملكة[2] .

وحينما بدأ ولي العهد يشدو في القراءة والكتابة ، أمره أن يذهب إلى بيت الشيخ عبد النبي ، يدرس عليه الحديث ، فقرأ عليه الأربعين حديثاً من جمع الشيخ مولانا جامي[3] ، وكان الملك أكبر يبالغ في تعظيم الشيخ عبد النبي - حفيد الشيخ عبد القدوس الكنكوهي والمتبوأ على منصب « صدر جهان » في عهد الملك أكبر - حتى كان يقصد بيته ، ويحضر درسه ، وقام - مرتين - بوضع نعليه عند احتذاء الشيخ لهما[4] » .

« وأقطع الشيخ محمد غوث الكوالياري - الذي كان شيخ الطريقة الشطارية المعروف - أرضاً كان دخلها السنوي عشرة ملايين « دام » لينفقه على نفسه ، وكان يتلقى ابنه الشيخ ضياء الله - بعد وفاة والده - بالإكرام والإجلال[5] » .

وقد كان الملك أكبر ورث هذا الإجلال للمشايخ والحفاوة بهم من آبائه وأجداده ، فكان سلفه التيموريون يعتقدون في الشيخ ناصر الدين عبيد الله أحرار ، ويعظمونه ، وكان جد الملك بابر ، السلطان أبو سعيد ، يذهب إليه ماشياً لا يركب ، تأدّباً معه و احتراماً له ، ولم يكن يقدم على عمل أو ينجز قراراً إلاّ بعد أخذ رأيه ، وكان والد الملك بابر عمر شيخ مرزا كذلك ، يجل الشيخ عبيد الله ويحترمه ،

---

(١) أيضاً ج ٢ ، ص ١٢٣ .
(٢) أيضاً ج ٢ ، ص ١٧٠ .
(٣)و(٤) أيضاً ٢ ص ٢٠٤ .
(٥) أيضاً ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

ويذكره الملك بابر نفسه في كتابه « تزك بابر » بتقدير وإعظام ، ولما قدم الشيخ يحيى - وهو من أعقاب الشيخ عبيد الله أحرار - إلى الهند ، استقبلـه الملك أكبـر بحفـاوة بالغة ، ورفع قدره ، ووهبه أرضاً لنفقته ، وبعثه أميراً على قافلة الحجاج إلى مكة المكرمة ، ولما عاد من سفر الحج ، جهز له الإقامة الدائمة في مدينة « آكره »[1] .

وكان الملك أكبر عينّ سبعة أئمة للأيام السبعة من الأسبوع يتناوبون الإمامة في الأيام المعينة لهم ، وكانت الإمامة - يوم الأربعاء - موكولة إلى الشيخ عبد القادر البدايوني[2] .

كان يبعث - كل عام - عدداً كبيراً من الحجاج إلى الحرمين الشريفين على نفقة الدولة ، ويبعث مع أمير الحجاج الهدايا والتحف إلى والي مكة المكرمة ويبعث النقود والغلاف لأهل الحرمين الشريفين[3] ، وكان يشيع الحجاج عند توديع قوافلهم محرماً كإحرام الحج ، مقصراً للشعر ، ملبياً ، حاسر الرأس ، حافي القدمين ، وكان هذا المشهد المؤثر يحدث هزة في النفوس ، تلين القلوب ، وتدمع العيون[4] .

ولما قدم شاه أبـو تراب إلى الهنـد بحجر عليه أثـر قدم الرسـول ﷺ ، كما يقولـون - ووصـل قرب مدينـة « آكره » خرج الملك مع حشـد عظيم من العلماء والمشائخ ، والأمراء والوزراء ، ومشى معهم أربعة فراسخ على الأقـدام لاستقبـال الشيخ أبو تراب ، وإجلال مقام الرسول - ﷺ - .

ونختم الشواهد على تدينه وتعبـده بهـذا التصريح ، الـذي جاء في « مآثـر العلماء » لمؤرخ الدولة المغولية الشهير مير عبد الرزاق خافي خان المعروف بصمصام

---

(١) أيضاً ج ٣ ص ١٠٠ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥١ .
(٣) أيضاً ، ج ٢ ، ص ٢٥١ .
(٤) أيضاً ج ٢ ص ٢٣٩ .

الدولة شاه نوازخان (١١١١ ـ ١١٧١ هـ) ، يقول فيه :

« كان الملك أكبر يبذل جهوداً كبيرة في تنفيذ الأحكام الشرعية ، والتأكيد على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كان يؤذّن بنفسه ، ويؤم الناس في الصلاة ، حتى إنه كان يكنس المسجد ، احتساباً وطلباً لمرضاة الله[١].

تحول في نفسية الملك أكبر وطبيعته والفترة الثانية من عهده[٢] :

يستطيع القارىء ـ في ضوء ما سبق من التصريحات والشواهد على تدين الملك أكبر ، وتنسكه ـ أن يقدر أن هذا التدين الساذج العامي الخرافي لم يكن مؤسساً على الفهم والعلم الصحيح للكتاب والسنة ، والدراسة المباشرة لهما ، بل كان أساسه ـ بدلاً من أن يكون مديناً لتعليم العلماء الراسخين ومجالستهم والتربية الدينية الصحيحة على ذوق عصره ، وطبيعته العسكرية ، والتقليد الأعمى للحكام والأمراء الجهلة بالدين ، الذين حكموا في أواسط آسيا ، ومحاكاتهم ، وشدة الإيمان بالمظاهر ، وسرعة الاعتقاد في الظواهر ، فكان الركن الأساسي في هذين التدين زيارة القبور والضرائح ، وتجشم مشاق السفر إليها من مسافات بعيدة مشياً على الأقدام ، وإبداء عواطف الحب والإجلال للمتربعين على دست المشيخة ـ الذين كانوا من الجهلة العاطلين عن صفات آبائهم ومشائخهم ، والفاقدين للربانية الصحيحة ، والروح الإسلامية ـ والشعور بالسعادة في خدمة الكناسة للتكايا والزوايا ، وحضور مجالس الذكر والغناء ، وتبجيل علماء البلاط ومشايخه وتوقيرهم .

---

(١) مآثر العلماء ، ج ٢ ، ص ٥٦١ .

(٢) يقال إن ما سجّله جهانكير في « توزك » الصغير من أحوال الملك اكبر عند وفاته ، يدل على انه كان شعر عند دنو الأجل بأنه على خطأ وضلال ، فجدد ايمانه بتلفّظه بكلمة التوحيد ، وأسلم روحه لبارئها في هالة من القراء الذين كانوا يقرأون سورة يٓس ، ويدعون له ، وليس لنا أن نحكم على ما كان بينه وبين الله وهل أدركه اللطف الإلهي أم لا ؟ ، وانه على أي حال ودّع هذه الدنيا ، انما نحن بصدد اجراءاته وأعماله التي اتخذها لتنفيذ القانون الجديد والدين الجديد ، والنتائج والآثار التي ترتبت من ذلك على الإسلام والمسلمين .

ويستفاد من دراسة حياة « أكبر » أنه كان أميّاً خالصاً[1] ، وتمتاز الأسرة التيمورية في طبيعتها وعقليتها بالغلو والتطرف ، والمبالغة في الاعتقاد ، ويذكر عن « همايون » في كتب التاريخ أنه كان إذا صمم على تحمل شدائد الحروب ومقاومة الأوضاع القاسية ، والظروف القاهرة ، فإذا به يتحول إنساناً ليس من لحم ودم ، بل من حديد صلب ، وكأنه ليس من الأنس ، بل من الجن الشداد ، وإذا استنام إلى الدعة والراحة ، نسي كل شيء وظن به أنه لم يكن في يوم من الأيام فارس الميدان وجندياً مستميتاً في ساحة القتال ، ويشاهد هذا التعارض ، وقلة الاتزان في حياة جهانكير أيضاً .

ثم لا ينبغي أن ننسى ما قاساه الملك أكبر من المحن والأوضاع القاسية غير العادية في طفولته ، وريعان شبابه ، وما شاهده في أعمامه من تنكُّر وخذلان ، وقلة وفاء ، وما تجرَّع من المرارة ، والغصص أيام هزيمة والده ، ورحلته إلى إيران وما لاقى مع بيرم خان من العناء والمشاق ، كل ذلك أنتج في نفسيته سوء الظن بالفطرة الإنسانية ، وأثار في نفسه الريب والشكوك ، في وفاء الناس ، وإخلاصهم وتجردهم ، فنشأت من جراء ذلك طبيعة متقلبة تتلون ، ولا تستقر على حال .

المقارنة بين الديانات والبحث فيها وبجالس المناظرة وتأثيرها :

كان أنسب طريق للملك أكبر لعلاج هذا الوضع الشاذ ، وإصلاح الحال ، والتغلب على مواطن الضعف في نفسه ، وتأكيد الصلة بالإسلام ، والارتباط

---

(١) لما بلغ « أكبر » اربعة أعوام واربعة شهور ، واربعة أيام من عمره ، احتفل - حسب العادة الجارية - بمناسبة إدخاله الكتّاب ، وعين ملا زاده عصام الدين مؤدباً له ، ولكن شعر ملا زاده بأن أكبر لا يرغب في التعليم ، فحمل هذا على اهمال ملا زاده واخفاقه في التعليم ، وعين مكانه الشيخ بايزيد ، ولكن بدون جدوى ، وأخيراً اختار الملك لتعليمه الشيخ عبد القادر البدايوني ، ولكن لم يستطيع هو أيضاً أن يستميل ولي العهد العظيم الى التعليم ، وساعدت على ذلك الأوضاع السياسية ، والانتقال من مكان الى مكان ، وعدم الاستقرار ، فشبّ أكبر أميّاً لم يتعلم شيئاً . (ملخص من كتبّ التاريخ المعاصرة لعهد الملك أكبر) .

بالدين ، وصرف الهمة إلى حماية الإسلام والذب عنه ، والقيام بنصرته ككثير من السلاطين المسلمين ـ وقد كان عدد منهم أبناء هذه الأسرة التيمورية ـ أن يركز الملك كل عنايته ـ مع الاعتراف بأميته وجهله بالدين ـ على مهام الدولة ، وتوسيع المملكة ، وكان اللائق به أن لا يتدخل في القضايا الدينية ، بل يكلها ـ كمسلم مخلص ساذج وجندي وفيّ ـ إلى علماء الدين وأعضاء الدولة الباحثين ـ كما فعل الملك بابر والملك همايون ، رغم ثقافتهما الواسعة ، والذوق الأدبي والعلمي الرفيع ـ وأن لا يتقدم إلى البحث والتحقيق في المسائل الكلامية الدقيقة ، والقضايا العقيدية العلمية ، والحقائق الغيبية ، وعلم ما وراء الطبيعة ، والمقارنة بين الديانات والفرق ، وهو المجال الذي تؤدي فيه زلة بسيطة ، أو إهمال طفيف إلى تخطّي حدود الإيمان ، والدخول في حظيرة الكفر والإلحاد ، وضياع نعمة الدين وكان لا يعرف مبادىء هذه العلوم ومقدماتها ، ثم إن الخوض في هذه القضايا لا يفيد في الأغراض السياسية ، ولم يكن في مصلحة السلطان ، الذي تسلم زمام البلاد من الحكومات المسلمة التي دامت في السلطة أربعة قرون ، أن يفقد ثقة شعبه المسلم المتحمس للإسلام ، ويثير حوله مشاكل كان في غنى عنها ، إن خطأ التدخل في هذه المباحث الكلامية الدقيقة ، واستخدام النفوذ والسلطان ، لغرض عقيدة أو وجهة نظر أو مهم خاص أساء من قبل إلى مثل الخليفة العباسي مأمون الرشيد(١٧٠ ٢١٨ هـ) في علمه وذكائه ، ولم يستفد منه غير سوء الأحدوثة[1] .

ولكن الملك أكبر رزق الطبيعة القلقة والعقلية الباحثة ، وأوحت إليه فتوحه وانتصاراته المستمرة ، وسعادة جده ، وحسن طالعه في الدولة ، بخداع النفس والإعجاب بها ، وبدأ يظن بنفسه أنه يقدر ـ وهو الفارس المقدام الذي يفض مشاكل الدولة ، ويحل عقد السياسة ـ على الحملات الظافرة في أودية الدين ، والعقيدة الشائكة .

(١) راجع للتفصيل « رجال الفكر والدعوة » للمؤلف ج ١ ، ص ٩٤ ـ ١٠١ مبحث « فتنة خلق القرآن » .

زد إلى ذلك أن بعض أركان الدولة ، ورجال البلاط الأذكياء الحاذقين أقاموا لإبراز تفوقهم العقلي ، والترويح عن السلطان ، وتزيين مجلسه ، معارك كلامية حامية بين العلماء من مختلف الفرق والديانات ، بدلاً مما جرت به العادة في مجالس الملوك المترفين ، من تربية الديكة والحمام ، ليتفرج السلطان على تهارشها ، ومن إقامة مصارعات بين الفيلة والسوائب من البقر - وكان ذلك نزهة السلاطين والأمراء الشرقيين ومتعتهم - ومن الحقائق البديهية ، التي جربها الناس في تاريخ العقائد والديانات مئات المرات - إن من يشهد هذه المباحثات والمناظرات بين العلماء ، والأخذ والرد بين المحامين عن مختلف الفرق والديانات ممن لم تتسع ثقافته ، ويرسخ علمه ، ويدقّ فهمه ، وتتنور بصيرته ، ولم يساعده الحظ ويأخذ بيده توفيق الله - تعالى - فإنه لا محالة يقع في الريبة والشك ، ويتيه في أودية السوفسطائية واللاأدرية ، ويهوى في هوة سحيقة من الإلحاد والزندقة .

يقول جهانكير - وليست شهادةٌ على أكبر أقوى من شهادته - في كتابه « توزك » :

« كان والدي يقابل - في كثير من الأحيان - علماء كل ملة ودين ، لا سيما فضلاء الهند وعلماء الديانة الهندكية ، ولم يكن يشعر جلساؤه - رغم أميته - بأنه لم يقرأ ولم يكتب ، لكثرة مجالسة العلماء ومصاحبة الفضلاء ، والمباحثة معهم ، وكان يفهم دقائق الشعر والنثر ولطائفهما ، بما لا مزيد عليه »[1] .

ولم يقتصر في هذه المناظرات على علماء الإسلام والهندكية ، وديانات الهند الأخرى ، وفرقها المختلفة ، وممثليها ، بل أشرك فيها علماء الإنكليز ، وينص أبو الفضل على بذل الاهتمام البالغ بترجمة التوراة والإنجيل ، والزبور ، وشرحها وتفسيرها للملك ، وعين لهذه الخدمة السيد مظفر ، أحد أعيان البلاط وفضلائه ،

(١) « تزك جهانكيري » ، ص ١٥ .

وكتب إلى بعض المسيحيين :

« إننا نجتمع ـ في فراغ من الوقت ـ بعلماء جميع الديانات ، ونستفيد من أفكارهم السامية وكلماتهم الطيبة ، وتقف أجنبية اللغة عائقاً في الطريق ، فنود أن تدخلوا علينا السرور بإيفاد رجل فاضل يوضح لنا هذه المعاني بعبارة جيدة حسنة ، وقد بلغ مسامع السلطان أن الكتب السماوية من التوراة والإنجيل والزبور ، ترجمت إلى العربية والفارسية ، فلو كانت هذه الكتب المترجمة في بلادنا ، لوزعناها للنفع العام ، وقد بعثنا إليكم ـ تجديداً لمعاني الحب والود ، وترسيخاً لأساس الوحدة والاتفاق ـ بمعالي السيد مظفر ـ الذي أسعدناه برعايتنا واهتمامنا ـ للحصول على عدة نسخ من هذه الكتب المترجمة وسيتحدث إليكم شفاهاً فثقوا به ، وواصلوا المراسلة »[1] .

وكان ذلك فعلاً ، يقول البدايوني .

« كان في البلاط جماعة من فضلاء الإفرنج من زهادهم ونسّاكهم ، ويقال لهؤلاء « القُسُسُ والأساقفة » ويسمى مجتهدم الأكبر بالبابا ، إنهم قدموا نسخة من الإنجيل ، وأظهروا دلائلهم وبراهينهم على التثليث ، وأثبتوا أن النصرانية دين حق »[2] .

وبلغ شغف أكبر بهذه المجالس للمناظرة أن كتب رسالة إلى رئيس مجلس الأساقفة في ولاية «كوا» (GOA) وهي تشتمل على ما يأتي :

« أرجو أنكم فور وصول رسالتي إلى سعادتكم سوف تبعثون إلى البلاط ـ في طمأنينة بال وجمعية خاطر ـ بعض الأساقفة ، حتى يناظروا علماءنا ، فأقدّر من خلال المناظرة مبلغ علمهم وخلقهم ، وأرى تبريزهم وتفوقهم على علمائنا الذين ندعوهم

---

(١) « انشائي أبو الفضل » ص ٣٩ .

(٢) منخب التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ .

« بالقضاة » فيعلموهم الحق بهذا الطريق ويفيدوهم »[1]

ومن التجارب القديمة في مجالس المناظرة ، أن قوة البراهين ، والإقناع الجدلي ، لا يكفي لإثبات صدق ديانة من الديانات ، ولا يكون حاسماً في تفضيل واحدة منها على أخرى ، فإن أكبر الاعتماد في ذلك يكون على ذلاقة اللسان وقوة البيان ، وطلاقة العبارة ، مما يتظاهر به ممثلو هذه الديانات والمحامون عنها ، فقد يكون ممثلو دين هزيل ضعيف ووكلاؤه أقدر على الحجة ، وصناعة الكلام ، وأجود بياناً ، وأعرف بالنفسية الإنسانية ، والطبيعة البشرية ، وأكثر تحيّناً للفرص ، فيؤثرون في السامعين ، ويسحرون الألباب ويستميلون الناس ، ويكون ممثلو دين قويم غير متحلين ـ لسبب من الأسباب ـ بهذه الخصائص والصفات ومجردين من هذه الأسلحة الكلامية ، فيخسرون الرهان ، ويسقطون في الميادين ، ومما يشك فيه أن العلماء ـ الذين كانوا يمثلون الإسلام ويشرحونه في بلاط الملك أكبر ، ويناظرون علماء الإفرنج وفضلائهم ـ كانوا على إلمام واسع بالتوراة والإنجيل ، والمذاهب المسيحية ، ومعرفة كافية بمواضع الضعف فيها وكانوا أكفاء لعرض الإسلام ، ـ علمياً وعقلياً ـ حتى يقارعوا فضلاء المسيحيين ويمثلوا الإسلام تمثيلاً صادقاً صحيحاً .

وقد كانت الديانة المسيحية جديدة للهند ، وكان أتباعها قلة قليلة ، ومعظمهم كانوا من الأجانب ، فلم يهتم بهم العلماء المسلمون ، ولم يبالوا بالديانة المسيحية أي مبالاة على حين أن البرتغاليين فتحوا مدرسة تبشيرية مسيحية (Jesuit Mission) في ولاية « كوا » حتى يقوموا بنشر هذه الديانة في الهند ، وترسيخ

(١) انظر « THE MUGHAL EMPIRE » ـ الدولة المغولية ـ للدكتور أشيوري برشاد Dr. ISHWARI PARSHAD ص ٣٧٧٥ ، طبعه المآباد ١٩٧٤ م .

جذورها[1] ، ولا يستبعد في مثل هذا الوضع أن يكون العلماء المسيحيون الأجانب كسبوا المعركة ، وأثبتوا تفوقهم وامتيازهم ـ علمياً وعقلياً ـ على علماء المسلمين الذين لم يكونوا ـ إذ ذاك ـ فرسان هذا الميدان فخسروا الصفقة وسقطوا في عينه ، فكان من الطبيعي أن تظهر النتائج التالية ، يقول الشيخ عبد القادر :

« ظهر أهل البدع والأهواء بآرائهم الخاطئة ، وشبهاتهم الباطلة من مكامنهم ، وبدأوا يعرضون الباطل في صورة الحق ، والخطأ في شكل الصواب وأورثوا الشك والارتياب في نفس السلطان الذي كان يملك الذكاء والفطنة ، ويبتغي الحق ، إلا أنه كان أمّياً محضاً ، يأنس إلى الكفار ، وزادوا في حيرته واضطرابه ، وضاع المقصد الصحيح ، وانحل رباط الشريعة ، ولم يبق بعد خمسة أعوام عين ولا أثر للإسلام ، وانقلبت الدنيا رأساً على عقب »[2].

ويقول في موضع آخر :

«بدأوا يثيرون الشكوك والشبهات ، ويضحكون ويستهزئون بكل فريضة من فرائض الإسلام وكل عقيدة من عقائد الدين ، سواء كانت تتعلق بالأصول أو الفروع ، كعقيدة النبوة والرسالة ، ومسألة كلام الله ورؤيته ، وتكليف الإنسان، وتكوين العالم ، والحشر والنشر ، وغير ذلك من المسائل العقيدية[3] » .

وكان ضغثاً على إبالة ، أنهم بدأوا يقرأون كتب التفسير والتاريخ ـ وهي المواد العلمية غير المنقحة والمحررة ، التي يقدر أنصاف العلماء ، ممن لا يخشون الله ، على إثارة الاضطراب ، والفوضى الفكرية عن طريقها ـ في بلاط الملك الأمّي الجاهل ، وفي جو من الانطلاق والتحرر ، وقلة الحشمة .

---

(1) انظر « اكبر نامه » ج ٣ ، ص ١٠٢٧ ، Mongolicea Legationos Commentqrius By Fater Ay Muoserrate. ج/ ١ ، ص / ٣٤ .
(2) منتخب التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ .
(3) أيضاً ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ .

يقول الشيخ عبد القادر البدايوني :

«وفي تلك الأيام صدر الأمر إلى القاضي جلال وغيره من العلماء أن يقرأوا تفسير القرآن ، وكان هناك صراع بين العلماء في الموضوع ، وكان الماجن «ديب جندارجه منجهولة » يقول :

« لو لم تكن البقرة مقدسة عند الله ـ تعالى ـ لما جاء ذكرها في أول سورة من القرآن ، وسميت بها هذه السورة ، ولما بدأوا قراءة التاريخ ، بدأ الناس يزدادون ـ كلو يوم ـ في إساءة الظن بالصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وتعدى الأمر إلى أن جعلوا يسمون الصلاة ، والصوم ، وجميع التعاليم النبوية بالأمور التقليدية ، أي أنها غير معقولة ، وجعلوا يقولون إن أساس الدين على العقل ، وليس على النقل ، وبدأت وفود الانكليز تغدو وتروح ، حتى قبل الملك بعض معتقداتهم كذلك » .

مسئولية علماء البلاط وأعضاء الدولة في تحول طبيعة « أكبر » وانحرافه :

لقد كان علماء البلاط ، وأعضاء الدولة يستطيعون أن يقوموا بدور أساسي فعال في ملازمة الملك أكبر طريق الإسلام المستقيم ، وصيانته من الزيغ والانحراف ، وحمايته من التطرف وفقدان الاتزان ، ولكن هذا الدور الإيجابي كان في حاجة إلى علماء يمتازون بالتفقه والبصيرة في الدين ، ويتحلّون بالحكمة والفهم الصحيح ، نظرهم في كليات الدين أعمق من نظرهم في جزئياته ، ويؤكدون على أهمية الغايات والمقاصد ، أكثر من الذرائع والوسائل ، ويرون ضرورة « الوصل » والتوفيق أكثر من ضرورة « الفصل » والتفريق ، متصفين بسمو الأخلاق ، وموسومين بالإخلاص والإيثار ، بعيدين عن حب الجاه ، والطمع في الدنيا قدر المستطاع ، تلقوا التربية الصحيحة ، واشتغلوا بتزكية النفس ، يعرفون أهمية هذه الدولة الإسلامية الناهضة ودقة موقفها ـ التي تحيط بها الأكثرية غير المسلمة ـ التي كانت تشعر بحرمانها من القوة والسلطة ، ولا تقوم دولة إلا بتأييدها ومساعدتها ـ

معرفة حقيقية ، وأن هذه المملكة التيمورية التي واتاهـم الحـظ لخدمتهـا ، ونالـوا الفرصة التاريخية الذهبية لقيادتها وإرشادها كانت أكبر دولة إسلامية في ذلك العصر في سعة الرقعة ، وكثرة الذخائر والوسائل ، والقوى البشرية وقوة العاطفة الـدينية ، وتغلغلها في الشعب وفي جميع النواحي ، بعد الدولة العثمانية ، في تركيا ، فكان ـ لأجل ذلك ـ الحفاظ على هذه الدولة ، وربطها بالإسلام ، وأن يجمع عاهلها ـ في هذه الظروف الحرجة الدقيقة ـ بين الزجاج والحديد ، والقطن والنار ، أكبر عبادة في ذلك العصر ، وأعظم خدمة للدين والبلاد .

وكانت الحاجة ماسة ـ في الجانب الآخر ـ إلى وجود خبراء مستشارين وأعضاء للدولة يحملون عقيدة راسخة محكمة في ذلك الدين ـ الذي أسس عليه بابر مملكته القوية ـ بعد توبته النصوح من المنكرات في ساحة القتال عند مواجهة « رانا سانكا » عام ٩٣٣ هـ ، وأخذ العهد والميثاق على نفسه بالعبـودية الكاملـة لله عز وجـل ، ويُحَبِّبُونهَا للملك أيضاً ، ويكونون في مأمن عن كل نوع من الاضطراب الفكري ، وفي معزل عن الحركات الإلحادية الهدامة التي نشـأت في إيران والهنـد في القـرن العاشر ، وكانت تثير الفوضى الخلقية والعقائدية ، وتضعف العلاقـة بـين الدولـة والمجتمع ، وأن يجمعوا بين تنظيم الدولة ، وإدارة البلاد وقدرة التقنين ، وبين سمو الأخلاق ، والاستقامة الدينية والتقيد بالشريعة .

فلئن كان الملك أكبر رزق هذين العنصرين ، وحظيت دولته بهاتين الميزتين ، لم يكن هناك مجال للشك في أن تكون هذه الدولة تؤدي نفس الدور في خدمة الدين وحماية الإسلام والمسلمين في ناحية الشرق ، والـذي قامـت به دولـة آل عثمان في الغرب .

ولكن كان من سوء الطالع أن رزق الملك أكبر ـ رغم سعادة جده وصلاحيته ـ ذلك العنصر من هذين الفريقين الذي لم يكن على المستوى اللائق فحسب ، بل من المؤسف المحزن أنهم خانوا الدولة بدل أن يخدموها ، ونفروا « أكبر » من الدين

بدل أن يشرحوا صدره له ويحبّبوه إليه ، وساقوه إلى اعتناق الدعوات والحركات المعارضة للإسلام وقيادتها ، وأن يظل « أكبر » رمزها وعلامتها ، بدل أن ينفّروه عنها ويحرضوه على استئصالها ، والقضاء عليها .

علماء البلاط :

ونتناول ـ هنا ـ العنصر الأول ، وهم علماء البلاط الذين اعتقد فيهم الملك أكبر الخير ، وأحسن الظن بهم ، وخدمهم ، ووضع ثقته فيهم ، وقربهم لديه ، وأدناهم إليه ، وأنهم ـ كما يقول الإمام عبد الله بن المبارك ـ رضي الله عنه ـ عنصر من العناصر الثلاثة للشر والفساد :

« وهل أفسد الدين إلاّ الملوك . . . وأحبار سوء ورهبانها » ؟

ونقتطف ـ في هذه المناسبة أيضاً ـ من تصريحات العلامة عبد القادر البدايوني الذي كان من أركان البلاط ، ولا يبدو فيما صرح به عن أصدقائه وزملائه ، وطبقته ، من مصلحة شخصية له أو تعنت ومكابرة ، فقد صور علماء البلاط بريشته البارعة هذا التصوير المثير :

« كان يدعو العلماء والمشايخ ، والأشراف والأمراء كل ليلة جمعة إلى مصلاه فكان العلماء والمشايخ يتسابقون إلى المقاعد ، ويتنافسون في الحصول على مكان أقرب إلى السلطان ، فعالج السلطان هذه المشكلة ، فأمر الأمراء بالجلوس في الجانب الشرقي ، والأشراف في الجانب الغربي ، والعلماء في الجانب الجنوبي ، والمشايخ في الجانب الشمالي ، وكان السلطان يخرج عليهم في حلقة من خاصته ، فيبحث معهم المسائل ويحقق فيها »[1] .

ويقول البدايوني : « إن العلماء ـ ذات ليلة ـ بدأوا يرفعون أصواتهم في الجدال والمباحثة ، فتكدر خاطر الملك ، واعتبر منهم ذلك سوء أدب ، وتنافساً في

(١) منتخب التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

الدنيا »[1] .

ويقول :

« كادوا يتقاتلون بأسنّة اللسان ، وبلغ التفرق والاختلاف بينهم حتى جعل بعضهم يكفر بعضاً ، ويضلل بعضهم بعضاً ، وانتفخت أوداجهم وارتفعت أصواتهم ، وكدر ذلك صفو خاطر السلطان » .

وخاطب الملك العلامة عبد القادر في غضب وتألم وتكدر بال ، وقال : « أي عالم يخالف آداب المجلس ، أخرجوه من هناك » .

وكان الشيخ عبد الله السلطانفوري[2] يحتل مكانة كبيرة في كبار أصحاب المناصب الدينية وكان لقبه ومنصبه « مخدوم الملك » فأصدر فتوى عدم فرضية الحج على مسلمي الهند لحيلولة البحر ، وعدم تحقق شرط مَنِ استطاع إليه سبيلاً » حتى لا يتجشم هو مشاق السفر في الحج ، وكان يستخدم الحيل « الشرعية »[3] ، في إسقاط فريضة الزكاة ، ويتخلص من أدائها كل عام ، وقد اقتنى في عهد الملك أكبر وفي أوج وجاهته وشهرته أموالاً طائلة ، حتى عثر على عدد من الصناديق المملوءة ذهباً في المقبرة الخاصة بآبائه ، وكان قد دفنها بحيلته وشطارته مع دفن الموتى[4] .

وكان يلي مخدوم الملك في المنزلة والوجاهة عند السلطان ، ونفوذ الكلمة في البلاد « صدر الصدور » الشيخ عبد النبي ، الذي كان يعد أكبر عالم في الهند ،

(١) أيضا ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٢) راجع ترجمته المفصلة « نزهة الخواطر » ج ٥ .

(٣) وهي أنه كان يعطي المال الذي يفرض فيه الزكاة زوجته أو بعض أقرابئه قبل حولان الحول عليه ، ثم يسترده فيما بعد ، ويتخلص بذلك من فريضة الزكاة وهكذا يعيد كل عام هذه الحيلة اذ أن حولان الحول على المال شرط لوجوب الزكاة .

(٤) ويذكر أنه اكتشف في هذه القبور لبنات من ذهب كانت قيمتها ثلاثين مليون روبية .

كان الشيخ عبد النبي بن الشيخ أحمد الكنكوهي ، وحفيد الشيخ الكبير عبد القدوس الكنكوهي من كبار مشايخ الطريقة الجشتية الصابرية ، ولكنه ـ لأخذه علم الحديث عن علماء الحجاز وتتلمذه عليهم ـ خالف مذهب سلفه وأسرته في وحدة الوجود ، وسماع الغناء . وقد أسخط ذلك والده فتوترت العلاقة بينهما .

ومن أهل الاختصاص في فن الحديث ، ولكن تفيد بعض التصريحات الواردة في « منتخب التواريخ » أنه لم يكن عالي الكعب ، راسخ القدم في العلم ، وكان يجهل بعض الألفاظ العربية ولا يعرف صحتها من خطئها ، ولم يقف على التحقيق فيها[1] ، سلم إليه الملك أكبر منصب « صدر الصدور » ونال من الإجلال والاحترام ، وعظمة المكان والجاه والسلطان ، بحيث لم يكن لأي ركن من أركان الدولة أن يتقدم عليه ، ويتفوه لديه ، وقد قدم إليه الملك نعليه أدبا وتواضعاً عدة مرات ، وكان كبار العلماء والأعيان ينتظرون ساعات طويلة على بابه ليؤذن لهم بالدخول عليه ، وكان بيده إجراء رواتب العلماء والمشايخ وشيوخ الطرق ، وإعطاؤهم الأملاك ، وإقطاعهم الأراضي ، وضرب في ذلك أمثلة رائعة للأريحية والسخاء ، والعطاء الكثير ، مما لا يوجد له في الحكومات السابقة نظير :

ولكن العلامة عبد القادر - الذي كان صديقه ومعاصره وزميله في علماء البلاط - يصرح بأنه كان عاطلاً عن الأخلاق الرفيعة ، وتقاليد أسرته وخصائصها الطيبة ، بل عن الثقافة العامة ، وتقدير الظروف والمناسبات ، ويمكن أن يكون هذا التغير في سجاياه نتيجة هذا المنصب السامي ، فكان تأثير هذه الأخلاق المتجلية فيه على الملك وأركان البلاط تأثيراً سيئاً ، ويتهمه العلامة عبد القادر باستغلال سلطته ونفوذه ، واستخدام منصبه في الأغراض الشخصية ، يقول :

« إنه اضطر الإقطاعيين الدينيين في طول الهند وعرضها أن يترددوا إليه ، وينتظروا فتح الباب لهم حتى لم يجد الوافدون عليه من هؤلاء الإقطاعيين بدًا من أن يعطوا الرشوة لنواب الشيخ ، وكناسيه وحجابه ، وسوّاق أفياله ومنظفي حماماته ، فما كانت تنجز الأعمال إلا عن طريق هذه الرشوة »[2].

---

(1) يستبعد من الشيخ عبد النبي - بعد أن تلقى العلم على علماء الحجاز ، « راجع للتفصيل « نزهة الخواطر » ج ٥ ، لا سيما أمثال العلامة شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي الكمير من أساتذة الفن ، وألف وصنف - أن يخطىء في بعض الألفاظ البسيطة ، فكان يقرأ « حجرا » بتقديم الحاء بدل جحر بتقديم الجيم ، والله أعلم » .

(2) منتخب التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ .

كان لا يراعي الحال ولا يأخذ بالحكمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحسبة الدينية ، حتى كان يواجه الملك أحياناً ـ بما لا يليق بشأنه ويعتبر من الخرق وإساءة الأدب ، كما جاء في «مآثر الأمراء» :

« إن العلماء والمشايخ والأمراء كانوا يهنئون الملك بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاده ، وكان الملك لابساً ـ آنذاك ـ لباساً معصفراً مصبوغاً بلون الزعفران فاعترض عليه الشيخ ، وأكد عليه بتغيير هذا اللباس ، وشدّد في ذلك وتحمس حتى ارتفعت عصاه ، ووقع طرفها على ثوب الملك ، وتحمل الملك منه ذلك ، ولكنه شعر بإهانته ، ودخل قصره ، وشكى إلى والدته ما لقي من الشيخ ، وكانت والدته سليلة أسرة طيبة معروفة بالفضل والصلاح ، فأهدأت ثائرة الملك وقالت أن احتماله هذه الشدة من الشيخ سوف يكتب في سجل مناقبه في التاريخ ، ويروي أن عالماً من العلماء من رعية السلطان ضربه بالعصا ، فصبر على ذلك وتحمله إجلالاً للشريعة وتعظيماً لها »[1] .

وكانت رزيئة أخرى ـ علاوة على ما تقدم ـ أن « مخدوم الملك » والشيخ عبد النبي ، أصبحا عدوين متنازعين ، فكان « مخدوم الملك » ويرميه بالجهل ، فينقسم نتيجة ذلك أتباعهما وحلفاؤهما في معسكرين متحاربين متنابذين ، ويقفون وجهاً لوجه .

وبالجملة فإنا نرى نقلاً في ضوء ما نقل إلينا من سيرة « مخدوم الملك » والشيخ عبد النبي ـ إذا كان نقلاً صحيحاً في التاريخ ـ أنهما لم يكونا جديرين بتمثيل الدين الإسلامي تمثيلاً صحيحاً ، وخلافة الأنبياء ، وأداء رسالتهم في ذلك العصر الدقيق الحرج ـ عهد الملك أكبر ـ وفي تلك البيئة المعقدة الخطيرة ـ بلاط الملك أكبر ـ لا في

---

(١) مآثر العلماء ، ج ٢ ، ص ٥٦١ .

العلم والثقافة ، ولا في الفهم الصحيح للدين ، ولا في عزوب النفس وسمو الأخلاق ، وأنه إن لم يتيسر لهذا البلاط أمثال رجاء بن حيوة[1] مستشار الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك ووزيره الأمين ، والإمام أبو يوسف[2] ، قاضي القضاة في الدولة العباسية والمستشار الديني للخليفة العباسي هارون الرشيد في علمهما وورعهما ، وذكائهما وتدبيرهما ، فلا أقل من أن يتوفر له أمثال عبد العزيز آصف خان ، والقاضي شيخ الإسلام[3] ، من المستشارين للدولة النوابغ الأذكياء والزهاد الأتقياء ، وكان لا بد لمواجهة العلماء الأفذاذ المبرزين في العلوم العقلية ، والنابغين في الفنون الأدبية ، الذين تجمعوا في بلاط الملك أكبر من أبناء إيران والهند ـ كما سيأتي ذكرهم قريباً ـ من وجود ممثلين للدين والشريعة الإسلامية ، ومستشارين دينيين للدولة ، ومحافظين على السلطة ، أدق منهما علماً ، وأعمق إدراكاً ، وأعلى كفاءة واستعداداً، وأكثر تفطناً لحاجات العصر وضرورات الحياة .

ولما اطلع أكبر ـ الذي كان يعتقد (كما يقول المؤرخ عبد القادر) رجحان هؤلاء العلماء على الإمام الغزالي والمفسر الرازي وتفوقهم عليهما ـ على هذه التصرفات الساقطة السخيفة ، جعل يقيس العلماء السالفين عليهم ، وأساء الظن بهم جميعاً .

أركان الدولة ومستشارو البلاط :

ولم يكن شقاء الملك أكبر في أركان الدولة أقل من شقائه في علماء البلاط إذ كان يسحر عقله ، ويسل لبه ـ لجهله وسذاجته ـ كل لسن ذكي ، فَطِن المعيّ ، لا سيما إذا كان وافداً من « إيران » التي كان يعدها أبناء الهند وأفغانستان ، بمنزلة اليونان ، وقصد لبلاط « أكبر » ـ في تلك الفترة الشقية التي أصيب فيها أكبر بالتضعضع في الدين والعقيدة ، الحكيم أبو الفتح الكيلاني ، والحكيم همايون

---

(١) هو الذي أشار على سليمان باستخلاف عمر بن عبد العزيز .

(٢) وهو الذي نظم نظام القضاء في الدولة العباسية الكبيرة وصنف « كتاب الخراج » .

(٣) راجع لتراجمها « نزهة الخواطر » ج ٤ ، لوالدنا العلامة مؤرخ الهند عبد الحي الحسني رحمة الله عليه .

(الحكيم همام) ونور الدين قراري ، الأخوة الثلاثة ، ونالوا الحظوة والمكانة العالية في البلاط ، وجاء بعد فترة يسيرة ملاّ يزدي ، الذي أطال لسانه على صحابة الرسول - ﷺ - وخطا حكيم أبو الفتح خطوة أخرى قُدماً وأنكر - علناً وجهاراً - الحقائق الدينية كالوحي والنبوة والمعجزة[1] ، ونزل شريف الآملي في هذه الفترة نفسها - كما سبق - قاصداً من إيران ، وكان على مذهب « محمود بسيخاني » ويحمل الأفكار الملحدة .

وعدا هؤلاء العلماء النوابغ القاصدين من إيران ، اندسّ في البلاط في هذه الفترة المصابة بالاضطراب الفكري والتضعضع العقائدي - رجل هندكي - يدعي «برهم داس » كان حاضر البديهة ، مبرزاً في المناظرة ، فكهاً ظريفاً ، لطيف المحاضرة ، فتقرب إلى الملك ، وتحكم في ذوقه وعقليته ، وتصدر في البلاط ، وما لبث أن لقبه الملك بـ « المصاحب » (النديم) الخاص ، فعظم قدره ، وعلا مكانه وذاع صيته باسم « راجه بيربر » . إنه اتخذ موقف السخرية والاستهزاء ، والجراءة الوقحة إزاء العقائد الإسلامية ، والمسائل الدقيقة ، والشؤون الدينية ، بعد أن عرف اتجاه الدولة ، ورغبة الملك ، فساير البيئة حيث كانت هذه السخرية « العملة السائدة » في ذلك العهد ، فصفق له الناس من كل جانب ، وقام بدور خطير في توجيه الملك توجيهاً هازلاً غير جاد في أمور الدين[2] .

ملا مبارك وولداه ، فيضي وأبو الفضل :

وزاد الطين بلة تردد ملا مبارك الناكوري على البلاط ، وكثرة اختلافه إليه[3] ، وحصل لابنيه فيضي ، وأبي الفضل من الحظوة ولتقدير ، عند السلطان ، والتبجيل والإكرام في البلاط ، ما لم يحصل لأحد من قبل .

(١) انظر « منتخب التواريخ » ج ٢ ، ص ٢١١ .
(٢) راجع للتفصيل « منتخب التواريخ » ج ٢ ، ص ١٦١
(٣) ذكر أبو الفضل في « أكبر نامه » وصول ملا مبارك الى البلاط لأول مرة في حوادث العام الثاني عشر من تولي الملك .

وتطالعنا الدراسة المنصفة المحايدة لحياة ملاّ مبارك ، وفيضي وأبي الفضل وسيرتهم على أنهم كانوا من نوابغ الأذكياء ، وذوي الباع الطويل في العلم والثقافة الغزيرة الواسعة ، والمتبحرين في العلوم العقلية والأدبية وأصحاب القريحة في الشعر والنثر الفارسيين ، وخلاصة القول أنهم كانوا أفضل وأعقل وأرقى نتاج للمناهج الدراسية المطبقة في ذلك العصر ، وأسلوب البحث والتحقيق ، والتدريس ، والعلوم والثقافات المفضلة السائدة في عصرهم ، ولو كانوا قد جمعوا إلى هذا الإدراك الدقيق ، والعقلية النابغة ، والقريحة الفياضة، والقلم السيال ، واللسان الذرب الطليق ، استقامة في الدين ، ورسوخاً في الإيمان واليقين ، وخشية رب العالمين ، والرغبة في الآخرة ، والإخلاص في العمل ، والربانية المشرقة ، لكان لهم دور أيّ دور ، وقاموا بمآثر جليلة ، ووقاية كاملة لعصرهم من الفتن والويلات ، كان من العسير أن يوجد لها نظير ، ولكن دراسة سيرتهم وأحوالهم ومؤلفات أبي الفضل وفيضي أنفسهما تكشف لنا عن الجوانب التالية :

١ ـ لقد كان ملا مبارك ـ وهو الركن الأول من هذا الثالوث ـ مضطرب النفسية ، قلق التفكير ، موزع الهم ، درس المذاهب الفقهية الأربعة ، واطلع على الخلافات فيها ، فاتجه الى الكراهية لها والنفور منها ، وإنكار فضلها بدل أن ينحو نحو الجمع والتطبيق ، والتوجيه الصحيح ، وأنكر هذا التراث الفقهي العظيم ، وجهود السلف الصالحين ، وسيطرت عليه الفلسفة لانضمامه ـ فيما بعد ـ إلى حلقة أبي الفضل الكاذروني من كبار فضلاء العلوم العقلية المعروفين من أبناء شيراز ، وبدأ يطالع كتب التصوف و« الإشراق » مباشرة من غير مراجعة أئمة هذا العلم ومشائخ الطرق ، ومن غير أن يستفيد منهم في علم التزكية والسلوك ، والاطلاع على مصايد الشيطان ، وأمراض النفس ، ومعالجتها عن طريق المناهج المعروفة ، فوقع في الأخطاء ، ونشأت فيه طبيعة متقلبة متلونة مضطربة بعد أن مرّ بهذه الأودية والشعاب ، ووجدت فيه ـ من جراء ذلك ـ ملكة التلون بكل لون، والتكيف مع كل

حال ، والسير في مسار هذا المثل النفعي ، « در مع الدهر حيث دار » ، يقول عنه الشيخ خواجه كلان بن الشيخ الكبير خواجه عبد الباقي النقشبندي ، الذي تربى في بيت ابنة الشيخ مبارك المذكور[1] :

« كان يعتنق في كل دور من أدوار حياته المذهب أو الديانة التي يرغب فيها الأمراء والملوك[2] » .

ويقول المؤرخ (Sir Welzle Haig) : « لقد اعتنق ملاّ مبارك - في مختلف أدوار حياته - السنية والشيعية والصوفية ، والمهدوية ، وغير ذلك مما لا يعلمه إلاّ الله[3] » .

٢ - إنهم كانوا أصحاب طموح وطلب للجاه والنفوذ ، فلم تكن طبيعتهم القلقة الفياضة لتقنع بالعلم والتدريس ، وتنحصر في دائرتها الضيقة المحدودة فتاقت نفوسهم إلى إظهار نبوغهم وذكائهم في البلاط والتأثير فيه ، فاستظل بظل الملك أكبر - الذي كان يعتبر ظل «هما[4]» - وحصل لابنيه النفوذ والسلطة وإن لم يحصل له .

٣ - يبدو أن علماء ذلك العصر - ولا سيما مخدوم الملك ، والشيخ عبد النبي اللذان كانت لهما السيطرة والنفوذ في البلاط - لم يعطوه مكانه اللائق به الذي كان يستحقه لفضله وذكائه ، وأنه عورض من قبل الأوساط الدينية لبعض معتقداته وآرائه المنحرفة ، وتلون طبيعته ، وقوبل بالإهمال وقلة الاهتمام بشأنه ، وذلك ما جرح قلبه ، وترك فيه آثاراً عميقة ، وفي تعبير الأديب الكبير الشيخ محمد حسين

---

(١) تربى خواجه كلان في بيت الشيخ حسام الدين ، وكانت زوجة الشيخ حسام الدين بنت الملاّ مبارك ، (انظر « تاريخ هندوستان » ج ٥ ، ص ٩٤٧) .

(٢) « مبلغ الرجال » ورقة ٣٣ ، ألف .

(٣) Cambridge History Of India Vol. 4. p. 18

(٤) « هما » طائر أسطوري في الأدب الفارسي ، يعتقد فيه البركة ، ويتفاءل به فيقال إنه اذا جلس على رأس انسان أو وقع عليه في طيرانه آل اليه الملك .

آزاد : « كم من سهام الظلم والحيف أصابت فؤاد الشيخ مبارك ، وأحدثت فيه ثقوباً لا تحصر ، وأن الجراح التي نالها الشيخ أبـو الفضـل ووالـده الشيخ مبـارك ، من « مخـدوم الملك » و « صـدر الصـدور » لم يكن لهـا من برء على مرّ الأعـوام وكرّ السنين[1] » ، ويقول في موضع آخر : « إن ما أصاب الشيخ مبارك من الرزايا على يد « مخدوم الملك » ما نسيها أبناؤه ، فبدأوا ـ لتلافيه ـ يسعون للوشاية عنـد الملك أكبر ، ومن ثم بدأ التحول في أفكاره وآرائه[2] » ، ويقول محمد حسين ـ رغم أنه من المتحررين « المتنورين » ـ : « كانت حالة فيضي وأبي الفضل كحالة أبيهما غامضة مبهمة » .

وأورثت معارضة العلماء وظلم ذوي العصر عقدة « مركب النقص » في جميع أفراد هذه الأسرة ، وعقدة مركب النقص(Inferiority Complex) تظهر في أشكال مختلفة ، وفي صورة « مـركب الاستعـلاء »(Superiorty Complex) أحيانـاً ، فعزموا على أن لا تقوم قائمة لأي عالم أمام علمهم وذكائهم .

وذهب ضحية هذا الحقد على علماء البلاط والترة التي كان يحملهـا الثلاثـة الإسلام والنظام الديني بأسره ، حتى إذا أفل نجمهم وانطفأ سراجهم أو كاد ينطفىء إزاء نبوغ هذين الأخوين وذكائهما النادر ، وعلا في الدولة صيتهما وطار في الآفاق ذكرهما ، كانت حديقة الإسلام الذابلة ـ بفعلهم بين سَمْعِهم وبصرهم ـ تلتهمهـا النيران ، ويشب فيها الحريق ، وكان أبو الفضل ـ حسـب ما يقـول المؤرخ عبـد القادر ـ يردد هذين البيتين ، وهما لسان حاله واصدق ترجمانه ، يقول ما معناه :

« لقد أشعلت النيران بيدي في مربدي ، وقتلت نفسي بنفسي ، فكيف أشكو عدوي ، وليس هناك عدو إلا أنا نفسي ، آه من نفسي ويدي وعدوي » .

---

(١) دربار أكبري ص ٤٩ ـ ٥٠

(٢) أيضاً ، ص ٣٨٩ .

وكان لملاّ مبارك هذان الولدان النابغـان أبـو الفيض فيضي الـذي ولـد عام ٩٥٤ هـ ، وأبو الفضل العلاّمي المولود عام ٩٥٨ هـ .

وكان فيضي نابغة من نوابغ العلوم الأدبية ، لا يختلف اثنان في روعة شعره الفـارسي وإمامتـه فيه ، وأصـاب العلامـة شبلي النعمانـي حيث قال في « شعـر العجم » : لم ينجب الشعر الفارسي في الهند في عمره الطويل الممتد على ستة قرون سوى شخصين ، أذعن لهما ، طوعاً أو كرهاً ـ أصحاب هذا اللسان ، هما خسرو وفيضي » .

« تتلمذ فيضي على خواجه حسين المروي ، وبرز في كل علم وفن ، ودخل بلاط الملك عام ٩٧٤ هـ ، ـ العـام الثاني عشر من تربـع السلطـان ، على عرش الدولة ـ ونال الشرف والتقدير ، ولم يزل يتقرب إلى السلطان إلا أنه لم ينسلك في وظيفة من الوظائف في البلاط ، كان طبيباً نطاسياً ، وكان شاعراً مجيداً ، وكان مؤلفاً قديراً ، يقضي وقته في هذه الأعمال العلمية ، وأسند إليه تأديب أبناء الملك وتعليمهم وتثقيفهم ، ففي العام الثاني عشر من تولي السلطان عهـد إليه بتعليم ولي العهـد دانيال ، وعلمه فيضي ـ في أيام قليلة ـ مبادىء العلوم ، وألقى أكبر ـ هذا العام ـ خطبة في المسجد ادعى فيها الاجتهاد والإمامة ، وكان فيضي مؤلف هذه الخطبة ، وقلّل أكبر من نفوذ الشيخ عبد النبي وحدّ من سلطانه ، وفرق الصدارة ـ الرئاسة ـ في عدة شعب ، فأسند عام ٩٩٠ هـ رئاسة آكره ولكالنجر وكالبي إلى فيضي ، ولما بعث الجيوش لمقاومة قبيلة يوسف زئي ، أنفذ معهم فيضي للقيام بهذه المهمة معهم ، وفي عام ٩٩٦ هـ وهو العام الثالث والثلاثون من تولي أكبر للحكم ـ لقب فيضي بملك الشعراء ، وعين سفيراً في « خانديس » عام ٩٩٩ هـ الموافق للعام السادس والثلاثين من حكمه ـ فقام بهذه الخدمة خير قيام ، ونجح فيها نجاحاً كبيراً ، وتوفي في شهر صفر ١٠٠٤ هـ الموافق للعام الأربعين من ولاية السلطان[1] » .

(١) ملخص من « شعر العجم » للعلامة شبلي النعماني ، ج ٣ ، ص ٢٨ ـ ٧٢

وله تفسير من أشهر ما ألفه وأسماه « سواطع الإلهام »[1] - عدا ما خلّفه من مؤلفات أدبية ، وكتب مترجمة من اللغة السنسيكريتية ، وقصائد متفرقة وديوان شعر - وتفسيره هذا تحاشى فيه الحروف المعجمة كلها ، وأكمل تأليفه في عامين ، انتهى منه سنة ١٠٠٢ هـ ، وجازاه أكبر على هذه الخدمة بعشرة آلاف روبية[2] وكان فيضي يعتز بهذا التأليف ، ويقدر من خلال كتابه مدى قدرته البيانية ، وملكته اللغوية ، ويعترف الشيخ البدايوني - رغم الاختلاف في العقيدة والمذهب - بعبقريته العلمية وتبحره في اللغة ، فيقول :

«كان نسيجا وحده في الفنون كالشعر والألغاز والعروض ، والقوافي ، والتاريخ واللغة ، والطب والإنشاء » .

وكان شغوفاً بجمع الكتب ، أنشأ مكتبة قيمة ضخمة كانت تحتوي على أربعة آلاف كتاب ، أكثرها مم ألفه بنفسه ، أو أُلِّفَت في عصره .

ويجمع العلامة عبد القادر البدايوني وجميع من في عصره ممن كانت تجيش في

(١) ألف فيضي هذا التفسير - الذي التزم فيه بأن لا يستعمل أيّاً من الحروف المعجمة والذي طار صيته في عصره ، وتحدث به القاضي والداني - لاثبات فضله ونبوغه ، والرد على اتهامه بالانصراف عن العلوم الدينية ، ولكن هذا العمل - مهما أثبت له من قدرته على اللغة العربية ، وامتلاك لناصية البيان فيها - لم يضف شيئاً علمياً مفيداً ، وانما مثله مثل بعض الكتبة البارعين في الخط ، الذين كانوا يتظاهرون بدقة خطهم وجمال فنهم ، بكتابة سورة الاخلاص - كاملة - على حبة واحدة من الأرز ، فجاءت - نتيجة ذلك - عبارة متكلفة لا لذة فيها ولا جمال ولا طراوة .

ولعل مأثرة عالم الشام الشيخ محمد بدر الدين المعروف بابن الغَزّي الدمشقي (م ٩٨٤ هـ) كانت أنفع وأحق بالتقدير والاجلال ، اذ أنه فسر القرآن الكريم في مائة ألف وثمانين ألف بيت من الشعر ، ثم لخصه في مجموعة أخرى من الشعر ، وقدمها الى السلطان سليمان القانوني ، وعرضه السلطان على العلماء حتى يبينوا اذا كان فيه ما يخالف عقيدة الجمهور أو ان كان وقع فيه تحريف ، واتفق العلماء على صحته واعترفوا بفضله ، فأعطاه السلطان جائزة قيمة غالية . (الكواكب السائرة لنجم الدين الغزي ، وراجع أيضاً « البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للعلامة محمد بن علي الشوكاني اليمني صاحب « نيل الأوطار » (م - ١٣٥٠ هـ) ج ٣ ، ترجمة محمد بن محمد الغزي - ص ٣٥٣) .

(٢) مآثر العلماء ، ج ٢ ، ص ٥٨٧ .

قلوبهم الحمية الإسلامية والغيرة على الدين ، ويعصرهم الحزن والألم على ما يشاهدون من الأوضاع والظروف السيئة في عهد الملك أكبر ، على أن فيضي كان كوالده فريسة الاضطراب والتبلبل في الأفكار ، والتزلزل في العقائد ، وأن له يداً فعالة في انحراف « أكبر » وإلحاده وأن صورة « فيضي » كما تتجلي في « منتخب التواريخ » للبدايوني ، إذا أخذناها بالحيطة ، وبإبعاد عناصر المبالغة ، والإنشاء الأدبي الطليق ، لا تخلو من التحرر والانطلاق ، وعدم التقيد بالإسلام ، وذكر العلامة النعماني مقتبسات من مذكرته تدل على طابع السخرية والاستهزاء[1] ، يقول العلامة النعماني :

« أقام فيضي وأبو الفضل مجالس علمية ظهر فيها لأصحاب البلاط بكل وضوح أن هؤلاء المتعصبين (من العلماء المجتمعين في البلاط) لا يحملون سوى أدوات اللعن والتكفير[2] » .

ويبدو أن أفكار فيضي وآراءه الملحدة انتشرت في الآفاق ، وذاع صيتها في الأطراف في حياة فيضي نفسها ، فإن التواريخ التي استخرجت منظومة بمناسبة وفاته تدل على ذلك ، وقصة وفاته تحمل في نفسها العبرة والدرس .

أما صنوه أبو الفضل ـ فقد كان كما تقدم ـ من نوادر الرجال في الذكاء وسيلان القريحة والتفنن في العلوم ، وكانت له اليد الطولى والقدح المعلى في الكتابة والإنشاء ، كما كان أخوه الأكبر صاحب الكعب العالي في الشعر يقول في كتابه « أكبر نامه » :

« **إنه جن جنونه في صغره ، ضد** التقليد والظاهرية ، والصلف ، والإعجاب بالرأي »[3]

---

(١) انظر « شعر العجم » ج ٢ ، ص ٤٩ و٥٠ .
(٢) « منتخب التواريخ » ج ٢ ، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٥ ، وانظر الكلام على مذهب فيضي وآرائه في « دربار أكبري » بقلم الشيخ محمد حسين آزاد ، ص ٤٧١ .
(٣) « أكبر نامه » ، ص ٨٣ ـ ٨٤ .

وسعد بالمثول في البلاط الملكي عام ٩٨١ هـ بمدينة آكره ، وأهدى إلى الملك تفسير « آية الكرسي » ثم أهدى إليه تفسير « سورة الفتح » عام ٩٨٢ هـ ، ومن ثم نال الزلفى عند الملك ، ولم يزل يتقرب إليه حتى سلمت إليه مقاليد « الوزارة العالية » و« النيابة المطلقة » ، وإن « آئين أكبري » ـ دستور هذه الدولة وقوانينها ـ أعظم مآثره ، وإنها مرآة صادقة لوقائع الدولة التيمورية وأحوالها الدينية والعلمية ، والعائلية والمدنية والاجتماعية ، والاقتصادية والزراعية ، والصناعية والحربية ، والدولية ، ويلي هذا الكتاب كتابه الثاني « أكبر نامه »[1] ، وهو يشتمل على سيرة السلاطين التيموريين في الهند ، وأحوالهم ، وهناك ـ عدا هذين الكتابين العظيمين ـ مجموعة رسائل بعنوان « إنشائي أبو الفضل » ، ومؤلفات أخرى ، وقد قام نرسنك ديو ـ بإشارة الملك جهانكير ـ باغتياله عام ١٠١١ هـ ، فحزن عليه « أكبر » حزناً عميقاً وبكى لموته ورثاه .

يقول الدكتور محمد باقر في مقاله بعنوان « أبو الفضل » الذي جاء في دائرة المعارف الاسلامية الأردية :

« كان لأبي الفضل التأثير الكبير على عقائد الملك الأكبر ، ولما أنشأ أكبر عام ٩٨٢ هـ الموافق عام ١٥٧٥م بناية خاصة للعبادة في فتح بورسيكري ، وجمع علماء الدين ليستمع إلى مناظراتهم ومباحثاتهم ، كان أبو الفضل ممن يحضر هذه المناظرات ، وكان يؤيد ـ دائماً ـ ما يذهب إليه أكبر في العقائد والآراء ، وينحاز إليه ، حتى أثبت لأكبر أن ما يذهب إليه من آراء ومعتقدات أرجح وأفضل جداً من آراء العلماء المعاصرين ، وأصدر عام ١٥٨٩ م قراراً من البلاط ينص على أن المرجع

---

(١) يقول العالم الفرنسي الشهير « CARRADEVAUX » عن كتاب « أكبرنامه » : « انه وثيقة تاريخية يحق للشرق أن يعتز بها ، وان العبقريات الانسانية التي عرفت بنفسها عن طريق هذا الكتاب الضخم ، يخيل الينا أنهم سبقوا عصرهم في تدبير شؤون الدولة والتنظيم للبلاد » (CARRA DE VAUX LES PENSEURS DE L'ISLAM — PARIS. 1921)

النهائي في الفصل بين خلافات العلماء الدينيين هو « جلالة الملك » أكبر ، وقد رغبت نفسه أثناء هذه المناظرات التي كانت تعقد في معبده في ابتداع دين جديد ، فوضع أساس هذا الدين عام ١٥٨٢م ، واختاره أبو الفضل أيضاً »[1] .

تختلف الآراء في أبي الفضل ، أنه كان إنساناً متحرراً ، طليقاً من القيود الدينية ، وبعيداً عن العصبية فحسب ، أم كان مضللاً منافقاً كائداً للإسلام ، يظن الناس ـ عادة ـ أنه كان رحب الصدر ، متسامحاً مع الناس ، يراعي الصدق والدقة في بيان الأحداث والوقائع ، ولا يطري الناس ، ولا يثني على أحد أكثر من حقه ، وكان يكره تزمت المتزمتين ، وعصبيتهم ، ويحسن بنا أن نذكر هنا حادثة نستطيع بها إدراك عقلية أبي الفضل ، وسبر أعماقها والاطلاع على نواياه :

« حميت المناظرة ـ ذات مرة ـ في قصر الملك أكبر الذي بناه للعبادة ، حول فضائل القرآن ، والإنجيل ، إذ كان أتباع كل واحد من هذين الكتابين المقدسين يقولون إن كتابهم هو المنزل من السماء لا غير ، فأرسل « أكبر » إلى رجل من المجاذيب يدعى الشيخ قطب الدين ، فجاء الشيخ وتحدى المسيحيين ، وقال : تعالوا نوقد النار ، وندخل فيها ، ونثبت عن طريقها صحة دعوانا ، يقول البدايوني : فأوقدت النيران ، وتقدم الشيخ قطب الدين وجذب بأطراف معاطف البطارقة المسيحيين ، وقال : تعالوا باسم الله ، ندخل فيها ، فلم يتجرأ أحد منهم أن يقتحم النار »[2].

أما أبو الفضل فيحكي هذه القصة في أسلوب يدل على نفسيته الحاقدة على الإسلام ، فيقول :

« أقام البطريق رادلف (RUDOLF) ـ الذي كان نادرة عصره في العلم

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، ج ١ ، ص ٨٨٩ـ ٨٩٠ .
(٢) منتخب التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ .

والذكاء ـ أدلة عقلية راجحة ، ولكن هؤلاء الكذابين المتزمتين جعلوا يردون عليها في طيش وسطحية ، ولم تكن لدلائلهم أي قيمة ، فخجل المعارضون لرادلف (المسيحي) ، وبدأوا يسبون الإنجيل بدلاً من الرد على الأدلة ، فتحداهم رادلف ، ودعاهم إلى اقتحام النار ، ليثبت كل فريق دعواه بمروره على النار سليماً ؛ ولكن خاف هؤلاء الجبناء أصحاب القلوب السوداء ، وتظاهروا إزاء هذا التحدي بالتزمت والمراء ، وكان هذا الجبن منهم صدمة لقلب السلطان أكبر »[1] .

وكان من الحاضرين في البلاط ـ آنذاك ـ مع البطريق الإيطالي رادلف أكويا (Rudolf Aqua Viva) ـ أحد المسيحيين الأسبان ، أنطوني مانسريت (Antony Monserrate) وأحد الإيرانيين الذي اعتنق المسيحية ، فرانسس هنري كيس (Francis Henri Wuez) وألف أنطوني مانسريت كتاباً باسم Mongalicae Legationis Commentarius / في اللغة اللاتينية ، وتحدث فيه عن انطباعاته ومشاعره حول بلاط السلطان أكبر ، ويلاحظ في الكتاب دفاعه عن جبن البطريق رادلف وتهيبه للدخول في النار ، ويعترف بأن التحدي باقتحام النار كان من قبل عالم مسلم ، وتخلص منه « رادلف » قائلاً : إن هذا اختبار الله ، وذلك يخالف مبادىء الدين المسيحي »[2] .

يكفي تناول أبي الفضل هذه الحادثة بالتحريف والتزوير ، ودفاعه عن « رادلف » وأسلوبه مع المعارضين له من العلماء المسلمين ، للدلالة على كراهية أبي الفضل للإسلام والنفور منه ، فلم يكن يتعذر على مثله في الذكاء والدهاء أن يبذر في قلب السلطان بذور الشك والارتياب واللادينية التي تنحرف به عن الإسلام ، وتنفره منه .

---

(١) أكبر نامه ، ص ٢٥٥ .

(٢) FATHER ANTONY MONSERRATE. MONGOLICAE — LEGATIONIS COMMENTARIUS. TRANSL. J.S. HOLLAND OXFORD UNIVERSITY PRESS. 1922 P. P. 39 — 42.

وجاء في « مآثر الأمراء » أن الملك جهانكير كان يقول : لقد لقّن الشيخ أبو الفضل والدي أن خاتم النبيين محمداً - ﷺ - كان أفصح الناس وأن القرآن من تأليفه ، ولذلك أوعزت إلى نرسنكه ديو عند عودة أبي الفضل من الجنوب ، أن يقتله ، وكان والدي - بعد ذلك - تاب من هذه العقيدة »[1] .

ولكن أوثق شاهد وأصدقه على ذلك ، تصريح من أبي الفضل نفسه ، يدل على أن ما قام به من دور باستعانة علمه وذكائه من صبغ أهواء الملك ورغباته بالصبغة العلمية ، وتقويتها بالأسلحة العلمية ، ورفع مكانته من والي الدولة المسلمة إلى « إمام العصر » و « مرشد الأمة » لم يكن ضميره مقتنعاً به مرتاحاً إليه ، وكان يستيقظ فيه - أحياناً - هذا الضمير ، ويثور هذا الشعور ، فيقول في رسالة وجهها إلى الأمير عبد الرحيم « خانخانان » يتحدث فيها عن نفسه :

« إن كاتب هذه السطور لتورطه في جحيم الأشغال التي لا تعنيه ، سقط من مرتبة عبد من عباد الله إلى حضيض عبد النفس والهوى ، وكان أن ينادي يا عبد الدينار والدرهم ، وأنه يبدي عن طريق هذه الكتابة ألمه وحزنه ويرى أنه بعد هذا السعي السفيه الخثيث ، طوال ثلاث وأربعين سنة ، ولا سيما هذا الصراع الذي دام اثنتي عشرة سنة مع أبناء هذا الزمان لم يبق فيه بقية من صبر ، ولا قوة على الاجتناب والبعد »[2] .

تأثير زوجات الملك الهندوكيات :

كان عاملاً قوياً من عوامل انحراف « أكبر » وتحول نفسيته ، أنه بدأ يقيم الصلات والقرابات - لتوطيد أركان الدولة ، وإحكام السلطة - مع الراجوات - الأمراء - الراجبوت ، ويعيّنهم على المناصب الخطيرة العالية ، وأقدم لكسب ثقتهم

(١) مآثر الأمراء ، ص ٦١٧ .

(٢) « انشاىء أبو الفضل » (مجموع رسائل لأبي الفضل) ج ٢ ، ص ١٠٢ ، طبعة لكهنئو ١٨٨٣ م .

وإرضائهم ـ على أمور وأعمال لم يسبق إليها أحد من سلفه من الملوك والسلاطين ، كالنهي عن ذبح البقرة ، والتجلي للناس من نافذة القصر مستقبلاً الشمس ، وحلق اللحية . . . ووضع نقطة من الطين الملوّن في وسط الجبين ـ وهو من شعار الهنادك ـ والزواج مع النساء الراجبوت ، ومخالطة الأميرات الهندوكيات ، والمشاركة في العادات والمظاهر الهندوكية ، وقد كان لهؤلاء الزوجات الهندوكيات ، ولإخوتها وذوي قرباها ـ عن طريقها ـ أثر كبير على « أكبر » وكان ذلك طبيعياً ، وأن أول هَدَّة وقعت في بنيان الدين ، وزلزلت قواعده ، ترجع إلى هذه الصلة والقرابة مع الهندوكيات .

وتفصيل هذا الإجمال أن الشيخ عبد الرحيم قاضي « متهرا » أعد العدة لبناء مسجد في المدينة ، فأغار أحد البراهمة في جنح الليل ، وحمل أدوات البناء وكل ما جهز لأجله ، وبنى معبداً هندوكياً ، فلما أخذ المسلمون يناقشونه ويلومونه انفجر يسب الإسلام والرسول ـ ﷺ ـ فرفع القاضي عبد الرحيم أمره إلى « صدر الصدور » الشيخ عبد النبي ، فأصدر الشيخ عبد النبي ، أمراً بطلبه إلى مجلسه ، وحقق معه في الأمر ، حتى تبين أن الحادثة كما ذكرت ، فحكم الشيخ بإعدامه ، ولكن هذا البرهمي كان مرشد الملكة جوده بائي ، والقائم بأعمال «بروهت» ـ وهو الذي يكون عالماً من علماء الديانة الهندوكية ، ويقوم بالشؤون الدينية ، وأداء تقاليد الأعراس والمآتم ، وكفن الموتى وإحراقهم في الأسر الهندوكية ـ وكانت الملكة تضغط على أكبر ليتدخل في الأمر ، ويصدر العفو عن المجرم ، ولكن لم يكن الملك يريد التدخل في الشؤون القضائية وإغضاب صدر الصدور ، وبالفعل نفذ صدر الصدور حكم الإعدام ، فثارت الفتنة وتطورت القضية بدل أن يقضي عليها وتدفن ، كما يقول البدايوني :

أوغرت أخوات راجوات الهند العظام صدر السلطان ، وحركن فيه النخوة حيث أنه أطلق الحرية لعلماء الدين حتى ركبوا رؤوسهم ، لا يبالون برضا السلطان

وأمره ، وأثيرت في البلاط مسألة أن المذهب الحنفي لا ينص على القتل عقاباً لشاتم الرسول ـ ﷺ ـ ولذلك فإن هذا الإجراء مخالف للمذهب الذي يسود قانونه في هذه البلاد » .

و انتهز الشيخ مبارك هذه الحادثة لتنفير السلطان أكبر من علماء الدين وتخليصه من تأثيرهم ، لأنه لما استفسر الشيخ مبارك عن رأيه في هذا الأمر ، قال له :

« إن جلالة السلطان إمام هذا الزمان ، ومجتهد هذا العصر ، فلا حاجة له في إصدار رسائله وأحكامه ـ سواء كانت تتعلق بأمور الدين أو شؤون الدنيا ـ إلى الاستعانة بأي عالم من العلماء أو شيخ من المشايخ »[1].

مذكرة الاجتهاد والإمامة :

كانت هذه الفرصة السانحة التي أخذ فيها الشيخ مبارك بيد الملك ، وأعد تلك المذكرة التاريخية الخطيرة التي تعتبر حجر الأساس في توجيه « أكبر » وحكومته نحو الانحراف والضلال ، ويمكن أن تسمى الباب الرئيسي لذلك القصر الفخم الذي قام على الردة العقلية والحضارية والعقائدية[2] ، لقد جاء في هذه المذكرة بصراحة ووضوح :

« إن منزلة السلطان العادلة أكرم عند الله من منزلة المجتهد ، وإن جلالة السلطان ، كهف الأنام ، أمير المؤمنين ، ظل الله على العالمين ، أبا الفتح جلال الدين محمد أكبر الملك الغازي ، أعدل الناس وأعقلهم وأعلمهم ، فإن كان هو ـ بناءً على ما تقدم ـ يرى رجحان رأي على رأي ـ تيسيراً على بني آدم ـ في المسائل التي اختلف فيها المجتهدون ، بذهنه الثاقب ورأيه المصيب ، ويقره حكماً فاصلاً فإنه

---

(١) منتخب التواريخ ، ج ٣ ، ص ٨٣ .

(٢) راجع النص الكامل لهذه المذكرة ، في « منتخب التواريخ » ج ٢ ، ص ٢٧١ و٢٧٢ ، و« طبقات أكبري » ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤ ، وراجع ترجمتها العربية المفصلة في « نزهة الخواطر » ج ٥ .

يعتبر هذا الحكم من الملك حكماً قاطعاً مجمعاً عليه ، ويتحتم على جميع الرعية الأخذ به والخضوع له » .

أُعدّت هذه المذكرة في رجب عام ٩٨٧ هـ ، ونفذت في المملكة ، ووقع عليها جميع العلماء بإشارة من الملك ، ومن ثم أصبح الملك إماماً مجتهداً ، ومستوجب الطاعة والانقياد ، وخليفة الله في الأرض ، وكانت هذه نقطة البداية لرحلة الردة التي انتهت لا إلى الزيغ والانحراف عن الإسلام فحسب ، بل إلى المعارضة والعناد ، والمكابرة .

ووقّع الشيخ مبارك أيضاً على هذه المذكرة ، وكتب بعد توقيعه :

« وكان هذا ما كنت أبغيه ، وأحنّ له من أعماق قلبي ، وأترقبه من أعوام طوال »[١] :

نظرة على هذه المذكرة :

لا يخلو تاريخ الحكومات المسلمة الطويل من أمثلة التأييد المطلق للسلاطين وأصحاب السلطة والقوة ، والدفاع عنهم ، والتماس العذر لأخطائهم وزلاتهم وتأويل غلطاتهم وتدعيم أوامرهم الجائرة ـ التي تلحق ـ أحياناً ـ الضرر البالغ بالإسلام وتسيء إلى سمعته ـ وإجراءاتهم الخاطئة ، ومشروعاتهم المضللة بالشواهد الفقهية والكلامية ، وقد حدث في التاريخ أن العلماء أخطأوا وزلوا مراراً ، وأساءوا إلى مكانتهم ومنصبهم ، ونزلوا عن مستواهم ـ لمصلحة اختيارية أو اضطرارية ـ إلا أنه يصعب العثور على نظير في التاريخ لهذه المذكرة ـ التي أعدها الشيخ مبارك وحده ـ لمساندة السلطان وتدعيمه ، وتدبير المؤامرة ضد الشريعة والدين ـ فقد خوّل فيها الملك الشاب الفج[٢] ، مكانة أعلى من مكانة المجتهدين ، وحق الترجيح

---

(١) انظر « (CAMBRIDGE HISTORY OF INDIA. Vol. 4m p. 123) » .

يصرح البدايوني بأن عقلية الشيخ مبارك كانت تعمل وراء هذه المذكرة وهو الذي كتب مسودتها ، ويستفاد من تصريحه أيضاً أن الشيخ مبارك كان ممن وقّع على هذه المذكرة ، ولكن الغريب أن أبا الفضل لم يذكر اسم والده الشيخ مبارك فيمن وقّع على المذكرة ، رغم أنه تحدث عنهم وذكر أسماءهم .

(٢) كان أكبر ـ اذا ذاك ـ في الثامنة والثلاثين من عمره .

والاختيار في المسائل التي اختلف فيها الأئمة المجتهدون واعتبره أعقل الناس وأعدلهم ، وهو الأمي المحَض ، الذي كان من قبل ، مطلق الجماح ، متحرراً منطلقاً من كل القيود ، والذي فقد ثقته في علماء الإسلام وشراح الدين ، وفقهاء الشريعة ، وتأثر بالبيئة الهندوكية المسيطرة على بيئته وبلاطه تأثراً عميقاً ، ووجد فيه ميل شديد إلى إتخاذ العادات والتقاليد والأفكار الهندوكية ، وكان يملك سلطة مطلقة ، وحكومة قوية جبارة ، ولم يكن يستفيد من ذلك إلاّ أصحاب الأغراض والأهواء ، وأولئك العلماء في البلاط الذين كانوا يريدون باسم السلطان ، وتحت ستار أوامره ورسائله إطلاق الحرية ، وإيجاد جو من طرح القيود وتعدي الحدود ، وتحويل الشريعة الإسلامية إلى لعبة بين الأطفال ، أو أنهم كانوا يحلمون بالثأر والانتقام من معارضيهم وأعدائهم .

وما كان الشيخ مبارك في مثل فطنته وذكائه ممن تخفى عليه نتائج هذه الخطوة وعواقبها الخطيرة ، ويصعب لأجل ذلك تأويل تلك المؤامرة التي كانت تراد من هذه المذكرة ، ويحق ـ لمؤرخ ناقد بصير يعرف عوقب هذه الاجراءات ونتائجها الوخيمة أن يخاطب اليوم ـ روح الشيخ مبارك ويقول :

فإن كنتَ لا تدري فتلك مصيبةٌ وإن كنتَ تدري فالمصيبة أعظم

سقوط مخدوم الملك وصدر الصدور :

وبدأ أفول نجم مخدوم الملك ملا عبد الله السلطانبوري ، وصدر الصدور الشيخ عبد النبي من يوم صدور هذه المذكرة ، ومساندة الشيخ مبارك العلمية ، ووجود إبنيه النابغتين فيضي وأبي الفضل في لبلاط ، وجيء ذات يوم بمخدوم الملك والشيخ عبد النبي ـ اللذين نظرا إلى هذا التغيير الحادث في البلاط ، وكانا قد اعتزلا في البيت ، وتركا الخروج ، ـ إلى البلاط ، أجلسا في صف النعال[1] ، ثم أمر مخدوم الملك أن يغادر إلى الحجاز ، فرحل إلى الحجاز عام ٩٨٧ هـ ، واستقبله هناك العلماء الكبار بحفاوة بالغة ، وأكرمه أستاذ العلماء العلامة شهاب الدين أحمد ابن حجر

(١) « منتخب التواريخ » ج ٣ ، ص ٧٩ ـ ٨٣ .

الهيتمي ، وبجّله ، فمكث في مكة المكرمة ثلاث سنين ، ثم عاد إلى الهند ، وما أن بلغ كجرات حتى سقي السم ، ووافته المنية هناك عام ٩٩٠ هـ أو ٩٩١ هـ ، وتشهد كل القرائن على أن عملية السم كانت بإشارة من السلطان وقد صرح بذلك خافي خان في « مآثر الأمرا »[١].

وتوجه الشيخ عبد النبي ـ أيضاً ـ إلى الحجاز ، وأقام هناك مدة يسيرة ولكن لعله لم يستطع أن يمحو من ذاكرته عهد عزه وسلطته ، وجاهه وشوكته ، فرجع إلى الهند ، والتمس من الملك العفو والمسامحة ، ويقول عبد القادر البدايوني إن الملك أمر الراجه تودرمل أن يحاسبه ، فحبسه الراجه وشدد عليه في الحساب والمناقشة ، حتى نفذ صبره ولقي المنون ، إلاّ أن « مآثر الأمراء » يقول : « إن الملك وكل به أبا الفضل ، فقتله خنقاً بيده »[٢].

الإعداد للألف الثاني وتنفيذ الدين الإلهي :

وكانت الخطوة الثاني بعد إحلال الملك منزلة المجتهد المطلق ، والمطاع الحق أنه قد مضى على طلوع الإسلام ألف سنة ، ويبدأ الألف الثاني ، وإن الدنيا بطلوع هذا الألف الثاني تستأنف عهداً جديداً ، فلا بد لها من دين جديد ، وقانون جديد ، وشارع جديد ، وحاكم جديد ، وليس في العالم لهذا المنصب الجليل إلا أكبر ، صاحب التاج والعرش ، والإمام العادل العاقل ، يقول المؤرخ عبد القادر :

« ولما أنه قد رسخ في ذهن الملك أن مدة ألف سنة ، بعد البعثة النبوية ـ وهي العمر الطبيعي لهذا الدين ـ قد انقرضت ، فلم يبق هناك ما يحول دون إبداء تلك الرغبات الكامنة في الصدر »[٣].

وبعد هذا القرار الحاسم عملت تلك التغييرات التي تكفلت بنشر هذه الفكرة وترسيخ جذورها في أنحاء المملكة ، ومن ثم كتب التاريخ الألفي[٤] على العملة ـ

---

(١) « نزهة الخواطر » ج/ ٤ .

(٢) « نزهة الخواطر » ج ٤ .

(٣) « منتخب التواريخ » ، ص ٣٠١

(٤) أيضاً ص ٣٠١ .

التي تتداولها الأيدي ، وليست وسيلة أكثر منها ذيوعاً وانتشاراً ، لإقامة الحد الفاصل في تاريخ العالم وتقسيمه إلى الفترتين المتميزتين . وأسند إلى لجنة مكونة من العلماء تدوين تاريخ جديد باسم « التاريخ الألفي » ، وذكروا فيه كلمة الوفاة « الرحلة » ، بدل الهجرة لبيان السنين ، وبذلت محاولات لإفهام الناس :

« إنه قد أظل زمان مرشد هذا العصر الذي يزيل الخلافات بين اثنتين وسبعين فرقة من المسلمين والهنادك ، وأنه هو الملك صاحب الصفات القدسية »[1].

وظهر من ذلك اليوم « الدين الإلهي الأكبري » الذي احتوى على الشرك الصريح المتمثل في عبادة الشمس ، والكواكب ، بدل التوحيد ، وعلى عقيدة التناسخ مكان البعث والنشور ، وكان أكبر يأخذ البيعة من الناس على هذا الدين الجديد وكانت الكلمة التي يدخل بها الإنسان في هذا الدين : لا إله إلاّ الله ، أكبر خليفة الله » وكان مع هذه الكلمة عهد وميثاق ، يقول فيه معتنق هذا الدين :

« إنني - عن رغبة ورضا مني وحب من قلبي - أفارق دين الإسلام المجازي التقليدي الذي سمعت عنه من آبائي ، وشهدتهم عليه ، وأرفضه ، وأدخل في الدين الإلهي الأكبري ، وأقبل مراتب الإخلاص الأربعة في الدين ، من ترك المال والنفس ، وترك العرض والدين »[2] .

وكان الربا والقمار ، والخمر والخنزير حلالاً طيباً في هذا الدين ، ونهي فيه عن ذبح البقرة ، وأجريت تعديلات في أحكام النكاح ، وكان النهي البات عن الحجاب والختان ، وقد نظم فيه الزنا تنظيماً خاصاً ، وعين للمومسات مكان خاص ، وأصدر بصدده قانون ، فكان بغاء رسمياً وعدلت طريقة الدفن للموتى .

وخلاصة الأمر أنه دوّن دين هندي أكبري جديد ، أوثر فيه أسلوب الحياة الذي يوفر الغذاء للميول والرغبات الطبيعية ، وإشباع الشهوات النفسية ، وكانت

---

(1) « منتخب التواريخ » ، ص ٢٧٩ .
(2) أيضاً ، ص ٢٧٣ .

تدعو إليه الأغراض السياسية والقومية ، والمصالح الخارجية ، وترجح كفته[1] .

أوج الانحراف الطبيعي والضلال الديني في « أكبر » :

ونود أن نقدم هنا مقتبسات من كتاب أبي الفضل العلامي ـ الذي كان العقل المدبر واليد الفعالة وراء أكبر ـ لنرى مدى ذلك الضلال الديني ، والانحراف الطبيعي ، والزيغ والجنون الذي بلغ بأكبر إلى ما بلغ ، وإن هي إلا وقائع متناثرة جاءت في تصريحات أبي الفضل ، تدل على ذلك التحول الشامل والانحراف المستطير ، الذي ساد في ذلك العصر ، ويمكن من خلالها تصور تلك السلسلة الملتهبة التي طوقت بها عنق الإسلام في هذه البلاد .

عبادة النار :

يقول أبو الفضل : « إن جلالة السلطان ـ لتنور بصيرته ـ شغوف بالنور ، ويعتبر تقديسه وتعظيمه من عبادة الله والثناء عليه ، وإن الجهلة الذين أظلمت قلوبهم يعدون ذلك عبادة النار والإعراض عن الله »[2] .

ويقول : « يشعل الخدم بعد غروب الشمس اثني عشر شمعاً ممزوجاً بالكافور ، ويضعون كل شمعة من هذه الشموع في قصاع من الذهب والفضة ، ويأتون بها إلى حضرة السلطان ، ويتغنى أحد من هؤلاء الخدم ، حلو اللسان جيد النغم بأناشيد الثناء على الله في ألحان جميلة جذابة متنوعة ، وهو يحمل الشمعة ، ثم يدعو في الختام ليمد الله في عمر جلالة السلطان وثروته »[3] .

---

(١) ولم يكن الموقف مع الدين الإسلامي والديانة الهندوكية ـ في هذه المساحة المطلقة ، وحركة المصالحة التامة ـ متساوياً ، بل رجحت ـ بطبيعة الحال ـ كفة ذلك الدين أو الفريق الذي كان له نفوذ وتأثير في البلاط ، وميل إليه في نفس السلطان ، وقد اعترف مؤلفو « مختصر تاريخ الهند » دبليو ، ايج ، مورلند واي ، سي جترجي : بأن أكبر نهى عن ذبح البقرة إرضاءً للهنادك ، وعاقب من خالف هذا الأمر عقاباً صارماً شديداً ، وكانت قوانين أكبر أقرب إلى الديانة الهندوكية وأمس رحماً بها منها بالدين الإسلام ، وقد نجحت هذه السياسة « (A SHORT HISTORY OF INDIA) ٢٥١ .

(٢) آئين أكبر ، ص ٢٨ ، طبعة لكهنئو ١٨٨٢ م .

(٣) أيضاً ج ١ ، ص ٢٩ .

عبادة الشمس :

كانت عبادة إله النور في عمارة تسمى « دو آشيانه منزل » ومنها بدأ تعظيم الشمس ، ويقول جلالة السلطان إن للشمس اهتماماً خاصاً بحال السلاطين ، ولأجل ذلك يعتقد أن عبادتها عبادة الله ، إلاّ أن قصار النظر يقعون في سوء الظن ، لماذا يحترم العامة من الناس الأغنياء أصحاب القلوب السوداء بغرض المنفعة الذاتية ؟ ويقصرّون ـ لجهلهم وعماهم ـ في تعظيم منبع النور ، ويرمون العابد بما يرمون ، أصيبت عقولهم بآفة ! وإلاّ فلماذا أصبحت سورة الشمس نسيا منسياً »[1] .

ماء نهر « كنكا » :

يقول : « إن السلطان يشرب ـ دائماً ـ من ماء نهر « كنكا »[2] (الكنج) سفراً وحضراً ، وقد عين فريق من الموظفين الثقات على شاطىء النهر ، يأتي إلى السلطان بمائه في أكواب مملوءة مختومة ، وحينما ينزل جلالة السلطان في آكره ، أو فتحبور ، يؤتى له بالماء من قرية « سورون » وفي هذا الوقت بالذات حيث نصبت الخيمة الملكية في لاهور تجد الخزان ريّان بالماء الجيد الصافي من « هردوار »[3] ، ويستعمل في المطبخ ماء نهر « جمنا » أو نهر « جناب » أو ماء المطر ، إلاّ أن هذا الماء يكون ممزوجاً بشيء من ماء نهر كنكا »[4] .

الرسم والتصوير :

« تكلم ـ ذات يوم كعبة الدنيا جلالة السلطان في غرفة خلوته حيث كان جمع من المريدين السعداء وليس غيرهم ، فقال : إن فريقاً من الناس يعادون فن التصوير ، ويبينون عيبه وفساده ، ولكن القلب لا يقبل أقوالهم وأدلتهم ، بل إن ما

---

(١) أيضا ـ ج ٣ . ص ١٨٤ .
(٢) النهر المقدس عند الهنادك ، يعبدونه ويرمون فيه موتاهم ، ويتقربون بالاغتسال فيه .
(٣) مدينة مقدسة على شاطىء نهر كنكا في الولاية الشمالية يحجون اليه .
(٤) آئين أكبري ، ج ١ ، ص ٣٣ .

يدل عليه العقل ، وتشهد عليه القرائن أن المصور يكون أقرب إلى معرفة الله ـ تعالى ـ من غيره من الطبقات البشرية المختلفة ، لأنه عند تصويره لحيوان يأتي بشبيه لكل عضو من أعضائه ، ثم حين يكمل الصورة وينظر إليها يرى أنه رغم هذه الريشة المصورة الساحرة ، يعجز تماماً عن أن ينفخ فيه الروح ، فتتجلى له عند ذاك قدرة الخالق المطلقة ، ويسجد أمام هذا الصانع العظيم »[1].

مواقيت العبادة :

« عند الفجر ، الذي به البداية لليوم السعيد ، والإشعاع والتنوير ؛ وعند الظهر حيث يحيط ضوء الشمس الوهاجة بأطراف العالم ، وينشط الناس نشاطاً مضاعفاً ، وعند العشي إذ تغيب الشمس منبع النور والضياء عن أبصار الناظرين »[2].

سجدة التحية والتعظيم ·

يقول : « يسجد له المريدون المعتقدون سجدة التحية والتعظيم ، ويرونها سجوداً لإله النور » .

البيعة والسلوك :

« يأتي طالب المعرفة واليقين ، حاملاً عمامته بيده ، ويضع رأسه على قدمه الشريفة ، ويقول بلسان حاله : أوجه قلبي بإرشاد سعادة جدي وحسن حظي إلى طاعة السلطان والخضوع لأمره »[3] .

آداب المقابلة :

وكان من آداب المقابلة « أن ينادي شخص عند مقابلة شخص للسلطان ،

---

(١) أيضاً ج ٢ ، ص / ٧٨ .
(٢) أيضاً ، ج ١ ، ص ١٠٧ .
(٣) أيضاً ، ج ١ ، ص ١١٠ .

بالله أكبر ، وينادي آخر ، « جل جلاله » .

كراهية التاريخ الهجري والنفور منه :

« كان جلالة السلطان من مدة مديدة يفكر في إجراء تقويم جديد للشهور والسنين في الهند ليدفع المشكلات ويوفر التسهيلات ، ولا يحب جلالة السلطان التاريخ الهجري لنقصه وعيوبه ، ولكن طبيعة جلالة السلطان التي تجبر القلوب لا تتحمل أن تكسر خاطر الكثيرين من قليلي الإدراك والفهم ، والقاصري النظر الذين يعدون إجراء تقويم جديد قضية دينية ، وكان هذا هو السبب في أن جلالة السلطان لم يستطع أن ينفذ هذا التقويم فعلاً »[1] .

الأعياد والمهرجانات غير الإسلامية :

« يسمى المهرجان الأول مهرجان نوروز ، فعندما تكمل الشمس دورتها السنوية وتدخل في برج الحمل ، وتفيد أهل الدنيا ببركاتها ، يعقد احتفال لتسعة عشر يوماً كاملاً ، تقضي في نشوة وسرور ، ولذة وترف ، ويحتفل في نفس هذه الأيام بالعيد ليومين ، وتوزع على الناس أشياء لا حصر لها من النقود التي لا تعد ، وتوزع الصدقات والهدايا والتحف ، وأن غرة « فروردين » وتسعة عشر « فروردين » ، هما يوم الشرف والفخار ، خاصان بالعيد ، ويعتقد المجوس أن اليوم الذي يكون سمياً للشهر من أيامه مبارك جداً ، ويحتفلون بذلك اليوم في الملاذ والمسرات ، ويعطون المغنين والمغنيات ، ويعدون لقرى الناس ، فاقتفى جلالة السلطان أثرهم ، وعين كل شهر في التقويم الشمسي لمهرجان خاص ، وفيما يلي كشف بهذه الأيام » :

« ١٩/ فروردين ، ٣/ أردي بهشت ، ٦/ خورداد ، ١٣/ نير ، ٧/ أمرداد ٤/ شهربور ، ١٦/ ، مهر ، ١٠/ آبان ، ٨ ، ١٥ ، ٢٣ / دي ، ٢ / بهمن ٥/ اسفنديار » .

---

(١) أيضاً ص ١٩٣ .

هذه هي الأيام التي تعقد فيها المهرجانات ، وتقام أنواع من الزينات ، وتنصب أقواس النصر ، وترفل البلاد في حلة من الجمال والبهاء ، ويهتف المحتفلون في نشوة وطرب وسرور ، هتافات الفرح والحبور .

وتحضر عند كل فترة من فترات النهار الطبول ، فيغني المغنون ، ويطرب المطربون ، ويشيعون بالألحان والنغمات الحلوة ، والسرور في الحضور » .

فرمان يمنع الزكاة :

بدأ هذا العام في « التقويم الإلهي » من ٥/ صفر ٩٨٩ هـ[١] ، فصدر الأمر السلطاني برفع « تمغة »[٢] وإلغاء الزكاة[٣] ، وأصدرت فرامين لتنفيذ هذا الأمر إلى جميع الجهات ، « ليعلم الموظفون في الحال والمستقبل ، والعاملون في البلاد المحروسة أنه قد صدر فرمان في هذا العهد السعيد الذي يبتدأ من سن ولاية جلالة السلطان للدولة ، وهو العام السابع من القرن الثاني - أي العام السابع والثلاثون[٤] ، لأن المراد بالقرن هنا ثلاثون عاماً - وهو العهد الذي ظهر فيه صبح الجلال والجمال ، وازدهرت الدولة ونعمت البلاد ، إن سياسة البلاد تقتضي أن الحكومة والدولة التي هي عبارة عن حماية مصالح المواطنين والمهاجرين والموظفين والتجار ، والتي هي وسيلة لجباية ، الخراج ، الذي يعتمد عليه نظام الجنود الحارسين للأنفس والأموال والعقائد ، والذين يراقبون الأسواق ، فإن اختل ميزان هؤلاء الأمناء الدينيين الذين ينقدون النقود والغلات ، لتحولت المصالح إلى

---

(١) وهو العام السادس والعشرون من جلوس السلطان ، وذكر البدايوني في حوادث عام ٢٥ من الجلوس .

(٢) لفظة « تمغة » تعني الختم ، او الوثيقة المختوم عليها ، كما يقال للأرض والعقار الذي رفعت عنه الضريبة الرسمية ، وتقطع لأي فرد من الأفراد جزاء على عمله الديني او غيره مما ينفع البلارد ، او تستخدم في الأمور الخيرية .

(٣) يلاحظ في « أكبر نامة » ان أبا الفضل لا يتعرض لهذا الفرمان الذي يلغي الزكاة ابقاء على سمعة اكبر وتبرئة لساحته من مثل هذه الأحكام .

(٤) وهذا خطأ ، بل صدر هذا الفرمان عام ٢٦ من جلوس السلطان اكبر كما تقدم آنفاً .

المضار ، والحسنات إلى السيئات ، ونحمد الله ـ تعالى ـ على أن جلالة السلطان لم يزل مراعيا للمصلحة العامة ، ومربياً للرعايا ، الذين هم مثل أبنائه ـ معنى ـ والأمانة الإلهية في يده ، وأن لله المنة علينا بأن جعل الهند والبلاد المحروسة الأخرى مهد العدل والرخاء ، ومستقر المسافرين والظاعنين » .

« وقد صدر ـ أخيراً فرمان ـ لعطف جلالة السلطان وشفقته على الخلق ـ برفع الزكاة وجميع المكوس والضرائب الصغيرة والكبيرة على جميع أنواع الغلات والخضروات والأغذية والأدوية ، والملح ، والمسك ، وجميع العطور ، والأقمشة والقطن ، والصوف ، والأشياء المصنوعة من الجلد ، والنحاس ، وأواني الخشب ، والقصب والعشب ، وأشياء وغلات أخرى ـ إذ أنها عماد المعيشة ـ سوى الفيل والخيل والإبل والشاة ، والسلاح والأشياء الضرورية ـ التي استثنيت من قبل ـ في جميع البلاد المحروسة »[1] .

أكل اللحوم :

«يقول السلطان : لو لا تفكيري في مصاعب الحياة على الناس لنهيتهم عن أكل اللحوم ، ولا أحب ـ نظراً إلى هذه الناحية ـ أن أنفذ هذا الأمر في الرحلة الأولى ، لأن كثيراً من الأعمال تبقى ـ عند هذا التنفيذ السريع ـ ناقصة ، ويبلغ الحزن الممض بالناس إلى حد الجنون ، ويقول : ينبغي إبعاد بيوت الجزارين ، والصيادين للأسماك ، والمشتغلين بأمثال هذه المهن والأعمال ، ممن تقتصر مهنتهم على القتل ووالإماتة ، من بين عامة السكان ، وتؤخذ الغرامة من كل من يتصل بهم ويقابلهم »[2].

الخنزير :

«يقول : إذا كان السبب في تحريم الخنزير قلة الحياء فيه ، لزم من ذلك ، أن

---

(١) طبقات اكبرى ، ص ٦٧ ـ ٦٨ .
(٢) أيضاً ج ٣ ، ص ١٨٩ .

يكون الأسد وأمثاله من السباع حلالاً طيباً »[1]

شرب الخمر :

« كان (جلالة السلطان) يتناول في مهرجان هذا الشهر ، الرحيق المنبه للعقل والمنشط للفكر ، وشرب المفتي مير صدر جهان ، ومير عدل ، ومير عبد الحي ، كؤوساً من الخمر كذلك ، وجرى هذا البيت على لسان السلطان الذي يقول فيه :

« لقد أصبح القاضي والمفتي في عهد السلطان ذوي العفو والغفران يشربان الخمور ويحسوان من الكؤوس »[2] .

التقاليد والطقوس الهندكية :

« ماتت أم خان أعظم مرزا على أثر المرض الشديد ، فحزن عليها السلطان حزناً عميقاً حتى حلق رأسه وشاربه في المأتم ، ورغم كل المحاولات أن لا يحلق الشعر غير أبناء الفقيدة الكبار ، إلا أن العباد المخلصين ألحوا أن يحذوا حذو السلطان » .

إنكار المعجزات :

« يقول السلطان : السفهاء يؤمنون بالمعجزات ، ولكن العقلاء لا يعتقدون في شيء إلاّ بعد تحققه وثبوته بالدلائل »[3] .

استنكار الختان وكراهيته :

« من العجب أن تصروا على ختان الأطفال مع أنهم ليسوا بمكلفين بالفرائض

---

(١) أيضاً ص / ١٨٦ .
(٢) أيضاً ج ١ ، ص ١٠١ (بالأردية) .
(٣) أيضاً ص / ٣٠٣ .

والواجبات »[1] .

قوانين الزواج :

« يرى جلالة السلطان أن الزواج مع ذوات القربى القريبة أمر مكروه ، ويقول : ألا يستنكر أتباع محمد ـ ﷺ ـ المتعصبون المتزمتون الزواج ببنات الأخوال والأعمام ، ويكره جلالة السلطان الزواج بأكثر من واحدة »[2] .

رؤية السلطان هي العبادة :

« يقول جلالة السلطان : إن رؤية وجوه السلاطين هي العبادة ، إنهم يسمون « ظل الله » ، ولكن رؤيتهم تذكر في الحقيقة بالخالق ، ويتبادر عندها الذهن إلى ظل القادر المطلق »[3].

إعلان التقويم الإلهي وتنفيذه :

« في عام ٩٩٢ هـ ، أضاء نور العقل والبصيرة الشاهنشاهية شمعة العلم والفضل والكمال التي نورت ـ بضيائها المبارك الميمون ـ جميع العالم ، وهب فريق السعداء وطلاب الحق ورواد الخير من سبات الخيبة والخسران ، وغطى القائلون بالخنا ، وضعفاء العقل والبصيرة ، وجوههم في زاوية الخمول ، وتحققت إرادة جلالة السلطان الخيرة ، وشمر بقية الحكماء الشيخ العلامة مير فتح الله الشيرازي عن ساق الجد لإنجاز هذه المهمة ، فوضع العلامة الشيرازي أمامه الزيجة الكوركانية ، وقرر بالنظر فيها ، أن يكون العام الذي تربع فيه جلالة السلطان على عرش المملكة ، بداية التقويم الإلهي »[4].

ولا بأس ـ بعد الإلمام بهذه الحقائق الأساسية التي يتكون منها هيكل الفكر الديني عند أكبر ـ أن نكمل صورة هذا الهيكل وشكله الحقيقي بذكر بعض التفاصيل

---

(١) آئين أكبري ، ج ٣ ، ص ٢٣٨ .
(٢) أيضاً . . . رقم ٢٤ .
(٣) أيضاً ج ٣ ، ص ٢٤٣ .
(٤) أيضاً ، ج ١ ، ص ٥٦٤ .

والأمور الجزئية التي أوردها ملا عبد القادر البدايوني في كتابه ، حتى تتجلى الخطة الكاملة ، والتصور الصحيح لتلك الكراهية ، والعناد والبغض للإسلام ولصاحب الشريعة الغراء ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي كان نتيجة الإنحراف عن دين الإسلام .

الازدراء بالدين الإسلامي وإهانته :

« لقد وصم تراث الملة الإسلامية كله بالحدوث ، واعتبره مجموعة من السفاهات ، وأن واضعيه ومؤسسيه أعراب فقراء من جزيرة العرب كانوا مفسدين في الأرض ، وقطاع طرق ، واستدل على ذلك ببيتين من « شاهنامه فردوسي » الذي قالهما على طريق النقل والرواية :

« من شرب ألبان الإبل ، وأكل الضباب ، بلغ العرب إلى أن بدأوا يحلمون ببلاد العجم ، سحقاً لدوائر الزمان سحقاً »[1] .

السخرية من الإسراء والمعراج :

« قال السلطان مرة : كيف يتصور أن يقبل العقل أن شخصاً يحمل جسماً ضخماً يبلغ ـ بغتة ـ عنان السماء ، ويتحدث مع الله تسعين ألف حديث ، ذي شجون ، ويبقى فراشه دافئاً ، ثم يقبل الناس هذه الدعوى ، كما أنهم يؤمنون بشق القمر ، وأمثاله من الأمور المستبعدة » .

ثم وجّه سؤالاً إلى الحاضرين ـ وقد رفع رجله ـ قائلاً :

« لا يمكن أن أقوم إلاّ بأن تكون الرجل الثانية مستندة على الأرض ، فأيش هذه الخرافات »[2] ؟ .

---

(١) منتخب التواريخ ، ص ٣٠٧ .
(٢) أيضاً ج ٢ ، ص ٣٠٧ .

إهانة مكانة النبوة :

واعترض على النبوة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ مرة وعاب عليها :

« بالإغارة على عير لقريش في أوائل أيام الهجرة . والزواج من أربع عشرة امرأة وتحريم العسل ابتغاء مرضاة الزوجات »[1] .

النفور من أسماء النبي ـ ﷺ ـ والكراهية لها :

« كانت الأسماء مثل أحمد ، ومحمد ، ومصطفى وغيرها ثقيلة على سمع السلطان ، مراعاة للكفار خارج البيت ، والنساء داخل البيت ، وأخيراً ـ بعد أيام قليلة ـ غير أسماء خاصة أصحابه ، فكان ينادي « يار محمد » و« محمد خان » باسم « رحمت » ، ويكتب هذا الاسم نفسه عند الكتابة »[2] .

المنع من الصلاة :

« لم يكن يستطيع أي واحد من الناس أن يؤدي الصلاة جهاراً في القصر »[3] .

ويقول البدايوني في مكان آخر : « إنه قد أسقط فرائض الصلاة والصوم والحج من قبل »[4] .

---

(١) منتخب التواريخ ، ج ، ٢ ص ٣٠٨ .
(٢) أيضاً ص ٣١٤ ، ولأجل ذلك حذف أبو الفضل في الجزء الأول من كتابه « آئين أكبري » لفظة « محمد » و « أحمد » من أسماء عدد من الأمراء فيسمي « محمد منعم » ، بـ « منعم خان » ، و « مرزا محمد عزيز » بـ « مرزا عزيز » ، و « شهاب الدين أحمد خان » بـ « شهاب خان » وهناك أمثلة عديدة لتغييره الأسماء ، وحذف لفظة « محمد » أو « أحمد » منها .
(٣) أيضاً ص ٣١٥ .
(٤) أيضاً ص ٣٠٦ .

الاستهزاء بأركان الإسلام وفرائضه :

ويقول العلامة البدايوني :

« ألف ابن من أبناء ملاّ مبارك وكان تلميذ أبي الفضل عدة رسائل عن العبادات الإسلامية في أسلوب تهكمي ساخر ، وإيراد اعتراضات عليها ، وقد نالت هذه الرسائل إعجاب جلالة السلطان وقبوله ، وأصبحت واسطة له لدى السلطان في ولاية أمره ، والحدب عليه »[1] .

مفترق صعب خطير في تاريخ الهند الإسلامي :

وبالجملة فقد وقفت الهند ـ التي بذلت فيها الجهود المتواصلة ، وكرست الطاقات البشرية الفاضلة ، والكفاءات العقلية والمواهب الفكرية ، وربانية الصالحين والصفوة الطيبين ـ على طريق ردة دينية عقلية ، وحضارية شاملة ، كانت تساندها أكبر دولة على وجه الأرض في ذلك العصر ـ بعد الدولة العثمانية ـ والقوة العسكرية الهائلة ، وكان عدد من أذكياء ذلك العصر ونوابغه يمدون هذه الدولة بالأسلحة العلمية والعقلية ، فلو كان سير الأحداث والظروف مستمراً على هذا المنوال ، ولم تقف في وجهها شخصية جبارة تحول اتجاه السير ، أو لم يحدث حادث يغير الأوضاع ، ويحول البلاد ، لكان مصير هذه الدولة والبلد الإسلامي العظيم في القرن الحادي عشر الهجري ، كمصير الأندلس الإسلامية ـ الذي لا يعرفه العالم المعاصر إلا باسم « أسبانيا » ـ في القرن التاسع الهجري ، أو كمصير « تركستان » في القرن الرابع عشر الهجري (بعد الشورة الشيوعية) ، ولكن أدرك الله البلاد والعباد ، وقيض للإسلام رجلاً يحفظه من الكفر والشرك والضلال .

ونختم هذا الباب بالكلمة البليغة التي سطرها قلم مؤرخ الإسلام ومؤلف موسوعة « السيرة النبوية » العلامة السيد سليمان الندوي ، وهو يتحدث عن « قصة

---

(1) أيضاً ص ٢٧٠ .

الإسلام وغربته في ديار الهند » يقول :

« لقد مضى على هذا السبات العميق أربعة قرون ، وكاد أن يمضي على بداية رحلة الإسلام الغريب في هذه الديار ألف سنة ، كان ذلك عهد الملك أكبر ، إذ نهض ساحر من العجم ونفث في أذن الملك ، أن عمر هذا الدين الممتد على ألف سنة قد انقرض ، ومست الحاجة إلى أن يظهر دين إلهي جديد على يد ملك أمي ينسخ دين أمي ، فأوقد المجوس النيران في معابدهم ، ودقت النصارى نواقيسهم في كنائسهم ، وزينت البراهمة أصنامهم ، تمالأ التصوف واليوك وألحًا على أن يشعلا شمعة واحدة في المعبد الهندكي والكعبة ، وإذا أراد إنسان أن يتصور مدى ما تركت هذه الحركة الخماسية من آثار فليراجع « دبستان مذاهب[1] » ليرى كم من أصحاب الزنّار يحركون المسابح ، وكم من أصحاب السبح ، يعلقون في أعناقهم « الزنانير » ، كم من الأمراء يمرغون وجوههم على عتبة السلطان ، وكم من أصحاب العمائم يقفون في البلاط ، ويسمع من منابر المساجد نداء :

« تعالى شأنه ـ الله أكبر »

كانوا في كل هذا ، وإذا بصوت يعلو من جهة « سرهند » :

« أن خلّوا الطريق ، فقد جاء صاحب الطريق ، ظهر مجدد فاروقي[2] ، في الأبهة الفاروقية ، كان ذلك أحمد السرهندي »[3].

---

(١) كتاب في وصف الديانات المختلفة والفرق الاسلامية في الهند ، في الفارسية .

(٢) نسبة الى عمر الفاروق رضي الله عنه ، فإن أحمد الامام السرهندي من أعقابه .

(٣) تقديم كتاب « سيرة السيد الامام احمد بن عرفان الشهيد » (للمؤلف) بقلم العلامة السيد سليمان الندوي ، ص ٣٠ ـ ٣١ .

الباب الثالث
مجدد الألف الثاني الإمام السرهندي
موجز حياته : من الولادة إلى الإجازة والخلافة

الأسـرة :

ينتمي الإمام السرهندي إلى سيدنا عمر بن[1] الخطاب - رضي الله عنـه - ، فتنتهي سلسلـة نسبـه[2] بإحـدى وعشرين واسطـة إلى سيدنـا أمـير المؤمنـين عمـر الفاروق - رضي الله عنه -، ونسبه كما يلي .

الشيخ أحمد (الإمام السرهندي) بن عبد الأحد بن زين العابدين بن عبـد الحي بن محمد بن حبيب الله بن الإمام رفيع الدين بن نصير الـدين بن سليمان بن يوسف بن اسحاق بن عبد الله بن شعيب بن أحمد بن يوسف بن شهاب الدين علي فرخ شاه بن نور الدين بن نصر الدين بن محمود بن سليمان بن مسعود بن عبد الله الواعظ الاصغر بن عبد الله الواعظ الأكبر بن أبي الفتح بن إسحاق بن إبراهيم بن

(١) كان الإمام السرهندي يعتز بهذه الصلة النسبية بسيدنا عمر الفاروق ، وكان يرى حميته الـدينية من مقتضيات هذه النسبة وآثارها الطبيعية ، ولم يتمالك عندما اطلع على رأي الشيخ عبد الكبير اليمني يخالف به العقائد الاسلامية ، وجمهور أهل السنة والجماعة ان قال في حماس : « ايها الشيخ المكرم ! لا صبر لي على سماع مثل هذه الأقوال ، فإنه ينبض في العرق والفاروقي » . (الرسالة رقم : ١٠٠ ، من مجموعة الرسائل الموجهة الى ملا حسن كشميري) ، ويقو ، في رسالة أخرى كتبها عند علمه بأن الخطيب في قرية « سامانه » لم يذكر الخلفاء الراشدين في خطبة الجمعة عمداً : « وقد أثار سماع هذا الخبر البغيض ثائرتي ، وحرك العرق الفاروقي في ، فكتبت لذلك هذه الكلمات » (الرسالة رقم : ١٥ ، الجزء السادس من المجموعة الثانية) .

(٢) وقد اعتمدنا في بيان سلسلة نسبه على بحث علمي رصين كتبه احد ابناء هذه الأسرة العظيمة المحقق الفاضل الشيخ أبو الحسن زيد الفاروقي .

ناصر بن عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - .

والشيخ شهاب الدين علي فرخ شاه الكابلي جده الخامس عشر ، مؤسس هذه الأسرة الشهيرة ، وأن أكثر الفضلاء النوابغ ، والمصلحين المعروفين وكبار المشايخ وأصحاب السلاسل والطرق الصوفية الذين يتصل نسبهم بسيدنا عمر الفاروق - رضي الله عنه - كالشيخ العارف فريد الدين كنج شكر وغيره ، ينحدرون من هذه السلسلة ، وليست بين أيدينا تراجم مفصلة لعلماء أفغانستان ومشايخها ، لعدم وجود كتب الطبقات التي تتناول تراجمهم ، وكل ما نعثر عليه من سيرهم وأخبارهم نرجع فيها إلى تلك المصادر التي ألفت في ترجمة الإمام السرهندي ، وأخبار أسرته[1] ، وكان الشيخ الدين علي فرخ شاه (ابن الشيخ نور الدين ، وحفيد الشيخ نصير الدين) والي كابل ، ولذلك تنسب أسرته إلى « كابل » ، وكان متحلياً بالخصال الحميدة ، له شغف زائد بنشر الدعوة الإسلامية ، وتنكيس راية الكفر والشرك ، يمتاز في ذلك على كثير من أقرانه .

تولى الملك بعد وفاة والده ، وبذل جهوداً موفقة مشكورة في رفع الخصومة ، والقضاء على الصراع بين الأفغان والمغول ، وكان له حظ وافر من الربانية ، وصفاء الباطن وإشراقه ، مع الوجاهة والشرف ، وعظيم المنزلة ، انتفع به خلق كثير وتربوا على يديه ، وسلّم زمام الدولة - قبيل وفاته - إلى ابنه العظيم الشيخ يوسف ، واختار لنفسه حياة العزلة ، والانزواء في ممر يسمى « ممر فرخ شاه » - نسبة إليه - تقع على ستين ميلاً من كابل في جانب الشمال ، ودفن هناك .

---

(١) كـ « زبدة المقامات » و « حضرات القدس » ، وغيرهما من الكتب .

ولما فرغ الشيخ يوسف من تحصيل العلوم الدينية ، اشتغل بالتربية الباطنية والتزكية القلبية عند والده الشيخ سلطان فرخ شاه ، وخلفه في الحكومة بعد اعتزاله عنها ، كان معروفاً بالعدل والصلاح والاستقامة والديانة ، محبباً إلى الناس ، حصل له القبول بين عامة الناس وخاصتهم ، وكانت تشتعل في قلبه تلك الجمرة من الحب الإلهي ، الذي كان يدفع سلفه الميامين في عصور مختلفة إلى أن يتمسكوا بقول الشاعر (وقد تمثل به الإمام السرهندي في رسائله مراراً) .

هنيئاً لأرباب النعيم نعيمهم　　وللعاشق المسكين ما يتجرّع

واعتزل السلطة والحكومة في آخر عمره كأبيه ، ولجأ إلى زاويته ، وآثر الخلوة والعزلة ، فأخذ ابنه الشيخ أحمد بزمام البلاد ، وتولى شؤون الدولة وكان ـ كوالده ـ عالماً تقياً ورعاً ، وعارفاً ربانياً في كسوة ملك وسلطان ، وقد غلبته الجذبة الإلهية والشوق إلى الله ، حتى فارق السلطة ، ونفض يده منها ، وأوصى أبناءه بالبعد عنها ، وقطع الرجاء منها ، واحتفظ عنده بمال قليل يكفيه وعياله ، ووزع الباقي من الثروة الكبيرة على الفقراء والمساكين ، وكان قد تلقى التربية الروحية ـ بعد والده ـ على شيخ الشيوخ الشيخ شهاب الدين السهروردي ـ قدس سره ـ ونال منه الإجازة والخلافة .

وكان غيرهما من أفراد الأسرة الكبار أيضاً من الصالحين الربانيين الذين آثروا الفقر والخمول ، واشتغلوا بالتربية والإرشاد ، وكانوا يستفيدون من مشايخ عصرهم ، وصالحي زمنهم في التربية والسلوك ، ويأخذون عنهم الطريق ، بغض النظر عن اختلافهم في السلاسل والطرق .

وكان الإمام رفيع الدين الذي يكون الجد السادس للإمام السرهندي والعقب التاسع للشيخ شهاب الدين فرخ شاه ـ كما يقول صاحب « زبدة المقامات » جامعاً بين علمي الظاهر والباطن ، أخذ الطريقة عن الشيخ الكبير السيد جلال الدين البخاري[1] (ت ٧٨٥ هـ) وتلقى لديه التربية الروحية والسلوك ويدل ذلك على أنه كان من مشايخ أواخر القرن الثامن ، أو أوائل القرن التاسع وهو أول شخص من أفراد هذه الأسرة غادر « كابل » إلى الهند ، وتدير في « سرهند » التي كانت تسمى قديماً بـ « سهرند » ، وقد كان هذا المكان قفراً موحشاً ، ومأوى للسباع والوحوش ، ولم يكن بينه وبين قرية « سامانه » التي كانت تحمل إليها الخزائن الملكية ؛ أي مدينة أو قرية ، فعين الملك الصالح فيروز شاه خواجه فتح الله ، الأخ الأكبر للإمام رفيع الدين ، ومن المقربين لدى السلطان على الإسكان والعمران في هذه الناحية المهجورة ، فتوجه خواجه فتح الله بألفي راكب إلى هذه الناحية ، وبنى قلعة ، وأمر الشيخ مخدوم جهانيان الإمام رفيع الدين ـ الذي كان خليفته ، وإمامه في الصلاة ، وكان مقيماً في قرية « سنّام » ـ أن يضع حجر الأساس لهذه القلعة ، ويسكن في هذه المدينة الجديدة ، ولم تزل هذه الأسرة ـ من ذلك العهد ـ ساكنة في هذه المدينة ، ويقال إن تأسيس القلعة وبداية العمران في سرهند كانا عام ٧٦٠ هـ[2].

وهكذا كانت مدينة « سرهند » آهلة عامرة منذ قرنين من الزمان قبل ولادة الإمام السرهندي ، وتفيد كتب السير والتراجم أنه استوطنت هناك أسر كريمة ،

---

(١) اقرأ ترجمته الحافلة في الجزء الثاني من « نزهة الخواطر » للعلامة السيد عبد الحي الحسني .

(٢) قد ذكرها الرحالة الصيني الشهير هيون سانك(1HIUN SONG) . الذي زار الهند في القرن السابع الميلادي : وقال : « انه يستخرج الذهب من نواحي هذه المدينة ، وكان هذه المدينة في فترة من فترات التاريخ حداً فاصلاً بين المنادك والغزنويين ، وكانت أرض الهند وراء هذا الحد ، فسميت لأجل ذلك بـ « سرهند » ـ أي رأس الهند ـ ، وقد فتح السلطان محمود الغزنوي مدينة سرهند عام ٥٨٧ هـ الموافق ١١٥١م ، ولم يهتم سلاطين دهلي ـ إلى زمن فيروز شاه تغلق ـ بسرهند أي اهتمام ، ولما بدأ عهد السلطان فيروز شاه تغلق بدأت العناية بهذه المدينة .

عامرة بالعلماء والمشايخ ، وأن هذه الأرض أنجبت عددا من نوابغ الرجال وكبار العلماء ، ويبدو أنها بلغت ذروة التقدم ، وتوطدت صلتها بالثقافة الإسلامية في بداية القرن العاشر ، ولا نجد في كتب التاريخ والتراجم في القرنين الثامن والتاسع إلا أسماء معدودة ، لأفراد من أسرة الإمام السرهندي نبغوا في العلم وتنبّلوا ، ولكننا نرى من بداية القرن العاشر يقظة دينية وعلمية وحركة قوية نشيطة للإفادة والتدريس ، ونقف على أسماء لعدد من العلماء الأفاضل الذين انصرفوا إلى التدريس والإفادة ، والتربية والإرشاد ، ومن ثم كان كبار الأمراء في الدولة يولون مدينتي سرهند وفيروز بور ، وزادت أهميتها الاستراتيجية ، وزار الملك بابر مدينة سرهند مراراً وتكراراً ، ودخل الملك همايون كذلك في سرهند ، ومن هناك توجه إلى دهلي، واستعاد العرش والتاج للمرة الثانية ، وقد بلغت هذه المدينة في الرخاء والبهاء أوجها في العهد المغولي حتى كان فيها ٣٦٠ مسجداً ورباطاً ، وبئراً ومقبرة(١).

العارف الشيخ عبد الأحد السرهندي :

تناول الشيخ محمد هاشم الكشمي في « زبدة المقامات » ترجمة الشيخ عبد الأحد (المعروف بالمخدوم لجلالة شأنه) بشيء من الاستيعاب والتفصيل ، وأن الشيخ الكشمي مكث في صحبة الإمام السرهندي ثلاث سنوات متواصلة ، ومرجعه في حكاية الأحداث والوقائع في غالب الأحيان ـ أقوال الإمام وأحاديثه ، التي سمعها منه حيناً بعد حين ، وإذا كانت فيه زيادة فهي معتمدة على المعلومات التي أخذها من أبنائه العظام ، فتصريحاته ـ نظراً إلى ذلك ـ يوثق بها كل الثقة ، وأذكر فيما يلي خلاصة ما جاء في كتابه :

« استولى على الشيخ عبد الأحد من ريعان شبابه وفي أثناء دراسته الشوق الدافع إلى تحصيل « علم اليقين » والوصول إلى رب العالمين ، حتى لم يصبر ليتم دراسته ، وسافر إلى الشيخ الكبير عبد القدوس الكنكوهي ـ الذي انتهت إليه رئاسة

(١) ملخص من دائرة المعارف الإسلامية ، مقال بعنوان « سرهند شريف » .

الطريقة الجشتية الصابرية ، وطبق صيته الآفاق ـ فأخذ عنه الأذكار والأوراد ، وتلقى علم التربية الروحية والسلوك ، ثم لما أبدى للشيخ عزيمته على أن يلقى رحله هنا إلى أن يلقى الله ـ عز وجل ـ نهاه الشيخ الخبير البصير ، عن هذا القصد ، وأرشده ـ بتأكيد بالغ ـ إلى إتمام دراسته للعلوم الدينية ، والشريعة الإسلامية ، وقال له : إن الطريقة التي لا يرافقها العلم ، ليس فيها نور ورواء » ، فقال الشيخ عبد الأحد نظراً إلى كبر سن الشيخ وضعفه : أخاف أنني إذا قصدت تحقيق هذا الغرض بعد إكمال دراستي للعلوم الدينية أن لا ألقاك ، فقال الشيخ : إن لم تجدني ، فستنال هذا التراث عند ابني ركن الدين فخضع المخدوم لأمره ، وانصرف إلى العلم والدراسة .

وكان من قدر الله أن حدث ما تخوف منه الشيخ عبد الأحد ، فلقي الشيخ ربه ، قبل فراغ المخدوم من دراسته ، فأكمل المخدوم دراسة العلوم السائدة في عصره ، ثم بدأ يسيح ويجول في الأماكن المختلفة ، ويستفيد من شيوخها وصالحي أهلها حتى جاء إلى الشيخ ركن الدين ، وبدأ يرتقي درجات السلوك والإحسان ، إلى أن أجازه الشيخ في الطريقة القادرية الجشتية ، واستخلفه في التربية والتسليك والإرشاد[1] .

وقد كانت تسيطر على هذين الشيخين الجليلين الشيخ عبد القدوس ، والشيخ ركن الدين فكرة وحدة الوجود ، والسكر والاضطراب ، والفناء والاستغراق ، وكانا من أصحاب السماع والمواجيد ، وكان الشيخ عبد القدوس من الدعاة المتحمسين إليها ، ولكنه ـ رغم كل ذلك ـ كان راسخ القدم في اتباع السنة والعمل بالعزيمة ، يغلب عليه هضم النفس وإنكار الذات ، وكان رقيق القلب كثير التعبد ، يذكر الموت والبلى دائماً ، ويفكر في الآخرة ، وحسن الخاتمة في كل الأحوال[2] .

---

(١) شهادة الخلافة والاجازة التي أعطاها الشيخ للمخدوم مذكورة بنصها في « زبدة المقامات » واغلبها في العربية ، راجع ص ٩٢ ـ ٩٦ .

(٢) راجع للاطلاع على فضائله ومحاسنه وأذواقه « نزهة الخواطر » ج ٤ .

وكان للشيخ عبد الأحد ـ عدا أستاذيه في التربية والسلوك الشيخ عبد القدوس والشيخ ركن الدين ـ علاقة خاصة بالشيخ كمال الكيتهلي أحد المشايخ المعروفين في السلسلة القادرية ، وكان الشيخ كمال من نوابغ الرجال وأصحاب الأحوال والمقامات السنية[1].

وقد مضى ـ فيما تقدم ـ قول الشيخ عبد الأحد : « تفيد البصيرة الكشفية أن الشيخ كمال لا يدانيه في السلسلة القادرية العلية بعد مؤسسها الشيخ الجليل عبد القادر الجيلاني ، أحد من المشايخ الربانيين » ، وكان حفيده الشيخ سكندر كذلك من المشايخ الكبار ، وقد استفاد منه الشيخ عبد الأحد أيضاً .

ولما فرغ الشيخ عبد الأحد من دراسة العلوم الدينية ، خرج يجوب البلاد ، بحثاً عن رجال الله ، والربانيين الصادقين ، وعزم على نفسه عند السفر أنه إذا رأى آثار البدعة عند شيخ من المشايخ ، فسوف ينأى بنفسه عن مصاحبته فضلاً عن مبايعته ، فدار في البلاد ، ودرس واستفاد ، وعاد من هذه الرحلة الطويلة ، إلى سرهند ، فأقام فيها إلى أن لحق بالرفيق الأعلى ، ولم يغادرها إلى أي مكان ، كان يدرس في الكتب العقلية والنقلية المتداولة في تلك الأيام بتحقيق وتدقيق ، وكان الإمام السرهندي يقول : حصلت له الملكة الراسخة في جميع العلوم السائدة إلا أنه لم يكن له مثيل في علمي الفقه وأصوله ، وحينما كان يلقي درسه في « صول البزدوي » تتجلى للحاضرين جلالة شأن الإمام أبي حنيفة وإمامته وعبقريته ، وكان يدرس كتب التصوف أيضاً مع رسوخ قدمه وعلو كعبه في حل مشكلات «التعرف» و«عوارف المعارف» و« فصوص الحكم» (للشيخ محيي الدين بن عربي) ودقائقها الفنية ، وكان على مسلك الشيخ محيي الدين بن عربي علماً وذوقاً ، إلا أنه لمواهبه في علو الشأن وضبط النفس ، وتعظيم الشريعة لا تصدر من لسانه الشطحات والشوارد ، كان يغلب عليه التواضع وهضم النفس والتجريد ، لا يطلب من أحد خدمته ـ رغم كثرة

(١) راجع لأخباره المفصلة « نزهة الخواطر » ، ج ٤ .

تلامذته ومريديه ـ وكان يشتري حاجيات البيت بنفسه ويحملها إلى البيت ، يعتني أشد الاعتناء باتباع السنة ، فلا تفوته سنة ، ولا يترك شيئاً منها ما يستطيع إلى ذلك سبيلاً ، حتى كان له اهتمام كبير بالسنن العادية كاللباس والطعام ، عاملاً بالعزائم ، مجتنباً للرخص ، وكان يبدي شغفه بالطريقة النقشبندية ، ويشتاق إليها ، ويذكرها بالخير ويثني عليها ، فكان يقول : أدعو الله تعالى أن يشرف هذه البلاد بهذه الطريقة العالية ، أو أن يبلغنا إلى مركزها حتى نستفيد منها ، وكان يؤلف ويصنف، ومن مؤلفاته : « كنوز الحقائق » و« أسرار التشهد » ، وكان محباً لأهل بيت رسول الله ﷺ ، كما كان معظماً لأصحابه ، عارفاً لهم فضلهم وحقهم ، يقول إن لهذا الحب تأثيراً في حسن الخاتمة[1].

ولما بلغ في رحلته إلى « سكندره »[2] ، ومكث هناك أياماً قليلة ، تقدمت إليه أسرة كريمة لما توسمت فيه من شرف وكرم محتد ، ورأت صلاحه وتورعه ، وجمعه بين العلم والعمل ، خطبت إليه فتاة طيبة صالحة من بناتها ، فحصل الزواج ، وكان جميع أبناء الشيخ عبد الأحد من هذه الزوجة الكريمة الصالحة ، وقد رزق الشيخ عبد الأحد سبعة أبناء ، وقد كان الإمام السرهندي واسطة العقد وبيت القصيد من بين إخوته ، إلا أن بقية إخوته كانوا ـ أيضاً ـ أصحاب علم وصلاح ، واستعداد قوي ، وأخذوا العلوم المتداولة ، وتلقوا التربية الروحية على يد والدهم ، أو غيره من المشايخ المعاصرين .

وكانت وفاة الشيخ عبد الأحد في « سرهند » في ١٧ رجب عام ١٠٠٧ هـ ، ويمكن أن يقال إن ميزة الشيخ عبد الأحد تتجلى في الدوران مع الحق والدليل الشرعي ، والخضوع له ، والإنصاف من نفسه ، وتعظيم الشريعة الإسلامية ، والسنة النبوية وإجلالها ، والسعي لاتباعها ، والعناية بتطبيقها ، والحمية الدينية ، وعلو الهمة والطموح في ارتقاء درجات الإحسان ، والتقدم في مراتب

(١) « زبدة المقامات » ص ١٢٣ .

(٢) مدينة في الولاية الشمالية .

الإيمان ، وقد ورث منه هذه الخصيصة ، والميزة الباهرة ابنه العظيم - الذي قدر له أن يعيد الدين في البلاد الغربية غضاً طرياً ، ويحفظ تراث الأمة الإسلامية من عوادي الزمن - وزادتها العناية الربانية نوراً وصفاءً ، ووهبته من المحاسن والفضائل والعبقرية الإسلامية ما حولته شمساً وهاجة تشع بالنور وتبدّد الظلمات .

ولادته وقصة حياته

ولادته وتعلمه :

ولد الإمام السرهندي ليلة الجمعة ١٤ شوال عام ٩٧١ هـ ، الموافق ١٥٦٣م ، بمدينة سرهند ، وسمي « شيخ أحمد » ، كانت تبدو عليه - من صغره - مخايل السعادة والخير ، وسيما الرشد والصلاح ، وكان المشايخ الربانيون والعلماء الصالحون لا سيما الشيخ كمال الكيتهلوي الذي كان والد الإمام وثيق الصلة به - يحبونه ويحدبون عليه ، ويعاملونه معاملة خاصة ويؤثرونه على أترابه وزملائه .

بدأ تعلمه بحفظ القرآن الكريم ولم يمض كثير زمن حتى حفظه كله عن ظهر الغيب ، ثم بدأ يتعلم مبادىء العلم عند والده ، وبعد مدة يسيرة برزت مواهبه وصلاحيته ، وظهرت مزيته في سرعة إدراك المواد الدقيقة ، والتعبير عنها في عبارة واضحة مفصحة عن الموضوع ، وأخذ أكثر العلوم المتداولة عن والده ، وبعضها عن غيره من علماء عصره الكبار . ، ثم سافر إلى سيالكوت - التي كانت آنذاك - مركزاً علمياً ودراسياً كبيراً وقرأ بعض الكتب النهائية العالية المقررة في ذلك المنهج الدراسي (كالعضدي مثلاً) على الشيخ كمال الكشميري الذي كانت له اليد الطولى في المنطق والفلسفة ، والكلام وأصول الفقه ، وكان صيت ذكائه وقوة حفظه وكثرة قراءته ودراسته وسعة معلوماته ، وبراعته في التدريس ، منتشراً في الآفاق[1] ، وكان من

---

(١) كان الشيخ كمال الدين بن موسى الكشميري المذكور ، انتقل من كشمير عام ٩٧١ هـ الى سيالكوت ، واشتغل بالتدريس والإفادة نصف قرن من الزمن وتوفي عام ١٠١٧ هـ بلاهور ، ودفن هناك (انظر « نزهة الخواطر » ج ٥ ، ص ٣١٦) .

تلامذته أمثال العلامة عبد الحكيم السيالوكوتي من نوابغ العلماء ، وكبار الفضلاء وحذاق المدرسين ، وقرأ بعض كتب الحديث على الشيخ يعقوب الصرفي الكشميري الذي كان تلميذاً لمحدث عصره الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي المكي ، وترك في مؤلفاته شرحاً مستفيضاً لصحيح البخاري[1] .

وقد كان الشيخ يعقوب يحمل الإجازة من كبار المحدثين والمؤلفين في الحديث والتفسير ، وفي مؤلفاتهم ومجاميعهم ، وروى الحديث من العالم الرباني الشهير القاضي بهلول البدخشاني ، الذي كان عالي الكعب في علم التفسير والحديث ، وتلميذ عالم عصره الشيخ عبد الرحمن بن فهد ، وقرأ عليه صحيح البخاري ، ومشكاة المصابيح ، وشمائل الترمذي ، وكتباً أخرى في الحديث كما أسند عنه ثلاثيات البخاري ، والأحاديث المسلسلة ، وروى كتب التفسير أيضاً على طريقة المتقدمين . بالأسانيد المتصلة ، وقرأ فاتحة الفراغ وهو في السابعة عشرة من سنه[2] .

ولما فرغ من تحصيل العلوم العقلية والنقلية ، ومعرفة الأصول والفروع ، توجه إلى التدريس والإفادة . وألف عدة رسائل في اللغتين ، العربية والفارسية ، منها « الرسالة التهليلية » و« رسالة في الرد على مذهب الإمامية » ، وزار « آكره » (المعروفة بأكبر آباد ، عاصمة الامبراطور أكبر) عاصمة البلاد ـ آنذاك ـ وجالس بها أبا الفضل وفيضي ، ولكن لم ينسجم معهما لاختلاف الاتجاه والمشرب ، وكان بينه وبينهما ـ في بعض الأحيان ـ أخذ ورد ، وشد وجذب ، وأبدى استياءه من بعض الكلمات الجريئة الساخرة التي تفوه بها أبو الفضل ، وهجره لأجل ذلك ، فأرسل إليه أبو الفضل ، ودعاه واعتذر إليه مما صدر منه ، وساعد الإمام ـ مرة ـ أبا الفيض

(١) ولد الشيخ يعقوب بن الحسن الصرفي الكشميري عام ٩٨٠ هـ ، وسافر إلى سمرقند لتحصيل العلم ، وأخذ الطريقة الكبروية من الشيخ حسين الخوارزمي وصحبه مدة طويلة ، ثم سافر إلى الحجاز ودرس على علمائها الحديث وحمل من هناك كتباً غالية في الفقه والحديث والتفسير ، توفي في ١٢ ذي القعدة عام ١٠٠٣ هـ ، (انظر نزهة الخواطر ، ج ٥ ، ص ٤٣٩) وهكذا استطاع الامام السرهندي ؛ ان يتعرف عن طريق استاذه الشيخ يعقوب على الكتب الستة وغيرها من أمهات كتب الحديث .

(٢) ذكرت أسانيد الحديث المسلسل ، والأسانيد الأخرى في « زبدة المقامات » .

فيضي الذي كان منصرفاً في تلك إلى تأليف التفسير غير المعجم باسم « سواطع الإلهام » إذ وقف قلمه في موضع من المواضع لصعوبة التوصل إلى لفظة غير معجمة ملائمة للكلام الذي هو بصدده ، واستعصى عليه التعبير عن المعنى الذي يريده ، فأفضى بهذه المشكلة إلى الإمام السرهندي ، فحل العقدة ودله على الكلمة ، واعترف فيضي لأجل ذلك بغزارة علمه ، وسيلان طبعه ، وحضور بديهته .

أقام في « آكره » مدة طويلة حتى اشتاق والده إلى لقائه ، فسافر ـ رغم كبر السن وبعد المسافة ـ إلى آكره ، وعاد الإمام السرهندي مع الوالد إلى الوطن ولما مرّا بين دهلي وسرهند بمدينة تهانيسر ، استقبلهما الشيخ سلطان ـ الذي كان من رؤساء هذه المدينة وأعيانها ، ومن علماء عصره ومشايخه ، وكانت له الحظوة والزلفى لدى السلطان ، كما كان والياً على منطقة تهانيسر ـ بحفاوة بالغة ، وأكرمهما غاية الإكرام ، وأنزلهما عنده ضيفين مبجلين ، وأبدى رغبته ـ لسابق إشارة غيبية ـ في تزويج ابنته من الإمام السرهندي فقبل والده هذه المصاهرة ، وخطب خطبة النكاح ، وتم الزواج ، وسارت الزوجة مع القافلة إلى سرهند .

استكمال التربية والسلوك ، ومبايعة
الشيخ الكبير عبد الباقي البدخشي النقشبندي
والاستفادة منه :

لسنا ـ بهذه المناسبة ـ في حاجة إلى بيان الأدلة الشرعية والعلمية على ضرورة السلوك والتربية الربانية الصافية ، إذ أن قراء سلسلة « رجال الفكر والدعوة » ـ التي نحن في الجزء الثالث منها ـ قد ألموا بهذا الموضوع من خلال مطالعتهم لحياة الإمام حسن البصري ، والشيخ عبد القادر الجيلاني ، ومولانا جلال الدين الرومي ، فإذا كانت هناك بقية من حاجة ، وتطلع إلى مزيد من الإقناع والبرهنة فليراجعوا كتاب المؤلف « ربانية لا رهبانية » .

ولكن لا بد ـ في هذا الصدد ـ من أن نشير إلى أن ذلك الوسط والعهد الذي

قام فيهما الإمام السرهندي بدوره التجديدي ، ومهمته الإصلاحية العظيمة ، كان التصوف فيهما قد تغلغل في أحشاء المجتمع الإسلامي ، وامتزج بلحمه ودمه ، حتى أصبح التصوف له طبيعة وذوقاً ، وسمة وشعاراً ، ولم يكن الأمر مقتصراً على طبقة خاصة من الناس ، بل كانت العامة لا تعبأ بعالم أو مرب ، أو مصلح ، ولا تقيم له وزناً ، ولا تعتقد فيه الخير والصلاح ، ولا تنتفع بمواعظه وكتاباته ، ما لم يكن له إلمام بالتصوف والسلوك ، ويكون قد صحب بعض المشايخ المعروفين ، وانخرط في سلك بعض الطرق السائدة المقبولة في الناس .

ثم إنه لا تقوم ثورة حقيقية على أساس الخطابة الساحرة ، وغزارة العلم ، وسعة الثقافة إذا لم تكن وراءها النفس الزكية الخاشعة ، والقلب العامر الفائض بالإخلاص واليقين ، والتوجع لحال المسلمين ، والتألم مما أصاب الدين ـ وهي صفات لا تنشأ غالباً إلاَّ مع كثرة الذكر والعبادة ، ومجالسة الصالحين ، وترسم خطى المتقين ـ وكان من يمنّي نفسه بقلب الأوضاع التي استحكمت ورسخت ، وإصلاح المجتمع الذي استشرى فيه الفساد ، وتضافرت عليه عوامل الهدم والإفساد ، والتأثير في بيئة زخرت بكبار العلماء ، وحذّاق الأساتذة ، ونوابغ الأدباء والشعراء ، ثم لا يزيد على أن يشاركهم في بضاعتهم وقد يتفوقون عليه في بعض العلوم والفضائل ، ولا يكون عنده ما يحتاجون إليه ويقرون بتخلفهم فيه ، من صلة قوية بالله ، ومعرفة مصايد الشيطان ، ومكايد النفس ، ووصول إلى درجة « الإحسان » وأعلى مراتب الإيمان ، واستقامة على اتباع الشريعة والسنة النبوية ، وعزوف عن الشهوات ، وزهد في الدنيا ، واستهانة بأربابها ، وإقبال على الآخرة ، كان من هذا شأنه كمثل من يخوض في ساحة القتال من دون تجنيد وتدريب وتمرين ، ويقاتل جيشاً مدرباً مدعماً بالأسلحة والوسائل ، أعزل لا يحمل سلاحاً ، أو يحمل ما يحملونه ، أو كمثل الأخرس الذي يحاول البيان والتعليم والإفهام ، لقد كان من حكمة الله ـ عز وجل ـ وتدبيره أن أرشد الإمام السرهندي إلى أن يأخذ عدته قبل الخوض في المعركة ، وأن لا يأخذ هذا العلم من أهله ، ويجاهد في سبيله فحسب ،

بل يصل فيه إلى درجة الإمامة والاجتهاد ، لصحبة المشايخ الكاملين ، وتربية الأئمة الربانيين ، وبسبب المواهب الإلهية وما أراد الله به وقيضه له من إصلاح جذري ، وانقلاب شامل ، حتى ينهض بهذه المهمة العظيمة بكامل العدة والعتاد ، والثقة والاعتماد ، وأن تظل آثار دعوته وحركته خالدة مع القرون والأجيال ، وتمتد إلى الآفاق في بلدان العالم البعيدة النائية .

ولما دخل « سرهند » ألقى فيها عصا الترحال ، وبقي يخدم والده إلى أن أدركه الموت ، واستفاض منه كثيراً من الفيوض الروحانية ، ودرج في مسالك الإحسان ، مقتفياً آثار المنهج الجشتي والقادري ، واستمر مع ذلك ، يدرس في العلوم الدينية ويفيد .

وهاج الحنين في قلبه إلى حج بيت الله الحرام ، وزيارة مسجد الرسول -ﷺ- فأرق جفونه ، واستولى عليه الشوق والاضطراب ، ولكن نظراً إلى كبر سن الوالد ودنو أجله في الظاهر- رأى من غير اللائق أن يفارقه على هذه الحال ، فلما وافاه الأجل سنة ١٠٠٧ هـ لم يبق هناك عائق يحول دون السفر ، فأعد عدة السفر لزيارة الحرمين الشريفين وحج بيت الله الحرام عام ١٠٠٨ هـ ، وغادر سرهند إلى دهلي ، فجاء إليه علماؤها وفضلاؤها ممن كانوا يسمعون بفضله ونبوغه ، ليقابلوه ويسلموا عليه ، وكان فيهم الشيخ حسن الكشميري الذي كانت للإمام معرفة قديمة به ، فتطرق الحديث بينهما إلى ذكر الشيخ الكبير عبد الباقي ، وعلو مكانته وجلالة شأنه ، وقوة باطنه ، وكان الشيخ قد مرّ- قبل بضعة أيام- بدهلي ، وكان الإمام السرهندي سمع والده - أحياناً - يذكر الطريقة النقشبندية ، ويبدي شوقه إليها ، فرغبت نفسه في مقابلة الشيخ ، ورأى أن هذه الصحبة توفر له زاد الطريق إلى

الحرمين الشريفين ، وأنها نعمة ينبغي أن لا تفوت ، فرافق الشيخ حسن[1] الكشميري إلى الشيخ عبد الباقي ، وكأن لسان حاله يقول : « ذلك ما كنا نبغ » .

وقبل أن نتناول هذا القران السعيد ، وما دار في هذا اللقاء العجيب ، وما تلته من الأحداث والوقائع ، نود أن نعرف بالشيخ عبد الباقي[2] ، ويحسن بنا أن ننقل هنا ما كتبه مؤلف « نزهة الخواطر » - المجلد الخامس - في ترجمته ؛ فإنه يصدق عليه وصف « ما قلّ ودلّ » وقد جاء فيه لباب كتب التراجم وعصارة ما كتب عنه :

« الشيخ عبد الباقي النقشبندي الدهلوي (المعروف بخواجه باقي بالله) هو الشيخ الهمام ، حجة الله بين الأنام ، قدوة الأمة ، وإمام الأئمة ، رضي الدين أبو المؤيد عبد الباقي بن عبد السلام البدخشي المشهور بباقي بالله الشيخ الأجل ، قطب الأقطاب ، النقشبندي البدخشي الكابلي ثم الدهلوي ، بركة الدنيا وسر الوجود[3] ، ولسان الحضرة ، ولب لباب العرفان ، كان من العلم والمعرفة آية من آيات الله تعالى ، ومن الولاية غاية من الغايات .

ولد في حدود سنة إحدى أو اثنتين وسبعين وتسعمائة بكابل ، واشتغل بالعلم على مولانا محمد صادق الحلوائي ، وسار معه إلى ما وراء النهر ولازمه مدة ، ثم بدا له داعية الدخول في طريق الصوفية فترك تحصيل العلوم الرسمية وطاف حول مجلس

---

(١) لقد كان الامام السرهندي طوال عمره يذكر هذه المنة للشيخ حسن الكشميري ، ويشكره على هذه اليد البيضاء ، اذ انه كان الواسطة للحصول على هذه الثروة الغالية ، (انظر الرسالة رقم ٢٧٩ ، المجموعة الأولى) .

(٢) وللاطلاع على تراجم كبار أصحاب الطريقة النقشبندية ، ومشايخها الأجلة لا سيما حياة مؤسسها الشيخ خواجه بهاء الدين نقشبند ، وخصائص هذه الطريقة وميزاتها البارزة ، ينبغي مراجعة مؤلفات رأس هذه الطريقة في عصره حكيم الاسلام ولي الله الدهلوي ، لا سيما كتابه « الانتباه في سلاسل اولياء الله » و « همعات » .

(٣) أي أنه كان الصورة الجلية ، والتفسير العملي للآية الكريمة « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

كثير من كبار مشايخ وقته في بلاد ما وراء النهر فأول من تاب على يده الشيخ خواجه عبيد خليفة مولانا لطف الله ، خليفة المخدوم الأعظم الدهبيدي ، ولما لم تظهر عليه آثار الاستقامة تاب ثانياً على يد الشيخ افتخار حسين عند قدومه بسمرقند ، وكان من مشايخ سلسلة الشيخ أحمد اليسوي ، ثم طرأت على عزيمته هذه الفترة ، وظهر فيه ما ينافي طريق الاستقامة فجدد التوبة ثالثاً من غير صنع واختيار على يد الأمير عبد الله البلخي ، فكان في مقام حفظ الحدود أياماً ، ثم هدم سد تلك التوبة أخيراً ، ثم تشرف في المنام بزيارة خواجه بهاء الدين نقشبند ، وظهر فيه ميل إلى طريقة أهل الله ، فصار يتوجه إلى كل طرف يسير حتى وصل إلى ملازمة الشيخ بابا ولي الكبروي في بلدة كشمير ، فلازمه وأخذ عنه ، وهبت عليه في ملازمته النفحات الربانية ، وظهرت فيه الغيبة المعهودة عند هذه الطائفة ، ولما مات الشيخ المذكور صار يدور البلاد ومضى عليه زمن من السياحة والأخذ حتى حضرت له روح الشيخ عبيد الله الأحرار ، فعلمه الطريقة النقشبندية ، وتم أمره ، ثم ذهب إلى ما وراء النهر فأدرك بها الشيخ محمد الامكنكي ، فأجازه الشيخ بعد ثلاثة أيام ، ورخصه ، فرجع إلى الهند وأقام سنة ببلدة لاهور ، واغتنم صحبته فيها كثير من العلماء ثم ارتحل منها إلى دار سلطنة الهند دهلي ، واختار للإقامة القلعة الفيروزية التي كانت مشتملة على نهر كبير ، ومسجد عظيم ، فأقام هناك إلى وفاته .

وكان صاحب الأذواق والمواجيد ، كثير التواضع والانكسار ، وكان يجتهد في ستر أحواله وسيرته عن نظر الأغيار ، ولا يرى نفسه أهلاً لمقام الإرشاد، فإذا جاءه شخص يطلب الطريقة كان يقول : ليس عندي شيء من ذلك ، ينبغي لك أن تطلبه من غيري ، فإذا لقيت أحداً من هذه الطائفة فنبّهني عليه ، وكان بمعزل عن الدعوى يشتغل بخدمة الزوار ، واستمالة قلوبهم ولا يتكلم إلاّ عن ضرورة ، إلاّ في مسألة مشكلة من الحقائق ، فكان يوضحها حق الإيضاح لئلا يميل صاحبها عن النهج القويم ، وكان يمنع أصحابه عن القيام تعظيماً له ، ويعد نفسه كأحد منهم ،

ويحب المساواة معهم في سائر حالاته ، وكان يقعد فوق التراب من غير حائل تواضعاً ومسكنة .

وكان ذا كيفية عجيبة ، وتصرفات غريبة بحيث إذا وقع نظره على شخص كان يتغير حاله ، وكان يحصل الذوق والشوق ، والكيفية المعهودة عند هذه الطائفة في أول صحبته ، ويجري لطائف الطالبين بالذكر في أول التلقين ، وكان ذلك على سبيل التعميم ، وكانت شفقته على الخلق . . . غاية ، حتى إنه قام ليلة في أيام البرد عن فراشه ، فلما عاد رأى في لحافه هرة نائمة ، فلم يرض بإيقاظها وتحريكه إياها ، وقعد إلى الصبح متحملاً لذلك البرد ، وصادفت إقامته في لاهور مجاعة فلم يأكل في تلك المدة شيئاً ، فإذا أحضر عنده طعام فرقه وقسمه على الجائعين ، ولما خرج من لاهور متوجهاً إلى دهلي رأى عاجزاً في الطريق فنزل عن دابته وأركبه إياها ، وصار يمشي متقنّعاً لئلا يعرفه أحد ، ولما قرب إلى المنزل أنزله وركب بنفسه لئلا يطلع عليه أحد .

وكان غاية في رؤية قصور الأحوال واتهام النفس ، لا يميز نفسه عن العامة ، فضلاً عن أصحابه ، قيل : كان في جواره شاب يرتكب كل شيء من الفسق ، فكان يتحمله مع اطلاعه عليه ، فسعى خواجه حسام الدين الدهلوي أحد أصحابه في دفعه وتأديبه إلى الحكام ، فأخذوه وحبسوه ، فلما اطلع عليه غضب على صاحبه وقال : لم فعلت كذا ؟ ، قال : يا سيدي إنه فاسق لا يبالي . يرتكب كل شيء فقال : أواه لمّا كنتم من أهل الصلاح والتقوى رأيتم فسقه ، وإلاَّ فنحن لا نعرف الفرق بيننا وبينه ، فكيف نترك أنفسنا ونسعى به إلى الحكام ، ثم سعى في تخليصه وإخراجه من الحبس ، فأخرجوه فتاب وصار من الصلحاء ، وكان رحمه الله ـ إذا صدرت زلة من أصحابه ـ يقول : إن هذه من زلاتنا ، ظهرت منهم بطريق الانعكاس ، وكان يختار الأحوط في العبادات والمعاملات ، ولذلك كان يقرأ الفاتحة خلف الإمام في الصلاة في ابتداء حاله لكثرة الأحاديث الواردة في قراءتها وقوة

دليلها .

وهذه المذكورات نبذة من شمائله ، وقطرة من بحر خصائصه ، ولذلك ترى أن الناس انتفعوا به في مدة قليلة ، وما انتشرت هذه السلسلة المباركة في الهند إلاَّ منه ، ـ رضي الله عنه ـ وما كان أحد يعرفها قبله ، وكان الشيخ محمد بن فضل الله البرهانبوري يقول : إنه كان معدوم النظير في قوة الإرشاد ، فإنه أرشد ثلاث سنين أو أربع ، وفي تلك المدة القليلةَ أنار الآفاق بلوامع إفادته كما في « زبـدة المقامـات » للكشمي ، وذلك لأنه عاش أربعين سنة ، وبعد قدومه الهنـد لم يعش إلاَّ أربـع سنوات ، وفي تلك المدة القليلة بلغ أصحابه إلى أعلى مدارج الكمال حتى أنهم محوا آثار الطرق السالفة ، وغلبت الطريقة النقشبندية على الطرق الأخرى .

قال محمد بن فضل الله المحبي في « خلاصة الأثر » إنه قدس الله روحه ، ونور ضريحه ، آية من آيات الله سبحانه ، ونور من أنواره ، وسر من أسراره ، صاحب علم ظاهر وباطن ، وتصرفات ، كثير الصمت والتواضـع والانكسـار ، ذا خلـق حسن لا يتميز عن الناس بشيء ، حتى إنه كان يمنع أصحابه من أن يقوموا لتعظيمه وأن لا يعاملوه إلا كما يعامل بعضهم بعضاً .

ثم قال : وظهرت له التصرفات العظيمة ، فصار كل من يقع نظره عليه ، أو يدخل في حلقته يصل إلى الغيبة والفناء ، ولو لم يكن له مناسبـة ، وكان النـاس مطروحين على بابه كالسكارى ، وبعضهم كان ينكشف له في أول الصحبة عن عالم الملك والملكوت ، وكل هذا كان من غلبة الجذبات الإلهية » انتهى .

وممن أخذ عنه الشيخ الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي إمـام الطريقـة المجددية ، والشيخ العارف تاج الدين بن سلطـان العثمانـي السـنبهلي ، والشيخ حسام الدين بن نظام الدين البدخشي ، والشيخ الهداد الدهلوي وخلق آخرون .

ومن مصنفاته الرسائل البديعة ، والمكاتيب العلية ، والأشعار الرائقة ، منها

سلسلة الأحرار ، شرح فيه رباعياته في الحقائق والمعارف بالفارسي .

توفي يوم الأربعاء رابع عشر من جمادي الآخرة سنة أربع عشرة بعد الألف بمدينة دهلي ، وله أربعون سنة ، وأربعة أشهر ، وقبره بها على غربيّها عند أثر قدم الرسول ـ ﷺ ـ . . . .[1] » .

البيعة والتكميل الباطني :

ودخل الإمام السرهندي على الشيخ عبد الباقي ، فكأنه كان منه على ميعاد ، أكرمه وبالغ في الحفاوة به ، والعطف عليه ، وكان الشيخ أبيّ النفس غيوراً ، لا يتعجل في المعرفة والصداقة ، ولا يستلفت نظر إنسان إليه ، إلا أنه مع الإمام السرهندي أصبح طالباً مكان مطلوب ، وقدّر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكمل الإمام في صحبة هذا الشيخ مسيرة التكميل الباطني ، ويستفيد تلك النسبة الخاصة التي كانت الطريقة النقشبندية تمتاز بها في ذلك العهد ، والتربية الروحية التي كانت الحاجة تشتد إليها في الوسط الروحي السائد في الهند وأن يستعد ـ عن طريق هذه التربية والسلوك ـ للقيام بالأعمال التجديدية الإصلاحية من نوع جديد ، فيعيد الطريقة إلى نصابها تابعة طيّعة للشريعة ، ويربي الناس ويسمو بهم إلى المقامات الرفيعة ، ومراتب الإحسان العالية ، وينقلهم من الوسائل والأسباب إلى المقاصد والغايات نقلة بعيدة عظيمة ، خاطبه الشيخ وقال له على غير ما عهد من عادته وطبعه : « امكث عندنا ضيفاً ، شهراً أو أسبوعاً على الأقل » .

ولما كان الشيخ أراد السفر إلى الهند ، استخار الله ـ تعالى ـ ورأى بعد صلاة

---

(١) « نزهة الخواطر » ، ج ٥ ، ص ١٩٦ ـ ٢٠٠ .

الاستخارة كأن ببغاء جميلة تنطق بالحديث الحلو اللذيذ نزلت وجلست على يده ، وهو يسقيها ريقه ، فتطعمه بمنقارها السكر ، فذكر الشيخ هذه الرؤيا لمرشده وشيخه في الطريقة الشيخ خواجه الامكنكي ، فعبرها قائلاً : إن الببغاء من طيور الهند ، فسوف يقوم بفضل تربيتك وإرشادك في الهند شخص يضيء العالم ، ويكون لك أيضاً منه نصيب[1] » .

ولم يكن للإمام ـ بعد هذا الأمر ـ مندوحة في الإباء والاعتذار ، فقد كان هو نفسه يبحث عن الخرِّيت والدليل ، وماء الحياة والسلسبيل ، فقبل هذه الإشارة ، ومكث هناك ، وطالت الإقامة ـ بصورة تدريجية ـ إلى شهر وأسبوعين وغلبه الشوق إلى تحصيل الطريقة النقشبندية ، والتمتع بفوائدها وفيوضها ، وبلغت هذه الرغبة الأكيدة إلى أن طلب من الشيخ أن يبايعه ، فلبى الشيخ هذه الطلبة من غير لأي وانتظار ، وذهب به إلى خلوته حيث لقنه الذكر القلبي ، وجرى قلب الإمام ـ في نفس الساعة ـ بالذكر ، وشعر بلذة غريبة ، وبشاشة ظاهرة تزداد كل يوم ، وتحلق به في أجواء الروح وتعلو ، فتفطن الشيخ عند رؤية هذه الأحوال ، وسرعة السير إلى الله ، إنه هو الببغاء الصادحة المترنمة ، التي رآها في المنام ، وأن نغمتها العلوية الرخيمة ، وفطرتها الجميلة السليمة ، ستأتي بربيع زاهر جديد في حديقة الهند ، بل في حديقة الإسلام ، وما وصل إليه الإمام في مدة شهرين ونصف ـ تقريباً ـ من مدارج الرقي والكمال ، وما ظهرت فيه من آثار وكرامات وكيفيات قلبية باطنة ، لا يمكن تجليتها بالعبارات والألفاظ ولا يمكن فهمها وإفهامها ، بقوالب من التعبيرات[2] .

---

(١) « زبدة المقامات » ص ١٤٠ ـ ١٤١ ، و « حضرات القدس » ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) وإذا أراد القارىء الاطلاع على بعض تفاصيلها فليرجع الى الرسالة رقم : ٢٩٦ ، الجزء الرابع من المجموعة الأولى ، وهي موجهة الى الشيخ خواجه عبيد الله والشيخ خواجه عبد الله ابني الشيخ خواجه باقي بالله ، والرسالة رقم : ٢٩٠ ، الجزء الخامس من المجموعة الأولى ، وهي موجهة الى الشيخ محمد هاشم الكشمي .

ثم سافر الإمام السرهندي إلى سرهند ، وكان شيخه - في هذه المرة الأولى - قد بشره بالحصول على النسبة النقشبندية - بصورة كاملة - وأن الأمل قوي في التقدم السريع ، والرقي المتواصل ، فلما ورد دهلي مرة ثانية ، ألبسه خرقة الخلافة والإجازة ، لتعليم الطالبين وإرشاد السالكين ، وتربية المريدين ووكل إليه بعض خواص أصحابه ومريديه لتعليمهم الطريقة وتسليكهم .

وجاء الإمام السرهندي - بعد ذلك - للمرة الثالثة والأخيرة إلى شيخه ، فخرج الشيخ ومشى طويلاً لاستقباله ، وبشره بنعم كثيرة ، وجعله رأس الحلقة للتوجه والإرشاد وقال لأصحابه : ينبغي في حضرته أن لا تلتفتوا إلاَّ إليه ، وقال له عند الوداع : أشعر بضعف شديد ، والأمل في الحياة قليل ، ثم طلب منه اللفتات الروحية إلى ابنيه الشيخ خواجه عبيد الله ، والشيخ خواجه عبد الله - وكانا طفلين رضيعين - وإلى أمهما أيضاً من وراء الحجاب ، فتفضل بها حسب أمر الشيخ ، وظهرت علائمها وآثارها عليهم في نفس الوقت[1] » .

شهادة الشيخ المرشد على جلالة شأن الإمام :

وكتب الشيخ عبد الباقي - بعد هذه الصلة الروحية مع الإمام السرهندي - إلى بعض المخلصين من أصحابه :

« إن الشيخ أحمد الذي هو من سكان سرهند ، والعالم الرباني الوافر العلم القوي العمل ، صحب هذا الفقير مدة يسيرة فشاهد الفقير عجائب أحواله ، وعظيم صفاته ، وباهر مقاماته ، وأرجو أن يكون سراجاً يضيء العالم ، وأنني على ثقة ويقين من أحواله الكاملة » .

وقد كان الإمام السرهندي نفسه بعد حضور مجلس الشيخ لأول مرة ، ولفتات

---

(١) « زبدة المقامات » ، ص ١٥٥ .

الشيخ إليه وتلقينه إياه على يقين من أنه سوف يرتقي في هذه الدرجات العالية ، ومع ذلك كان دأبه التواضع وهضم النفس ، ويردد ـ كذلك ـ هذا البيت الذي يقول فيه :

« إنني على يقين ـ لهذا النور الذي تسكبه على قلبي ـ بأني لا بد واصل إلى غايتي ورغبتي[1] » .

وكان الإمام السرهندي ـ رغم هذه الفضائل العلمية والمحاسن العملية ، وبلوغ المدارج الروحية العالية ـ يتأدّب مع شيخه غاية التأدب ويحترمه أشد الاحترام ، وكلما طلبه الشيخ ، يتغير لونه ، ويقشعر جلده[2] ، أما الشيخ فكانت معاملته معه تختلف عن معاملة المرشدين للمسترشدين ، والمشائخ للطالبين والمريدين ، وقال عنه يوماً : إن أحمد شمس ، تأفل في ضوئها آلاف النجوم أمثالي[3] » .

(١) « زبدة المقامات » ، ص ١٤٥ .
(٢) أيضاً ص ١٤٩ .
(٣) أيضاً ص ٢٣٠ .

الباب الرابع

أهم الأحداث والوقائع والعكوف على التربية والإرشاد والوفاة

الإقامة بسرهند :

وعكف الإمام ـ بعد هذه الاستفادة ، والتربية الروحية ، والتكميل الباطني ، في سرهند ، وبقي مدة غير قصيرة لا يمارس التربية والإرشاد للطالبين والسالكين ، يشعر في نفسه بالنقص والتقصير شعوراً قوياً ، وكان يترقى ، بسرعة مدهشة ـ مدارج الكمال ، وتطمح روحه إلى بلوغ الذروة والغاية ، فكان يصعب عليه في غلبة هذا الحال أن يقبل إلى تربية السالكين وتعليم الطالبين ، الذي يشترط فيه النزول ، إلى مستوى المريدين ، ولم يكن هذا الشرط قد تحقق بعد ، يقول في رسالة له :

« لقد ظهر لي ـ في هذه الحالة ـ تقصيري ونقصي ، وجمعت الطالبين الوافدين ، وذكرت لهم هذا النقص الذي أشعر به ، ثم ودعتهم ولكن الطالبين والمريدين حملوا ذلك على التواضع وهضم النفس ، ولم يغيروا رأيهم في ، حتى من الله تعالى عليّ ـ لما يريده مني من خدمة هذا الدين ، والعناية بشأن المسلمين ـ بالأحوال المرجوة »[1] .

وآن الأوان لعمله التربوي والإصلاحي ، فبدأ يشتغل بإرشاد الطالبين ، وتسليك المريدين ، وتكميل السالكين ، وكان الإمام يكتب أحواله وأخباره ، وأحوال مسترشديه ، وإخوته في الطريقة ، وما اجتاز من العقبات ، وما صعدوا من الدرجات إلى مربيه الشيخ عبد الباقي ، وظهرت له في هذه المدة مبشرات ، ورؤى

(١) مجموعة الرسائل الأولى ، رقم : ٢٩٠ .

وآثار أثلجت قلبه ، ودلت على أن الله ـ عز وجل ـ يعدُّه لأمر عظيم ، وأنه سيقوم بخدمة جليلة لهذا الدين[1] ، ولم يحظ بعد الرحلة الثالثة ، بزيارة الشيخ ، وصحبته ومجالسته ، فقد توفي قبل أن يلقاه المرة الرابعة .

رحلته إلى لاهور :

وتوجه إلى لاهور ـ بعد إقامة يسيرة في سرهند ـ بإشارة من شيخه ، وكانت مدينة لاهور ـ إذ ذاك ـ تعتبر المركز الديني والعلمي التي تلي مدينة دهلي ، وكان فيها عدد كبير من العلماء والمشايخ ، فلما سمعوا بمجيء الإمام خرجوا يستقبلونه واحتفوا به[2] ، وبايعه الشيخ طاهر اللاهوري ـ الذي أصبح فيما بعد من أجلة خلفاء الإمام ـ والشيخ حاجي محمد ، والشيخ جمال الدين التلوي ، وانخرطوا في سلك مريديه ، فكانت تقام هناك حلقات الذكر ، ومجالس المذاكرة ، والوعظ والإرشاد[3] .

كان الإمام في لاهور إذ سمع بنبأ وفاة الشيخ ، فتأثر بذلك تأثراً شديداً ، ويمم شطر دهلي في حالة اضطرارية وفي توجع واضطراب وكانت « سرهند » تقع في الطريق ، ولكن لم يعرج عليها ولم يدخل البيت ، ووصل إلى دهلي وزار ضريح الشيخ ، وذهب إلى أبناء الشيخ وزملائه في الطريقة فعزاهم ، ودعا لهم بالصبر الجميل ، وعزم على الإقامة ـ لأيام ـ نزولاً على رغبتهم وتسلية لخواطرهم ، فعادت الحياة والنشاط إلى تلك المجالس التربوية التي اقفرت وأوحشت من بعد وفاة الشيخ ، وانشرحت الصدور الكئيبة ، وانتعشت القلوب الجريحة[4] .

ورجع إلى سرهند بعد أن مكث في دهلي أياماً قليلة ، ثم لم يتفق له السفر إلى

---

(١) انظر الرسالة رقم : ٧٤ ، من المجموعة الثانية .
(٢) « زبدة المقامات » ، ص ١٥٧.
(٣) أيضاً ص ١٥٨ .
(٤) أيضاً ص ١٥٨ .

دهلي ، إلا مرة، وإلى آكره مرتين ، ومرّ في آخر عمره بعدد من المدن والقرى حينما ارفق العسكر الملكي لثلاث سنين ـ كما سيأتي ذكره قريباً ـ فتلقاه أهلها بالحب والتكريم ، واستفاد من صحبته الطالبون والسالكون[1] .

التنظيمات الواسعة للدعوة والتبليغ ، والتربية والإرشاد وتهافت الطالبين عليه من كل مكان :

بعث الإمام السرهندي عام ١٠٢٦ هـ عدداً كبيراً من خلفائه إلى مختلف أرجاء البلاد للتربية والدعوة والإرشاد ، فبعث سبعين شخصاً تحت قيادة الشيخ محمد قاسم وإمارته إلى تركستان ، وأربعين شخصاً في إمارة الشيخ فرخ حسين إلى بلاد الحجاز ، واليمن ، والروم ، والشام ، وعشرة أشخاص من كبار المسئولين وأرقى السالكين تحت قيادة الشيخ محمد صادق الكابلي إلى كاشغر ، وثلاثين خليفة من خلفائه برئاسة الشيخ أحمد البركي إلى توران ، وبدخشان ، وخراسان ، ولقي هؤلاء الخلفاء في المناطق التي وكلت إليهم نجاحاً كبيراً ، واهتدى على أيديهم خلق كثير ، وعمت الناس الإفادة والتذكير[2] .

وضرب كثير من كبار العلماء والمشايخ المحترمين المبجلين في مناطقهم وأوطانهم ، أكباد الابل ، وتحملوا وعورة الطريق ، وعوائق السفر في الوصول إلى سرهند ، حيث بايعوا الإمام واستفادوا من تربيته ، وصحبته نخص بالذكر منهم الشيخ طاهر البدخشي ـ معتمد سلطان بدخشان ، وكاتبه الخاص ، وأمين سره ـ والعالم الفاضل الشيخ عبد الحق شادماني ، والشيخ صالح الكولابي والشيخ أحمد البرسي ، والشيخ يار محمد والشيخ يوسف من طالقان ، وقد شرف الإمام معظم هؤلاء العلماء بالخلافة والإجازة ، وأمرهم بالعودة إلى مناطقهم والاشتغال بالدعوة والإرشاد .

---

(١) زبدة المقامات ، ص ١٥٩ .

(٢) الروضة القيومية ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .

ونصب في مختلف أنحاء الهند كذلك تلامذته وخلفاءه فبعث الشيخ مير محمد نعمان بعد استخلافه وإجازته إلى دكن ، وكان يحضر في زاويته مئات من المشاة والركبان ، للذكر والمراقبة ، واستخلف الشيخ بديع الدين السهارنبوري ، ووجهه - أولاً - إلى سهارنبور ، ثم أمره بالإقامة في المعسكر الملكي بآكره حيث تم له القبول ، وألهم الناس حبه وإجلاله ، فدخل كثير من أعضاء الدولة في حلقة مسترشديه ومريديه ؛ وتاب على يديه آلاف من العسكريين وكان الزحام يبلغ كل يوم إلى حد يتعسر فيه على الأمراء والأعيان زيارة الشيخ ، وجدد بيعة الشيخ مير محمد نعمان الكشمي - الذي كان من خلفاء الشيخ عبد الباقي - وأجازه ، وأنفذه إلى برهان بور ، حيث أصبح مرجع الطالبين المسترشدين ، وصلحت أحوال كثير من الناس ، وعمت التوبة والإقلاع عن المعاصي ، وبعث الشيخ طاهر اللاهوري لإرشاد طلاب المعرفة وإرواء ظمأى اليقين في مدينة لاهور - التي كانت مركزاً سياسياً وعلمياً بعد دهلي - وعم النفع والإفادة في تلك البقعة ، وأجاز الشيخ نور محمد البتني وبعثه إلى مدينة « بتنه » حيث بدأت بجهوده سلسلة التربية والإرشاد ، والتدريس والإفادة والإرشاد ، والدعوة ، وبعثه إلى بنكاله ، وبعث الشيخ طاهر البدخشي بعد استكماله للدورة التربوية ؛ وأجازه في التدريس وتعليم الطريقة إلى جونبور ووجه الشيخ أحمد البركي بعد إجازته في التعليم والتربية إلى « برك » حيث عكف على الدري والإفادة والإرشاد والتربية ، وداوم على إعلام الشيخ - عن طريق المراسلة - بأحوال مريديه وطالبيه ، وكان الشيخ عبد الحي من سكان « حصار شادمان » (في منطقة أصفهان) وهو الذي قام بجمع وترتيب المجموعة الثانية من الرسائل ؛ أجازه الشيخ في التربية والتعليم ، ووجهه إلى مدينة « بتنه » فكان الشيخ عبد الحي يروي الظمآن ويصدره ريان في وسط المدينة ، وكان الشيخ نور محمد على شاطىء نهر كنكا يفجر عيون الهداية والتربية والإفادة ، وكان الشيخ حسن البركي يتولى في وطنه بأمر الشيخ نشر السنة وتعليم الطريقة المرضية ، واستخلف السيد محب الله المانكبوري وبعثه إلى مانكبرو ثم أذن له بالإقامة في آباد ، وتشرف الشيخ كريم بابا حسن

الأبـدالي بعـطف خاص ولفتـات نافعـة ، ثم عاد إلى الوطــن ومــا انتهــى عام ١٠٢٧ هـ حتى تجاوز صيت الإمام في جلالة الشأن ، وتأثير التربية ، وقوة التوجيه والإرشاد ، إلى خارج البلاد ، وسمع صداه فيما وراء الهند من بلاد بعيدة نائية ، وقصده الناس من أقاصي العالم فرادي وجماعات ، وزاروه وصحبوه ، واستفـادوا من علمه وتربيته ، وكان كثير من خلفائه في ما وراء النهر ، وبدخشان ، وكابل ، والبلدان العجمية الأخرى ، وبلغ صيته إلى البلدان العربية كذلك ، أما في الهند فلم تبق بقعة من بقاعها إلاّ وفيها خلفاؤه وتلامذته ، ومسترشدوه ، يدعون إلى الله ، ويرشدون الحيارى ويربون الطالبين .

موقف السلطان جهانكير مع الإمام :

مات جلال الدين أكبر سنة ١٠١٤ هـ ، وخلفه على عرش المملكة ابنه نور الدين جهانكير ، وقد كان ما أصيب به الإسلام والمسلمون في عهد الملك أكبر من تضييق الخناق ، وسلب الحرية الإسلامية ، ومحاولة اجتثـاث جرثومـة الإسـلام ، وهدم أساسه في قوة وحماس تحت مؤامرة دقيقة محبوكة في هذه البلاد العظيمة ـ التي رويت أرضها الطيبة وازدهرت بدماء الغزاة والفاتحين المسلمـين ، وعـرق الدعـاة والمصلحين ، ودموع الأولياء والصالحين ودعوات الضارعين المبتهلين ـ لقد كان كل ذلك كفيلاً بأن يجرح قلب الإمام المتوجع الحزين ، ويثير غيرته الإسلامية ، وحميته الدينية ، ويقض مضجعه ، ولكنه لانصرافه أولاً إلى التربية والتهذيب ، والتكميل الباطني ، ثم إدراكه ثانياً أن الفتنة في عنفوانها وسورتها ، وأنه لم يتوصل إلى نقطة البداية للتأثير على أصحـاب السلطـة ، وسياسـة الدولـة ، فيما يتعلـق بالإسـلام والمسلمين وتـوجيه الميول والنزعـات إلى الإسـلام ، لم ينهض بعملـه التجـديدي الإصلاحي بقوة ونشاط ، أو أنه بدأ هذا العمل ولكن لم ينقل إلينا التاريخ شيئاً من تفاصيله ، وكل ما نعلم عنه في هذه الفترة أنه وجه رسائل موعظة وتذكير ، إلى كل من خان خانان ، والسيد « صدر جهان » و« مرتضى خان » وكان هؤلاء من المقربين

لدى السلطان والحائزين لثقته واهتمامه ، وكانت قلوبهم عامرة بحب الإمام وتقديره وإجلاله

ولم يكن السلطان جهانكير موغر الصدر يحمل ترة على الإسلام فحسب ، بل كان فيه ـ نوع من سلامة القلب ، وحسن السيرة ورسوخ العقيدة ، ولم يكن يفكر ـ إطلاقاً ـ في تنفيذ دين جديد ، وقانون جديد ، إنما كان منصرفاً مثل جدّه إلى الترف والبذخ ، وحياة اللهو والأفراح ، والليالي الملاح ، فلما رأى الإمام السرهندي سذاجة السلطان في قضايا فكرية وعقائدية صمم على أن ينتهز هذه الفرصة ، ويسعى لإزالة تلك الآثار التي خلفتها في الهند حكومة « أكبر » السابقة ، وسوف نتعرض لتفصيلها في باب مستقل ـ .

ولكن صادفت ـ قبل أن يبدأ الإمام هذا العمل الشوري العظيم ـ حادثة اعتقاله في « كواليار » التي تعتبر ـ لجوانبها العديدة ـ حادثة تاريخية مهمة لحياة الإمام وعهد الإصلاح والتجديد .

تقول بعض كتب السير والتراجم أنه عرضت على السلطان جهانكير محتويات تلك الرسائل التي كانت تتعلق بموضوعات التصوف الدقيقة ومصطلحاته الفنية ، التي لا تفهم إلاّ في ضوء غرض الكاتب ومراميه ، والتي كانت من تلك المكاشفات والواردات القلبية التي تعرض للسالك في الطريق ، ويجب عليه إعلام الشيخ المربي بها ، واطلاعه عليها[1] ، حتى يدلي فيها برأيه ، ويوضح له ما أبهم ، ويرشده إلى

---

(١) انظر الرسالة رقم : ١١ من المجموعة الأولى الى مرشده الشيخ عبد الباقي وقد وقع بعض العلماء الراسخين ـ أيضاً ـ عدا جهانكير ، عند قراءة هذه المباحث في الاضطراب في أمرها ، نخص منهم بالذكر محدث عصره وناشر علم الحديث في الهند ، جامع الشريعة والطريقة ، العلامة عبد الحق بن سيف الدين البخاري الدهلوي ، فقد بقي مدة طويلة متشككاً في أمر الإمام ، وراسله أيضاً ، ولكنه اقتنع ـ أخيراً ـ وانشرح صدره في ذلك ، وأشار إليه في رسالة من رسائله ، ويقول ابنه نور الحق ، إنه قد ثبت لدينا ثبوتاً لا يقبل الشك أن شخصاً يدعى حسن خان الذي كان من مريدي الإمام السرهندي ، وجد عليه في شيء وذهب من عنده وتصرف في نسخة خطية لرسائل الإمام ـ كانت عنده ـ وحرف فيها تحريفات كثيرة ونشرها محرفة بين الناس في كل مكان ، (« مناقب العارفين » تأليف شاه محمد الفتحبوري الجشتي ، ص ١٢٦) ويمكن أن تكون هذه الرسائل المحرفة سبب الخطأ في الفهم ، والفتنة التي أثيرت حوله .

سواء الطريق ، وحتى يعرف مدى تقدمه واستعداده الباطني ، وكان السلطان جهانكير لا يعدو أن يكون مسلماً ساذجاً سني العقيدة لا يعرف شيئاً من مصطلحات « الكشف » والعبور » و « الواقعة » و « الاستقرار » وتعلو على فهمه هذه الموضوعات ، فأبدى دهشته واستغرابه وظن أنها عقائد تخالف عقائد جمهور الأمة وجميع المسلمين من أهل السنة ، وحملها على الدعاوي الباطلة ، والإعجاب بالنفس ، يتجلى هذا الاستغراب والدهشة بوضوح حيث ذكر هذه الحادثة في كتابه « توزك » وقد تناول فيه الإمام بأسلوب غير لائق متهكم ساخر[1] ؛ يدل على أنه لا يعرف الإمام ومنزلته في الإسلام ، وأنه يكتب بقلم السلطان ، المغولي التوراني ـ الذي لا يعرف سوى عامة عقائد المسلمين ، ويرى نفسه مسئولاً عن حمايتها والحفاظ عليها ـ في غير تكلف وصناعة .

وتكلم الناس في شأن الشيخ بديع الدين السهارنبوري الذي حصل له النفوذ والقبول في عسكر السلطان ، وكثر تردده إلى أعيان الدولة ، فتحدث الناس في ذلك وبالغوا فيه ، وتوجسوا منه الخطر ، وذكروا للسلطان أن الإمام السرهندي يريد ـ عن طريق الشيخ بديع الدين ـ توثيق الصلات مع الجيش والمؤامرة معهم ، وإعداد خطة للثورة والخروج على السلطان ، ولم يأخذ الشيخ بديع الدين في مواجهة هذه الإشاعات بالحزم والحذر ، بل تحدث أمام الناس في سورة حبه للإمام عن الكشوف ، والوقائع الغريبة ، التي لا تسيغها عقول الخاصة الذين هم كالعامة فكيف تدركها عقول العوام الذين هم كالأنعام ، والتي كانت ـ بطبيعتها ـ موضع بحث وجادل ، وقيل وقال ، ولم يعمل في مخاطبتهم بهذه الوصية الذهبية « كلموا الناس على قدر عقولهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله[2] » ووقع الإمام بهذا

(١) راجع « توزك جهانكيري » ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ ، حوادث عام ١٠٢٨ هـ الموافق لسنة ١٤ من بداية الحكم ، ويرجح بعض النقاد ان هذه السطور بقلم كاتبه الشيعي الذي يسجل بعض خواطره وانطباعاته واللفظ له .

(٢) الجملة مأثورة عن سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

السبب في المشكلة ، إذ كان السلطان جهانكير ليس من هذا العلم في عير ولا نفير ، وكان الوشاة في البلاط كثيرين ، ثم إن الإمام كان يقاوم تأثير التشيُّع في الأعمال والمعتقدات الذي كاد يستولي على المجتمع الإسلامي كله بعد دخول العنصر الإيراني في الهند ، وسيطرته على البلاط ، وكان يدعو ـ علناً وجهاراً ـ إلى عقائد أهل السنة والجماعة ، فلا يستغرب أن يكون الإيرانيون أصحاب الجاه والنفوذ في البلاط أرادوا أن ينتهزوا الفرصة للإيقاع بالإمام ، وزادت خطورة هذه القضية بعد أن صبغت بالصبغة السياسية ، وعزم السلطان جهانكير إلى اتخاذ إجراء في هذا الموضوع .

لقد كان الإمام ـ في هذا العهد ـ بتربيته وإرشاده كالشمس في رابعة النهار ، وقد طبَّقَ صيته الآفاق ، وبلغ اشتغاله بحركة الإصلاح والتجديد ، أوجه ووضع له القبول في القلوب ، ولعل وراء هذا الابتلاء والمحنة في ذروة المجدة وعز الشياخة والإرشاد ، كانت حكمة الله ـ عز وجل ـ تريد له السلوك في مقامات العبدية الضارعة ، ليصل إلى تلك المعارج الروحية ، ومراتب الربانية ، التي لا يمكن إدراكها من غير هذه الابتلاءات والمحن ومجاهدة الهوى والنفس .

أسباب اعتقاله في كواليار :

هذا ما ذكر في عامة كتب التاريخ والتراجم من سبب اعتقال الإمام ، وفرض الإقامة الجبرية عليه في قلعة « كواليار » وأنه يرجع إلى المحتويات الدقيقة ، مضامين المكاشفات والمشاهدات ، والطريقة والسلوك العميقة التي تدل على عظمته وجلالة شأنه ، وتفوقه على كثير من ربانيي هذه الأمة ، ومشايخها المصلحين ، واشتملت عليها رسالته الموجهة إلى شيخه خواجه عبد الباقي .

ولكن المؤلف يشك في أن هذه المحنة وقعت بسبب سوء فهم لبعض المعاني ، وخطأ في توجيه بعض العبارات ، وأن السبب العامل وراءها يرجع إلى حمية السلطان

جهانكير الدينية ، وغيرته على الإسلام ، وذبه عن عقائد أهل السنة وصيانتها من التحريف ، أو أنه اتخذ هذا الإجراء تحت ضغط بعض كبار العلماء والمشايخ ـ في عهده ـ ذوي الوجاهة والنفوذ في بلاطه ، ولشدة إلحاحهم عليه .

ولكن جهانكير لم يكن في يوم من الأيام صاحب هذه النفسية الدينية ولم يكن له من ذكاء الحس ، ودقة الشعور ـ في هذه المسألة التي تعلو على مداركه ، ولا تتعلق بأمور دولته وسلطته وسياسته في البلاد ، ما يثيره على شخصية دينية محترمة ظلت مرجع الناس ومركز حبهم ، وإعجابهم ، وإجلالهم ويتخذ لتأديبه هذا الإجراء الخطير .

فقد كان الشيخ محمد غوث الكوالياري ـ في عهد جده ووالده ـ ادعى أنه عرج به إلى السماء كمعراج الرسول ـ ﷺ ـ وأحدث هذا الادعاء اضطراباً واستنكاراً فى العلماء[1] ، وصدرت الفتاوي ببدعته وتكفيره ، ولكن لم يحرك ذلك من الملك همايون ، والملك أكبر ساكناً ، ولم يتخذا أيما إجراء ، وقد ادعى في نفس عهد السلطان جهانكير ـ عدد من المشائخ وصولهم إلى آخر حدود « وحدة الوجود » من « العينية » و « المساواة » وأعلنوا هذه الدعاوي على مشاهد الناس ، وألف الشيخ محب الله الإله آبادي (م ١٠٥٨ هـ) في عهد هذا السلطان نفسه كتابه « التسوية » بالعربية ، وشرحها بالفارسية ، ولكن لم يعرها السلطان أي اهتمام ولم يقف منها موقف المتهم المعاقب ، ثم لا ينبغي أن يغيب عن البال أن الرسالة رقم : ١١ ، التي تدور حولها القصة ، وتتنازع فيها الآراء ، كتبها الإمام إلى شيخه عام ١٠١٢ هـ وأن حادث الاعتقال وقع بعد ستة عشر عاماً من كتابة الرسالة سنة ١٠٢٨ هـ .

ويرى المؤلف أن السبب الحقيقي للاعتقال هو ما كان بين الإمام وبين أركان الدولة ، وأمراء البلاط من علاقات خاصة ، وصلات وثيقة ، وما كان من حبهم وإجلالهم له ، الأمر الذي يوغر الصدور ، ويكفي لاستثارة مثل هذا السلطان

(١) راجع للتفصيل المجلد الرابع من « نزهة الخواطر » .

المرهف الحس الذي خرج على والده ، وأقام ضده ثورة قوية ، ونازل أبناءه ، واعتقل بعضهم حتى تمكن من عرش الدولة ، وتولى زمام البلاد ، ويمكن إضافة إلى ما تقدم أن يكون السلطان قد اطلع على تلك الرسائل المثيرة المؤثرة التي كان يكتبها الإمام إلى أركان الدولة ، وأعضاء البلاط ، لإصلاح الحال ، وتوجيه الحكومة إلى حماية بيضة الإسلام ، وإيقاظ الحمية الدينية في قلوبهم .

ومن الأمراء وأركان الدولة الذين وجه إليهم الإمام رسائله : خان أعظم مرزاً عزيز الدين ، وخان جهان خان اللودهي ، وخان خانان مرزا عبد الرحيم قائد قواد الجيش ، ومرزا داراب ، وقليج خان وغيرهم[1].

وما زال السلاطين المغول يتوجسون خيفة من مغالاة الناس في اعتقادهم وحبهم وإجلالهم للمشايخ ، والتفافهم حولهم ، وتهافتهم عليهم تهافت الفراش على النور ، حدث ذلك مع الشيخ الكبير السيد آدم البنوري من كبار خلفاء الإمام السرهندي ، لما سافر إلى لاهور عام ١٠٥٢ هـ ، كان يرافقه في هذا السفر عشرة آلاف رجل من الأشراف والمشايخ والمسترشدين المحبين من مختلف الفئات والطبقات ، وكان الملك شاهجهان ـ آنذاك ـ في لاهور ، فأحس بالخطر منه ، وعمل في الخفاء من الأسباب والحيل التي أدت به إلى مغادرة الهند ، والهجرة إلى الحرمين الشريفين ، ولعل جهانكير ـ لأجل ذلك ـ بعد رفع الإقامة الجبرية في قلعة كواليار ، أمره بمرافقته في عسكره لثلاث بسنين ، في الظعن والإقامة ، حتى يتعرف على طبيعة العلاقات القائمة بينه وبين أمراء البلاط وأركان المملكة ، ويطمئن إلى أنه لا خطر منه على السلطة والدولة ، وأنه لا يستغله أي عنصر معارض للدولة ، أو مغامر طامع للاستيلاء ، فلما اطمأن خاطره بما رأى من سيرة الإمام وسلوكه ، وشاهد إخلاصه ، وربانيته وإيثاره ، وبعده عن الطمع ، وسموه في مكانته ، ورأى بأم

(١) يؤيد ذلك ما يقوله جهانكير نفسه في كتابه « توزك » ان خلفاء الشيخ (الامام السرهندي) يوجدون في كل مدينة وقرية (انظر ص ٢٧٢) ، وكذلك كان من المصالح المتوخاة من اعتقال الشيخ « ان تهدأ ثائرة الناس » (انظر ص ٢٧٣) .

عينيه أن الإمام لا يقيم لزينة الدنيا وزهرتها وجاهها وسلطانها أي وزن ، ولا يلتفت إليها أيما التفاتة ، أذن له بالإقامة في سرهند كما يشاء

الإقامة الجبرية في قلعة كواليار :

وعلى كل فقد طلب السلطان الإمام السرهندي إلى مقرّه وأكد على حاكم سرهند أن يوجهه إليه كيفما استطاع ، فتوجه الإمام مع خمسة من أصحابه ومريديه - كانوا إذ ذاك عنده - ولما قرع سمع السلطان مجيء الإمام ، بعث الأمراء والأعيان ليستقبلوه في الطريق ، ونصب له خيمة بجوار قصره ، وطلبه في البلاط للمقابلة ، ولما دخل عليه في البلاط لم يأت من الآداب والتقاليد التي كان يلتزم بها الوافدون على السلطان ، فلفت بعض أبناء الدنيا ممن لا يخاف الله ، نظر السلطان إلى أن الإمام لم يراع أدب الدخول عليه ، ولم يأت بالتحية المعتادة للملوك[1] ، فسأله السلطان عن السبب ، فقال : إنني لم أزل متقيداً بالآداب والأحكام التي دعا إليها الله ورسوله - ﷺ - ولا أعرف غير هذه الآداب ، فغضب السلطان ، وقال اسجد لي[2] ، فقال الإمام : ما سجدت لغير الله قط ، ولن أسجد لغيره أبداً فتغيظ السلطان وزاد غضبه ، وأمر بفرض الإقامة الجبرية غليه في قلعة كواليار[3].

وكان شاهجهان - الذي كان يُكنُّ للإمام الحب والاحترام - بعث - قبل هذه الحادثة - العلامة أفضل خان ، والمفتي خواجه عبد الرحمن بالكتب الفقهية ، وبهذه الرسالة إلى الإمام ، أن الانحناء للسلاطين مرخص فيه في بعض الكتب الفقهية ، فلو فعلت ذلك أضمن لك بأنه لا يصيبك أي ضرر ، فقال الإمام : إنه محض

(١) كانت هذه التحية تقليداً سائداً في البلاط منذ عهد الملك أكبر ، وكانت تعد من التأدب بالآداب الملوكية ، وكانت على ثلاثة أصناف ، أولها الكورنش ، وهو أن يضع يمينه على جبينه ويطاطىء رأسه الى الصدر ، وثانيها التسليم ، وهو أن يضع ظاهر الكف من يمناه على الأرض ويقوم ويضع باطنه على الرأس ، وثالثها السجدة ، كما يسجد في الصلاة (الهند في العهد الاسلامي للعلامة السيد عبد الحي الحسني ، ص ٣٧٢) .

(٢) « حضرات القدس » ص ١١٧ .

(٣) أيضاً ص ١١٦ .

رخصة ، والعزيمة أن لا ينحني المسلم لغير الله ، تعظيماً وتقديساً[1].

وقعت هذه الحادثة الأليمة في شهر ربيع الآخر عام ١٠٢٨ هـ ، لأن جهانكير ذكرها في حوادث هذا الشهر المذكور ، وقد صودرت ـ بعد اعتقاله ـ كتبه وبستانه ، وبئره ، ورباطه ، وبيته الواسع الفسيح ، ونقل أهله إلى مكان آخر .

إحياء سنة سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ في سجن كواليار :

لقد كانت هذه الإقامة الجبرية في سجن كواليار تنطوي على حكم ومصالح دينية كثيرة ، تسبب له الحب والقبول في الناس ، وتزيده زكاء نفس وسمو روح ، وإشراق باطن ، فشمر هذا السجين كسجين مصر عن ساق الجد والاجتهاد في الدعوة والإرشاد في أولئك المسجونين الذين كانوا معه ، ونادى وراء جدران السجن بأعلى صوته : « يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » ، مما اهتزت له أركان القلعة وارتجت الجدران ، وسمع صداه في الخارج ، يذكر بعض المؤرخين أن آلافاً من السجناء من غير المسلمين اهتدوا على يديه ، ودخلوا بصحبته وتربيته وإرشاده ، ودعوته في الإسلام ، وأن مئات من السجناء المسلمين تابوا على يديه ، وبايعوه ، وتمتعوا بصحبته حتى بلغوا درجات الإحسان ، يقول الدكتور آرنلند في كتابه « الدعوة إلى الإسلام »(Preaching of Islam) :

كان في عهد السلطان جهانكير ـ ١٦٠٥ ـ ١٦٢٨م ـ عالم سني يدعى الشيخ أحمد المجدد ، اشتهر في عصره بالرد على العقائد الشيعية ، وكان الشيعة ذوي نفوذ في البلاط ، فاحتالوا عليه حتى سببوا له الاعتقال فبقي في المعتقل عامين ، واستمال في هذه المدة مئات من رفقته السجناء من غير المسلمين إلى الإسلام ، فاعتنقوه »[2].

(١) « توزك جهانكيري » ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ ، ورسالة الامام رقم : ٢ من المجموعة الثالثة .
(٢) ص ٤١٢ . الطبعة الثالثة

وجاء في دائرة معارف الأخلاق والديانات (Encyclopaedia of : Religion and Ithics) .

« يحكى عن عالم من علماء المسلمين يسمى الشيخ أحمد المجدد ـ كان في القرن السابع عشر الميلادي في الهند ، واعتقل ظلماً ـ أنه أدخل مئات من غير المسلمين السجناء الذين رافقوه في السجن ، في دين الإسلام »[1].

لذائذ ومواهب وراء الأسلاك :

أمطر الله شآبيب نعمه ـ شأنه مع المخلصين الممتحنين ـ على الإمام السجين ، وقد تحدث نفسه عما ناله من الرقي الباطني ، وانكسار النفس ، ولذة الحب والهيمان ، ومشهد الخلوة في الجلوة ، في الرسائل التي كتبها إلى خواص أصحابه في لذة ونشوة وسرور ، تحديثاً بالنعمة ، وذكر لآلاء الله ـ سبحانه .

يقول في رسالة طويلة وجهها من قلعة كواليار إلى الشيخ مير محمد نعمان :

« أحمد الله الذي رزقني العافية في البلاء ، ورفعني في الظلم والجفاء ، ولطف بي في المشقة والعناء ، ووفقني للشكر في السراء والضراء ، وأدخلني في زمرة المقتدين بالرسل والأنبياء ، والمقتفين لآثار الأولياء والمحبين للعلماء الأتقياء ، فرحمة الله وبركاته على رسله وأنبيائه أولاً ، وعلى أصحابهم وأتباعهم ثانياً »[2] .

يبدو أنه لما ذاع خبر اعتقال الإمام بأمر السلطان ، وانتشر في الناس بدأوا يعلقون على الحادث ويخوضون فيه ، ويبالغون ويتزيدون ويخرصون ، فتألم من هذا الوضع المحبُّون المريدون ، فيقول الإمام في رسالة كتبها إلى أحد المخلصين المحبين الشيخ بديع الدين من السجن ، مع الإشارة إلى انتقاد الناس وملامهم :

« لما وصل هذا الفقير إلى القلعة بدأ يشعر من أوائل الأيام بأن أنوار ملام

(١) ص ٧٤٨ ، المجلد الثامن .

(٢) الرسالة رقم : ٥ ، الجزء الثامن من المجموعة الثالثة

الناس ، ونقدهم وشماتتهم ، تساق إليَّ في صورة السحب النورانية من المدن والقرى ، بشكل مستمر ، وترفع شأني من الضعة والهوان إلى السمو والعزة ، لقد قطعت مسافات بالتربية المتسمة باللطف و « الجمال » أعواماً وسنين ، ويسار بي الآن في طريق التربية المتسمة بالشدة و« الجلال » فينبغي أن تتمسك بمقام الصبر بل بمقام الشكر والرضا ، وتعرف أن « الجلال والجمال » إلفان لا يختلفان[1] .

وكان يحرض أبناءه البررة من داخل السجن أيضاً على الصبر والشكر والرضا ، والسلوان ، والاشتغال بالدعاء والابتهال ، والذكر والتلاوة ، ونفي ما سوى الله ، والاهتمام بالدراسة ، وتزكية النفس ، والحرص على الوصول إلى الكمال[2] .

وتفيد بعض الروايات أن اعتقال الإمام بغير حق شرعي كان له رد فعل على أصحاب العقيدة السنية الصحيحة من أمراء البلاط وأركان الدولة ، وكان عبد الرحيم خان خانان ، وخان أعظم ، والسيد صدرجهان وخان جهان اللودهي وغيرهم متألمين من هذا الإجراء الذي أقدم عليه جهانكير ، وليست بين أيدينا وثائق من الكتب التاريخية التي ألفت في ذلك العهد تدل على هذه الفوضى والاضطرابات ، كما يصعب علينا الجزم بأنه إلى أي مدى كانت صلتها ، بحادث اعتقال الإمام .

وعلى كل فإن السلطان ـ لسبب من الأسباب[3] ـ ندم على ما فرط منه ، أو رأى هذه المدة للحبس تكفي لتأديبه ، وأبدى رغبته في اللقاء ، فوجه إليه الدعوة للحضور في البلاط ، وبقي الإمام السرهندي في قلعة كواليار عاماً كاملاً ، فلعل

(١) الرسالة رقم : ٦ ، الجزء الثامن من المجموعة الثالثة .

(٢) الرسالة رقم : ٢ ، الجزء الثامن ، المجموعة الثالثة ، كتبها الى الشيخ خواجه محمد سعيد ، والشيخ خواجه محمد معصوم .

(٣) يقال أن الملك رأى النبي ـ ﷺ ـ في المنام ، يعض بأصبعه في أسف ويقول : « حبست هذا الانسان العظيم ؟ يا جهانكير ! » .

الإفراج عنه كان في جمادي الآخرة عام ١٠٢٩ هـ الموافق لمايو عام ١٦٢٠ م .

الإمام في عسكر السلطان ومعيته وتأثيره الديني :

خرج الإمام من القلعة في عز وإجلال واحترام ، وأقام بسرهند لثلاثة أيام ، ثم توجه إلى عسكر السلطان ، حيث استقبله ولي عهده خرّم شاهجهان بن جهانكير الذي تولى الملك بعده ، ورئيس الوزراء ، وأمره السلطان بأن يمكث في العسكر لعدة أيام ، فقبل هذه الدعوة ، وقد أفادت هذه المرافقة وأثرت في السلطان وأفراد العسكر ، يقول جهانكير في « توزك » :

« أعطيته الخلعة وألف روبية لنفقته وخيرته بين أن يذهب أو يبقى معنا ، فاختار مرافقتنا والبقاء معنا » .

وقد كتب الإمام عن مرافقته للعسكر وفوائدها وثمراتها إلى أبنائه ، يقول : أرى البقاء في العسكر ـ مع عدم الخيرة وقلة الرغبة ـ فرصة طيبة ، وأفضل ساعة واحدة معهم على كثير من الساعات في أماكن أخرى »[1] .

ويقول في رسالة أخرى :

« الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، إن الأوضاع والظروف التي أنا فيها تستوجب الحمد ، فنقضي ساعات طيبات في مجالس رائقة عجيبة ، ومذاكرة مفيدة ، ولا يجد الكسل والمداهنة ـ بفضل الله ورعايته ـ سبيلاً إلى هذه المحادثات والمذاكرات عن الأمور الدينية والأصول الإسلامية » .

فمن توفيق الله سبحانه أنني أتكلم في هذه المجالس بنفس الأحاديث التي أتكلم بها في الخلوات الخاصة ، والمجالس المحدودة ، ويحتاج ذكر مجلس واحد إلى

(١) الرسالة رقم : ٤٣ المجموعة الثالثة .

كتاب مستقل »[1].

ويقول في رسالة أخرى عن مجلس ملكي عقد في تلك الفترة :

« وصلت الرسالة الكريمة من الأبناء الأعزاء ، أحمد الله تعالى على الصحة والعافية ، أتحدث إليكم عن شيء جديد حصل اليوم ، فأصغوا إليه السمع ، حضرت اليوم ليلة السبت في المجلس السلطاني ، ورجعت بعد ساعة وسمعت ثلاثة أجزاء من القرآن وبعد ساعتين غلبني النوم »[2].

ويقول في رسالة كتبها إلى الشيخ خواجه حسام الدين :

« كل من معي من الأصحاب ، والإخوان الأعزاء في سرور وطمأنينة ، لا تزال أحوالهم في رقي وصعود ، وكأن هذا المعسكر تحول بسببهم إلى رباط »[3].

وبلغ الإمام السرهندي لاهور مع العسكر ، وارتحل من هناك إلى سرهند ، وأقام في سرهند ضيافة كريمة على شرف السلطان ، وكان الإمام يرغب في الإقامة بسرهند ، ولكن السلطان شقّ عليه مفارقته ، فصحبه إلى دهلي ، ومنها إلى بنارس، ثم إلى أجمير حيث أقام برهة من الزمن .

التأثير على جهانكير :

ذكر بعض الكتب التي ألفت ـ حديثاً ـ في حياة الإمام السرهندي أن جهانكير كان يحب الإمام ويجله إجلالاً كبيراً ، وأنه بايعه ، ودخل في حلقة مريديه وطالبيه ، إلا أنه لا توجد شواهد تاريخية على ذلك ، ثم أن الأسلوب الذي استخدمه جهانكير في ذكر الإمام والتعرض له في مواضع عديدة لا يفيد ذلك ، ولا يدل عليه ، فإنه مهما كان في نشوة السلطة والقوة ، ومهما كان أسلوبه سلطانياً عالياً ، يستبعد جداً أن يذكر الإمام بهذا الأسلوب .

(١) أيضا رقم : ١٠٦ .
(٢) أيضاً رقم : ٧٨ .
(٣) أيضاً رقم : ٧٤ المجموعة الثانية .

ولكن لا يمكننا أن نجحد ما تركت هذه المرافقة من الأثر العميق في نفس جهانكير ، والفوائد التي اقتبسها منها ، فقد كان لمرافقته دخل كبير في نشأة النزعة الدينية الجديدة فيه ، وعنايته بتعمير المساجد المنهدمة من جديد ، وشغفه بإقامة المدارس الدينية في المناطق المفتوحة ، وما ظهر منه عام ١٠٣١ هـ بمناسبة فتح قلعة كانكره من عواطف إسلامية ، وإظهار شعائر الإسلام فيها[١] يدل على حدوث التحول ، والتقدم في التدين الذي يمكن معه القول بأنه كان غيضاً من فيض مرافقة الإمام السرهندي وصحبته .

دنو الأجل والاستعداد له :

يقول الشيخ خواجه محمد الكشمي : « كان عام ١٠٣٢ هـ ، والإمام السرهندي مقيم في أجمير إذ قال يوماً ، لقد قربت أيام السفر إلى الآخرة ، وكتب إلى أبنائه الكرام الذين كانوا في سرهند ، « أيام انقراض العمر قريبة والأبناء بعيدون » ، وما أن وصلت الرسالة إلى الأبناء البررة حتى قاموا ، وحضروا إلى أجمير ، فقال الإمام ـ ذات يوم ـ مخاطباً لابنيه الشيخ محمد سعيد والشيخ محمد معصوم ، ولم يكن ثمة أحد : ليست لي الآن أي رغبة في الدنيا ولا التفات إليها ، ويستولي على مشاعري التفكير في الدار الآخرة ، ويبدو أن السفر إليها قريب »[٢].

ولما رجع الإمام من العسكر إلى سرهند أقام فيها عشرة أشهر وثمانية أو تسعة أيام ، ثم لما عاد من أجمير إلى سرهند ، ترك العلائق كلها ، وانقطع عن جميع الناس ، واختار العزلة والخلوة ، فلم يكن يؤذن بالدخول عليه إلا لأبنائه ، واثنين من خواص خدمه ، وأصحابه ، وكان يخرج للصلوات الخمس والجمعة فحسب ، ويصرف جل أوقاته في الذكر والاستغفار ، والاشتغال بخاصة النفس ، فكان تفسيراً عملياً لقوله تعالى : ﴿ وتبتّل اليه تبتيلا ﴾[٣] .

---

(١) انظر « توزك جهانكيري » ، ص ٣٤٠ ، وراجع للتفصيل الباب السابع منه .
(٢) بدة المقامات ، ص ٢٨٢ .
(٣) سورة المزمل ، آية ٨ .

واشتد مرض ضيق النفس من منتصف شهر ذي الحجة ، وكان يغلبه البكاء وعندما يبلغ الضعف شدته ، يلهج لسانه بقوله : اللهم الرفيق الأعلى ، ومضت ـ أثناء هذا المرض ـ أيام أبلّ فيها قليلاً من مرضه ، فوجدت القلوب الجريحة الحزينة قليلاً من الراحة والسلوى ، وكان الإمام يقول في هذا الحال : إن اللذة والبشاشة التي كنت أشعر بها في شدة المرض لا أشعر بها في هذا البرء لأيام قليلة » ، وأكثر عند ذلك من التصدق والإنفاق ، ثم قال اليوم الثاني عشر من شهر محرم : « نبئت بأنه يرحل بك من هذه الدنيا إلى الدار الآخرة في ظرف خمسة وأربعين يوماً ، وأريت مكان القبر » ، ورأى أبناؤه ـ ذات يوم ـ أن الإمام في حال رقة وبكاء ، فاستفسروه عن السبب ، فقال : « شوق اللقاء » فقال الأبناء البررة : ما سبب انصرافكم عنا ، وعدم حبكم لنا (على غير العادة الكريمة) قال : « للّه أحب إليّ منكم » .

ولما كان ٢٢ من شهر صفر ، قال للخدم والأقرباء : لقد تم ـ هذه الليلة ـ أربعون يوماً فننتظر ماذا سيحدث في هذه الأيام السبعة أو الثمانية القادمة ، ثم جعل يتحدث عن نعم الله التي لا تحصى ، وألطافه التي لا تستقصى وقسم جميع أثوابه وملابسه يوم ٢٣ صفر في الأصحاب والخدم ، ولم يكن على جسمه ثوب محشو بالقطن ، فأصيب بالبرد ، وعادت الحمى مرة ثانية[1] ، وكأنه أدّى سنة الرسول ـ ﷺ ـ في مرضه الأخير أيضاً ، إذ أنه ـ ﷺ ـ مرض مرة ثانية بعد برء قليل .

لقد كانت العلوم والمعارف الإلهية في هذا الضعف والوهن الشديد تنهمر عليه وتفيض ، قال له ابنه الشيخ محمد سعيد : تشق على حضرتكم في هذا الضعف البالغ الغاية هذه الأحاديث ، فلو أجّلت بيان هذه الحقائق والمعارف السنيّة ، فقال : يا ابني العزيز من يضمن لي بالوقت حتى أؤجل بيان هذه المعاني » والتزم الصلوات بالجماعات أثناء هذا الضعف المرهق إلاّ الأيام الأربعة أو الخمسة من أواخر أيام حياته ، صلى منفرداً بعد إلحاح شديد ، ولم يكن للكسل والتواني ـ رغم الوهن

(١) لعل ذلك كان شهر نوفمبر إذ أن الوفاة كانت في شهر ديسمبر ، وهذا الشهر من فصل الشتاء في هذه المناطق .

المضني - سبيل إلى الاشتغال بالأدعية والأوراد المأثورة ، والذكر والمراقبة ، وكان يراعي جميع آداب الشريعة والطريقة ، مراعاة تامة دقيقة ، قام - ذات ليلة - في الثلث الأخير وتوضأ ، ثم قام يتهجد ، وقال : « هذه آخر نافلة الليل » ، وهكذا كان .

وغلبه الاستغراق والفناء قبل الوفاة بيسير ، وسأله الأبناء البررة ، هل هذه الغيبة والاستغراق ناشيء من الضعف والمرض ، أو ناشيء من الاستغراق والانقطاع ، فقال : « ناشيء من الاستغراق ، وبين يدي حقائق وأمور » ، وكان يوصي في هذا الحال من الإرهاق والإعياء ، باتباع السنة ، واجتناب البدعة ، والمداومة على الذكر والمراقبة ، وكان يقول : يجب العض على السنة بالنواجذ ، وقال أيضاً : إن صاحب الشريعة - عليه الصلاة والسلام - لم يدخر وسعاً في النصيحة ، وإبلاغ الخير والدعوة إليه ، عملاً بقوله : الدِّين النصيحة » ، فيجب اقتباس طريق المتابعة التامة ، والطاعة الكاملة للرسول - ﷺ - من الكتب الدينية المعتبرة ، والعض عليها بالنواجذ ، وقال لزوجته : اتبعوا السنة في تكفيني ودفني ، ولا تتركوا شيئاً من السنة ، واشتري ثوب الكفن من مال صداقك ، وقال أيضاً ، يجب أن تدفنوني في مكان مجهول ، فقال له أبناؤه : كنتم أوصيتم - قبل - أن يكون قبر حضرتكم بجوار قبر أخينا الأكبر خواجه محمد صادق[1] ، وتوصون الآن بغير ذلك ، فقال أجل إنني أجد في الآن الرغبة الشديدة إلى ذلك ، ولما رأى سكوت أبنائه عند سماع هذا القول منه ، وأنهم مترددون لا يعجبهم ذلك ، قال لهم : إن لم تستطيعوا ذلك فادفنوا في خارج المدينة بجوار الوالد الكريم ، أو في أي مكان من البستان ، وليكن قبري غير مجصص ، حتى لا يبقى بعد مضي أيام عين ولا أثر ، نظر إلى الأبناء الذين غلبهم الهمُّ والتفكير ، تبسم في وجوههم ، ثم قال : لكم الخيار ادفنوني حيث شئتم .

كانت ليلة الثلاثاء ، اليوم التاسع والعشرون من صفر ، وكان اليوم المقبل يوم رحلته إلى دار القرار ، توجه إلى أصحابه وخدمه الذين سهروا على تمريضه وخدمته ،

---

(١) وهو ابن الامام السرهندي الأكبر ، مات ٩ ربيع الأول عام ١٠٢٥ هـ .

وقـال : إنـكم تحملتـم مشـاق كثيرة ، وبقيت مشقـة ليلـة واحـدة ، ثم الراحـة والاستجمام ، ونطق في آخر الليل :

« أصبح ليلاً » فلما أسفر الفجر دعا بالطست للبول ، ولم يكن في الطست رمل ، فرده خوفاً من إصابة رشاشاته ، وقال بعض الحاضرين ، ينبغي أن يفحص الطبيب البول ، قال : لا أريد أن أنقض الوضوء ، أضجعوني على الفراش وكأنه بدا له ـ عنـد ذاك ـ أن الـرحيل قريب ، ولا يتسـع الوقـت لوضـوء جديد ، فلما أضجعوه على الفراش ، وضع يده اليمنى تحت خده الأيمن على طريق السنة واشتغل بالذكر ، فلما شاهد أبناؤه السرعة في التنفس ، سألوه : كيف حالكم ؟ قال : نحن بخير ، وأن الركعتـين اللتـين صليتهما تكفيان ، ثم لم يتكلـم بشيء ، سوى ذكر « اسم الذات » ، ولم يلبث أن فاضت روحه ، كان هذا الحادث ضحى يوم الثلاثاء ٢٨ من صفر عام ١٠٣٤ هـ[١] ، وكان شهر صفر تسعة وعشرين يوماً ، وكان اليوم المقبل غرة ربيع الأول إذ طارت النفس المطمئنة ، وأوت إلى ربها وخالقها « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية »[٢] ، ومـات ولـه ثلاث وستـون سنة[٣] .

ولما أرادوا غسله لاحظوا أنه قابض يده اليسرى بيده اليمنى ، ومسك بالإبهام والخنصر على المعصم كهيئة القيام في الصلاة ، وفرج الأبناء يديه بعد الوفاة ، ولكن شهد الناس أنهما عادتا مكانهما كهيئة الصلاة ، ودامت هذه الهيئة إلى ما بعد التكفين والدفن ، وكانت تبدو على شفتيه بسمة حانية وكان كما قال الشاعر :

ولدتـك أمـك يـا ابـن آدم بـاكياً ... والنـاس حولك يضحـكون سـروراً
فاجهـد لنفسـك أن تكون إذا بكوا ... في يوم موتـك ، ضاحـكاً مسروراً

(١) الموافق ١٠ ديسمبر عام ١٦٢٤ م .

(٢) سورة الفجر ، آية ٢٨ .

(٣) وتوصل الشيخ أبو الحسن زيد في تحقيقه الى أن عمره بحساب التقويم الهلالي ، اثنان وستون عاماً وأربعة أشهر وأربعة عشر يوماً ، وبحساب التقويم الشمسي ستون عاماً وستة أشهر وخمسة أيام (أنظر « الامام المجدد وناقدوه » ص ٢٢) .

وكلما حاولوا أن يفكوا يديه ، ويفرجوا بينهما ، عادتا إلى مكانهما من الصلاة ، وكفن على طريقة السنة ، وصلى عليه ابنه الكبير الشيخ محمد سعيد ، وحمل النعش إلى مرقده الدائم[1] .

عاداته وشمائله :

سجل الشيخ محمد الكشمي ـ الذي رافق الإمام وقام بخدمته في السفر والحضر في الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياته . تفاصيل عن عاداته وبراجه[2] ، أقدم خلاصتها فيما يلي مع بعض الزيادات من « حضرات القدس » للشيخ بدر الدين السرهندي :

« سمعت الشيخ غير مرة ـ يقول : ما قيمة عملنا وجهودنا ! كل ذلك من فضل الله ـ سبحانه ـ وإذا كان هناك ما يعتمد عليه ، فهي طاعة سيد الأولين والآخرين ومتابعته ـ ﷺ ـ هي القطب الذي تدور حوله الأعمال ، وكل ما أعطى الله ورزق عباده فمن طريق اتباعه والاهتداء بهديه ، وكل ما حرمناه، جزءاً أو كلا ، فسببه التقصير وفتور الهمة في الاتباع بحكم البشرية ، وقال يوماً : دخلت المرحاض يوماً فبدأت برجلي اليمنى سهواً فحرمت كثيراً من الأحوال والمقامات ذلك اليوم ، وقال يوماً لصالح الختلاني : هات عدداً من القرنفل من كيسي ، فذهب وجاء بست حبات من القرنفل ، فأبدى استياءه وغضبه ، وقال لا يعرف هذا الصوفي أنه جاء في الحديث : « إن الله تعالى وتر يحب الوتر »[3] ، فتستحب مراعاة الوتر ، ماذا يعتقد الناس في « المستحبات » لو وهبت الدنيا والآخرة لإنسان ، كفاء عمل يستحبه الله ويرضاه ، لما كان لهما قيمة يقول بعض خدمه : سألت الشيخ محمد بن فضل الله ، ماذا شاهدت في سرهند حدثنا عنها قليلاً ، فقال ، ماذا يشاهد مثلي قاصر النظر ،

---

(١) من « زبدة المقامات » ص ٢٥٦ ـ ٣٠٠ بتلخيص .

(٢) انظر « زبدة المقامات » ص ١٩٢ ـ ٢١٥ .

(٣) رواه الترمذي .

عديم البصيرة ، إلاَّ أنني رأيت شدة تمسك بالسنة ، وعظيم اهتمام بها ، فكان لا يترك سنة مأثورة من السنن في صغير وكبير ، ودقيق وجليل ، ولا أظنه بالأمر الميسور لكل أحد .

ويقول بعض أصحابه الذين جالسوه طويلاً : إن أحوال هؤلاء ، وكيفياتهم القلبية تعلو على مداركنا ، إلاَّ أنني أستطيع أن أقول : لقد توثق إيماني وتصديقي بمشاهدة أحوالهم ومجاهداتهم ـ بما حكى عن الأولياء المتقدمين والربانيين السابقين ، وعلمت أنها خالية من المبالغة والمغالاة ، بل شعرت بأن المؤلفين قصروا ولم يكتبوا كل ما رأوا ، وهكذا كنا نقضي طول النهار في مشاهدة الأحوال العجيبة ، ويقول خادمه الخاص ـ الذي كان صاحب أدواته : ما كنت أجد فسحة من الوقت إلاَّ عند قيلولته ، وفي الثلث الثاني من الليل ، وكان كثيراً ما يأمر أصحابه بدوام الذكر ، والاستحضار والمراقبة ، ويقول : هذه الدنيا دار العمل ، ومزرعة للآخرة ، فينبغي الجمع بين استحضار القلب ، وذكره ، وبين الأعمال الظاهرة ، والآداب الشرعية ، وكانت تتورم قدما الرسول ـ ﷺ ـ في الصلاة ، (مع كونه حبيب رب العالمين ، وأفضل الأنبياء والمرسلين) .

ورغم أن الإمام كان مستحضراً للمتون والمسائل الفقهية ، صاحب ملكة راسخة في أصول الفقه ، إلا أنه كان ـ لاحتياطه وورعه في الدين ـ يراجع الكتب المعتبرة في الفتاوي ، ويصطحبها معه في السفر والحضر ، ويعمل بما أفتى به كبار الفقهاء ورجحوه ، وكان يؤم بنفسه ـ غالب الأحيان ـ في الصلاة ، وقد أشار ـ ذات يوم ـ إلى الحكمة في تقدمه وإمامته :

« إنه لا تصح الصلاة عند السادة الشافعية والمالكية بدون قراءة الفاتحة ، فيقرأونها خلف الإمام ، وتدل على ذلك أحاديث كثيرة صريحة ؛ ولكن لا تجوز قراءة الفاتحة خلف الإمام عند إمامنا أبي حنيفة ، والمذهب على ذلك عند جمهور الفقهاء الحنفية ، ولما كنت أحاول التطبيق ، والجمع بين هذه المذاهب ، فأرى من

المستحسن أن أؤم الناس في الصلاة »[1].

كان من عادة الإمام أن يقوم ـ سواء كان في السفر أو في الحضر ، أو الشتاء أو الصيف ـ في النصف الأخير من الليل ، وأحياناً في الثلث الأخير منه ، فيذكر الله تعالى ، ويدعو بالدعوات المأثورة في هذا الوقت ، ثم يتوضأ بنفسه ويسبغ الوضوء ، ولا يسمح لأحد أن يهريق عليه الماء ، ويستقبل القبلة عند الوضوء ، إلا أنه حين يغسل الرجل يوجهها شمالاً أو جنوباً ، وكان يحافظ على السواك ، ثم يقرأ الأذكار والدعوات الواردة في الحديث ، ويطيل القراءة والقيام في النوافل بحضور قلب وجمعية خاطر ، وحين ينصرف من التطوع ، يتوجه إلى المراقبة في خشوع واستغراق ، ويضطجع قليلاً قبل الفجر مراعاة للسنة ، ثم يقوم قبل طلوع الفجر ، ويتوضأ وضوءاً جديداً ، ويصلي سنة الفجر في البيت ، ويقرأ بين صلاتي السنة والفريضة سراً سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » ، وكان يصلي الفجر في آخر وقت الغلس وأول وقت الأسفار حتى يجمع بين المذهبين في ترجيح الغلس أو الأسفار ، ويؤم بنفسه في هذه الصلاة ، ويقرأ الطوال[2] ، كما ثبت في الحديث[3] ، ثم يجلس من بعد صلاة الفجر إلى شروق الشمس في الحلقة ، ثم يتطوع عند الإشراق يطيل فيها القراءة ، ويشتغل بالأوراد والأذكار حتى ينتهي منها فيأتي البيت ويتعهد الأهل والعيال ، ويعطي تعليماته وإرشاداته في الأمور البيتية اليومية ، ثم يذهب إلى الخلوة ، وينهمك في تلاوة القرآن انهماكاً تاماً ، ويطلب بعد الفراغ من التلاوة المريدين والمسترشدين ، ويسألهم عن أحوالهم وشئونهم ، ويرشدهم فيها ، ويطلب في نفس الوقت خواص أصحابه وتلامذته ويفيدهم بالعلوم والحقائق والمعارف العالية ، ويتوجه بقلبه إليهم ، ويخبرونه بأحوالهم وكيفياتهم فيؤكد عليهم بدوام الاستحضار ، وستر الحال ، واتباع السنة ، وعلو الهمة ، وقال ـ مرة ـ في

---

(١) وقد ذكر الشيخ محمد الكشمي في موضع آخر من هذا الفصل : « أن الامام كان يقرأ الفاتحة خلف الامام ، ويستحب ذلك » ص ٢٠٩ .

(٢) وهي من سورة الحجرات الى سورة البروج .

(٣) « حضرات القدس » ص ٨٢ .

سياق الحديث عن عظمة كلمة « لا إلـه إلاّ الله محمـد رسـول الله » ـ وجلالها ، « الكون كله إزاء هذه الكلمة أقل شأناً من قطرة إزاء بحر محيط » ، وكان يحرض المريدين والأصحاب على مطالعة كتب الفقه ودراستها ، ويرغبهم في الرجـوع إلى العلماء ، وسؤالهم عن الأحكام الشرعية .

وكان يقول : « يتجلّى في الـكشف أن العالـم بأسره غريق في جلـة البـدع والخرافات المظلمة ، وأن نور السنة ـ في وسط هذه الظلمة ـ يتلألأ تلألؤ اليراعة في الليلة الظلماء» ، وكان شديد الكراهية والمجانبة للغيبة وعيب المسلمين ، ولم يكن الخدم والمسترشدون يتجرأون لوقاره ومهابته على أن يغتابوا أحداً في مجلسه ، وكان يستر أحواله وكيفياته الباطنية غاية الستر ، ما رأيته في مدة عامين إلا ثلاث أو أربع مرات ، دمعت عيناه وفاضت العبرات ، وانحدرت على الوجه المنور ، كما رأيتـه ثلاث وأربع مرات احمرّت وجنتاه وعيناه أثناء التذكير ، وبيان المعارف الجليلة .

وكان يدخل البيت بعد صلاة الضحى ، والضحوة الكبرى ، ويتناول الغداء مع الأهل والعيال ، وإذا أعد أحد من أبنائه أو أصدقائه ، ومعارفه شيئاً يأتـي به إليه ، وإذا غاب بعض أبنائه أو خدمه في ذلك الوقت ، يحفـظ له نصيبـه ، وكان اهتمامه بالإطعام ، أثناء الطعام أكثر من عنايته بأكله ، فيتعهد غـيره ، ويكرمـه ، ويقدم إليه ما يرغب فيه ، ويتناول أحياناً ـ ما يسد الرمق ، ويقيم الصلـب ، حتى ليخيل إلى الناظرين أنه لا حاجة له إلى الطعام ولكنه يريد اتباع السنة[1]، وفي الأيام الأخيرة من حياته لما اعتزل الناس وعكف على العبادة ، وأكثـر من الصيام ، كان يتناول الطعام في الخلوة ولم يكن يقرأ الفاتحة بعد الطعام ـ كما هو التقليد المتبع عند بعض المشايخ وكثير من العوام ـ لأنه لم ترد به أحاديث صالحة للاحتجاج ، كما لم يكن يقرأ الفاتحة بعد الصلوات المكتوبـات ـ كما هي العـادة السائـدة عنـد بعض المشايخ .

---

(١) « حضرات القدس » ص ٨٧ .

ويقيل بعد تناول الغداء عملاً بالسنة ، ويؤذن المؤذن في أول وقت الظهر ، فيقوم ويتوضأ ، ثم يتطوع ، ويسمع بعد صلاة الظهر جزءاً من القرآن الحكيم ، أو أقل أو أكثر ، من حافظ للقرآن، وإذا كان يوم درس يدرس ، ويصلي العصر إذا كان ظل كل شيء مثليه ، ثم يبقى من بعد العصر إلى المغرب مع أصحابه ومريديه في صمت ومراقبة ، ويتوجه إلى كيفيات المريدين وأحوالهم الباطنية ، ويصلي بعد صلاة المغرب ركعتي السنة ، وصلاة الأوابين ، أربع ركعات حيناً ، وست ركعات حيناً آخر ، ويصلي العشاء بعد زوال الشفق الأبيض مباشرة ، وكان يجمع في صلاة الوتر بين قنوت الحنفية وقنوت الشافعية ، ويصلي بعد الوتر ركعتين تارة جلوساً وأخرى قياماً ، ولم يصل هاتين الركعتين في أواخر أيامه إلاّ قليلاً نادراً ، وما عهدت عنه سجدتان بعد الوتر ، كما هي عادة معروفة بين الناس .

وكان يعتكف في العشر الأواخر من رمضان ، ولا يتأخر بعد العشاء والوتر في النوم ، فيأوي إلى الفراش ، ويدعو بالدعوات المأثورة ، وكان يكثر من الصلاة على النبي -ﷺ- وبخاصة ليلة الجمعة ويوم الجمعة ، وليلة الاثنين ويوم الإثنين ، وكان يخيل للناظر إليه - عند تلاوته للقرآن الكريم من قسمات وجهه ، وأسلوب ترتيله أن الأسرار القرآنية تنكشف عليه ، ، وبركات الآيات تنزل عليه ، وسكينتها تغشاه ، وكان إذا مرّ بآية عذاب في الصلاة أو خارج الصلاة ، يتغير لونه ، وإذا مر بآية فيها تعجيب واستفهام ، يظهر عليه أثره في لحنه وصوته ، يراعي جميع السنن والآداب والمستحبات في الصلاة ، ويهتم بالتطوع بعد الوضوء ، وعند دخول المسجد ، ولم يكن يؤدي نوافل الصلوات بالجماعة غير صلاة التراويح ، وكان ينهي الناس عن الاجتماع للصلاة النافلة الليلة العاشرة من محرم ، أو ليلة القدر.

كان يخرج لعيادة المرضى ، ويدعو لهم بالدعوات المأثورة في مثل ذلك ، ويخرج لزيارة القبور ، وكان يلقي دروساً في بعض الكتب الدينية العالية مثل « تفسير البيضاوي » ، و« صحيح البخاري » و« مشكاة المصابيح » ، ويدرس في

علم الفقه وأصوله ، وعلم الكلام ، و« هـداية الفقـه » للمرغينانـي ، و« أصـول البزدوي » و « المواقف » ، ويدرس في التصوف : « عوارف المعارف » ، ولكن لم يكن في هذه الدروس نقاش وجدال ، وقيل وقال ، وقل اشتغاله بالتدريس في الأيام الأخيرة ، وكان يوجه الطلاب إلى تحصيل العلوم الدينية بتأكيد بالغ ، ويقدمها على تحصيل علم الطريقة والسلوك ، وكان يكثر من التحميد والاستغفار ويلهج بالشكر والثناء ويكثر منه ، على قليل من النعمة والفضل .

كانت له عناية شديدة بشهر رمضان ، يختم فيه القرآن ـ على الأقل ـ ثلاث مرات ، وكان يحفظ القرآن عن ظهر غيبه، فكان يتلوه من غير نظر في غير رمضان أيضاً ، كما يحضر لسماعه في الحلقات والمجالس[1] ، كان يعجل الفطـور ويؤخـر السحور ـ عملاً بما جاء في السنة ـ ويهتم بذلك اهتماماً كبيراً »[2].

وكان شأنه في الزكاة أنه إذا جاءته هدية أو تحفة ، فلا يترقب حولان الحول عليه ، بل يؤدي الزكاة المفروضة في قيمة هذه الهدايا والنعم ، وكان يفضـل عنـد توزيع الزكاة أهل الصلاح من الرجال ، والصالحات من الأيامى وذوي قربـاه ، وعزم على الحج مراراً ، ولكن لم يتفق له تحقيق هذا العـزم لموانـع ، ودام له هذا الشوق والحنين ، ورحل من هذه الدار الفانية في هذا الشوق والحنين .

وكان غاية في التواضع ، ولين الجانـب ، ودماثـة الخلـق ، وحسـن العشرة والشفقة على الخلق ، متسنماً ذروة الرضا ، والتوكل والتفويض ، أوذي من أقربائه وأصدقائه ، وأحبابه ومن الحكام الجائرين ، ايذاءً شديداً ، ولكنه التزم جانب الرضا والتفويض ، وما تكلم لسانه بشيء ينم عن التبرم والشكوى ، وكان إذا زاره أحد قام احتراماً وتكريماً له ، ويجلسـه في مكان بارز ، ويتحـدث معـه بمـا يناسـب ذوقـه ونفسيته ، ولكنه لم يكن يحترم غير المسلمين ويعظمهم وإن كانـوا ولاة وأمـراء ،

(١) « زبدة المقامات » ص ١٩٢ ـ ٢١٥ ، باختصار وتلخيص ، وما جاء في هذا الفصل من غيره ، أحيل إليه في الهامش وهو قليل .
(٢) « حضرات القدس » ص ٩١

وأصحاب السلطة والجاه ، وكان يبدأ بالسلام ، لا أذكر أحداً سبقه في البدء بالسلام ، وكان يراعي ، من له عليه حق غاية المراعاة وإذا نعي إليه إنسان يتأثر ويحزن ويسترجع ، ويحضر جنازته ، ويدعو له ويثيبه بالطاعات والقربات[1] .

كان لباسه ثوباً يكون على كتفيه جيبان ، وعباءة فوقه ، ولكن يقتصر على الثوب وحده أيام الصيف ، وعمامة ينوطها على رأس موافقة للسنة ، تقع ذؤابتها على الظهر بين الكتفين ، وكان سرواله دائماً - إلا في حالة قضاء الحاجة - فوق الكعبين ، وكان يلبس يوم الجمعة والعيدين لباساً فاخراً ، وإذا لبس ثوباً جديداً ، أعطى القديم لخادم ، أو قريب ، أو ضيف وكان يقيم عنده - بصفة دائمة - خمسون وستون بل زهاء مائة شخص من العلماء والعارفين ، والمشايخ ، وحفظة القرآن والأشراف ، وكان طعامهم - جميعاً - من مطبخه الخاص[2] .

حليته وصفته :

وصفه الشيخ بدر الدين السرهندي - الذي صحبه سبعة عشر عاماً ، وكان من خلفائه ، في « حضرات القدس » بالوصف التالي :

« كان أسمر اللون ، ضارباً إلى البياض ، يلمع على جبينه وخدّيه نور يخلب الأبصار ، أزجُّ الحاجبين ، وكان حاجبه مثل القوس مع طول ، أسود ، دقيقاً ، انجل العينين ، موضع سوادهما غاية في السواد ، وموضع بياضهما غاية في البياض ، دقيق الأنف ، رقيق الشفتين في حمرة ، معتدل الفم ، متراص الأسنان تفتر عن مثل اللؤلؤ المنظوم ، كث اللحية مع وقار ورزانة ، لحيته طويلة مربعة ، ولم تتجاوز شعراتها على خديه أكثر من الحد الطبيعي ، متوسط القامة ناعم الجسم[3] .

---

(١) « حضرات القدس » ص ٩١ - ٩٢ ، تأليف الشيخ بدر الدين السرهندي .
(٢) أيضاً ، ص ٩٢ .
(٣) أيضاً ، ص ١٥٥ .

أبناؤه الأمثال :

رزق الإمام السرهندي سبعة أبناء ، توفي اثنان منهما في الصغر في حياة الإمام ، وهما الشيخ محمد فرّخ ، والشيخ محمد عيسى ، وكان الشيخ محمد أشرف مات في أيام الرضاعة ، وتوفي ابنه الأكبر الشيخ محمد صادق بعد الفراغ من تحصيل العلوم الدينية والسلوك عام ١٠٢٥ هـ ، وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، وبقي الثلاثة من أبنائه الأماثل الشيخ محمد سعيد ، والشيخ محمد معصوم ، والشيخ محمد يحيى أحياء ، تتجمل بهم هذه الأسرة العظيمة ويحق أن يسمى هؤلاء الأربعة السلسلة الذهبية ، والشموس المضيئة .

وكان الشيخ عبد الباقي أثنى عليهم ، ووصفهم بصفات عالية ، ولقبهم بـ « الجواهر العلوية » و بـ « الشجرة الطيبة » ، وقال أيضاً فيهم : هؤلاء فقراء على عتبة الله ، يحملون بين ضلوعهم قلوباً عجيبة .

وكان ابنه الأول الشيخ محمد صادق قد بلغ الكمال ، وذروة الإحسان في حياة والده ، وقد وصفه والده بصفات عظيمة ، تدل على علو استعداده الباطني ، وكماله الروحي ، وقال في رسالة له : « ابني العزيز جماع حقائق هذا العبد الضعيف ومعارفه ، وصحيفة مقامات الجذب والسلوك »[١] .

وولد الابن الثاني الشيخ محمد سعيد عام ١٠٠٥ هـ ، وتوفي ٢٧ جمادي الآخرة ١٠٧٠ هـ ، وقد ساهم في نشر طريقة الإمام ، وتعليم الطالبين وإرشاد السالكين مساهمة كبيرة[٢] .

وكان الابن الثالث الشيخ محمد معصوم حامل علوم الوالد العظيم وشارح معارفه وحقائقه ، وخليفته وأمين سره ، وانتشرت على يديه الطريقة المجددية انتشاراً

(١) الرسالة رقم : ٢٧٧ ، وانظر للاطلاع على مناقبه وفضائله « زبدة المقامات » ص ٣٠٣ ـ ٣٠٦ .
(٢) راجع للاطلاع على حياته ومناقبه « زبدة المقامات » ص ٣٠٨ ـ ٣١٥ .

عظيماً ، وأصبح تأثيرها بفضله تأثيراً عالمياً شاملاً ، وعم نفعها وخيرها ، حتى قال قائل ، وأصاب فيما قال :

« الشيخ معصوم سراج الأقطار والبلدان ، أضاءت بفضله وبركته الأرض من الهند إلى الروم » .

فقد كانت زاوية دهلي الشهيرة في العالم ، والتي كانت مأوى العرب والعجم ـ وتصدر فيها للتربية والإرشاد جلة المشايخ الأفذاذ كالشيخ خواجه سيف الدين ، والشيخ مرزا مظهر جان جانان ، والشيخ علام علي ، والشيخ أحمد سعيد في عصورهم أدوارهم ـ حلقة من هذه السلسلة المجددية ، ومن هناك حمل الشيخ خالد الرومي الكردي[1] هذه الطريقة بعد أن تلقنها وأخذها من الشيخ غلام علي إلى بلاد الشام وتركيا ، وانبثت منه عروقها في العراق والشام ، وكردستان وتركيا ، وانتشرت في المدن والقرى ، والأسر والبيوت .

وأن رسائل الشيخ محمد معصوم تقوم بمثابة شرح وتفصيل لرسائل الإمام المجموعة في ثلاثة مجلدات ، وهي خزانة العلوم والمعارف ، والأسرار والدقائق ، وتحتاج سيرته ومناقبه إلى كتاب مستقل .

كانت ولادته ١١ شوال عام ١٠٠٧ هـ ، وتوفي ٩ ربيع الأول عام ١٠٧٩ هـ[2] .

وكان الابن الرابع الشيخ محمد يحيى ، كان ابن تسع سنوات عند وفاة الإمام السرهندي ، أخذ العلوم على إخوته وتربى على أيديهم ، وتلقن الطريقة منهم ، وكانت وفاته عام ١٠٩٦ هـ[3] .

---

(١) سيأتي الحديث عنه مفصلاً في الباب الثامن .

(٢) تأتي ترجمته في آخر هذا الكتاب مقتبسة من كتاب « نزهة الخواطر » .

(٣) وكان الشيخ رؤوف أحمد ، وحفيده الشيخ ابو أحمد وابنه الشيخ محمد يعقوب ، مشايخ مدينة « بوفال » . المعروفين ، من أعقاب الإمام السرهندي .

الباب الخامس
تجديد الإيمان وإعادة الثقة بالنبوة المحمدية
نقطة تجديد الإمام السرهندي وإصلاحاته الأساسية

ما هو العمل التجديدي الذي قام به الإمام السرهندي ؟ .

اتفق جميع العلماء المتبصرين والمؤرخين المنصفين - الذين لهم اطلاع واسع على التاريخ الإسلامي - بصفة عامة - والتاريخ الإسلامي في الهند بصفة خاصة[1] - على أن الإمام السرهندي قام بالدور الرائع في الدفاع عن الدين الإسلامي ، وتقويته ، ونصرته ، الذي صنع تاريخاً جديداً ، وبدأ عهداً جديداً ، والذي يسمى في مصطلح الحديث المعروف البسيط « التجديد »[2] ، الذي عرف به الإمام واشتهر اشتهاراً عظيماً حتى غلب عليه لقب « المجدد » ، وظل ينوب عن اسمه ، ولا نجد له مثالاً من قبل .

فما هو هذا العمل التجديدي ؟ ، إنه تجلية الفكر الإسلامي ، وانعاش الروح الدينية ، ومقاومة الفتن الخطيرة المحدقة ، واستئصالها من جذورها ، وكسر طلاسم المحاولات الضالة - المؤسسة على الرياضات والمجاهدات ، والإشراق وصفاء الباطن ، والتجارب الروحية - لمعرفة الله تعالى والوصول إليه ، التي كانت تعتمد على وسائلها وطرقها الخاصة ، وتستنكف عن اقتفاء سيدنا محمد - ﷺ - واتباع سنته وهديه ، ولا ترى لزوماً لذلك ، وكشف النقاب عن وجه العقائد والنظريات المتلبسة بالوحدة والاتحاد ، وقد بلغا أوج التطرف والمغالاة ، وانتشرا في كثير من الأوساط

---

(١) وقد تناولناه بصورة إجمالية في البابين الأولين من هذا الكتاب .

(٢) جاء في سنن أبي داود : « إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » راجع للتفصيل شروح كتب السنن . واقرأ في حكمة هذا الحديث ، والحاجة الى التجديد في أزمنة وأمكنة مختلفة كلام شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ، المشتمل على فوائد كثيرة ، في المجلد الثامن عشر من مجموع فتاواه ، ص ٢٩٧ - ٣٠٥ .

وتلقاهما كثير من الناس بالقبول ، وأحدثا رجة في المعتقدات الدينية ، وهزة في المجتمعات الإسلامية ، وفوضى في الخلق والدين ، وعرض نظرية « وحدة الشهود » بدلاً من « وحدة الوجود » وتدعيمها علمياً وعقلياً ، والتدليل عليها وتقديمها بصورة منظمة دقيقة ، والتشديد في الإنكار على البدع والخرافات - التي أصبحت تشريعاً إزاء تشريع - وتفنيدها ، وعدم الاعتراف بوجود « البدعة الحسنة » وتثبيت أقدام الإسلام المتزلزلة في الهند ، وإزالة آثار الكفر ومعالم الضلال ، التي خلفها عهد أكبر المظلم ، والمحاولة الجادة الحكيمة الناجحة لثورة دينية تجديدية ، وتغيير جذري عظيم ، كان من نتاجهما السلطان محيي الدين اورنك زيب عالمكير سلطان الهند ، وصاحب الأمر والنهي فيها ، سياسياً وإدارياً ، وحكيم الإسلام الإمام ولي الله الدهلوي وخلفاؤه وتلامذته الذين هم من حلقات هذه السلسلة الذهبية - روحياً وفكرياً ، وكان كل ذلك امتداداً لهذه الدعوة والحركة ، وهم الذين بذلوا جهوداً جبارة في نشر تعاليم الكتاب والسنة ، والدعوة إليها بعلو همة ، وشرحها وتبيينها للناس ، وكانت جهودهم في الإفادة والتدريس ، وإنشاء المدارس الدينية ، والتزكية الروحية ، والتربية الباطنية ، وإصلاح العقائد ، والرد على البدع والتقاليد ، ثم جهادهم ، واستماتتهم في سبيل الله وسعيهم لإعلاء كلمة الله ، وبفضل هذه الجهود بقيت شجرة الإسلام في الهند ، قائمة على ساقها ، ناضرة مخضرة ، بل حولوا الهند مركز الثقل في العالم الإسلامي في العلوم الدينية (لا سيا علم الحديث الشريف) والفكر الإسلامي ، والدعوة والإرشاد .

هذا كله صحيح ومقرر تاريخياً وعلمياً ولكن ما هي النقطة المركزية ، والمحور الأساسي الذي تدور حوله هذه الجهود التجديدية ، والأعمال الإصلاحية العظيمة ؟ ، وما هي تلك المأثرة التجديدية المهيمنة ، التي تحتضن هذه الجوانب كلها ، وتغذيها ؟ للناس - حسب ميولهم وأذواقهم - إجابات مختلفة على هذا السؤال الخطير .

وللناس فيما يعشقون مذاهب .

وتفرق الناس في الإجابة فرقاً وأحزاباً ، نخص ثلاث فرق منها بالذكر فيما يلي :

١ ـ يقول فريق من هذه الفرق : إن الإمام السرهندي يستحق وصفه بمجدد الألف الثاني لأنه استعاد الهند إلى راية الإسلام ، وحفظها من الارتماء في حضن البرهمية ، وفلسفة « وحدة الأديان » ، ووجهها إلى لواء محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وسلمها لوصاية الإسلام ، وحمايته ، ودفع عنها في القرن الحادي عشر الهجري ، القرن السادس عشر الميلادي ـ ذلك المصير الذي صارت إليه في القرن الثالث عشر هجري ـ القرن التاسع عشر الميلادي ـ بل الواقع أنه حفظ الأمة الإسلامية الهندية من خطر الردة العقائدية والفكرية والحضارية الشاملة ، التي ظهرت ـ بذكاء تلك الشخصية القوية صاحبة الكلمة النافذة والإرادة الحديدية كالملك أكبر ، ودهاء مستشاريه النوابغ الأفذاذ كمُلاّ مبارك ، وفيضي وأبي الفضل ـ واقعاً ملموساً يحس بالنان ، وقد كان هذا التحول الروحي والمعنوي والردة الفكرية والحضارية أخطر ، وأدق ، وأرسخ جذوراً من انقراض الدولة ، والانهيار السياسي ، الذي وقعت كارثته في أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، بقيام القوى غير الإسلامية الناهضة في الهند ، وسيطرة الانكليز وتسلطهم في البلاد ، ولعل الدكتور محمد إقبال أشار إلى هذه الحقيقة ، إذ قال في بيت من شعره ،يشير إلى الإمام السرهندي .

« ذلك الحامي للدمار الأمة الاسلامية في الهند ، الذي قيضه الله ـ في الحين المناسب ـ ونصبه حارساً للدين القويم » .

٢ ـ ويقول الفريق الثاني : إن عمله التجديدي يتركز في معالجته تفضيل الشريعة على الطريقة ، وأن الطريقة تابعة خاضعة للشريعة ، في قوة وإيضاح ، وثقة وبصيرة في ضوء تجارب شخصية ، لم يسبق إلى هذا الأسلوب القوي المبين حتى تجلى لكل ذي عينين أن الطريقة خادمة للشريعة ، وأوقف بذلك تلك الفتنة

الخطيرة الناجمة في أوساط « السلوك والطريقة » التي كانت تدعو إلى الاستغناء عن الشريعة ـ أحياناً ـ والانحراف عنها ـ أحياناً أخرى ، والاعتماد الكامل على الرياضات والمجاهدات ، والحواس الباطنة ، والتي كانت تستهدف أول ما تستهدف الهند ـ لكونها مركزاً لليوك والتنسُّكِ المتطرّف والرهبنة ـ ولم يستطع أحد بعده أن يتجرأ على القول بـ « أن الشريعة في واد ، والطريقة في واد، وليس من حق الشريعة فرض الرقابة على الطريقة » .

٣ ـ ويرى الفريق الثالث أن مأثرته التجديدية الأساسية ، هي ضربته القاصمة على عقيدة « وحدة الوجود » ، وهدم فلسفتها من أساسها بطريق لم يسبق إليه ، فسدّ ذلك السيل العارم الذي كان يجرف بالعقائد الصحيحة ، وحول تيار العنيف الذي اكتسح جميع الأوساط العلمية والروحية في القرون الأخيرة ، والذي كانت معارضته من عالم مثقف دليلاً على جهله ، وإنكاراً لضوء الشمس في رابعة النهار ، ولقد أصاب العلامة مناظرأحسن الكيلاني حيث قال في مقاله العظيم المثير بعنوان« المأثرة التجديدية للألف الثاني » :

« إن مآثر الإمام السرهندي الإصلاحية ، وأعماله التجديدية اختلطت بتدقيقات «وحدة الوجود » و « وحدة الشهود » ، وبحوثهما الفلسفية الدقيقة والحروب الكلامية بين المشايخ والمتصوفة على الشريعة والطريقة ، وتحللت في هذه الضجة والغوغاء بحيث لم يعد وصفه بمجدد الألف الثاني إلاّ تقليداً متبعاً للإجلال والتبجيل ، لا أن يكون مؤسساً على أمر مهم خطير»[1].

إعادة الثقة والإيمان بحتمية النبوة المحمديةوخلود الرسالة الأخيرة :

ولكن الواقع أن علمه التجديدي الأساسي الذي تدور حوله سائر أعماله الإصلاحية التجديدية ، ومنبعه الأصيل الذي تتفجر منه ينابيع جميع مآثره

---

(١) انظر ترجمة «الإمام الرباني مجدد الألف الثاني»جمع وترتيب الشيخ محمد منظور النعماني، ص٢٧

الإصلاحية وجهوده الثورية ، وتتحول إلى نهر يجري في العالم الإسلامي كله ، هو ذلك العمل الإصلاحي ، العظيم الذي تجلى في إعادة الثقة والإيمان إلى قلوب أبناء الأمة الإسلامية ، بخلود الرسالة المحمدية وحاجة الناس إليها ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وترسيخ جذور هذه العقيدة المهمة ، ولا أعلم أحداً من المجددين في التاريخ الإسلامي ، قام بهذا العمل على هذا النطاق الواسع ، وبهذه القوة ، والصراحة كما قام به الإمام السرهندي ، ولعل السبب في ذلك عدم مسيس الحاجة إليها في عهودهم ، وأنه لم تبرز على المسرح في عصورهم فلسفة أو حركة منظمة دقيقة كتلك التي ظهرت في عهده[1] .

لقد كانت هذه الخطوة التجديدية سداً منيعاً في وجه تلك الفتن التي كانت تموج في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وتقف فاغرة أفواهها لتبتلع شجرة الإسلام الطيبة ، ونظامه العقائدي والفكري والروحي بأسره ، تندرج تحتها تلك الحركة النمطوية وأتباعها الذين رفعوا علم الثورة والخروج على النبوة المحمدية وخلودها وبقائها ، بطريقة علنية سافرة ، ونادوا بأن عهد النبوة المحمدية الممتد على ألف عام قد انقضى ، وسيبدأ عهد القيادة الدينية الجديدة ، وصياغة الحياة الجديدة ، والتقنين الجديد ، الذي يعتمد على العقل والفلسفة وحدهما ، ويقود حركتها محمود البسيخاني وأتباعه وأنصاره ، ويكون مركزها الهند وإيران[2] .

ومن هذه الفتن المدلهمة « دين أكبر الجديد » و « قانونه الجديد » ، وكان كل منهما يدعى أنه يحل في الهند محل النبوة المحمدية ، والشريعة الإسلامية ، ويؤدي دورهما ، ومنها تلك البدع والمحدثات في الدين التي سيطرت على الحياة الدينية ، وجميع الأعمال والعبادات ، واندست في الاجتماع والمدنية ، وكانت شريعة إزاء

---

(١) ونجد في هذا الصدد شيئاً من التفصيل والوضوح عند شيخ الإسلام ابن تيمية ، لا سيما في كتبه الجليلة القيمة ، « النبوات » و « نقض المنطق » و « الرد على المنطقيين » ولكنه كذلك لا يعدو اشارات وبحثاً مجملاً ، ولكل مقام مقال .

(٢) انظر الباب الأول من هذا الكتاب موضوع « الفتنة الكبرى في القرن العاشر » .

شريعة ، يدون لها « فقه » مستقل ، وكان تحدياً صارخاً ـ في حقيقتها لختم الرسالة المحمدية ، وتدعى التبوأ على منصب التشريع والتقنين .

وتذكر في هذا الصدد فلسفة « وحدة الوجود » التي كانت تعتمد ـ حسب أقوال دعاتها وكبار رجالها ـ على الحقائق الكشفية ، والتي لا يدّعي غلاة أصحابها أيضاً أن النبي ـ ﷺ ـ دعا إليها جهاراً ، صحابته الكرام ، ودعا صحابته من بعدهم من التابعين وهكذا الخ ، وكانت هذه الفلسفة والدعوة ـ تقف ـ على مرور الأيام ـ عن شعور أو غير شعور ـ معارضة للدعوة التي جاءت بها النبوة المحمدية ، وتعاليمها الواضحة ، ومقاصدها وأهدافها، وكلما أحرزت هذه الدعوة شيئاً من النجاح والانتصار ، وترسخت جذورها في العقول والقلوب ، والمجتمع الإسلامي ، نتج عنها ضعف في تطبيق الشريعة والاهتمام بها ، وفي الاعتقاد بأن الإسلام وحده هو الدين الحق ، ووسيلة النجاة في الآخرة ، وتنفتح أبواب الإلحاد والزندقة ، والحرية المطلقة والإباحية والتعطل والبطالة على مصراعيها ، وإن كان القائلون بها من المشايخ والصوفية الأتقياء المتورعين ، متقيدين بالشريعة ، معظمين لشعائرها ، معارضين للفساد بشدة وإخلاص .

ومنها الفرقة الإمامية التي تعتبر من عقائدها الأساسية عقيدة الإمامة ، والتي تصف الإمام ، وتبين خصائصه ومزاياه بطريق يجعله قريناً للنبي ومساوياً له في الدرجة والمكانة[1] ، وتعتقد في طائفة كبيرة من صحابة الرسول ـ ﷺ ـ ما يشكك في

---

(١) يستفاد من كتاب « الشافي » للشريف المرتضي ، « تلخيص الشافي » للطوسي « اصل الشيعة وأصولها » للعلامة الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء ، ان الامام معصوم عن الخطأ والنسيان والمعاصي ظاهراً وباطناً ، وظاهر مظهر ، تفرض طاعته وتظهر المعجزات على يديه ، وعلمه محيط بما يتعلق بالشريعة لا يندّ عنه شيء ، وذلك يحصل له تلقائياً بطريق العلم اللدني ، ويظهر كحجة الله تعالى في كل زمن إلى قيام يوم القيامة .

ويقول العلامة محمد أبو زهرة في كتاب « تاريخ المذاهب الإسلامية » الجزء الأول بعدما استعرض عقائد الفرقة الإمامية ، وما قال علماؤهم الكبار في الإمام والإمامة :

هذه إشارات موجزة إلى منزلة الإمام عند الإمامية والاثنا عشرية ، ويظهر أن الإمامية جميعاً على رأيهم في هذا النظر ، وليس مقام الإمام ومقاربته لمقام النبي عندهم موضع خلاف ، فانهم يصرحون .

تأثير صحبة الرسول وتغييره للنفوس ، ويتّهم تربيته المؤثرة المنجبة بالنقص والتقصير ، وينافي معنى هذه الآية الكريمة : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة[1] ﴾ ، وكانت آثار هذه الفرقة ـ لأسباب سياسية وعلمية مختلفة ـ تنتشر ـ بسرعة ـ في الهند انتشاراً واسعاً ، ويتأثر المجتمع المسلم ـ الذي كانت أكثريته سنية المعتقد والمذهب ـ بعقائدها وتصوراتها ، وأفكارها وآرائها ، وتقاليدها وعاداتها ، تأثراً كبيراً .

وهكذا فتح الإمام السرهندي بمفتاح تجديد الإيمان بمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإعادة الثقة برسالته ، جميع الأقفال المعقدة الثقيلة التي اخترعتها الفلسفة الإيرانية واليونانية ، والإشراقية المصرية[2] ، والهندية ، وأصاب مقتل هذه الفتن كلها التي تهدف الطبقة المثقفة من المسلمين ، بسهم واحد مسدّد ، ورمية مصيبة قاتلة .

عجز العقل والكشف وإخفاقهما في إدراك حقائق ما وراء الطبيعة :

إن العمل التجديدي الذي قام به الإمام السرهندي هو أنه أثبت عجز العقل

تصريحاً قاطعاً ، بأن الوصي لا يفرقه عن النبي إلاّ شيء واحد ، وهو أنه لا يوحى إليه » (ص ٥٩) .

وقد جاء في رسالة « خطاب الامام الخميني حول ١ ـ مسئلة تحرير القدس ٢ ـ مسئلة المهدي المنتظر » التي نشرها مركز الاعلام العالمي للثورة الإسلامية في ايران . طهران ص ب . ٣٩٣١ ـ ٢١ ، بمناسبة الحديث عن نقد مفتي مصر . ومسألة الامام المهدي :

عندما نتحدث حول هذا الموضوع ونقول بأن الأنبياء لم يوفقوا في تنفيذ مقاصدهم ، وأن الله سبحانه وتعالى يبعث في آخر الزمان شخصاً يقوم بتنفيذ مسائل الأنبياء ، فإن هؤلاء المساكين يقومون عن غير فهم بتأويل كلامنا خدمة للأجانب » ص ٢٢) .

وبذلك اعترف الخميني بصحة نسبة ما شاع عنه من قول ان الانبياء لم يوفقوا في تنفيذ مقاصدهم ، وان الامام المهدي سيوفق في ذلك ، وبذلك يفهم اعتقاد الشيعة في الأئمة وفي الامام المهدي .

(١) سورة الجمعة ـ ٢ .

(٢) التي تسمى « الافلاطونية الحديثة » (NEOPLATONISM) وكان مركزها الاسكندرية ، وكانت مصر مركزاً كبيراً للأفلاطونية الحديثة (NEO PLATONISM) نشأ فيه فلاطينس (PLATONUS) وبارفري (PORPGYER) وبراكلس (PROCLUS) وأسست مدرسة جديدة للأفلاطونيّة الحديثة .

والكشف وقصورهما في إدراك الأمور الغيبية ، والعلوم التي هي وراء طور العقل ، والمعرفة الصحيحة لذات الله ـ سبحانه وتعالى ـ وصفاته ، وإحراز العلم الذي لا يشوبه شك ، والحقائق الثابتة القطعية التي لا تخالجها شبهة ـ بحتمية ويقين ، وإن النتائج المكتسبة بهما لا تخلو من الشك والريبة ، والخطأ والزلة ، وسوء الفهم والتحريف ، ولا يمكن إدراك المعرفة الصحيحة لذات الله ـ سبحانه ـ وصفاته إلاّ عن طريق الأنبياء والمرسلين ، وإذا كان العقل وراء طور الحس ، فإن النبوة وراء طور العقل ، ولا سبيل إلى معرفة الطريقة الصحيحة لتقديس الله وتعظيمه وتحميده ، وتمجيده إلاّ النبوة ، وتعاليم الأنبياء وأخبارهم .

وقد وقع حكماء اليونان بهذا الصدد في زلاّت خطيرة ، وأخطاء فاحشة ، فكما أن العقل الخالص ، والعقل المجرد ليس له وجود ، كذلك الكشف الخالص ، والكشف المجرد ـ الذي يكون بعيداً عن التأثيرات الخارجية ، والأهواء الداخلية صعب الوجود ، بل عديم الوجود ، وقد زلت أقدام الإشراقيين ، وأصحاب صفاء النفس وسمو الروح ، ووقعوا فريسة الأوهام والجهالات كما زل زعماء العقل والفلسفة ، فالعقل والإشراق لا يغنيان في الحصول على اليقين والوصول إلى الله شيئاً ، والبعثة المحمدية ، والرسالة النبوية هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة ذات الله ـ تعالى شأنه ـ وصفاته ، وأحكامه .

وأعلن أن من المستحيل تجرد العقل وخلوصه ، وأن العقل ـ كالحواس الأخرى ـ يتأثر بالعقائد والمسلمات الداخلية ، والعوامل والتأثيرات الخارجية أن كثيراً من استنتاجاته ، وأحكامه تتلون بالألوان الخارجية ، التي يكون وجودها في داخله أو باطنه ، وتمتزج بها ، وأثبت أن العقل قاصر عن أن يكون حجة وبرهاناً ، وأن بعثة الأنبياء هي الحجة البالغة ، ولا سبيل إلى التزكية الحقيقية بدون الاهتداء بهذه البعثة .

وأقام حدّاً فاصلاً ، وفارقاً واضحاً بين صفاء النفس ، وصفاء القلب ، وبينّ هذا الفارق بينهما ، وأثبت أن المصدق لرسالة الأنبياء ، والمؤمن بها من أصحاب

الاستدلال والبرهان ، وأن إخضاع أخبار الأنبياء للعقل إنكار للنبوة وبين هذه النقطة بإيضاح : أن التعارض مع العقل شيء ، وأن يكون الأمر فوق مدارك العقل ووراء طوره شيء آخر .

إن هذه التحقيقات الدقيقة المبنية على العقل والكشف ، والتي ساعدها التأييد الإلهي ، والنور المقتبس من مشكاة النبوة ، هي تلك العلوم والمعارف الدقيقة التي أحدثت ضجة في الأوساط العلمية والروحية ، وفتحت باباً جديداً للتأمل والتفكير ، وزيّفت كثيراً من « الحقائق السائدة في الأوساط العلمية والعقلية ، ونادت بعظمة النبوات والشرائع السماوية ، وصدقها وجلالها ، وأعادت الثقة إليها من جديد ، وهي المأثرة التجديدية الثورية ، والعلمية الدقيقة التي لم تكن وليد المناهج الدراسية السائدة في ذلك العصر ، ونتاج البيئة العلمية والجهود العقلية وحدها ، إذ أنه عالج فيها أموراً لم تتوصل إليها الأوساط العقلانية والفلسفية ، إلا بعد قرون ، وشهدت على صدقها وثبوتها التجارب العلمية والروحية ، لقد كان ذلك نتيجة التأييد الرباني ، والهداية الإلهية التي اختارته عند بداية الألف الثاني لتجديد هذا الدين ، والدفاع عن النبوة المحمدية والذبّ عن الشريعة الإسلامية ، وكان جائزة ذلك الإخلاص ، والحمية الدينية والمتابعة الكاملة لخاتم النبيين -ﷺ- التي تمسك بها من أول الطريق وعض عليها بالنواجذ .

وينبغي - لتفصيل هذا الإجمال ، وشرح هذه الإشارات - التأمل في تلك الخلفيات والأوضاع التي تتجلى فيها قيمة هذه التحقيقات العلمية ، وإدراكها بأبعادها وعلى حقيقتها .

التساؤلات الأساسية ، والمحاولات المختلفة للإجابة عليها ، ونقدها ودراستها :

إن التساؤلات الأساسية الأولية عن الدين وهذا الكون ، التي تعتمد عليها استقامة هذه الحياة وتنظيمها تنظيماً سليماً ، وتدور عليها سعادة الآخرة والنجاة من

عذابها ، هي : من صانع هذا الكون ؟ وما هي صفاته وخصائصه ؟ وما هي علاقته بنا ؟ وكيف ينبغي أن تكون صلتنا به ؟ ، وما هي وضعية هذه الصلة ؟ ، وما هي الأمور التي يحبها ويرضاها ؟ ، وأخرى يبغضها ويسخط عليها ؟ ، وهل بعد هذه الحياة الراهنة ، حياة أخرى ؟ وإن كانت فما هي طبيعتها وحقيقتها ؟ ، وما هي التعاليم والإرشادات المتعلقة بها ؟ .

وللإجابة على هذه التساؤلات بتفصيل ودقة ، لا بد أن يتعرض المجيب للبحث في ذات الله ـ سبحانه وتعالى ـ وصفاته ، وأفعاله ، وحدوث العالم أو قدمه ، ووجود الجنة والنار ، والوحي والملائكة ، ومباحث أخرى تتعلق بما وراء الطبيعة ، وهي تحتل مكانة العقائد الأساسية ، وأصول الديانة الأولية .

وقد نحى المعنيون بهذه المباحث للإجابة على هذه الأسئلة ، وحل هذه المشاكل نحو تجربتين اثنتين بصفة عامة ، تجربة العقل والإدراك ، وتجربة الروحانية والإشراق ، وكان من نتيجة التجربة الأولى ظهور الفلسفة ، ونتيجة التجربة الثانية نشأة التصوف الإشراقي .

ولكن هاتين التجربتين والمحاولتين الأوليتين ـ بالنظر إلى أصول النقد والموضوعية العلمية ـ مبنيتان ـ أساساً ـ على الخطأ والمغالطات ، ويتسنى لنا قبل أن ننقل مقتبسات من رسائل الإمام السرهندي ، أن نتناول هذا الموضوع ـ توطئة وتمهيداً ـ بشيء من الشرح والإيضاح .

الخطوة التجديدية في نقد العقل المجرد ، والكشف الخالص :

ينبغي ـ قبل كل شيء ـ أن لا ننسى أن العقل ليس حراً طليقاً في أداء مسئوليته الطبيعية ، من الاكتشاف ، والتحقيق ، والاستدلال ، وأنه في حاجة إلى أشياء أقل منه شأناً ، وأتفه منه قيمة ، وأن دوره الأصيل هو التوصل من المحسوسات

والمعلومات والتجارب السابقة ، إلى أمور غير محسوسة ومعلومة ، وأن يصل بترتيبها علمياً بالاستعانة بذخيرة هذه المعلومات ، والمبادىء ، والمقدمات ، إلى نتائج لم تكن حاصلة له من قبل ، وما كان يمكنه الحصول عليها ، بالاعتماد على الحواس والتجارب ، فإننا إذا نقدنا جميع المعقولات وحللناها تحليلاً علمياً يتضح لنا أن العقل لم يصل إلى هذه الحقائق الدقيقة والمعارف العالية إلا عن طريق هذه المحسوسات التافهة ، والمعلومات البدائية البسيطة ، التي لم تكن تؤدي بنفسها ـ من غير مساعدة الترتيب العقلي والعلمي ـ إلى هذه النتائج الخطيرة ذات القيمة العظيمة .

فمن الظاهر البديهي أن المجالات التي لا تستطيع الحواس البشرية أن تعمل فيها ، ولا تملك أي ركيزة لمعلوماتها الأساسية ، ولا تعرف مباديها وأولياتها ، ولا يمكن أن يكون لديها أي تقدير وتجربة لحقيقتها ، ولا دخل للقياس فيها ، فأنى للعقل والذكاء والقياس والتخمين أن يصول فيها ويجول ؟ . إن العقل ليعجز فيها عن أن يصل إلى نتيجة ما من النتائج ، ويقف مقصوص الجناح، مثلما يعجز الإنسان عن أن يعبر البحر بغير سفينة،أو يطير في الجو على غير طائرة ، وليس في إمكان أي فطن ذكي أن يحل مسألة في علم الرياضيات من دون أن يكون له علم بالأعداد والحساب ، كما أن من لم يعرف الخط المستعمل في لغة من اللغات ، ولا يعرف حروفها الهجائية(ALPGABET) لا يستطيع أن يقرأ سطراً واحداً من هذه اللغة مهما كان ذكاؤه وعبقريته ، ومهما استخدم العقل والقياس ، ومهما كدّ وجدّ ، كذلك يستحيل أن يستقل العقل في الإجابة على هذه الأسئلة الخطيرة لأن الإنسان لا يعرف مباديها وأولياتها، وهي لا تقبل القياس والتقدير .

والحقيقة الثانية أن قوة العقل ، ودائرة عمله ضيقة محدودة ، فله نطاق لا يتعداه ، وكما أن القوى الحسية في الإنسان ، لها دوائر ومجالات لا تتجاوزها ، فحاسة البصر تلتقط آلافاً من المبصرات، ولكنها لا تستطيع أن تسمع ، ولا صوتا واحداً ، وكذا الحواس الأخرى ، ثم إن قوة هذه الحواس وعملها في دوائرها

الخالصة ، وفي محسوسات خاصة ، ليست مطلقة غير محدودة .

كذلك العقل بالرغم من أن مجاله أفسح ، ودائرته أوسع من هذه الحواس الظاهرة إلاّ أنه محدود ، لا يتعدى طوره ، وفي تعبير ابن خلدون العلمي الدقيق :

« العقل ميزان صحيح ، فأحكامه يقينية لا كذب فيها ، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة ، وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره ، فإن ذلك طمع في محال ، ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب ، فطمع أن يزن به الجبال ، وهذا لا يدلّ على أن الميزان في أحكامه غير صادق ، لكن العقل قد يقف عنده ، ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته ، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه »[1].

والحقيقة الثالثة أن العقل يستعصي عليه التجرد الكامل من الشوائب الخارجية ، والحياد التام في الأحكام والنتائج ، ويعرف العلماء المطلعون حقيقته ، أنه ليس هناك شيء أندر في الوجود من « العقل الخالص » و « العقل المجرد » ، فإنه يصعب عليه التحرر والانطلاق من تأثير العواطف والرغبات ، والميول والنزعات ، وتأثير البيئة ، والتربية الخاصة ، والدراسة الخاصة ، والعقائد والنظريات الخاصة ، وتأثير الوهم والخيال ، والسهو والنسيان ، ولأجل ذلك فإنه من المستبعد أن تكون أحكامه صادقة ـ دائماً ـ ونتائجه حتمية يقينية .

ولكن الذي يستغرب ويتعجب منه أن الفلاسفة ـ بصرف النظر عن هذه الحقائق البينة كلها ـ أخطأوا في تحديد موضوعهم ، وبحثوا في ذات الله وصفاته ، وما يتعلق بها من أمور غيبية ـ من غير أن تكون لديهم مواد هذا الموضوع وعدته ، ومن غير أن يكونوا على علم وبصيرة ، في تفصيل وتدقيق ، وثقة واعتماد لا يليق إلا بالخبير الكيمياوي الذي يقوم بالتحليل والتجزئة ، والفحص والدراسة في المعامل

---

(1) مقدمة ابن خلدون ٣٦٤ ـ ٣٦٥ ، طبعة دار الفكر ـ بيروت

الكيمياوية ، فكانت بحوثهم وتدقيقاتهم هذه عبارة عن الظن والتخمين ، ومجموعة طلاسم خيالية ، وبناءً واهياً على أساس القياس المجرد ، وهي في علم الالهيات بمثابة « حكايات ألف ليلة وليلة » و « قصة عنترة[1] » مما سنقف على نماذج منها في السطور الآتية .

وبإزاء هذه المحاولة العقلية والفلسفية ، محاولة أخرى ، وهي « الأشراق » ومن مبادئه الأساسية أن العقل ، والعلم ، والبرهان ، والاستدلال ، لا تنفع في البحث عن اليقين ، والوصول إلى الحق شيئاً ، بل ضررها أكبر من نفعها ، وأن الشرط الأساسي لمعرفة الصدق والحقيقة هو الشهود أو المشاهدة ، ولا تتيسر هذه المشاهدة إلاّ بنور الباطن ، وصفاء النفس ، وتنبيه حاسة داخلية تدرك الحقائق الروحية ، وما وراء الطبيعيات ، كما تدرك هذه العيون الظاهرة الأشياء المبصرة الظاهرة ، ولا تتولد هذه الحاسة إلا بالقضاء على المادية ، وإماتة الحواس الظاهرة إماتة كاملة ، فهذه الحكمة الإشراقية ، والنور الباطني الذي ينشأ بالرياضات والمجاهدات ، والتأملات والمراقبات ، ويكون مجرداً خالصاً عن كل شائبة من شوائب العالم الخارجي ، هو الوسيلة الوحيدة للحصول على الحقيقة .

إن وجود هذه الحاسة الزائدة أمر لا شك فيه ، بل يمكن أن تكون هناك حواس أخرى كهذه ، ولكن على كل حال فإنها حاسة إنسانية ضعيفة محدودة ، مثل الحواس الأخرى ، قابلة للخطأ ، والتأثر بالعوامل الخارجية ، شأن سائر القوى الإنسانية ، ووسائل الكشف للعلم ، وما الدليل على أن هذه الحاسة ليست محدودة ، ولا قابلة للأخطاء ولا تتعرض محسوساتها ومشاهداتها للغلط ، والانخداع ، والغرور بالنفس ؟ ، ولو كان الأمر كذلك لما كان في نتائجها تعارض ولا تناقض ، ولم يخالجها اضطراب أو إمكان للخطأ ، ولم تتورط في مزالق وأغاليط في القضايا المهمة الحاسمة كما هو الواقع[2].

---

(١) مجموع حكايات وأساطير .

(٢) راجع للأمثلة والتفاصيل كتاب المؤلف « بين الدين والمدنية » ، ص ٢٨ ـ ٢٩ ، الباب الأول خاص ببحث « الإشراق » .

وعلى كل فإن هذه « الحكمة الخاصة » يصعب عليها كالعقل أن تتجرد تجرداً كاملاً ، فإنها كذلك تتأثر بالعوامل الخارجية ، والأشياء الظاهرة والباطنة وتنعكس عليها ظلالها وأشباحها ، ولا تصور هذه المرآة كذلك ، الحقائق تصويراً صحيحاً ، وتنطبع عليها آثار البيئة الإشراقية ، وعقائدها ومسلماتها ، وتتأثر مشاهداتها هذا التأثر الخفي الدقيق ، ولأجل ذلك كان كثير من الإشراقيين يرون في كشوفهم ومشاهداتهم تأييداً لكثير من الأساطير والخرافات اليونانية والمصرية ، التي لا يسيغها العقل ، ولا تقوم إلا على أساس الوهم والخيال ، وتتشكل كثير من الفرضيات والتخمينات ، بشكل الحقائق الثابتة ، والمسلمات البديهية ، وليس لها في العالم الخارجي وجود[1].

ثم إن هذه التساؤلات المذكورة ـ أعلاه ـ كما هي خارجة عن نطاق الفلسفة وحدودها ، كذلك هي خارجة عن نطاق الإشراق وحدوده ، إنه قد يساعد في اكتشاف أسرار عالم الأوراح وعجائبه ، ويرى صوراً وألواناً ، ويسمع أصداءً وأصواتاً ، ولكنه على جهل تام بالعلم التفصيلي لمشيئة الله ، وقوانينه وأحكام شريعته ، وأحوال الدار الآخرة وحقائقها ، كما يجهلها الإنسان العادي الذي لم يعرف مبادىء الإشراق[2] .

والحقيقة أن كلاً من الفلسفة والإشراق يتجهان اتجاهاً واحداً ، وتسيطر عليهما روح واحدة ، وكلاهما يحاولان التوصل إلى الحقيقة بطرح وساطة الأنبياء والمرسلين ، وأن غاية الفريقين واحدة ، وإن تعددت الطرق فأحدهما يريد الوصول إلى غايته مشياً على الأرض ، وآخر عن طريق التحليق في الجو ، أو عن طريق خفي من سرداب (الطريق الروحي الإشراقي)[3].

---

(١) انظر « بين الدين والمدنية » للمؤلف ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

(٢) أيضاً ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .

(٣) انظر المصدر السابق ، ص ٢٧ ـ ٢٨ .

ولكن الحقيقة ، ولب لباب العلم والعرفان أنه لا طريق إلى هذه الحقائق والمعارف ، إلاّ طريق الأنبياء ، الذين شرفهم الله ـ تعالى ـ بمنصب النبوة والرسالة ، ورزقهم أكبر قسط من العلم بذاته وصفاته ، وبملكوت السماوات والأرض ، وأخبرهم ـ مباشرة ومن دون وسائط ـ بما يرضاه وما لا يرضاه ، وبما يأمره وما ينهى عنه ، وجعلهم وسائط بينه وبين خلقه ، وأن نبوتهم ورسالتهم منّة عظيمة على هذه الدنيا ، ونعمة ظاهرة ، وما يعطونه من علم جليل بذات الله وصفاته العليا ، وأسمائه الحسنى ـ من غير مشقة ، وبدون مقابل ـ لا يمكن إحراز ذرة من ذراته ، بالتأملات الفلسفية ، والبحث والاستدلال على مدى آلاف السنوات ، وبالمجاهدات الشاقة ، وتصفية النفس ، والمراقبة والتفكير لأعوام وسنين .

﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾[1] .

وما أصدق ما قال القرآن : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ ، نعم إن الفلاسفة والإشراقيين لا يقدرون هذه النعمة ، ولا يشكرون هذه اليد المعطاة ويريدون أن يصلوا إلى الحقائق بمجادلاتهم الكلية التي قد أغناهم الله عنها ، وليست نتيجة هذه الجهود والمحاولات عبر الآلاف المؤلفة من القرون إلاّ أقوالاً ينقض بعضها بعضاً ، وتحقيقات تتصادم وتتعارض ويضحك عليها صبيان الكتاتيب ، وهي كل تراثهم ومتاعهم في علم « الإلّهيات » وأنهم بدل أن يقربوا أتباعهم وتلامذتهم إلى ربهم ، أبعدوهم عنه ، وأوقعوهم في الجهل المشين بذات الله وصفاته ، وقلة اليقين ، والاستغناء عن الرجوع إليه ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار[2] ﴾ .

إن الإمام السرهندي على علم عميق ، ودراية كاملة بكلتا الناحيتين ،

---

(١) سورة يوسف ، ٣٨ .

(٢) سورة ابراهيم ـ ٢٨ .

« الفلسفة » و « الروحانية » وهو ـ على جانب آخر ـ من ورثة علوم الأنبياء والمرسلين ، والعارفين البصيرين بمكانة الوحي والرسالة ، فكان نقده للفلاسفة والإشراقيين نقداً علمياً موضوعياً ، يدل على جامعيته ورسوخه في العلم ، وأن هذا المبحث المهم هو النقطة الرئيسية والمحور الأساسي لعمله التجديدي العظيم ، لأن أساس الشريعة الإلهية ، والنظام الديني بأسره يقوم على البتّ في هذه القضية ، والحكم الحاسم فيها ، وهي أنه ما هو المنبع الأصلي ، والمصدر الأساسي للحصول على العلم القطعي ، واليقين الذي لا يداخله شك ، والمعرفة الضرورية للذات الإلهية وصفاتها ، وبدء الكائن الإنساني ونهايته ، ونجاحه وسعادته ؟ هل يكون مصدرها التأملات الفلسفية ، والبحث العلمي والاستدلال المنطقي ـ الجوانب التي تمثلها الفلسفة ـ أو النور الباطني ، ومجاهدة النفس وتصفية القلب ، وتزكية الباطن ، والمشاهدات والكشوف التي تحصل من الحواس الباطنة ، والقوى الروحية ـ الجوانب التي يمثلها « الإشراق » ؟ أو أن مصدرها اتباع الأنبياء والإيمان بهم والتسليم لهم ؟ هذه هي نقطة البداية التي تتفرق منها السبل ، وتتجه هذه الجهات الثلاث ، فلا تلتقي ولا تتصافح أبداً ، ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾[1] .

وما صدر في هذا الصدد بقلم الإمام السرهندي ، من تحقيقات نادرة ، وعلوم دقيقة ومعارف عالية متناثرة في المجاميع الضخمة لرسائله العلمية القوية ، أقدم ترجمة شيءمنها بعناوين مختلفة معبرة .

قصور العقل وعجزه في إثبات صانع الكون ومعرفة صفاته الكاملة :

« نحمد الله ـ عز وجل ـ الذي أنعم علينا بالهداية إلى الإسلام ، وجعلنا في

(١) سورة الأنعام ـ ١٥٣

أمة محمد ـ ﷺ وأن الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلوات والتسليم ـ رحمة للعالمين ، لأن الله عز وجل ـ أخبرنا نحن أصحاب العقول القاصرة ، والأذهان الكليلة العاجزة ـ عن طريقهم ـ بذاته العلية وصفاته العظيمة ، وخاطبنا في بيان صفاته الكاملة ، وذاته الجليلة على قدر عقولنا المحدودة ! ومداركنا الضعيفة ، وميز بين ما يرضاه ، تمييزاً تاماً ، وأوضح لنا المنافع والمضار في الدنيا والآخرة ، فلولم تكن بيننا وبينه وساطة هؤلاء المصطفين لعَيِيت العقول البشرية ، وعجزت عن إثبات صانع هذا الكون وباءت بالخيبة والكلال في معرفة كماله وعظمته ، لقد كان الفلاسفة القدماء الذين كانوا يعتبرون أنفسهم حكماء أذكياء ، أنكروا صانع الكون ، ونسبوا الأشياء ـ لقصور أفهامهم وضعف مداركهم ـ إلى الدهر ، وأن مناقشة نمرود مع ابراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في خالق الأرض والسماوات ، معروفة مذكورة في القرآن الكريم ، فكان فرعون الشقي يقول : « ما علمت لكم من إله غيري » وقال مخاطباً لموسى ـ عليه السلام ـ : « لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين » ، وهو ذلك الشقي المحروم الذي وجه خطابه إلى هامان : ﴿ يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب ، أسباب السماوات فأطلع إلى إلـه موسى ، وإني لأظنه كاذباً ﴾ ، فخلاصة الأمر أن العقل كليل عاجز كل العجز عن الوصول إلى هذه الثروة العظيمة ، وأن لا سبيل إليها إلا هدى الأنبياء وتعاليمهم »[1].

سفاهات حكماء اليونان في المعرفة الإلهية :

إن خالق هذا الكون ومنظمه ، وحاكمه الذي يسميه فلاسفة اليونان « المبدأ الأول » ، الذي بحث في كيفية خلقه ، ونشأة الكون من أمره ، هؤلاء الفلاسفة ، لو شقوا الشعرة ، وتخيلوا أموراً ، وافترضوا افتراضات ، ثم بنوا على هذا الأساس الخيالي المنهار عمارات شاهقة ، ناطحة للسحاب ، يتكفل بشرحها وتفصيلها كتب الفلسفة ، وتعلق عليها وتنقدها كتب العقائد وعلم الكلام ، فيمكن أن يراجعها القارىء للوقوف على تفاصيلها ، وليس هنا مجال لإثارتها ومناقشتها .

(١) الرسالة رقم : ٢٣ المجموعة الثالثة كتبها الى خواجه ابراهيم قيادياني .

ولكن ينبغي ، لإدراك أفكار الإمام السرهندي وآرائه ، ومعارفه العالية ، وللاطلاع على ذلك العامل الذي يفجر قلم الإمام كالشلال الهادر ، ويدفعه في قوة وحماس للرد على تلك الأخيلة والافتراضات التي اخترعتها الفلسفة بقوتها المتخيلة ، وبنت على أساسها كل ما بنت ، أن نقدم هنا « شجرة نسب » العقل الفعال الذي هو المؤثر الأصيل ، والمدبر الحقيقي لهذا الكون عند فلاسفة اليونان ، فصوروها ، ووضعوا عليها أساس الخلق والأمر ، وهناك آلاف من الأدلة والبراهين مؤيدة لها أو معارضة ، ولكننا هنا نقتصر على ذكر هذه الشجرة فحسب :

« المبدأ الأول واحد من كل وجه ، ومن المسلم أن الواحد لا يصدر منه إلاَّ الواحد ، والعالم مركب من أشياء مختلفة ، فلا يتصور أن يكون فعلاً لله . والمبدأ الأول ، فاض من وجوده العقل الأول ، وهو موجود قائم بنفسه ، ليس بجسم ولا منطبع في جسم ، يعرف نفسه ويعرف مبدأه ، وقد سميناه العقل الأول ولا مشاحة في الأسامي ، سمي ملكاً أو عقلاً أو ما أريد ، ويلزم عن وجوده ثلاثة أمور : عقل ، ونفس الفلك الأقصى وهو السماء التاسعة ، وجرم الفلك الأقصى ثم لزم من العقل الثاني ، عقل ثالث ، ونفس فلك الكواكب وجرمه ، ثم لزم من العقل الثالث عقل رابع ، ونفس فلك زحل وجرمه ، ولزم من العقل الرابع عقل خامس ، ونفس فلك المشتري وجرمه ، وهكذا حتى انتهى إلى العقل الذي لزم منه عقل ونفس فلك القمر وجرمه ، والعقل الأخير وهو الذي يسمى العقل الفعال ، لزم منه حشو فلك القمر ، وهي المادة الكاملة للكون والفساد ، من العقد الفعال ، وطبائع الأفلاك ، ثم إن المواد تمتزج بسبب حكرات الكواكب امتزاجات مختلفة ، يحصل منها المعادن والنبات ، والحيوان ، . . . الخ . فخرج منه أن العقول عشرة والأفلاك تسعة »[1] .

هذا هو علم الأصنام لدى حكماء اليونان ، الذي سموه الفلسفة وعلم الإلهيات ، وبدأ الناس يتأملون فيه ، ويتناقشون بجد وإخلاص ، أو أنها الأساطير

---

(١) « تهافت الفلاسفة » ، ص ٢٩ ـ ٣٠ .

الخيالية ، والافتراضات الوهمية ، وروايات ألف ليلة وليلة ، يتذكر الإنسان تلقائياً عند الوقوف عليها ، قول الله تعالى : ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ، ولا خلق أنفسهم، وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾[1].

وما أصدق ما قال الإمام الغزالي بعد نقل هذه الشجرة الوهمية الباسقة :

« ما ذكرتموه تحكمات وهي على التحقيق ظلمات فوق ظلمات ، لو حكاه الإنسان عن منام رآه لاستُدِلَّ به على سوء مزاجه »[2].

وقال في موضع آخر : « فلست أدري كيف يقنع المجنون من نفسه بمثل هذه الأوضاع فضلاً عن العقلاء الذين يشقُّون الشَّعْرَة بزعمهم في المعقولات[3] .

إن هؤلاء الفلاسفة سلبوا من ذات الله ـ سبحانه وتعالى ـ كل صفات الجلال والكمال ، ونفوا خلقه وإبداعه لجميع المخلوقات ، ونفوا عنه القدرة والاختيار ، وأثبتوه جامداً لا يتحرك ولا يعمل ، وفعلوا كل ذلك ـ بزعمهم ـ لتنزيه « واجب الوجود » ، وتقديسه وتعظيمه ، ولا يتمالك الإمام الغزالي بهذه المناسبة إلاّ أن يقول :

« ومن قنع أن يكون قوله في الله ـ تعالى ـ راجعاً إلى هذه الرتبة فقد جعله أحقر من كل موجود يعقل نفسه ، ولا يعقل غيره ، فإن من يعقله ويعقل نفسه أشرف منه ، إذا كان هو لا يعقل إلا نفسه ، فقد انتهى بهم التعمق في التعظيم إلى أن أبطلوا كل ما يفهم من العظمة ، وقرَّبوا حاله من حال الميِّت الذي لا خبر له بما يجري في العالم إلا أنه فارق الميت في شعوره بنفسه فقط ، وهكذا يفعل الله بالزائغين عن سبيله ، والناكبين عن طريق الهدى ، المنكرين لقوله ـ تعالى ـ ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾. ، الظانين بالله ظن السوء ، المعتقدين أن أمور الربوبية يستولي على كنهها القوى البشرية المغرورين بعقولهم ، زاعمين أن

(١) سورة الكهف ـ ٥١ .

(٢) تهافت الفلاسفة ص ٣١ .

(٣) أيضاً ص ٣٤ .

فيها مندوحة عن تقليد الرسل وأتباعهم ، فلا جرم اضطروا إلى الاعتراف بأن لباب معقولاتهم رجعت إلى ما لو حكي في منام لتعجب منه[1] » .

وتنبعث في الإنسان عواطف الشكر والتقدير عندما يرى للفلسفة وتأملاتها هذا المصير ، ﴿ وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ وأن هذا الإخفاق الذريع في القضايا الإلهية الذي مُنّي به فلاسفة اليونان وحكماؤها ـ الذين أحرزوا النجاح بعقلهم وذكائهم في العلوم الرياضية ، والعلوم التطبيقية ، وهذا العجز والقصور الذي أصيب به العقل في هذا المجال موضع عبرة ودرس ، حيث إنهم نسبوا إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما يستنكفون عن نسبته إلى أنفسهم ، وإلى أحقر المخلوقات في العالم وقرّروا أنه فاقد القدرة والعلم والاختيار ، ليس له دخل في إحداث العالم ، وظنوا ذلك غاية التنزيه ، والتقديس : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ﴾ .

ولنلق نظرة على أقوال الإمام السرهندي وتحقيقاته التي اقتطفناها من رسائله يقول :

« إذا كان العقل يكفي للمعرفة الإلهية ، لما كان فلاسفة اليونان ـ الذين جعلوا العقل إمامهم وقائدهم ـ حيارى تائهين في بيداء الضلال ، ولكانوا أعلم بالله ، وأعرف به من غيرهم ، والحال أنهم أجهل الناس لذات الله ـ عز وجل ـ وصفاته وأسمائه إذ أنهم ظنوا الله ـ تعالى شأنه ـ وجوداً يتسم بالتعطل والبطالة ، ولا يعتقدون أنه خلق شيئاً سوى شيء واحد ، هو « العقل الفعال » ، وقد كان صدوره من الله ـ تعالى ـ اضطراراً لا عن قدرة واختيار ، إنهم هم الذين اخترعوا ـ بعقولهم ـ العقل الفعال ، فينسبون الحوادث إليه ، بدلاً من أن ينسبوها إلى خالق الأرض والسماوات ، ويفترون أن الأثر ليس بالمؤثر الحقيقي ، بل بما زوروه من العقل

(1) أيضاً ، ص ٣٢

الفعال ، لأن المعلول عندهم نتيجة للعلة القريبة ، ولا دخل في حصول المعلول للعلة البعيدة ، ويظنون - بجهلهم وقلة فهمهم - أن عدم نسبة هذه الأمور إلى الله - تعالى - من صميم تنزيهه ، وعظيم كماله ، ويرون بطالته وتعطله عن أي عمل ، من تعظيمه وتقديسه ، والحقيقة أن الله - عز وجل - يصف نفسه بأنه خالق السماوات والأرض ، ويعرف بذاته بأنه « رب المشرق والمغرب » .

إن هؤلاء السفهاء يعتقدون - في زعمهم - أنهم في غنى عن الله ، وعن الخضوع والإنابة إليه ، فلينيبوا - إذن - إلى « عقلهم الفعال » لطلب الحاجات وتلبية الضرورات ، لأنه هو - في نظرهم - صاحب السلطة الحقة ، والقدرة الكاملة بل إن « العقل الفعال » أيضاً - كما يزعمون - مقهور غير قادر على أداء أعماله فطلب الحاجات منه ، كذلك أمر غير معقول ومستساغ ، والحق أن هؤلاء كما وصفهم القرآن الكريم ﴿لا وكيل لهم ولا نصير ، وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ ، لا رب السماوات والأرض ينصرهم ، ولا « العقل الفعال » يسعفهم وما هو هذا العقل الذي يدبر الأمور ، وينسب إليه خلق الحوادث ، وإبرازها إلى الوجود ؟ ، إن هناك آلافاً من الاعتراضات على ثبوت هذا العقل ووجوده ، إذ أن ثبوته ووجوده قائمان على مقدمات فلسفية مفترضة ، ناقصة مخدجة في ضوء أصول الإسلام الصحيحة وقواعده الثابتة ، وليس من يصرف الأشياء عن الإله القادر المريد ، والمختار ، وينسبها إلى الأشياء المتوهمة المفترضة ، إلا سفيهاً يستحق الحجر ، بل إن هذه الأشياء نفسها تشعر بالذل والعار في نسبة خلقها وإيجادها إلى شيء اختلقته الفلسفة ، ولا نصيب له من الواقع ، وإنها لترضى بالفناء ، وتحمد الموت والبلى ، ولا ترغب في الحياة والبقاء مقابل أن تنسب إلى شيء فرضي وهمي لا أصل له في الواقع ، وتحرم السعادة العظيمة في نسبتها إلى القادر القوي المختار ، ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذباً ﴾ ، إن الكفرة المشركين في دار الحرب -

رغم عبادتهم للأصنام والأوثان ـ خير من هؤلاء الفلاسفة ، إذ أنهم يتضرعون إلى الله عند الشدائد والكربات ، ويتوسلون بأوثانهم وأصنامهم إليه .

وأغرب من ذلك أن فريقاً من الناس يدعو هؤلاء السفهاء (فلاسفة اليونان) بالحكماء ، وينسبهم إلى الحكمة ، إن معظم تحقيقاتهم في القضايا الإلهية ـ التي هي المبحث الأسنى ـ خاطئة ، معارضة للكتاب والسنة ، فما هو وجه تلقيبهم ـ وجل مباحثهم جهل وسفاهة ـ بالحكماء ، اللهم إلا أن يكون سخرية منهم ، وضحكة عليهم ،أو كما يدعي الأعمى بالبصير »؟[1] .

لا كفاية لدى العقل في إدراك الحقائق الدينية :

﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ ، بأي لسان نشكر الله ـ تعالى ـ ونحمده على إنعامه علينا ببعثه الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلوات والتسليم ـ وبأي قلب نؤمن بذلك المنعم الجليل ، وأين الجوارح التي تكافىء ـ بالأعمال الحسنة ـ هذه النعمة العظيمة ؟ ، فلولا وجود هؤلاء ذوي الخيرات والبركات من كان يهدينا ـ نحن القاصري العقول ـ إلى الإيمان بوجود خالق السماوات والأرض وتوحيده ، فإن فلاسفة اليونان المتقدمين ـ رغم ذكائهم وألمعيتهم ـ لم يهتدوا إلى خلق السماوات والأرض ، ونسبوا خلق الكون إلى الدهر ، ثم لما ظهرت دعوة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والتسليم ـ وتجلّت ـ على مر الأيام ـ للعيان ، نهض الفلاسفة المتأخرون ـ بتأثير هذا النور وبركته ـ للرد على مذهب الفلاسفة المتقدمين واعتقدوا بوجود صانع الكون ، وأقرّوا بتوحيده ، فعقلونا ـ بدون نور النبوة ـ عاجزة قاصرة ، وإدراكنا من غير وساطة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كليل حسير »[2].

---

(١) الرسالة رقم : ٢٣ ، المجموعة الثالثة ، وهي موجهة الى خواجه ابراهيم قبادياني .

(٢) الرسالة رقم : ٢٥٩ ، المجموعة الأولى ، وهي مكتوبة إلى ابن الامام السرهندي الشيخ محمد سعيد .

طور النبوة وراء طور العقل :

« إن طور النبوة وراء طور العقل والتفكير ، فالحقائق التي يعجز العقل عن إدراكها ، تأتي النبوة لتثبتها وتحققها ، ولو كان العقل كافياً وحده ، لما بعث الأنبياء - صلوات الله تعالى وتسليماته عليهم أجمعين - ولما ربط عذاب الآخرة ببعثتهم ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ ، والعقل حجة ، ولكنه ليس بحجة بالغة ، وليس في حجته بكامل ، وقد تحققت الحجة البالغة ببعثة الأنبياء والرسل ، - عليهم الصلوات والتسليم - فقطعت ألسنة المكلفين ، وقضت على معاذيرهم ، يقول الله - تعالى - : ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ ولما ثبت عجز العقل وقصوره في بعض القضايا ، فليس من المستحسن أن توزن جميع الأحكام الشرعية في ميزان العقل ، وأن محاولة التطبيق بين العقل وبين الأحكام الشرعية - بصفة دائمة - والتزام ذلك والتقيد به ، حكم بكفاية العقل وغناه ، وإنكار للنبوة ، أعاذنا الله - تعالى - منه »[1] .

لا يمكن حياد العقل وتجرده ، ولا غناء عنده في معرفة الحقائق الإلهية ، وإن أمدّه الإشراق وصفاء النفس :

إن مما يبعث على العجب - ولا يمكن تأويله وتوجيهه إلا أنه قبس من التأييد الإلهي ، وإصابة الفكر ، وسداد الرأي - إنه في هذا القرن العاشر - القرن السادس عشر المسيحي - الذي كانت تسود فيه العقلانية ، وكانت العلوم العقلية - بتأثير مقررات الفلسفة والمنطق تسيطر على جميع العالم - بصفة عامة - وعلى الهند وإيران - بصفة خاصة - التي كانت تقتصر على تدريس الفلسفة اليونانية ، والتي رفعت أفلاطون وأرسطو ، إلى مقام العصمة والقدسية ، حتى كان الاستنتاج العقلي من المقدمات العقلية ، على الطريقة المنطقية ، والتصريح بما صرح به فلاسفة اليونان ،

(١) الرسالة رقم : ٣٦ ، المجموعة الثالثة كتبها الى الشيخ مير محمد نعسان .

وورروه ، من القطعيات البديهيات ، يخرس الألسنة الذلقة ويغشى العيون المبصرة ، بل كان عبَّاد الفلسفة والمنطق يسجدون عن طوع وخضوع أمام هذه الحقائق « المزعومة » .

في مثل هذا الجو رفع الإمام السرهندي صوته ـ لأول مرة ـ في حدود علمي ، بين علماء الإسلام ـ إن تجرد العقل عن صلة الجسم المادي ، وعن الأوهام والتصورات ، والعقائد ، والمسلمات السائدة في بيئته ومحيطه ، وتحرره عن الميول النفسية ، والرغبات الداخلية ، والأخلاق المتمكنة ، والعادات الراسخة شبه مستحيل ، حتى ولو كان الإشراق ، وصفاء النفس يرافقانه في الطريق ، ويمدانه بالمعونة ، فإن وصوله ـ متحرراً متجرداً عن التأثيرات الخارجية والداخلية ، والدراسة والتربية ، والمجتمع والبيئة ، ومما رسخت جذورها فيهما من عادات وتقاليد ، وأصبحت بمنزلة المسلمات والبديهيات ـ إلى حقيقة الأمر والواقع الصحيح وإصدار الحكم المنصف الحاسم ، ليس إلاّ شذوذاً ، و« الشاذ » كالمعدوم لا احتجاج به ولا اعتماد عليه ، إن هذا التحقيق الدقيق الذي كشف الإمام عن سره ، وضغط في رسائله ـ عليه ـ مرات وكرات ، ليس كشفاً جديداً لعصره وبيئته ، بل إنما هو اكتشاف خطير في عالم الأفكار والدراسات العلمية ، وإعلان تجديدي جريء ، لم يقدر حق قدره ، ولم تعرف قيمته وأهميته حتى الآن ، بيد أنه كان يستحق أن يجعل موضوعاً مستقلاً للبحث والتحقيق ، والشرح والتفصيل .

ومن عجيب المصادفة ، وتوارد الخاطر ، أن الفيلسوف الألماني الشهير عمانويل كانت (Emanuel Kant. 1724 — 1804) بدأ ـ بعد قرابة قرنين من وفاة الإمام السرهندي ـ البحث الموضوعي ، والتحقيق العلمي في صلاحية العقل لتجرده ، وتحرره ، عن البيئة وعوامل الوراثة ، والعادات والمعتقدات والحكم الفاصل في قضية ما من القضايا ، إنه عيّن حدود العقل ودوائره في شجاعة ووضوح ، ونشر كتابه الخطير « نقد العقل الخالص » (Critique of Pure Reason) عام ١٧٨١ م ، الذي أحدث هزة واضطراباً في

الأوساط الفكرية والفلسفية ، وكما يقول الدكتور إقبال : « إنه هدم أعمال المتنورين وحولها الى كومة من تراب »[1].

وقد أشاد الغرب بهذا العمل ، واعترف بقيمته العلمية وخطورته في مجال الدراسات ، اعترافاً لائقاً ، بمكانة الكتاب ، حتى قال القائلون : « إنه كان منحة ربانية عظيمة للشعب الألماني » ويقول مؤلف « تاريخ الفلسفة الحديثة » الدكتور هيرالد هوفيدنك ، في تعليقه على هذا الكتاب : « إن هذا الكتاب قطعة حية خالدة تدل على عظمة الفلسفة وكمالها ، وأضاءت معالم الطريق في متاهات الفكر الإنساني وحيرته »[2].

يقول « عمانويل كانت » : « إن الفكر يبدأ بمهمته بالدعاوي ، ويعتمد ـ عن غير شعور وفي معظم الحالات لسذاجته ـ على صحة مقدماته ، ومفروضاته ، وطاقاته ، ويكون على ثقة ويقين بأنه يحل جميع المسائل ، ويصل إلى كنه الكون ، ثم يأتي عليه زمان يتجلى له فيه أن هذه الأبنية العقلية والفكرية ، لا تنطح السحاب ، ولا تسمو إلى الأفلاك ، لا يمكن الاتفاق عليها على خطة مبنية على الأعداد ، وهذه فترة الارتياب والتشكيك ، وقد رأى أن هناك أمراً متروكاً صرف النظر عنه كل من الادّعائيين ، والمتشككين ، وهو أنه من الواجب علينا البحث في عقلنا ، وإدراكنا ، وماهية علمنا ونوعيته ، ونكشف عن نوع الصور والقوى التي نتمتع بها لفهم الأشياء وإدراكها ، وإلى أي مدى نستطيع أن نسير في ضوئها[3] .

ونود أن نقرأ ـ بعد هذا التمهيد البسيط ـ التصريحات الواضحة التي صدرت من عالم ومفكر مسلم ـ عاش في الأوساط العلمية والمدرسية المحدودة في الهند ، وجعل غاية حياته ، وهدفها الأساسي ، علوم النبوة والمعرفة الإلهية ، ومرضاة الله ،

---

(١) (The reconstruction of religion thought in Islam) .

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ، ج ٢ ص ٣٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠ ـ ٣١ .

بدلاً من أن ينصرف كلياً ، نحو الفلسفة والمنطق ـ في نقد « العقل الخالص » بعيداً عن ملتوياتها الفلسفية وتعقيداتها في أسلوب سهل مبين .

يقول الإمام السرهندي رداً على سؤال : إن العقل رغم كونه بنفسه عاجزاً مشلولاً في الأحكام الإلهية ، ولكن إذا نشأت ـ بحكم صفاء النفس ، وإشراق الروح بينه وبين ذات الله ـ تعالى ـ مناسبة خاصة ، واتصال خاص غير متكيف ، بحيث يقدر باستعانته على الأخذ المباشر من حضرة القدس ، ولا يحتاج إلى البعثة التي تتحقق بواسطة الأنبياء ، فما هو الرأي عندئذ ؟ .

« الإجابة هي أن العقل مهما اتصل ، وحصل له من المناسبة مع الله ما حصل ، إلا أنه لا تزول علاقته بالجسم العنصري بتاتاً ، ولا يجد إلى التجرد الكامل ، والتحرر المطلق سبيلاً ، فالقوة الوهمية تمسك بزمامه ، والقوة المتخيلة تأخذ بلجامه ، وقوة الغضب والشهوة كالظل المرافق ، وخصال الحرص والطمع الذميمة شعاره ودثاره ، والسهو والنسيان ـ وهما من لوازم الإنسان ـ لا يبرحان ، والخطأ والغلط ـ وهما من خصائص البشر ـ لا يزولان ، فليس العقل إذن جديراً بالثقة والاعتماد ، وليست أحكامه ونتائجه متحررة من قيود الوهم ، والتصرف والخيال ، وليست بمصونة من اختلاط السهو والنسيان ، وشبه الخطأ والغلط ، بعكس الملك المنزه عن هذه الخصال ، والبريء من هذه العيوب والتقصيرات ، فهو ـ لا محالة ـ جدير بالاعتماد ، وأحكامه ونتائجه محفوظة عن اقتراح الوهم والخيال وشبه السهو والغلط والنسيان ويخيل ـ في بعض الأحيان ـ أن العلوم التي اكتسبها الإنسان عن الطريقة الروحية تختلط معها ـ عن غير إرادة وشعور ـ في أدائها إلى القوى والحواس ـ مقدمات هي عنده قطعيات ـ ولكنها غير حقيقية ، بل جاءت عن طريق الوهم والخيال ـ حتى يتعسر بينهما التمييز ، وقد يهتدي الإنسان ـ في حين آخر ـ إلى النقد والتمييز ، وقد لا يهتدي ، فلا جرم أن هذه العلوم ـ لاختلاطها بهذه المقدمات

تبقى موضع شك وريبة ، ولا يتحقق فيها الصدق ، فلا يمكن الثقة بها والركون إليها »[1] .

أصحاب الإشراق وصفاء النفس :

قُرِّر من قديم الزمان أن الإشراق وصفاء النفس والروحانية ، من الوسائل البريئة المعصومة عن الخطأ والنسيان للوصول إلى اليقين ، والعلم الصحيح ، وتهذيب الأخلاق ، وتزكية النفس وطهارة الباطن ، وإقامة المجتمع الإنساني ، وبناء المدنية الصالحة على أساسها ، وكانت مصر والهند ـ في العصور القديمة ـ مركزاً كبيراً لهذه الحركة ، وقد ساعد على نشر هذه الحركة وتقويتها وقبولها في الناس ، رد فعل عنيف نشأ في روما ويونان لمقاومة التطرف والمغالاة في تقديس العقل ـ في جانب ـ والعبودية المجنونة للحواس في جانب آخر ، وتمركزت ـ أخيراً ـ في الإسكندرية التي كانت ملتقى العقليات والديانات الشرقية والغربية .

ويقول دعاة هذه الفلسفة والحركة وأتباعها أن أكبر وسيلة لتحصيل اليقين والعلم الصحيح ، هو المشاهدة ، التي لا تحصل إلاَّ بصفاء النفس ، ونور الباطن ، وتنبيه حاسة باطنية ، وأنه ليس في الإمكان التوصل إلى الحقائق إلا بهذا العقل الخالص المجرد (وهي حكمة الإشراق) وبالنور الداخلي (نور الباطن) الذي يتولد بالرياضة ، ومجاهدة النفس والهوى ، والفكر والمراقبة .

وإذا سلَّمنا هذه الدعوى ، فمحصلها أن هناك حاسة سادسة (باطنية) تعمل عملها في الإنسان عدا الحواس الخمس المعروفة ، وأن نتائجها (المشاهدات) تتجلى للإنسان أنواراً غير مرئية ، وأصواتاً غير مسموعة ، وحقائق لم تكن معلومة من قبل ، ولكن ما هو الدليل على أن هذه الحاسة ليست محدودة ، ولا قابلة للخطأ والمغالطات كالحواس الأخرى ؟ ، فلو كان الأمر كذلك لما تطرَّق إلى نتائجها الشك

---

(١) الرسالة رقم : ٢٦٦ ، المجموعة الأولى ، كتبها إلى الشيخ خواجه عبد الله ، والشيخ خواجه عبيد الله .

والاحتيال ، وما وجد فيها التناقض والتعارض ، ولكن تاريخ هذه الإشراقية يدلنا على أن محسوسات هذه الحاسة الباطنة ، وما تؤدي إليها من نتائج ومعتقدات ، تكون معرضة للتعارض والاختلاف ، كما يوجد هذا التعارض والاختلاف في استنتاجات فلاسفةاليونان ، وحكماء الشرق وعقلائه .

دعوا الإشراقية القديمة ـ التي لم يحفظ تاريخها ، ولم ينقل إلينا ـ وانظروا إلى الإشراقية الجديدة1(Neo Platonism) تجدون في الأعمال المترتبة على عقائد أئمتها وروادها الدينية تعارضاً بيناً ، واختلافاً ظاهراً ، ففلاطينس (Platonus) لا يعترف بالنظام الديني ، والعبادات السائدة في عصره ، وهو فيلسوف حر طليق ، يركز على الفكر والمراقبة أكثر من تركيزه على العمل ، ولكن تلميذه النجيب بارفري (Parphyre) صوفي زاهد متقشف ، ويقول فلاطينس (Platonus) بتناسخ الأرواح ، وتحول الأرواح الإنسانية إلى الظهور في نفوس حيوانية ، ولكن بارفري (Parphyre) لا يؤمن بذلك ، والرائد الثالث الشهير من رواد هذه المدرسة الثلاثة ـ براكلس (Proclus) كان متقيداً بجميع التقاليد والعادات ، والطقوس المصرية ، وكان يعبد الشمس ثلاث مرات في النهار ، وكان مذهبه خليطاً من شتى العقائد والديانات ، وكان هؤلاء ـ جميعاً من أصحاب المشاهدة واليقين[1] .

وقد عارض بارفري (Parphyre) المسيحية ، وأيد قيصر الروم في حركته ، لإحياء الوثنية والجاهلية (Paganism) الرومية من جديد ، ولم يمنعه نور باطنه وصفاء نفسه من ربط مصيره ، بسفينة الوثنية والجاهلية الغارقة .

وأن أهل الكشف والإشراق من المسلمين أيضاً ، الذين كانوا يعتمدون على هاتين القوتين ، تجد في كشوفهم ومحسوساتهم الباطنة كذلك اختلافاً كبيراً ، وتعارضاً كثيراً ، فإن واحداً منهم يعارض آخر ، ويثبت أن كشفه بعيد عن الحقيقة ،

(١) راجع للتفصيل موسوعة الديانات والأخلاق .
(ENCYCLOPPAEDIA OF RELIGION AND ETHICS) بعنوان « NEO PLATONISM » ..

غير مطابق للواقع ، ويحمله ـ أحياناً ـ على السكر وغلبة الحال ، وتجدهم يصافحون « العقول » ـ التي ليس لها وجود ، إلا في مطاوي الذهن ، وبطون الكتب ـ ويثبتون أنهم اجتمعوا بها وقابلوها ، إلى آخر ما هناك ، وأن تاريخ التصوف مليء بهذه الأمثلة والوقائع .

شيخ الإشراق شهاب الدين السهروردي المقتول :

اشتهر من هؤلاء الإشراقيين المسلمين في القرن السادس الهجري ـ القرن الثاني عشر الميلادي ـ الحكيم الإشراقي الشيخ شهاب الدين السهروردي (٥٤٩ ـ ٥٨٧ هـ) المعروف بالمقتول ، اشتهاراً عظيماً ، وقد قتل لآرائه وعقائده المبلبلة ، المعارضة للإسلام ، بأمر الملك الظاهر عام ٥٨٧ هـ ، كان يلقب نفسه بالمشائي والصوفي ، وهو يحمل إضافة إلى التصورات المشائية ، كما يقول « S.V. Denbergh » : « تلك الفلسفة الصوفية بحذافيرها ، التي اقتبسها المسلمون من النظرية التطبيقية عند اليونان ، ومعتقداتهم ، ووحدة المذاهب والديانات » ، وكما يقول كاتب هذا المقال في دائرة المعارف الإسلامية ـ المتقدم ذكره ـ :

« إنها في الواقع نظرية النور عند الأفلاطونية الحديثة ، الذي يعتقد فيه أنه الحقيقة الأساسية لجميع الأشياء[1] ـ :

ويقول الشهرزوردي : « إنه كان جامعاً بين الفلسفة الذوقية (الإشراقية) والفلسفة البحثية (المشائية) ، وأهم كتبه « حكمة الإشراق » الذي شرحه العلامة قطب الدين الشيرازي ، وعرف في الأوساط العلمية الدراسية « بشرح حكمة الإشراق » .

ويرى شيخ الإشراق أن عدد العقول ليس محصوراً في العشرة ، بل إن لكل نوع من

(١) دائرة المعارف الاسلامية .

أنواع الموجودات ، عقلاً خاصاً به ، يحفظه ويكلؤه ، ويسميها شيخ الإشراق بـ « الأنوار المجردة » ، ويرى أن السماء مخلوق حي تحمل النفس المجردة التي تحركها ، وأنها مصونة من الفساد والعدم ، وأن في السماء نفساً ناطقة ، ولذلك فإنها تملك الحواس أيضاً ويرى أن جميع السماوات مخلوق حي واحد ، تؤثر عليه الأنوار العالية يعني عالم المجردات عن طريق الكواكب والنجوم ، وبها تتحرك القوى والأجسام ، وأن أكبر الكواكب هو الشمس ، يجب في مذهب الإشراقيين تعظيمها واحترامها ، وأن النور هو صاحب الأمر والنهي ـ مباشرة ، وبوسائط ـ في عالم الأكوان ، ومن النور تتولد الحركة والحرارة ، وهما عنصران أكثر توفراً في النار ، فكما أن النفس تنور عالم الأرواح ، كذلك النار تنور عالم الأجسام ، وقد نصب الله في كل عالم من هذه العوالم خليفة من خلفائه ، فالعقل الأول في عالم العقول ، والكواكب والنجوم في عالم الأفلاك ، ونفوسها الناطقة ، والنفوس البشرية في عالم العناصر ، وأشعة النجوم والنار لا سيما في ظلمة الليل ، كل هؤلاء من خلفائه ، أي أنهم يدبرون شؤونها ويصلحون أمورها ، وأن الخلافة الكبرى تحصل لنفوس الأنبياء الكاملة ، والخلافة الصغرى تتعلق بالنار ، لأنها تقوم مقام أشعة النجوم والأنوار العلوية في الليالي المظلمة ، وتنضج المواد الغذائية ، والمواد الخام ، والعالم ـ عند شيخ الإشراق ـ قديم ، والزمان أزلي أبدي ، ولا يقول بتناسخ الأوراح ، ولا ينكره (إذ أن أدلة الفريقين في هذه القضية غير مقنعة »[1].

وهكذا لم تستطع الإشراقية ، وصفاء النفس أن يمنع الحكيم الإشراقي النابغة ـ في عصره ـ الذي حاز في الشرق لقب « شيخ الإشراق » ، واعترف معاصروه بذكائه وتبحره في العلم ، وزهده وتجرده ـ عن أن يقع في التزويرات المجوسية الإيرانية ، والمفروضات والتحكمات اليونانية ، وظل محروماً من المعرفة الصحيحة ونعمة البعثة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ والهداية المترتبة عليها ، والنجاح في الدنيا ، والسعادة في الآخرة ، وعاش حياة متناقضة مضطربة ،

(١) استفيد في هذا الفصل من كتاب « حكماء الاسلام » تأليف المرحوم الأستاذ عبد السلام الندوي ، ج ٢ ، طبع دار المصنفين بأعظم كره .

مليئة بالفوضى والخيبة والخسران ، وفارق هذه الدنيا ، ولم يخلف من نظامه الفكري الفلسفي ما ينفع الخلق ويهدي الناس .

العقل والكشف راكباً سفينة واحدة :

لقد أثار كانت(Kant) شكوكاً كثيرة في تجرد العقل وتخلصه وقرر أن صفاءه ، وعدم اختلاطه ، وتحرره من التأثيرات الخارجية والداخلية شبه مستحيل ، ولكنه رجل فلسفة لا شأن له بالكشوف والعلم الباطني ، فلم يستطع أن يتقدم خطوة أخرى ، ولكن الإمام السرهندي الذي كان من الغواصين في هذا البحر الخضم ، تقدم خطوة أخرى ، وتناول موضوع « الكشف الخالص » و« الإلهام الخالص » ، وأنهما صعبا المنال ، يندر أن يحصل عليهما ، بشرح وتفصيل ، وقرر أن الإشراق ، وصفاء النفس ليسا كفيلين بالوصول إلى الحقائق الغيبية ، والعلوم التي لا يخالجها شك وريبة ، والتي لا يقف عليها العامة والخاصة ، إلاّ عن طريق الأنبياء ورسالتهم ، كما أنه لا يمكن الوصول إلى المعرفة الصحيحة ، ولا الحصول على النجاة من النار ، ولا التزكية الحقيقية ، إلاّ بالإيمان ببعثتهم ، واتباع رسالتهم ، اقرأ ـ فيما يلي ـ بعض رسائله في هذا الصدد :

« اختار هؤلاء السفهاء (الفلاسفة) طريق الرياضات والمجاهدات اتباعاً للصوفية الربانيين ـ الذين كانوا في كل عصر يتبعون الأنبياء والمرسلين ـ ونبذاً لطريق الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلوات والسلام ـ وانخدعوا بصفاء أوقاتهم ، واعتمدوا على تصوراتهم ورؤاهم ، وائتمّوا بكشوفهم ومشاهداتهم ، فضلّوا وأضلّوا ، إنهم يجهلون أن ما يعملونه هو « تصفية النفس » التي تضلهم وتغويهم ، وليس صفاء القلب الذي هو المنفذ إلى الهدى والنور ، فإن صفاء القلب مرتبط باتباع الأنبياء ـ عليهم الصلوات والسلام ـ وأن تزكية النفس مرتبط بصفاء القلب ، بشرط أن يربي النفس ويصلحها ، فإن تصفية النفس مع ظلمة القلب ـ الذي هو مظهر أنوار الله ـ تعالى ـ وتجلياته ، بمثل السراج الذي أشعل ليقوم العدو المتستر إبليس اللعين (في ضوئه) ويهدم البيت من أساسه ، ويحوله نهباً خراباً .

وحاصل هذا التحقيق أن طريقة المجاهدات والرياضات في صبغتها الاستدلالية النظرية لا تورث اليقين ، والطمأنينة ، ما لم يرافقها الإيمان بالأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلوات والتسليم ـ الذين يبلغون عن الله ـ سبحانه ـ وينزل عليهم نصره وتأييده ، وأن نظام هؤلاء ـ نزول الملائكة ، المعصومين عن الغلط والإثم ، عليهم ـ في مأمن من مكر العدو اللعين ، ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ ، وليس ذلك لغيرهم ، ولا يتوقع الإفراج عنهم من سجن هذا الشقي اللعين ، إلاّ من اتبع هداهم ، واقتفى آثارهم ، ولقد صدق الشيخ سعدي الشيرازي ، اذ قال ، ما معناه :

« محال يا سعدى ! أن تسلك طريق الصلاح والصفاء إلا باتباع شريعة المصطفى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ » .

فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وعلى إخوته من الأنبياء والمرسلين[1] .

الخلط في الكشف :

« ينبغي أن نعلم أن الخطأ في الكشف لا ينشأ ـ دائماً ـ بإلهام الشيطان ووسوسته ، بل كثيراً ما ترسب أحكام وحوادث ، لا نصيب لها من الصحة والواقعية ، في المتخيّلة حيث لا دخل للشيطان ، ثم تتمثل هذه الأخيلة والتصورات في الخارج ، ومن هذا ما يقع لبعض الناس في المنام من رؤية الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وتلقى أحكام عنه ـ تخالف أحكام الشريعة الثابتة بالنص ، وتعارض الأحاديث الصحيحة ـ فلا يتصور هنا ، إلقاء الشيطان ووسوسته ـ لأن الشيطان لا يتمثل بصورة الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ اذن فهي القوة المتخيلة التي تتخيل وتتصور غير الواقع واقعاً »[2] .

ويقول في رسالة أخرى :

« إن النفس ـ مهما أصبحت بالتزكية والتصفية نفساً مطمئنة ـ لا تستطيع أن

(١) الرسالة رقم : ٢٣ ، المجموعة الثالثة ؛ كتبها الى الشيخ خواجه ابراهيم قباديانى .
(٢) الرسالة رقم : ١٠٧ ، وهي موجهة الى الشيخ محمد صادق الكشميري .

تتجرد ـ بتاتاً ـ من صفاتها وخصائصها ، ولذلك يحتمل أن يتسرب الخطأ إليها وتقع في الغلط »[1] .

التعارض بين تعاليم الفلاسفة ، وهدى الأنبياء :

ويقول الإمام ـ بعد ذلك ـ مشيراً إلى التعارض الصريح الواقع بين تعاليم الفلاسفة وتعاليم الأنبياء ، الذي لم يزل قائماً عبر مئات القرون ، ولا يمكن التطبيق بينها ، وأن تعاليم الفلاسفة وبحوثهم العقلية ، وتحليقهم في أجواء التأملات الفلسفية لا يعني إلاَّ ما قيل : « تمخض الجبل فولد فأرة » .

كأن عقل الفلاسفة القاصر المحدود ، على الضد ـ تماماً ـ من النبوة ، وعلى طرف النقيض منها ، فبحوثهم وتحقيقاتهم في بدء الكون ونهايته ، وفي الدار الآخرة تعارض تعاليم الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ معارضة كاملة ، فلم يصححوا إيمانهم بالله ، ولا إيمانهم بالآخرة ، ويقولون بقدم العالم ، رغم أن جميع الديانات ، وأهل جميع الملل والنحل مجمعون على حدوث للعالم بجميع أجزائه ، ولا يؤمنون بانفطار السماوات وانتثار الكواكب ، ونسف الجبال ، وتفجير البحار ، كما جاء الوعد بذلك ليوم القيامة ، ولا يؤمنون ـ كذلك ـ ببعث الأجساد وإحيائها من جديد ويكفرون بتصريحات القرآن الحكيم ونصوصه ، والمتأخرون منهم الذين يعدون أنفسهم من جماعة المسلمين ، متشبثون ـ مثلهم ـ بأصولهم الفلسفية ، ويقولون بقدم الأفلاك ، والكواكب وغيرها من الأشياء ، ويدعون أنها لا تفنى ، ولا يلحقها الهلاك ، إنما رزقهم تكذيب التصريحات القرآنية وغذاؤهم إنكار ضروريات الدين ، عجباً من هؤلاء المؤمنين ، الذين يؤمنون بالله ورسوله ، ولا يؤمنون بما صرح به الله ورسوله ـ فهل هناك سفه أكبر من هذا السفه ولله در القائل :

«إذا كان معظم الفلسفة جهلاً وسفاهة ، فكل الفلسفة جهل وسفاهة ، لأن للأكثر حكم الكل » .

---

(1) الرسالة رقم : ٤١ ، وهي موجهة الى الشيخ درويش

إن هذه الجماعة صرفت جُلّ عمرها وعنايتها لتحصيل آلة (المنطق) التي تعصم من الخطأ الفكري ، والزلل العقلي ، وتجشموا في سبيل هذا العلم المشاق وتكبدوا جهد البحث والتنقيب ، فلما وصلوا إلى البحث عن ذات الله ـ تعالى ـ وصفاته ، الذي هو أخطر مبحث وأعظمه ـ خارت قواهم ، وطرحوا هذه الآلة ، التي كانت لتعصمهم من الخطأ في الفكر ، وبدأوا يتعثرون ويسفسطون ، ويضلون ويتيهون في مهامه الجهل والضلال كمثل من يعد آلات الحرب وعدته ـ على مدى أعوام وسنين ـ فإذا جدّ الجدّ، وكشرّت الحرب عن أنيابها ، سرى الوهن إلى أعضائه وخارت قواه، وسقط في يديه .

يظن الناس أن الفلسفة مبنية على أصول حكيمة ، وتنظيم دقيق ، ويعتقدون أنها بمنجاة عن الخطأ والغلط ، فإذا سُلّم ، وجّه هذا الحكم إلى تلك العلوم التي يجدي فيها العقل ويغني غناه ، ليس ذلك من موضوعنا الآن ، ولا يعنينا ـ أصلاً ـ ولا علاقة ـ لهذه العلوم بالآخرة ـ التي هي خالدة دائمة ـ كما لا علاقة لها بالسعادة الأبدية وحديثنا في تلك العلوم التي يعجز العقل عن تحصيلها وإدراكها ، وهي مرتبطة بطريق النبوة ، وترتبط بها السعادة الأخروية والنجاة الأبدية » .

ثم يقول :

« ولا يجديهم علم المنطق ـ الذي هو كالآلة للعلوم العالية ـ والذي قال عنه الناس ، إنه يجنب عن الخطأ ـ ولا يغنيهم من جوع ، ولا يخرجهم من ورطة الأخطاء والغلطات في هذا المبحث العظيم ، فإذا لم يأخذ هذا العلم بيدهم ، ولم يسعفهم أنفسهم ، فكيف يسعف غيرهم ، ويخرجهم من الخطأ والغلط » ؟ .

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ .

وإن بعض الناس الذين لهم إلمام بعلوم الفلسفة ، وواقعون في خداعه

وتزويره الفلسفي ، يعتقدون أن الفلاسفة يضاهون الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بل يكادون يفضلون علومهم المزورة المكذوبة ـ بتصديقها والإيمان بها ـ على شرائع الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ أعاذنا الله من عقيدة السوء ، نعم ! فإنهم إذ يعتقدون أنهم حكماء ، ويسمون علومهم بالحكمة ، يقعون فريسة مشاكل وتعقيدات ، لأن الحكمة عبارة عن العلم بشيء كما هو في الواقع ، فالعلوم التي تخالف علوم الحكمة هذه (كشرائع الأنبياء) فإنها ـ في ظن هؤلاء الحكماء ـ تخالف الواقع والحقيقة .

وخلاصة القول أن تصديق هؤلاء ، وتصديق علومهم ، تكذيب للأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ وتكذيب لعلومهم ، لأن هذين العلمين ـ علم الحكماء وعلم الأنبياء ـ على طرفي نقيض ، يستلزم تصديق أحدهما تكذيب الآخر فمن شاء فليتبع دين الأنبياء ويكن من حزب الله ، وأصحاب السعادة والنجاة ومن شاء فليكن فيلسوفاً ، ويدخل في حزب الشيطان ، ويحق له الإخفاق والخسران ، يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً ، أحاط بهم سرادقها ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً ﴾ ، وسلام الله ـ عز وجل ـ على من اتبع الهدى واقتفى الرسول المصطفى ـ صلى الله عليه وآله وسلم وعلى إخوته الأنبياء الكرم والملائكة العظام أتم الصلوات وأكمل التسليمات »[1].

لا تمكن التزكية الحقيقية بغير البعثة النبوية :

« إننا نقول إن التزكية والتصفية مرتبطتان بالأعمال الحسنة الصالحة التي يرضاها الله ـ تعالى شأنه ـ ويتقبلها ، ولا يعلم ذلك إلا عن طريق البعثة ، فلا صفاء ولا تزكية بغير البعثة »[2] .

---

(١) الرسالة رقم : ٢٣ ، المجموعة الثالثة ، وهي موجهة الى الشيخ خواجه ابراهيم قباديانى .
(٢) الرسالة رقم : ٢٦٦ ، المجموعة الأولى ، كتبها الى الشيخ خواجه عبد الله الشيخ خواجه عبيد الله .

الحاجة إلى بعثة الأنبياء، وعدم كفاية العقل :

يتحدث الإمام السرهندي عن الحاجة إلى بعثة الأنبياء والرسل، والضرورة إليها للهداية، وعدم كفاية العقل وحده لذلك - مهما كان يملك من سمو الفكر وبعد الغور - فيقول في رسالة من رسائله :

« إن بعثة الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - رحمة لأهل الأرض قاطبة، فلولا وجود هؤلاء ووساطتهم، لما وجد من يهدينا إلى معرفة ذات الله - وهو واجب الوجود - وصفاته، ويميز بين مأموراته ومنهياته.

إن عقولنا المحدودة القاصرة من غير استعانة بضوء دعوة هؤلاء الأنبياء والرسل عاجزة عن الوصول إلى هذا المطلب العظيم، وإن مداركنا الناقصة، من غير تقليدهم واتباعهم كليلة خائرة.

نعم ! العقل حجة، ولكن حجيته غير كاملة، لا تبلغ درجة التأثير والتكميل، وإن الحجة البالغة هي بعثة الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلوات والتسليم - التي يرتبط بها العذاب والثواب الخالدان الدائمان »[1].

البعثة هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة ذات الله وصفاته وأحكامه :

« إن البعثة رحمة، إذ أنها سبب لمعرفة ذات الله - تعالى - وصفاته التي تتضمن جميع السعادات الدنيوية والأخروية، وإن بنعمة هذه البعثة، يحصل العلم والتمييز بين ما يليق بجلال الله وعظمته، وما لا يليق، لأن عقولنا العاجزة . المظلمة - التي وُصِمَ جبينها بوصمة الإمكان والحدوث - أنى لها أن تدرك ما يليق من الأسماء، والأفعال، والصفات، بذات الله - تعالى - الذي هو قديم لم يزل ولا يزال - فتنسب إليه، ما لا يليق من ذلك، فيجتنب منه، بل طالما يظن عقلنا القاصر النقص كمالاً

(١) نفس المصدر السابق .

والكمال نقصاً ، وأن التمييز الصحيح - الذي تنشئه النبوة وتربيه - هو نعمة أعظم وأجل - عند هذا العبد الضعيف - من كل نعمة ظاهرة أو باطنة ، وإن من أشقى الناس من ينسب إلى الله - عز وجل - ما لا يليق بعظمته وجلاله ، وما يستكره في حقه ، والبعثة هي التي فرقت بين الحق والباطل ، وميزت بين من يستحق العبادة ، ومن لا يستحق ، وبوساطة هذه البعثة ، يدعو هؤلاء الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - إلى الله - عز وجل - ويشرفون عباد الله - سبحانه - بالتقرب إليه ، والاتصال به ، وبهذه البعثة تعلم مرضيات الله وأوامره ، كما تقدم ذلك ، ويميز بين ما يجوز فيه التصرف من ملكوته ، وما لا يجوز التصرف فيه ، وللبعثة كثير من مثل هذه الفوائد والمصالح ، فثبت أن البعثة رحمة ، فمن يكفر بالبعثة اتباعاً للنفس الأمارة بالسوء ، وخضوعاً للشيطان الرجيم ، ولا يعمل حسب مقتضياتها ، فماذا في ذلك من ذنب للبعثة ، ولماذا لا تكون البعثة رحمة »[1] ؟ .

لا طريق إلى معرفة الله - تعالى - إلاّ الأنبياء :

« وبسبب ما عرف به الأنبياء والمرسلون من الدعوة إلى الله - خالق السماوات والأرض ، عز وجل - لاستمرار بعثتهم وتواتر رسالتهم ، وتسلسل ظهورهم ، وبسبب انتشار دعوتهم ونفاذ كلمتهم ، رجع سفهاء كل عصر ومصر - الذين كانوا في شك مريب من وجود صانع الكون - إلى الاعتقاد بوجوده - عن غير إرادة منهم وقصد - فنسبوا الأشياء كلها ، والمخلوقات بأسرها إلى الله - عز وجل - فهذا النور - الذي استناروا به - قبس من أنوار الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - وفتات مائدتهم ، فصلوات الله - تعالى - وسلامه عليهم دائماً أبداً إلى يوم القيامة .

كذلك جميع الأمور المنقولة التي لم نعلم خبرها ، تنتهي إلى تبليغ الأنبياء والرسل - عليهم الصلوات والتسليمات - كصفات الله الكاملة ، وبعثة الأنبياء ، وعصمة الملائكة - عليهم الصلوات والتسليمات والبركات - والبعث ، والحشر ،

---

(١) نفس الرسالة السابقة .

والنشور ، والجنة ، والنار ، ونعيم الجنة المقيم ، وعذاب النار الأليم ، وأمور أخرى تخبرنا بها ، الشريعة المطهرة ، ويعجز العقل عن إدراكها ، ويقصر دون إثباتها بغير سماعها من الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - وروايتها عنهم »[1]

الوضع الصحيح في الترتيب والتدريج :

« ينبغي - قبل كل شيء - الإيمان بالرسول - صلى الله عليه وآله وسلم وتصديق رسالته ، حتى يصدقه الإنسان في كل أوامره وأحكامه ، وينجو بذلك من ظلمات الريب والشكوك ، يجب العلم بالأصل وتعقله وفهمه أولاً ، حتى يتيسر علم الفروع والجزئيات - بكل سهولة - وتفهمها وإدراكه ، وأن إدراك كل فرع من الفروع على حدة من غير إثبات الأصل وإدراكه ، أمر متعسر .

وأقرب طريق إلى هذا التصديق الكامل ، وطمأنينة القلب ، هو ذكر الله ، ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب، الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾[2] ، ويستبعد الوصول إلى هذا الهدف الأعلى عن طريق النظر والتأمل والاستدلال ، يقول الشاعر ما معناه :

« إن أرجل أصحاب الاستدلال - أي الفلاسفة والمنطقيين - أرجل خشبية ، والأرجل الخشبية جدّ واهية ضعيفة »[3] .

المصدق برسالة الأنبياء من أصحاب الاستدلال :

« اعلم أن من يقلد الأنبياء الكرام - عليهم الصلوات والتسليمات - ويقتفي آثارهم ، بعد الإيمان بثبوت نبوتهم ، وتصديق رسالتهم ، يعدّ من أصحاب الاستدلال ، فإن تصديقه بأحكامهم - من غير دليل - بعد الإيمان بنبوتهم عن دليل -

---

(١) الرسالة رقم : ٢٣ ، المجموعة الثالثة ، كتبها الى الشيخ خواجه ابراهيم قباديانی .

(٢) سورة الرعد : ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) الرسالة رقم : ٣٦ ، المجموعة الثالثة ، وهي موجهة الى الشيخ مير محمد نعمان .

عين الدليل ، وعلى سبيل المثال ، إذا كان شخص قد أثبت بعض الأصول بالدليل والبرهان ، فكل ما ينتج عنها من فروع ، تكون ـ بالطبع ـ بالدليل والبرهان ، ويكون هذا الشخص ـ عند ذاك ، من أصحاب الاستدلال في إثبات هذه الفروع كلها ، ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ ، « والسلام على من اتبع الهدى »(١)

إخضاع أخبار الأنبياء للعقول إنكار للنبوة :

« إن الصراط والميزان ، والحساب حق ، لأن المخبر الصادق ـ عليه الصلاة والسلام ـ أخبر بها ، وإن استبعاد بعض الجهلة الذين لا يعرفون طريق النبوة ، لهذه الحقائق الثابتة ، ساقط مرذول ، لأن طريق النبوة وراء طريق العقل ، وأن إخضاع أخبار الأنبياء الصادقة للطريقة العقلية للبحث والتأمل ، والتحقيق ، والتوفيق بينهما ، إنكار ـ في الحقيقة ـ للنبوة ، فالاعتماد في هذه القضايا التي هي وراء طور العقل ، على الاتباع الكامل ، والإيمان الصادق بالأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ من غير طلب الدليل والبرهان »(٢) .

فرق كبير بين ما يعارض العقل وما يكون وراء طوره :

« لا يظن ظان أن طريق النبوة يعارض طريق العقل ، لا ! بل إن طريق العقل ـ وهو النظر والاستدلال ـ لا يؤدي ، بدون تقليد الأنبياء واتباعهم ، إلى هذا المقصد الرفيع ، المعارضة شيء ، والعجز والقصور شيء آخر ، لأن المعارضة لا تتصور إلا بعد القدرة والتمكن »(٣) .

---

(١) نفس الرسالة السابقة .

(٢) الرسالة رقم : ٢٦٦ ، المجموعة الأولى .

(٣) نفس الرسالة السابقة .

معرفة طريق تعظيم الله ـ تعالى ـ وتقديسه محصورة في النبوة ، وتعاليم الأنبياء وأخبارهم :

فلا مناص من وجود الأنبياء ، حتى يبصرونا بطريق الشكر للمنعم الحقيقي والثناء عليه ـ الذي ثبت وجوده بالعقل لزوما وضرورة ـ ويبينوا لنا طريق التعظيم والتكبير ـ علمياً وعملياً ـ لواهب هذه النعم ، لأن التعظيم الذي ليس مصدر علمه هو نفسه ، تعالى شأنه ـ لا يجدر بجلاله ، ولا يليق بكماله ، لأن القوة البشرية قاصرة عن إدراكه ، بل كثيراً ما يعتقد الإنسان تعظيماً وتسبيحاً ما ليس بتعظيم ولا تسبيح ، ويتحول من الحمد والشكر إلى الذم والعيب ، ولا يعلم طريق تعظيمه وتكبيره ، إلا بالنبوة وتعاليم الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ وأخبارهم ، وما يتلقى أولياء الله ـ تعالى ـ من الإلهامات لا تعدو قبساً من قبسات الأنوار النبوية ، وفيضاً من فيوض اتباعهم ، والاقتداء بهم وبركة من بركاتهم »[1].

مكانة النبوة وراء العقل كما أن مكانة العقل وراء درجة الحواس :

« وكما أن مكانة العقل ومنزلته وراء منزلة الحواس ، حيث لا تدرك الحواس ما يدركه العقل ، كذلك مكانة النبوة ومنزلتها وراء طور العقل ودرجته ، فما لا يدركه العقل ، يدرك عن طريق النبوة ، فمن لا يعترف بطريقة لتحصيل العلم غير طريقة العقل ، فإنه ـ في الواقع ـ منكر لطريقة النبوة ، معارض للهداية والنور »[2].

مكانة النبوة :

لقد نشأ في الفلاسفة وبعض الإشراقيين المسلمين جهل بمكانة النبوة ، واستهانة بقيمتها ـ لاشتغالهم ليل نهار بعلوم اليونان ، وحكمتها ، وفلسفتها ، التي ازدهرت وأثمرت عبر القرون والأجيال بمعزل عن دعوة الأنبياء وهداها ـ ولاعتقادهم

(١) الرسالة رقم : ٢٣ ، المجموعة الثالثة ، وهي موجهة الى الشيخ خواجه ابراهيم قباديانى .
(٢) نفس الرسالة السابقة .

بأنها غاية العلم وسدرة المنتهى ، وانصرافهم عن دراسة الحديث النبوي والسيرة النبوية ، واهتمام بهما ، وبعدم اهتدائهم بهدي الكتاب والسنة وتأمل في نصوصهما - وانقطاعهم كُلّياً إلى الرياضات البدنية والمجاهدات النفسية ، والاعتكاف لمدد خاصة ، ومواقيت معينة في القرون الأخيرة - ورافق هذا الجهل بمكانة النبوة نوع من التنفر والاستغراب، والاستبعاد .

وقد قوى هذا الاتجاه أن هؤلاء الحكماء والإشراقيين يقرأون في سير الأنبياء وأخبارهم ، وفي سيرة سيد المرسلين - صلى الله عليهم وسلم أجمعين - أنهم كانوا يعيشون كما يعيش الناس ، يتزوجون ، ويتناسلون ويعولون أهلهم وأولادهم ، ويمشون في الأسواق ، ويبيعون ويشترون ، ويرعون المواشي ، ويشاركون في الحروب ، ويتأثرون بالأحداث ، ويسرون بما يسر به الناس ، ويحزنون لما يحزنون له ، وليست عندهم هذه العبادات المجهدة المضنية ، فلا صوم الوصال ، ولا هذا الاعتكاف ، والاعتزال الذي يسمى بـ « الأربعينية » وغيرها مما نشهدها عند أوساط الصوفية ، والأولياء ، والزهاد ، ثم أنهم كانوا لتبليغ رسالتهم ، وأداء دعوتهم مختلطين بالناس معنيين بشئونهم - إذ لا تتأدى هذه المسئولية ، إلا بالاتصال بهم ، والعناية بحالهم ، ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾ ، فالتفاتٌ إلى شيء يصرف عن الالتفات إلى شيء آخر ، ولم تكن لهذه الجماعات والأوساط المنصرفة إلى الفلسفة والرياضات ، أي عناية بالعوم الدينية ، لا سيما علم الحديث الشريف ، وكانت ترددصباحاً ومساء وقائع الكشوف والكرامات ، وتتحدث في معارج الأولياء المتقدمين والإشراقيين المتأخرين ، وكمالاتهم الباطنية ، وتجريدهم وتفريدهم ، وفنائهم ، وسكرهم وغير ذلك .

ولهذه الأسباب سولت للفلاسفة والإشراقيين أنفسهم أن مقام الولاية فوق مقام النبوة ، وأن الولاية عبارة عن كمال الانصراف إلى الله ، والانقطاع عن الخلق ، وأن مهمة النبوة هي التبليغ والدعوة ، التي تتعلق بالخلق فالولى « متوجه

إلى الحق » والنبي « متوجه إلى الخلق » ، والتوجه إلى الحق ـ طبعاً ـ أفضل وأعلى شأناً من التوجه إلى الخلق ، وتورع بعضهم قليلاً فقال : ليست الولاية فوق النبوة على سبيل الإطلاق ، ومراد من قال ذلك : أن ولاية النبي ـ نفسه ـ أفضل من نبوته ـ وأن النبي عند اشتغاله بالحق أرفع شأناً من حال اشتغاله بالخلق ، ودعوتهم وتبليغ الرسالة إليهم .

وعلى كل فإن الأسلوب للتفكير يدل ـ حتماً على أن كثيراً من الأوساط الدينية أيضاً ـ آنذاك ـ كانت مصابة بدهشة عظيمة للولاية ، ومدارجها وكمالاتها ، التي كانت تترك آثاراً بعيدة المدى على ارتباط الأمة الإسلامية بمنبعها الأصيل : النبوة المحمدية والشريعة الإسلامية ، وكان ذلك خطراً عظيماً يحتم على المجددين ، وورثة الأنبياء والمرسلين أن يقاوموه ، ويردوه على أعقابه

وإن أول من رفع صوته بهذا الصدد ـ في حدود علمنا ـ صارخاً مدوياً ، قوياً مؤثراً ، مدعماً بالأدلة ، والحجج الناهضة ، وفي أسلوب يجذب النفوس ، ويأخذ بمجامع القلوب ، هو العالم الرباني المحقق ، والعارف البصير الشهير الإمام شرف الدين أحمد بن يحيى المنيري (٦٦١ ـ ٧٨٦ هـ) في أواسط القرن الثامن الهجري ، ورد على هذا الخطر ـ المشار إليه ـ ردوداً قوية مفحمة في رسائله العلمية .

ونبغ بعد الإمام المنيري الإمام السرهندي ، الذي كان مجدد هذا العلم العظيم ، والطريق المستقيم ، وخاتمة المحققين ، فقد أثبت في رسائله : أن الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ هم المثل الكامل ـ خلقياً وعقلياً ، وروحياً ، وعقيدياً ـ لصنعة الله الخلاق العظيم ، وصفة جوده الكريم ، وأن صلتهم مع الله وتوجههم إليه ، لا يصرفه صارف من شغل أو عمل ، وذلك نتيجة شرح صدورهم الذي يخصهم الله به من دون العالمين ، وأن من مقتضيات علو همتهم وقوة صبرهم واحتمالهم ، وسعة صدورهم ، ومن مقتضيات دعوتهم ، ورسالتهم ومهمتهم ـ التي نيطت بهم ـ أن يكونوا في « صحو دائم » ويقظة مستمرة ، وحضور بديهة ،

وسرعة إدراك ، وهي تلك الخصائص التي لا يتمتع بها أهل الولاية ، والسكر والغياب ، وأنهم يبدأون من حيث ينتهي الأولياء ، ويحصل باتباعهم التقرب بالفرائض الذي لا يسمو إليه التقرب بالنوافل ، وأن مثل كمالات الولاية ومقاماتها إزاء كمالات النبوة ودرجاتها ، مثل القطرة في البحر ، ولندع القراء الآن ليستمعوا من الإمام السرهندي حديث هذه الحقائق الرفيعة والعلوم العالية :

الأنبياء أفضل موجود ، ومواهبهم أعظم موهوب :

« إن الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ أفضل من جميع الموجودات ووهبوا أفضل المواهب والثروات ، وأن الولاية جزء من النبوة ، والنبوة كلّ ، فالنبوة ـ لا محالة ـ أفضل من الولاية ، سواء كانت ولاية النبي ، أو ولاية الولي ، والصحو أفضل من السكر ، لأن السكر ينطوي في الصحو ، كالولاية تنطوي في النبوة ، أما ما يكون عند عامة الناس من يقظة وتعقّل ، فليس من مبحثنا إذ لا اعتبار لتفضيل السكر على هذا الصحو العامي ، ولكن الصحو الذي يحتوي على السكر ، أفضل ـ حتماً من السكر ، وأن علوم الشريعة التي مصدرها ، ومنبعها النبوة ، كلها صحة في صحو ، وكل ما يخالفها سكر في سكر ، وصاحب السكر معذور ، والجديرة بالاتباع والتقليد هي علوم « الصحو » لا علوم «السكر»[1].

لا يحول توجه الأنبياء إلى الخلق دون توجههم إلى الحق ، لانشراح صدورهم :

« قال بعض المشائخ في حال الغيبوبة والسكر : « إن الولاية أفضل من النبوة » وقال آخرون : « إن المراد بهذه الولاية ولاية النبي ، حتى لا يتوهم ، متوهم ، أن الولي أفضل من النبي » ، ولكن الواقع بالعكس ، لأن نبوة النبي أفضل من ولايته نفسه ، إذ لا يتيسر الالتفات التام إلى الخلق في الولاية ، لضيق الصدر وحرجه ، أما في النبوة فلسعة الصدر ، وانشراحه لا يحول الالتفات إلى الخلق ، دون الالتفات إلى الحق ، ولا الالتفات إلى الحق دون الالتفات إلى الخلق ، ولا يكون

(١) الرسالة رقم : ٩٥ ، المجموعة الأولى وهي موجهة الى السيد أحمد بجواره .

الالتفات في النبوة إلى الخلق وحدهم ، حتى ترجح عليها الولاية التي تتوجه دائماً إلى الحق ، والعياذ بالله ـ سبحانه ـ . الالتفات الكامل إلى الخلق منزلة العوام الذين هم كالأنعام ، ومكانة النبوة جليلة عظيمة ، ولا يفقه هذه الحقيقة أهل السكر إلا قليلاً ، فإن هذه المعرفة حظ من حظوظ أصحاب الصحو والاستقامة ـ « هنيئاً لأرباب النعيم نعيمهم »[1].

باطن النبي مع الحق ، وظاهره مع الخلق :

«يفضل بعض أصحاب السكر علم الولاية ـ الذي يقبل على السكر ـ على علم النبوة ـ الذي صبغ بالصحو ، ومما صدر عنهم في حال السكر قولهم : « الولاية أفضل من النبوة » على أساس أن الولاية وجهها إلى الحق ، والنبوة وجهها إلى الخلق ، ، ولا شك في أن التوجه إلى الحق أفضل من التوجه إلى الخلق ، ويؤوّل بعضهم قائلاً : « إن ولاية النبي أفضل من نبوته » .

ويرى هذا الفقير أن هذه الأقاويل تشدّق وتقعير ، فليس في النبوة التفات إلى الخلق فحسب . بل يرافقه الالتفات إلى الحق كذلك ، وأن باطن المتبوأ مكانة النبوة مع الحق ، وظاهره مع الخلق ، ومن كان كل التفاته إلى الخلق فهو من لا يؤبه بهم ، ولا خلاق لهم »[2].

الرد على من يقول : « بدايات الأولياء نهايات الأنبياء » :

« إن القول المحكي عن بعض الناس : إن بداية الأولياء هي نهاية الأنبياء ، قول مرذول ، والمراد ببداية الأولياء ونهاية الأنبياء عندهم « الشريعة » نعم ، لم يكن يدري ذلك المسكين حقيقة الأمر فتفوه بما يخالف الظاهر الصريح ، ولم يتصدى أحد لبيان هذه الحقائق ، بل صرح معظم الناس بعكسها من الأقوال والآراء ،

---

(١) الرسالة رقم : ١٠٨ ، المجموعة الأولى كتبها الى السيد أحمد بجواره .

(٢) الرسالة رقم : ٩٥ ، المجموعة الأولى ، وهي موجهة الى السيد أحمد بجواره .

ويستبعدون هذه الحقائق الواضحة ، ولكن المقسط العادل الذي ينظر إلى عظمة الأنبياء ، ومكانتهم الرفيعة ، وتسيطر على قلبه ومشاعره عظمة الشريعة ، وحرمته يتقبل هذه الأسرار الدقيقة ، ويجعلها وسيلة لزيادة الإيمان وترقيته »[1].

اقتصار دعوة الأنبياء على عالم الخلق وبحثهم عن القلب :

« استمع إليّ يا بنيّ ! أن الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ قصروا دعوتهم على « عالم الخلق » وجاء في الحديث الشريف : « بُنِي الاسلام على خمس ، شهادة أن لا إلّه إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان »[2] ، ودعوا إلى تصديق القلب أيضاً لأن للقلب صلة أكثر بعالم الخلق ، ولم يتعرضوا لما وراء القلب ، ولم يبحثوا ويخوضوا فيه ، ولم يعدوه من المقاصد والغايات ، تأمل في نعيم الجنة ، وآلام النار ، ونعمة رؤية الرب ـ تعالى ـ ونقمة الحرمان منها ، كل ذلك متصل بعالم الخلق ، ولا علاقة له « بعالم الأمر »[3] .

في اتباع النبوة تحقيق التقرب بالفرائض :

« كذلك أداء الفرض ، والواجب ، والسنة من الأعمال ، كلها متصلة بالقلب الذي هو من عالم الخلق ، ويتصل بالأعمال النافلة ما يتعلق بعالم الأمر ، والتقرب الذي يحصل بسبب هذه الأعمال ، يكون على قدر هذه الأعمال ، فثبت من ذلك أن التقرب الذي هو نتيجة أداء الفرائض ، يرجع إلى عالم الخلق ، والتقرب الذي هو ثمرة أداء النوافل ، يجرع إلى عالم الأمر ، وما من شك في أن النفل لا يعد شيئاً في جنب الفرض ، وليست نسبة النفل إلى الفرض ، كنسبة القطرة إلى البحر ،

---

(١) الرسالة رقم : ٢٦٠ ، المجموعة الأولى كتبها إلى إبنه الشيخ محمد صادق .

(٢) حديث متفق عليه ، واللفظ لمسلم .

(٣) نفس الرسالة السابقة .

بل النفل بالنسبة إلى السنة ، مثله كذلك مثل القطرة في البحر ، وإن كانت النسبة بين السنة والفرض كتلك النسبة بين القطرة والبحر ، ومن هنا ينبغي أن يقاس تفاوت ما بين التقرُّبين ، وأن يدرك ما لعالم الخلق من رجحان وفضل على عالم الأمر »[1].

مقامات الولاية لا شيء إزاء مقامات النبوة :

« لقد شرح الله ـ عز وجل ـ صدري لمعرفة أن مقامات الولاية ودرجاتها ليست بشيء إزاء مقامات النبوة ودرجاتها ، حتى أنها لا توجد بينهما تلك النسبة التي توجد بين القطرة واليمّ ، فما ينال عن طريق النبوة من خير وفضل ، وامتياز يكون أضعاف أضعاف ما ينال عن طريق الولاية ، فالأفضلية المطلقة للأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ والأفضلية الجزئية للملائكة ، ومن ثم فإن قول جمهور العلماء هو المصيب .

وتجلى من هذا التحقيق أن أي ولي من الأولياء لا يستطيع أن يسمو إلى مكانة الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ بل إن رأس ذلك الولي تحت قدم النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم »[2].

وجه إصابة علوم العلماء وتحقيقاتهم ، ورجحانها وأفضليتها :

« إذا تأملت في المسائل التي اختلفت فيها أقوال الصوفية ، والعلماء تجد الحق مع العلماء ، والسر في ذلك أن نظر العلماء ـ لاتباعهم الأنبياء ـ ينفذ إلى علوم النبوة وكمالها ، وأن نظر الصوفية ينحصر في كمالات الولاية وعلومها ومعارفها ، فالعلم الذي يقتبس من مشكاة النبوة ، لا جرم أن يكون أصح وأحق ، وأصوب من العلم الذي يؤخذ من مراتب الولاية »[3].

---

(١) أيضاً .

(٢) الرسالة رقم : ٢٦٦ ، المجموعة الأولى وهي موجهة الى الشيخ عبد الله والشيخ عبيد الله .

(٣) أيضاً .

« وقد ذكر الفقير في كتبه ورسائله ، وحققه تحقيقاً : أن معارج النبوة بمثابة البحر الخضم ، وكمالات الولاية إزاءها كقطرة حقيرة ، ولكن عجباً من جماعة قالت : ـ لعدم وصولها إلى إدراك معارج النبوة ـ « إن الولاية أفضل من النبوة » وأوَّلَ ذلك فريق آخر ، فقال « إن ولاية النبي أفضل من نبوته » ، كلا الفريقين بجهلهما بحقيقة النبوة أصدروا حكمهم على الغائب ، ويقرب منه تفضيلهم السكر على الصحو ، فلو كانوا يدرون حقيقة الصحو لما رضوا للسكر بأن يعدل بالصحو ، « اين الثرى من الثريا » ولعلهم قاسوا « صحو » الخاصة على صحو العامة ، ويقظتهم ، ففضلوا السكر عليه ، فكان عليهم أن يحكموا على سكر الخاصة بذلك ، قياساً لسكر الخاصة على سكرة العامة ، لأن الحكماء متفقون على أن الصحو أفضل من السكر ، وهذا الحكم نافذ في كلا الحالين، سواء كان الصحو والسكر مجازيين أو حقيقيين »[1] .

عظمة الأنبياء ورفعتهم بنبوتهم :

« ينبغي ان يعلم ـ حتماً ـ أن كل ما ناله الأنبياء من عظمة ، وعلو مكانة ، نالوه عن طريق النبوة ، لا عن طريق الولاية ، وليست الولاية بإزاء النبوة إلا خادماً من خدمها ، ولو كانت الولاية أفضل من النبوة لكان ملائكة الملأ الأعلى ـ الذين ولايتهم أكمل الولايات وأجلُّها ـ أفضل من الرسل والأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ ولما كان فريق منهم يعتقد أن الولاية أفضل من النبوة ، أدّاه ذلك إلى الاعتقاد ، بأن ولاية ملائكة الملأ الأعلى أكمل من ولاية الأنبياء ، وفضل ملائكة الملأ الأعلى ـ تبعاً لذلك ـ أفضل من الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ فشذّ عن جمهور أهل السنة

وأن كل ذلك نتيجة الجهل بحقيقة النبوة ، ومكانتها العظيمة ، ولما أن

---

(١) أيضاً .

الناس ـ لبعد عهدهم بالنبوة ، يحقرون فضائل النبوة ومدارجها إزاء مدارج الولاية وكمالها ، ويستهينون بها ، رأيت أن أتحدث عن هذا الموضوع بشرح وإسهاب ، وذكرت درةً من الحقائق وواقع الحال »[1] .

﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾

الإيمان بالغيب نعمة خُصَّ بها الأنبياء
وصحابتهم والعلماء ، وعامة المؤمنين

« بعد الحمد لله ، والصلاة على النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ليعلمهم أخي وعزيزي محب الله أن الإيمان بواجب الوجود ـ تعالى شأنه ـ والإيمان بجميع صفاته بالغيب ، مما خص به الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وصحابتهم ـ رضي الله عنهم ـ والأولياء والذين ينزلون نزولاً تاماً كاملاً لدعوة الخلق إلى الخالق ـ جل ذكره ـ ونسبتهم إلى الأنبياء كنسبة الصحابة إليهم ، بيد أنهم أقل منهم شأناً ودونهم مكاناً ـ كما خص له العلماء وعامة المؤمنين ، أما الإيمان بالشهود فنصيب الصوفية ، سواء كانوا من أصحاب العزلة (المنقطعين عن الخلق) أو أصحاب العشرة (المتصلين بالخلق) لأن أصحاب العشرة وإن كانوا ينزلون إلى الناس بعد الانقطاع إلى الحق ، ولكن لا يكون نزولهم كاملاً تاماً ، إذ أن باطنهم يبقى معلقاً بالعلو ، وهم بظواهرهم مع الخلق ، وببواطنهم مع الحق ، ولذلك يرافقهم الإيمان بالشهود ـ دائماً ـ أما الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ فلما أنهم ينزلون نزولاً تاماً ، إذ أن باطنهم يبقى معلقاً بالعلو، وهم بظواهرهم مع الخلق ، وببواطنهم مع الحق ، ولذلك يرافقهم الإيمان بالشهود ـ دائماً ـ أما الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ فلما أنهم ينزلون نزولاً تاماً ، ويصرفون كل عنايتهم ـ ظاهراً وباطناً ـ

---

(١) الرسالة رقم : ٢٦٨ ، المجموعة الأولى كتبها الى خانخانان

بالدعوة إلى الحق ـ جل اسمه ـ فيكون الإيمان بالغيب نصيبهم ، ويخصون به دون الصوفية »[1].

نزول الأنبياء دليل على بلوغهم نهاية النهايات :

« لقد أثبت هذا الفقير إلى الله ، في بعض رسائله أن التعلق بالعلو بعد النزول ، والحنين إليه ، دليل على النقص والقصور ، وعلامة على عدم الوصول إلى الغاية المبتغاة ، وأن النزول التام الكامل دليل على بلوغ نهاية النهايات وغاية الغايات ، وقد ظن الصوفية الجمع بينهما (أي التوجه إلى الحق ، والتوجه إلى الخلق) كمالاً ، وعدّوا الموفقين بين التشبيه والتنزيه ، والجامعين بينهما من الكاملين فأين نحن من هؤلاء ! »[2] .

حماية الشريعة الإسلامية والدفاع عنها وإصلاح العقائد ، ودحض الشرك ، وتقاليد الجاهلية :

إن منهج العلاقة مع الله ـ تعالى ـ وتقوية الصلة به ، وتقويمها والصيانة عن الغفلة والمادية ، ومعالجة الأدواء النفسية ، والأمراض الروحية ، الذي سمي ـ على مر الأيام ـ لعوامل وأسباب عديدة ـ بالتصوف ، هو الذي يدعى في المصطلح القرآني بـ « التزكية » وفي التعبير الحديثي ، بـ « الإحسان » ، وقد اعتبرت هذه الشعبة من شعب الدين من مقاصد البعثة المحمدية الأربعة التي صرح بها القرآن الحكيم :

« هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين »[3].

وقد كانت هذه المهمة العظيمة لإقامة الدين قلباً وقالباً ، وجسماً وروحاً .

---

(١) الرسالة رقم : ٢٨٢ ، المجموعة الأولى وهي موجهة الى السيد محب الله المانكبوري .
(٢) أيضاً .
(٣) سورة الجمعة ٢

وقانوناً وعاطفة ، منوطة بخاتم النبيين ـ عليه الصلاة والتسليم ـ ثم بخلفائه الراشدين ، والوارثين لميراثهم بحق وجدارة ، وقد قام هؤلاء بتجديد هذا « الطب النبوي » والحفاظ عليه ، ونقله إلى الأجيال تلو الأجيال ، مثل حفاظهم على الشريعة الغراء ، واستمرّوا يبذلون الجهود في نشر « فقه الباطن » والدعوة إليه ، مع نشر « فقه الظاهر » وأدائه وتبليغه ، وقد كان عملهم هذا بإجمال أكثر منه ، بالتفصيل ، وعلى أساس الاهتمام بالأصول أكثر منه بالفروع ، ولكن لما توسعت الرقعة الإسلامية ، وانداحت دائرة الفتوح والانتصارات ، ودخلت بلاد جديدة في الإسلام ، وانتشرت الدعوة الإسلامية في الآفاق ، وانهالت الأموال والثروات ، وتيسرت سبل العيش ، وتوفرت وسائل الترف والبذخ ، وبعد عهدهم بالنبوة ، وصدق عليهم قول ربك :

﴿ فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾ ومدت حبائل الشيطان ، ونجمت فتن المادية ، والأمراض الروحية ، والأدواء النفسية في صور وألوان ، وفي ثياب النظريات الجديدة ، والفلسفات الوليدة ، قام العلماء بتدوين علم التزكية والإحسان باصطلاح حادث جديد ، ألا وهو « التصوف » كما أن اختلاط الشعوب العجمية حول قواعد اللغة (النحو والصرف) وفن المعاني والبيان ـ الذي كان أهل اللسان يعرفون أصوله ومباديه بسليقتهم وفطرتهم ـ إلى علم واسع دقيق ، وهو ما يسمى بعلم النحو والبلاغة ، وظهر فيهما نوابغ العلماء البارعين الذين انشأوا « مدارس » مستقلة ، و « جامعات » شهيرة ، ووضعت لها المناهج الدراسية ، وقصدها هواة العلم والطلاب من كل حدب وصوب .

لقد كانت عمدة هذه الطريقة لمعالجة الأمراض الروحية (أي التصوف والتزكية) على تتبع الكتاب والسنة ، وسيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخلاقه وعاداته وشمائله ، ثم بدأت تغزو التصوف ـ نتيجة عوامل الزمن ، والاختلاط بالشعوب العجمية ، والتي دخلت حديثاً في الإسلام ، وصحبة النُسّاك

والزهاد ، وإجلالهم والعقيدة فيهم - البدع والخرافات ، والمغالاة في التنسك والزهد ، وتسربت إليه جراثيم الرهبنة ، والتجرد ، والاعتزال ، والتعظيم المفرط المتطرف لأشخاص ورجال يعتقد فيهم الصلاح والولاية ، وكثير من العادات والتقاليد المختلفة المفتراة ، حتى دبّت على مرّ الأيام إلى بعض الأوساط الروحية عقيدة أجنبية دخيلة على الإسلام ، وهي أن السالك بعد الاستغراق في العبادات بإخلاص ودقة ، واستيعاب ، والتزام الفرائض ، والسنن لمدة خاصة ، وبعد حصول المعرفة الكاملة يرتقي إلى مقام يرفع عنه فيه التكليف ، وتسقط عن ذمته الفرائض الشرعية ، والعبادات المكتوبات ، يستثنى من التزام كل ذلك والتقيد به » ، وهذا ما يسمى بـ « سقوط التكاليف » ، ويستدل أصحاب هذه العقيدة بقوله - تعالى - : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين[1] ﴾ إنها كانت فتنة عمياء ، صماء تجمد نظام الشريعة بأسره ، وتحرر السالك من كل القيود والحدود ، وتطلق رقبته من نير العبادات والقربات .

ويبدو أن هذه المحدثات والتحريفات في الإسلام بدأت من أوائل القرن الرابع حين كانت الخلافة العباسية في أوج زهرتها ، وعنفوان شبابها ، وكانت المدينة الإسلامية العظيمة (بغداد) في ذروة الرقي والمدنية ، فإن أقدم ما ألف في التصوف ، مما طبع ونشر هو تأليف الشيخ أبي النصر السراج (م ٣٧٨ هـ) « كتاب اللمع » وفيه فصل بعنوان « كتاب الأسوة والاقتداء برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - »[2]، ولعله لأجل ذلك وردت بعده في كتاب « كشف المحجوب » للسيد علي الهجويري (م ٤٦٥ هـ)[3] ، مثل هذه العبارات المنذرة المذكرة ، « إن إقامة الحقيقة من غير الحفاظ على الشريعة محال ، والحقيقة بغير الشريعة نفاق » .

وأقدم كتاب يضم منهجاً كاملاً للتصوف هو « الرسالة القشيرية » تأليف

---

(١) سورة الحجر - ٩٩ ، والمراد باليقين هنا باتفاق المفسرين الموت .

(٢) كتاب اللمع ، ص ٩٣ - ١٠٤ ، طبعة لندن ١٩١٤ م .

(٣) هو الامام أبو الحسن علي بن عثمان أبي علي الجلابي ، وقبره بلاهور .

الإمام أبي القاسم القشيري (م ٤٦٥ هـ) ، وقد بلغ التصوف في عصره من التردي والانحطاط حتى قال القشيري في كتابه :

وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، فعدُّوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة . . . واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة »[1]

والباب الأول في كتابه يتعلق بتعظيم حرمة الشريعة ، وقد ذكر فيه نبذة من أحوال المشايخ والصوفية ، وأخبارهم في تعظيم حرمة الشريعة ، واتباع السنة النبوية ، ويقول في الباب الأخير ـ رقم ٥٤ ـ بعنوان « وصية المريدين » :

« بناء هذا الأمر وملاكه على حفظ آداب الشريعة » ، والكتاب كله يحتوي على الحقائق الشرعية والعلوم الصحيحة النافعة ، وقد اهتم به الصوفية المحققون ككتاب دراسي يوثق به ويعتمد عليه .

والإمام عبد القادر الجيلاني البغدادي أجلُّ مشايخ الطريقة ، وأئمة الحقيقة شأناً وأشدهم تحمساً للشريعة ، وحماية لها والدعوة إليها ، فقد كان أكبر تركيز في تعاليمه وإرشاداته على التمسك بالسنة واتباع الشريعة ، وكانت حياته كلها ترجمة حية لهذه الدعوة وصورة جلية لهذا المنهج ، وقد ربط بتأليف كتابه العظيم « غُنية الطالبين » ناصية الطريقة بأذيال الشريعة ، وتختص الموعظة الثانية من كتابه « فتوح الغيب » المشتمل على خطبه ومواعظه . باتباع السنة ونبذ البدعة ! ويبدؤها بقوله : « اتبعوا ولا تبتدعوا » .

إنه يتبوأ مكانة المجدد في إخضاع الطريقة للشريعة ، واستخدامها لزيادة التمسك بالشريعة ، ويرشد إلى الاشتغال بالفرائض أولاً ، ثم بالسنن ثانياً ، ثم بالتطوع ثالثاً ، ويصرح بأن الاشتغال بالثاني بترك الأول ، سفاهة ورعونة .

وإن أكثر كتب التصوف قبولاً ورواجاً ، وأوثقها عند الصوفية وأفضلها هو

(١) الرسالة القشيرية ، ص ١ ، طبعة مصر .

كتاب « عوارف المعارف » للشيخ شهاب الدين السهروردي (م٦٣٢ هـ) الذي تمسك به الصوفية ، ورددوه في كل عصر ومصر ، وكان يدرس في كثير من الزوايا والرباطات ، ويتعلق الجزء الثاني من هذا الكتاب ببيان أسرار أركان الشريعة الإسلامية وآدابها وتوصل الشيخ فيه إلى هذه النتيجة : « إن التصوف عبارة عن الاقتداء بالرسول ـ ﷺ ـ قولاً وعملاً وحالاً ، وبالمواظبة عليه تتقدس نفوس الصوفية ، وترتفع الحجب ، ويتحقق الاتباع للرسول ـ ﷺ ـ في كل شيء »[1].

وتحول التصوف في القرن التاسع الهجري بتأثير الشيخ محيي الدين بن عربي الأندلسي الطائي (م ٦٣٨ هـ) وتلامذته ـ وكان تأثيراً قوياً انتشر في العالم الإسلامي كالتيار المندفع السريع ـ إلى فلسفة انطوت على كثير من مصطلحات الفلسفة الإلهية اليونانية ، وقضاياها المتشعبة ، وأصبحت نظرية « وحدة الوجود » ، شعار الصوفية ، يعتزون بها ويفتخرون ، وتحمست لها الزوايا والتكايا ، والمدارس ، وحلقات العلم ، وظلت الرباطات والزوايا الصوفية ـ لقلة الاشتغال بالكتاب والسنة ، والجهل بعلم الحديث الشريف ، وقلة وجود الصحاح والكتب المعتمد عليها عند أهل الصناعة ؛ مرتع العقائد والأفكار التي لا دليل عليها ، ولا سند لها ، في مصادر الدين الأصلية ، ولم يكن يعرفها مسلمو القرون الأولى ، على الإطلاق .

وهنا في الهند ـ التي كانت منذ آلاف السنين مركز اليوك ، والتنسك والرهبانية ـ واجه الصوفية الواردين من الخارج اليوكيين المحنكين المرتاضين الذين كانوا ضاعفوا قوة نفوسهم ، ومتخيلتهم عن طريق حبس الأنفاس ، والتأملات اليوكية المعروفة لديهم ، فتعلم بعض المتصوفة المسلمين منهم هذا الفن[1] ، ويمكن

---

(١) عوارف المعارف ، ص ١

(١) هذا في جانب ، وفي الجانب الآخر كانت هذه البلاد لا تعرف شيئاً عن الصحاح الستة ، ومؤلفيها ، وأئمة هذا الفن الذين نقدوا علم الحديث ونخلوه ، وميزوا بين صحيحها وسقيمها ، وقاوموا البدع

الاطلاع على هذا التأثير الذي خلفته الفلسفات والتجارب المحلية في الهند على التصوف من خلال كتاب « جواهر خمسة » للشيخ محمد غوث الكوالياري ، الذي ذاع صيته في عصره ، وحصل له القبول العظيم عند الناس ، والكتاب يشتمل على أقوال الصوفية ، وتجارب الشيخ الكوالياري الشخصية ويخيل إلينا أنهم لم يروا حاجة إلى ثبوت هذه الأمور بالأحاديث الصحيحة ، واقتباسها من كتب السيرة النبوية المعتبرة، فتجد في هذا الكتاب المذكور ـ آنفاً « صلاة الأحزاب » و « صلاة العاشقين » و « صلاة تنوير القبر » ، والصلوات المخصوصة للأشهر المختلفة والأدعية الخاصة بها ، التي لا أصل لها في السنة ، ولا أثر لها في الحديث ، وقد جمع المؤلف (الشيخ الكوالياري) في « الجوهر الثاني » ـ حسب تقسيمه للكتاب ـ « الأسماء الأكبرية » التي تحتوي فيما تحتوي على أسماء الملآئكة باللغتين العبرانية والسريانية ، وقدمت بحروف النداء ، وهذا يدل على الاستعانة بغير الله ، وذكر فيها دعاء باسم « دعاء بشمخ » الذي ذكرت فيه الأسماء السريانية والعبرانية مقدمة بحروف النداء والكتاب كله مؤسس على الدعوة إلى الأسماء ، ويعتقد أن لهذه الأسماء حفظة موكلين يعرفون حقيقتها وماهيتها ، وذكرت حروف الهجاء ، وأسماء الموكلين بها أيضاً ، وفيه دعاء بهذه الصيغة « ناد عليّا مظهر العجائب » .

لقد بدأ عمل الإمام السرهندي التجديدي في هذا العصر الذي امتاز بهذا الخليط الغريب من السنة والبدعة ، والشريعة والفلسفة ، والتصوف الإسلامي واليوك ويقول هو نفسه في رسالة وجهها إلى ابن شيخه محمد عبد الله ، وهو يصور هذا الوضع المكفهر :

« لقد كثرت البدع والمحدثات في هذه الأيام كثرة فاحشة ، حتى ليخيل

والمحدثات ، واثبتوا ان حياة المسلمين يجب ان تقوم على أساس السنة المطهرة ، وفي ضوء الأحاديث الصحيحة ونستثني من ذلك ولاية كجرات ، التي انتشر فيها علم الحديث لنزول العلماء العرب بها ، وكثرة الرحلات منها إلى الحرمين الشريفين ، ونبغ فيها العلامة علي المتقي البرهان بوري ، وتلميذه النحيب المعروف العلامة محمد طاهر الفتني .

للناظر ، أن بحراً من الظلمات تتلاطم أمواجه ، وأن نور السنة في هذا البحر الهائج المائج يتلألأ تلألؤ يراعات منتشرة في ظلمة الليل البهيم » .

رفع الإمام السرهندي صوته مجلجلاً مدوياً ـ في هذه الفترة الخطيرة الحرجة في الهند ، إذ كانت شأفة الإسلام تستأصل بأيدي الدولة التي تتسمى بالإسلام ، ويستهان في الزوايا ـ الصوفية بالسنة النبوية ، ويقال ـ علناً وجهاراً . إن الطريقة في واد ، والشريعة في واد ، لكل منهما طريقه وتقاليده ، وأصوله ، أما طالب الحق الذي يريد معرفة الحق ، فيسأل المشايخ عن الدليل الشرعي ، فكان جوابه « هذا واد ليس زاد المسافر فيه إلا التقليد والانقياد المطلق للشيخ الحكيم ، ولو أمره بإتيان محرم ومحظور في الشرع » .

في هذا الجو القاتم أعلن الإمام السرهندي في قوة وجراءة ، « أن الطريقة من خدم الشريعة ، خاضعة لأمرها ، وأن محاسن الشريعة أعلى وأرفع من « المقامات ، والأحوال ، والمشاهدات » وأن العمل بحكم شرعي واحد أنفع من مجاهدة آلاف السنين ، وأن القيلولة اتباعاً للسنة ، أفضل من إحياء الليل من غير اتباع السنة ، ولا اعتداد بأعمال الصوفية في الحل والحرمة ، بل الحاجة إلى دليل من الكتاب والسنة ، وكتب الفقه ، وأن رياضات أهل الضلال ، ومجاهداتهم لا تستوجب القرب ، بل تستحق البعد والطرد ، وأن الأشكال ، والصور الغيبية من قبيل اللهو واللعب ، ولا يسقط التكليف الشرعي أبداً .

وأقرأ ـ بعد هذا التمهيد ـ مقتبسات من رسائل الإمام التي تشتمل على بيان هذه الحقائق :

« إن الشريعة متكفلة بجميع السعادات الدنيوية والأخروية ، وليس هناك مقصد نحتاج في تحقيقه وإنجازه إلى شيء غير الشريعة ، وأن ما يمتاز به الصوفية من « الطريقة والحقيقة » كلتاهما خادمتان للشريعة تساعدان في تحصيل الإخلاص

وصفاء النية ، وهكذا فإن الهدف من وراء تحصيل الطريقة والحقيقة ، ليس إلا تطبيق الشريعة ، بروحها وحقيقتها ، لا ما هو خارج عن نطاق الشريعة ، أما الأحوال والمواجيد ، والعلوم ، والمعارف التي تقع في طريق السالك لا علاقة لها بالمقاصد ، بل إنها أشكال وألوان ، وأخيلة و « لعب تربى بها أطفال الطريقة » وينبغي الوصول مروراً بهذه الأشياء إلى مقام الرضا ، الذي هو نهاية السلوك والمواجيد والمقامات »[1] .

ويقول في هذه الرسالة أيضاً :

« يظن قصار النظر أن الأحوال والمواجيد من المقاصد والغايات ، وأن المشاهدات والتجليات من المطلوبات ، ويستلزم ذلك حبسهم في سجن الوهم والخيال ، والحرمان من فضائل الشريعة ومدارجها العظيمة :

« كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدي إليه من ينيب »[2] .

ويقول في رسالة أخرى ، مبيناً تقديم الفرائض على النوافل ، وترجيحاً عليها :

« إن ما يتقرب به إلى الله من الأعمال ، هي إما فرائض وإما تطوعات ، وليس للتطوعات أي قيمة إزاء الفرائض ، وأن أداء فريضة في وقتها أفضل من تطوع ألف سنة ،ولو كان بنية خالصة[3] .

ويقول في رسالة لبيان أن العمل بأحكام الشريعة بغية إصلاح النفس وإزالة الأمراض الباطنية أنفع من آلاف الرياضات والمجاهدات :

---

(١) الرسالة رقم : ٣٦ ، المجموعة الأولى وهي موجهة الى الشيخ حاجي محمد اللاهوري .
(٢) أيضاً .
(٣) الرسالة رقم · ٢٩ ، المجموعة الأولى ، وهي موجهة الى الشيخ نظام التهانيسري .

« إن العمل بالأحكام الشرعية بغية إزالة الأهواء النفسانية أعظم نفعاً وتأثيراً من رياضات ألف سنة ، ومجاهداتها التي يضعها السالك من تلقاء نفسه ، بل هذه الرياضات والمجاهدات التي لا توافق مقتضيات الشريعة الغراء ، تزيد في شدة الأهواء والأمراض النفسانية صرامتها ، فإن البراهمة واليوكيين لم يدخروا وسعاً في الرياضات والمجاهدات الشاقة ، ولم تجدهما فتيلاً ، ولم تزدهما إلاّ عتواً وضلالاً » .

ويقول في رسالة أخرى مبيناً أهمية محاسن الشريعة وفضلها :

« إن أكثر الناس - في هذه الدنيا ! فرحون بتخيلاتهم ورؤاهم ومقتصرون على اللوز والجوز ، ما يُدريهم بمحاسن الشريعة وفضائلها ، وحقيقة الطريقة وأصلها ؟ ، إنهم يرون الشريعة قشرة ، والطريقة لباباً ، ولا يدرون الحقيقة ، مخدوعين بشطحات الصوفية ، وأقوالهم السطحية ، مفتونين بأحوالهم ومقاماتهم »[1] .

ويقول في رسالة لبيان فضيلة العمل بسنة واحدة وأهميته :

« الفضيلة مرتبطة باتباع السنة السنية ، والشرف قائم على العمل بالشريعة فالقيلولة - مثلاً - بنية اتباع السُّنة أفضل من إحياء الليل مئات الآلاف من المرات ، وأداء فلس واحد من الزكاة أفضل من إنفاق جبال الذهب تطوعاً وتصدقاً »[2]

ويقول في رسالة أخرى :

« يعتقد الصوفية الناقصون أن الذكر والفكر ، أهم المهمات ، ويتكاسلون عن أداء السنن والفرائض ، ويفضلون الرياضات والأربعينيات على الجمعة

---

(١) الرسالة رقم : ٤٠ ، المجموعة الأولى ، كتبها الى الشيخ محمد الجتري .
(٢) الرسالة رقم : ١١٤ ، المجموعة الأولى ، وهي موجهة الى الصوفي قربان .

والجماعات ، ولا يدرون أن أداء صلاة واحدة مع الجماعة أفضل من الاف الأربعينيات التي يعتكفون فيها ، أما إذا كان الذكر والفكر مع مراعاة الآداب الشرعية فهما من أفضل الأعمال والقربات ، وكذلك العلماء الناقصون ؛ يجتهدون في نشر النوافل والتطوعات ، والدعوة إليها ، ويضيعون الفرائض ويفسدونها »[1] .

ويكتب إلى الشيخ مير محمد نعمان ، فيقول :

« هناك فريق من هؤلاء الصوفية لم يقدر له أن يعرف حقيقة الصلاة وفضائلها الخاصة ، فيبحث عن علاج أمراضه الروحية في أشياء أخرى ، ويظن أن أهدافه ومقاصده مرتبطة بأمور أخرى ، بل إن منهم فريقاً لا يرى فائدة في الصلاة ويحملها على « الغيرية » والأجنبية ، ويفضل عليها الصوم ، إذ تتجلى فيه صفة « الصمدية » والكثرة الكاثرة من هؤلاء الصوفية تجد طمأنينتها وسلواها في الأغاني والنغمات ، والوجد والتواجد ، وتحسب الرقص منقبة وكمالاً ، ألم يسمعوا قول الرسول - ﷺ - « ما جعل الله في الحرام شفاءً »[2] ، لو انكشفت عليهم ذرة من مكانة الصلاة وحقيقتها ما سرتهم الأغاني ، ولا أطربتهم الألحان ، ونسوا المواجيد والأذواق ، فلما لم يبصروا الحقيقة كما هي هاموا على وجوههم في الأساطير والخرافات »[3] .

ويشير في موضع إلى ذلك الصفاء الذي يحصل لنفوس المشركين والكفار والمنهكين في أعمال الفسق والفجور من الرياضيين اليوكيين ، فيقول :

« تنحصر التزكية الحقيقية في الأعمال الصالحة التي يرضاها الله - تعالى - ويتوقف ذلك على البعثة - كما تقدم - فلا تصفية ولا تزكية إلا بالبعثة وما يجده الكفار وأهل الفسق من الصفاء ، إنما هو صفاء النفس ، وليس صفاء القلب ولا يزيدها صفاء النفس إلا زيغاً وضلالاً ، ولا يهدي إلا إلى طريق الخيبة والخسران ، وما

---

(١) الرسالة رقم : ٢٦٠ ، المجموعة الأولى ، وهي موجهة الى ابنه الشيخ محمد صادق .

(٢) ورد من حديث الطبراني بسند صحيح عن أم سلمة مرفوعاً « ان الله تعالى لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم » وفي لفظ « ان الله لم يجعل شفاء أمتي في ما حرم عليها » .

(٣) الرسالة رقم : ٢٦١ ، المجموعة الأولى ، وهي موجهة الى الشيخ مير محمد نعمان .

يحصل لبعض الكفار والفسقة عند صفاء النفس من كشف بعض الأمور الغيبية ، فذلك استدراج ، وليس في حقهم إلا ضرراً وضياعاً ، وخسراناً مبيناً[1] .

ويقول رداً وتفنيداً لعقيدة سقوط التكاليف الشرعية عن ذمة السالك والعارف ، وتحرره من ربقة الفرائض والأحكام الشرعية ـ التي هي بمثابة متفجرات ألغام ، وضعت لنسف الشريعة الإسلامية بأسرها والقضاء عليها .

« يفكر المتصوفة المخدجون الناقصون والملحدون الضائعون في تحرير رقابهم من طوق الخضوع للشريعة الإسلامية وقصر الأحكام الشرعية على العوام من الناس ، ويعتقدون أن الخواص ليسوا بمكلفين إلا بالمعرفة ، كما أن الأمراء والسلاطين مكلفون بالعدل والقسط بين الناس فحسب ، ويقولون إن الغرض من العمل بالشريعة ليس إلا تحصيل المعرفة ، فإذا تحققت المعرفة سقطت التكاليف الشرعية ، ويستدلون بهذه الآية : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾[2] .

ويثبت في رسالة أن عمل الصوفية ليس بحجة في إباحة شيء أو حرمته ، فيقول :

« ليس عمل الصوفية حجة في الحرمة والإباحة ، ألا يكفي أن نعذرهم ونترك ملامهم ، ونكل أمرهم إلى الله ، والحجة في مثل ذلك قول الإمام أبي حنيفة والإمام أبي يوسف ، والإمام محمد مثلاً ، لا قول أبي بكر الشبلي ، وأبي الحسن النوري ، إن صوفية هذا العصر التافهين يتعللون ويستدلون بأعمال مشايخهم في الرقص ، والغناء ويتخذونها ديناً متبعاً ، وسنة مطاعة ، وظنوهما طاعة وعبادة ، ﴿ اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ﴾[3] .

وتحولت حماية الإمام السرهندي هذه للشريعة الإسلامية إلى حمية جياشة ، فإذا

---

(1) الرسالة رقم : ٢٦٦ ، المجموعة الأولى وهي موجهة الى الشيخ عبد الله والشيخ عبيد الله .

(2) الرسالة رقم : ٢٧٦ ، المجموعة الأولى ، وهي موجهة الى الشيخ بديع الدين .

(3) الرسالة رقم : ٢٦٦ ، المجموعة ، وقد تقدمت .

سمع شيئاً من تحقيقات الصوفية وأحوالهم ، مما يخالف الكتاب والسُنة ، وعقيدة جمهور الأمة ، أو يرى الاستدلال والاحتجاج بأحوال الصوفية أو أقوالهم ، أو أي كتاب من كتب التصوف ، تتحرك هذه الحمية في صدره ، ويغلي مرجله ، وينبض عرقه العمري ، وينبجس من قلمه السيال سيل عارم من الغيرة على السنة ، والذب عن الشريعة ، والرد على البدعة ، ذكر له بعض تلاميذه قولاً شاذاً ، موحشاً من أقوال الشيخ عبد الكبير اليمني ، فلم يتمالك الإمام زمامه ، وصدرت من قلمه ـ عفو الخاطر ـ هذه الكلمات :

« يا سيدي إن هذا الفقير لا يستطيع أن يصبر على هذه الأقوال ، إنه يتحرك عرقي الفاروقي ولا يترك مجالاً للتوجيه والتأويل ، سواء كان قائله الشيخ الكبير اليمني ، أو الشيخ الأكبر الشامي[1] ، نحن في حاجة إلى كلام محمد العربي ـ عليه وعلى آله الصلاة والسلام ـ لا كلام محيي الدين بن عربي ، ولا صدر الدين القونوي ، ولا الشيخ عبد الرزاق الكاشي ، نحن نريد النص ، لا الفص[2] ، وقد أغنتنا الفتوحات المدنية عن الفتوحات المكية »[3] .

ويقول مصرحاً بأن كل عمل يؤدي وفق الشريعة الغراء ، يندرج في الذكر :

« ينبغي صرف الأوقات كلها في ذكر الله ، وكل عمل وفق الشريعة الغراء داخل في الذكر ، وأمّا البيع والشراء فيجب الاهتمام في جميع الحركات والسكنات بالأحكام الشرعية ، حتى تصبح كلها ذكراً ، لأن الذكر عبارة عن إزالة الغفلة ، فإذا روعيت الأوامر والنواهي الشرعية في جميع الأعمال يتخلص العالم بذلك من الغفلة والنسيان لمن أمر بهذه الأعمال ، وهو الله الواحد الآمر والناهي ، وتحصل له نعمه المداومة على الذكر »[4] .

(١) أي الشيخ محي الدين بن عربي الذي توفي بدمشق ، ودفن فيها .
(٢) المراد بالنص ، النص الشرعي ، والمراد بالفص ، كتاب ابن عربي « فصوص الحكم » .
(٣) كتاب مشهور للشيخ ابن عربي ، الرسالة رقم : ١٠٠ ، المجموعة الثانية كتبها الى الشيخ ملا حسن الكشميري .
(٤) الرسالة رقم : ٢٥ للمجموعة الثانية ، وهي موجهة الى الشيخ خواجه محمد شرف الدين .

محاربة العقائد والتقاليد وشعائر أهل الجاهلية ، والدعوة إلى الدين الخالص :

لقد كان معين الإسلام الصافي في الهند ـ التي لم يزل أساس الإسلام فيها ضعيفاً ، لأسباب وعوامل تاريخية مختلفة ، وكانت موطن شعوب مشركة وديانات وثنية ـ تتسرب إليه المخلّفات والرواسب من الديانات السائدة ، وكان يخشى أن يغيب هذا الينبوع في الظلمات المتراكمة حتى يضل الخريت ، ويحار الدليل .

ولذلك لما بدأ الإمام السرهندي رحلته التجديدية ، وكانت أول خطوة خطاها على طريق الأنبياء ، وعلى نفس المنهج الذي سار عليه الرسل ، هي الخطوة نحو إصلاح العقائد ، وتصحيح الاتجاه ، فقد كان إباؤه عن سجدة التحية أمام السلطان جهانكير ، ورفضه لهذه البدعة الشنيعة عنواناً لامعاً في تاريخ إصلاحه وتجديده ، وقد تناول في رسائله التي وجهها إلى مختلف أصحابه وأتباعه بيان حقيقة التوحيد بأسلوب واضح مبين ، وعبارات موجزة جامعة رصينة ، وقدم الدلائل والبراهين على وحدانية الله ـ تعالى ـ وأنه هو المستحق للعبادة وحده ، بأسلوب يدل على رسوخه وعلو كعبه في هذا العلم ، وقام بدحض الشرك ومظاهره وتقاليده ، ونهى أصحابه وأتباعه نهياً شديداً عن الأعمال الشركية ، والعادات الجاهلية ، وتقليد الكفار ، من اليهود والنصارى والمشركين ، إذ أنه لا بداية لعمل الإصلاح والتجديد إلاّ به فضلاً عن نهايته وكماله .

وهنا مقتطفات من رسالة مسهبة كتبها إلى امرأة صالحة بايعته وتابت على يده ، وقد تضمنت هذه الرسالة الرد على عامة ما يُبتَلى به الجهلاء من المشركين خصوصاً النساء منهم ، يقول فيها :

تعظيم مظاهر الشرك والوثنية :

« إن تعظيم مظاهر الشرك ، وأعياد الجاهلية من أعظم أنواع الإشراك بالله ـ

عز وجل ـ وأن من يعتقد بصحة دينين وصلاحيتهما في وقت واحد ، فهو مشرك ، وأن من يعمل بأحكام الإسلام وأعمال الكفر والشرك ، فهو مشرك ، ولا يتم الإسلام إلاّ بالبراءة من الشرك ، ومحادّته ومعاداته ، وأن التوحيد هو الاشمئزاز والنفور من كل شائبة من شوائب الشرك » .

الاستعانة بغير الله :

ويقول رحمه الله : « إن الاستعانة بالطواغيت والأصنام في دفع الأمراض وشفاء الأسقام ـ التي راجت في المسلمين وعمّت في دَهْمائهم ـ عين الشرك والضلال وأن طلب قضاء الحاجات من الأحجار المنحوتة جحود صريح بالله ـ تعالى ـ وعين الكفر ، يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ مبيناً حال بعض الغواة الضالين :

﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ﴾ .

وإن كثيراً من النساء ـ لغاية جهلهن وضلالهن ـ يطلبن قضاء حوائجهن من غير الله ، ويسألن بأسماء ما أنزل بها من سلطان ، دفع البليات وكشف الكربات ، إنهن لأسيرات في أغلال الشرك وطقوسه وتقاليده .

سيتله :

وتتجلى هذه العقائد الشركية وتشاهد هذه الأعمال والتقاليد الجاهلية ـ بصفة خاصة ـ عندما ينتشر مرض الجدري (الذي يعرف في أوساط النساء في الهند باسم « سيتله »[1] ـ حيث تقع جميع النساء في الجهل المطبق ، والكفر الصريح ، ويأتين بأعمال شركية ، وقلما تجد امرأة تتقي دقائق هذا الشرك ، ولا تقدم على أي نوع من أنواع الشرك بهذه المناسبة ، اللهم إلا من عصم ربك » .

---

(١) اسم إلهة من الإلهات المفروضة المتخيلة عند وثني الهند ، يعتقدون إنها تسبب الجدري ، ولا يرتفع هذا الوباء ، ولا يشفي المريض الا اذا ارضيت هذه الإلهة بالنذور والقرابين .

تعظيم أعياد الكفار والمشركين وتقليد عاداتهم وطقوسهم :

« كذلك فإن تعظيم أعياد الهنادك ، والاحتفال بالأيام التي يقوم فيها الهنادك بتقاليدهم وطقوسهم ، يستلزم الشرك ويستوجب الكفر ، وإن الجهلة من المسلمين في أيام « ديوالي » - وهو عيد من أعياد الهنادك ، يوقدون فيه المصابيح وقامرون ، ويتبادلون الهدايا والتهاني - لا سيما نسائهم يقلدن الهنادك في عاداتهم وطقوسهم ، ويحتفلن بعيدهم ، ويتهادين فيما بينهن ، فيبعثن بالتحف والهدايا إلى أخواتهن وبناتهن مثل ما يفعل المشركون والمشركات ويلوّنّ أوانيهن بنفس الألوان التي تلوّن بها الكافرات ، ويملأنها « بالفيرني » الأحمر(٢) ، ثم يبعثنها هدايا ، ويحتفلن بهذه الأيام ، وهذا العيد ، احتفالاً كبيراً وكل ذلك شرك ، وكفر بدين الإسلام وجحود به » .

النذور وذبح القرابين للأولياء وللصالحين :

ويقول في هذه الرسالة : « وكذلك ينذرون الحيوانات للمشايخ والصالحين ، فيسوقونها إلى قبورهم ، ثم يذبحونها هناك ، وقد ورد في كتب الفقه ما يدل على أن هذا كذلك من الشرك ، وجاء فيه تشديد وتأكيد ، واعتبرت هذه الحيوانات التي تذبح على قبورهم كالذبائح التي تذبح باسم الجن التي كان المشركون يذبحونها خوفاً منهم وطمعا في نوالهم ، مما هو منهي عنه شرعا ، وداخل في الشرك ، فلا بد من اجتناب هذا العمل الذي تشم منه رائحة الشرك ، وإن للنذر طرقاً كثيرة وأشكالاً متعددة فما الذي يلزمهم بنذر الحيوانات ؟ حتى يتشبهوا بعملهم هذا بعُبّاد الجن لمشابهة ذبائحهم وقرابينهم ذبائح المشركين للجن » .

نذر الصيام للأولياء والصالحات :

« ويدخل في ذلك تلك الصيام التي تصومها النساء باسم المشايخ والأولياء

---

(٢) طبيخ الرز واللبن والسكر ، وهو مثل المهلبية .

والصالحات الزاهدات من النساء ، فكثيراً ما ينتحلن أسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، فينذرون الصيام لها ، ويخترن طريقة خاصة لكل صوم من هذه الصيام عند الإفطار ، ويحددن لها أياماً خاصة ، ويربطن قضاء حوائجهن ، وبلوغ مقصادهن بهذا الصيام ويسألن باسم هذا الصيام الأولياء الصالحين والنساء الصالحات أن تقضي حوائجهن ، ويعتقدن بأنهم يقضون خاجاتهن ، ويلبُون مطالبهن ، وذلك من الإشراك في العبادة ، والاستعانة بغير الله ـ تعالى ـ عن طريق العبادة لغير الله ـ عز وجل ـ فينبغي أن يعلم قبح هذه الأعمال وشناعتها ، وقد جاء في حديث قدسي : « يقول الله ـ عز وجل ـ « الصوم لي وأنا أجزي به » ، ومعنى ذلك أن عبادة الصوم لي خاصة ، لا يشركني فيها أحد ، ومعلوم أنه لا يجوز الإشراك إطلاقاً في أي نوع من أنواع العبادات إلا أن تخصيص الصوم هنا بذلك لأهمية هذه العبادة ، ولذلك جاء النفي للإشراك في هذه العبادة بتأكيد بليغ .

وإن من الحيل وخداع الشيطان أن بعض النساء (عندما يكشف لهن عن قبح هذه الأعمال الشنيعة) يقلن : إنما نصوم هذه الصيام لله تعالى ، ونهدي ثوابها إلى الأولياء ، فلو كن صادقات في قولهن ، لما التزمن من أنفسهن أياماً معينة ، وأطعمة خاصة ، ولما انتحلن العادات القبيحة ، والآداب المخترعة المحددة عند إفطارهن ، فإنهن لكثيراً ما يرتكبن عند الإفطار أموراً من المحرمات ، فيفطرن على حرام ، ويتكففن بدون ضرورة ، ويسألن عن غير حاجة ، فيفطرن بما يحصلن عليه عن طريق التكفف ، ويعتقدن بأنهن ـ بهذه الأعمال المحرمة ـ يقضين حوائجهن ، ويكملن مطالبهن ، وذلك عين الضلال وخداع إبليس اللعين ولا عاصم إلاّ الله[1] » .

النهي عن سجدة التحية :

وهناك عدد من رسائل الإمام القوية الواضحة في النهي عن سجدة التحية ،

(١) الرسالة رقم ٤١ ، ج ٣ ، كتبها الى احدى الصالحات .

نذكر بعض مقتطفاتها فيما يلي

« إنه لا يليق بالسلاطين العظام إلا التواضع أمام ربهم - عز وجل - والنظر إلى عجزهم وضعفهم ، وأن لا يسمحوا - أبداً - بهذا الذل ، وغاية الخضوع إلاّ لله - تعالى - وقد سخر الله لهم البلاد وأحوج إليهم العباد ، فعليهم أن يشكروا هذه النعمة الجسيمة ، ويخصوا هذا النوع من الخضوع والذل والاستكانة لحضرة ذي الجلال والجبروت ، ولا يجوز الإشراك به في ذلك ، وإن كانت طائفة من الفقهاء رأت جواز ذلك[1] ، ولكن ينبغي لهؤلاء السلاطين - بتحليهم بالتواضع والأدب أن لا يبيحوا ذلك لأحد ، وذلك لقول الله - عز وجل - ﴿ هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان ﴾ .

ويقول في رسالة إلى الشيخ نظام التهانيسري :

« ذكر لي الناس أن أصحاب بعض خلفائك يسجدون له سجدة التحية ، ولا يكتفون بالانحناءة المعتادة للتحية (عند المبتدعين) ألا إن قبح هذا العمل وشناعته أظهر من الشمس ، فانههم عن ذلك ، وأكد عليهم النهي ، وشدد النكير ، إن الاجتناب عن هذه الأفعال مطلوب من جميع الناس لا سيما من شخص قد نصب نفسه ليكون قدوة لغيره ، فاجتنابه مثل هذه الأفعال القبيحة من أشد ضروريات الدين ، إذ أن أتباعه يقتدون به ، ويقتفون أثره ، فيقعون في هذه الأحابيل والويلات »[2] .

وكان هذا هو العمل التجديدي العظيم لإصلاح العقائد الفاسدة ، والرد على الشرك والبدعة ، والدعوة إلى الدين الخالص ، الذي بدأه الإمام السرهندي على أرض الهند - التي كانت الأقلية المسلمة فيها تواجه خطر الجاهلية المشركة بصفة دائمة ، لإحاطة الأكثرية المشركة بها ، وقرب عهد البلاد بالإسلام - ووسّعه وأكمله -

---

(١) لم نطلع على من اباح ذلك ، ولو ثبت حمل على الشذوذ والمنكر من القول

(٢) الرسالة رقم ٢٩ ، ج ٢ . كتبها الى الشيخ نظام التهانيسري .

فيما بعد ـ مشايخ سلسلته الكبار ، مثل حكيم الإسلام الإمام ولي الله الدهلوي ، وأفراد أسرته[1] ، إلى الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، وكان ذلك عن طريق الخطابة والكتابة ، والرسائل والمؤلفات ، وترجمة معاني القرآن ، والأحاديث النبوية والجولات الدعوية الواسعة ، والحركة الجهادية العظيمة[2].

نشر السنّة والرد على « البدعة الحسنة » :

تعرف البدعة بأنها إدخال شيء في الدين لم يدخله الله ورسوله فيه ، ولم يأمرا به ، واعتقاد أنه جزء من الدين ، يعمل به احتساباً ، والتزام آدابه ، وشروطه المزعومة ، كالتزام الحكم الشرعي ، والبدعة شريعة وضعية إزاء شريعة إلهية ، ولها فقهها المستقل ، وفرائضها وواجباتها ، وسننها ، ومندوباتها التي تقف نداً للشريعة الإلهية حيناً ، وتفوقها أهمية وعظمة حيناً آخر .

وتغض البدعة طرفها عن حقيقة ناصعة ، وهي أن الدين قد أكمل ، وأن الشريعة قد ختم عليها ، فما كان ينبغي أن يتقرر ، تقرّر ، وما كان ليتعين فرضاً أو واجباً ، تعينّ فرضاً أو واجباً ، وأغلقت « دار الضرب » للدين ، فأي عملة جديدة تنسب إليه ، لا تكون إلاّ مزورة مزيفة ، وما أحسن ما قال الإمام مالك ـ رحمه الله : ـ

« من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ـ ﷺ ـ خان الرسالة ، فإن الله سبحانه ـ يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم » فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً » .

وإن من خصائص الشريعة المنزلة من الله ـ عز وجل ـ أن تكون سمحة سهلة ، صالحة للعمل والتطبيق في كل عصر ومصر ، لأن من شرع هذا الدين هو

---

(١) على رأسهم وفي مقدمتهم حفيده الشهير العلامة محمد اسماعيل الشهيد (١٢٤٦) .

(٢) راجع للتفصيل كتاب المؤلف « اذا هبّت ريح الايمان » ، ورسالته « الامامُ الذي لم يوفَّ حقه من الإنصاف والاعتراف »

الذي خلق الناس ، فهو الذي يعرف ضروراتهم وحاجاتهم ، وطبائعهم ، وطاقاتهم ومواضع ضعفهم وعجزهم : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[1] .

ولأجل ذلك لوحظت مراعاة هذه الأمور كلها في التشريع الإلهي ، ولكن إذا اتخذ الإنسان نفسه شارعاً فلا سبيل إلى مراعاة هذه الجوانب المتعددة ، وكلما تختلط البدع والمحدثات بالدين ، وتجري تعديلات وإضافات بشرية فيه ، يزداد الدين عسراً وضيقاً وتعقداً ، حتى يضطر الناس إلى أن يخلعوا ربقة الدين من رقابهم يحرموا هذه النعمة المتحققة في رفع الحرج ، ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ ، ويمكن أن تلاحظ أمثلة ما نقول في تلك الفهارس الطويلة للطقوس والعبادات ، والفرائض والسنن المحدثة التي عملت فيها البدع عملها بكل حرية وانطلاق .

ومن خصائص الدين والشريعة الإسلامية الانسجام التام ، والوحدة العالمية ، فلا يتغيران ، ولا يتفرقان في عصر وزمان ، فلو سافر مسلم من بقعة في العالم الإنساني إلى بقعة أخرى ، لا يلقى أي صعوبة وحرج في العمل بالدين ، وتطبيق الشريعة ، ولا يحتاج إلى منهج مخصص ، أو دليل محلي ، أما البدع فلا توافق فيها ولا انسجام ، فهي تصهر في بوتقة محلية في كل مكان ، وتضرب في دار الضرب لمدينة ما من المدن ، أو بلد من البلدان ، وتكون نتاج العوامل التاريخية المحلية الخاصة ، والمصالح الشخصية ، والأغراض الفردية الخاصة ، فتختص بدع كل بلد من البلدان ، بهذا البلد نفسه ، بل بدع كل ولاية ، وكل مدينة وخرافاتها ، بل بدع كل حي من الأحياء ، وكل بيت من البيوت ، وأباطيلها وخرافاتها ، تختص بها نفسها ، ينتج من كل ذلك دين متعارض يصطدم بعضه ببعض في كل قرية وبلد ، وكل حي ومنزل .

لهذه المصالح الشاملة الخالدة التي نعلم بعضها ولا نحيط بها ، نهى الرسول ـ

---

١) سورة الملك ـ ١٤ .

ﷺ - من اقتراب البدع ، وأمرهم باجتناب كل المحدثات في الدين ، والحفاظ على السنة ، والتمسك بها ، يقول - عليه الصلاة والسلام - :

« من أحدث في أمرنا هذا ، ما ليس منه فهو رد »[1] ، « إياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة »[2] .

وتنبأ بهذه النبوءة الحكيمة : « ما أحدث قوم بدعة إلا رفع بها مثلها من السنة » .

وقد عارض الصحابة - رضي الله عنهم - وأئمة الدين ، وفقهاء المسلمين ، وجميع المجددين والمصلحين ، والعلماء الربانيين في عصورهم ، محدثات زمانهم والبدع الناشئة فيه معارضة عنيفة قوية ، وبذلوا جهد طاقتهم في الحيلولة دون رواج هذه البدع ، والمحدثات وتأثيرها في المجتمعات الإسلامية ، والأوساط الدينية ، وقد صور القرآن الحكيم ما يوجد في هذه البدع والمحدثات - في كل عصر - من جاذبية مغناطيسية ، وما ترتبط بها من أغراض أبناء الدنيا ، والمحترفين بالدين ، ومصالح الفرق الدينية المغرضة الشخصية ، ومنافعها الذاتية ، في أسلوب المعجز الحكيم :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدّون عن سبيل الله ﴾[3] .

ولقي هؤلاء الدعاة والمصلحون ، والمجددون في سبيل ذلك من الأذى ، والاضطهاد ، ما لقوا ، ولكنهم لم يبالوا بما أوذوا به في سبيل الله ، واعتقدوا أن عملهم هذا جهاد الساعة ، والمهمة الدينية المقدسة لصيانة الشريعة الغراء والدين الخالص من التحريف ، والتزوير ، وقد لقب هؤلاء المعارضين للبدع والمحدثات ، والحاملين لراية السنة ، والشريعة المطهرة ، مخالفوهم من العامة ، أو الخاصة الذين

(١) متفق عليه .
(٢) رواه أحمد وأبو داود (نقلاً عن مشكاة المصابيح ، باب الاعتصام بالكتاب والسنة) .
(٣) سورة التوبة - ٣٤ .

لا يمتازون عن العامة بألقاب تشبه ألقاب الكفار من قريش للمسلمين كالصابئة والمارقة[1] وأعداء الدين ، فلم يعيروها أي اهتمام فقضوا بجهادهم وكفاحهم بالقلم واللسان ، وإثبات الحق ، وإبطال الباطل على كثير من البدع ومحدثات الأمور ، التي لا نجد لها الآن ذكراً إلاَّ في بعض كتب التاريخ ، وما بقي منها ، لم يزل يكافحها العلماء الربانيون، ولا يزالون يحاربونها ، ويقضون عليها :

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً ﴾[2] .

وقد كانت أكبر مغالطة في هذا الصدد ،و مغالطة البدعة الحسنة ، فَكَأَنَّ الناس قسموا البدعة قسمين : البدعة السيئة ، والبدعة الحسنة ، وكانوا يقولون : إنه ليس كل بدعة سيئة ، فكثير من البدع حسنة ، استنثيت من إطلاق حديث : « كل بدعة ضلالة »[3] .

إن ما قام به الإمام السرهندي من معارضة شديدة ، واستنكار قوي ، لهذا التقسيم ، المحدث للبدعة الحسنة ، والبدعة السيئة ، في ثقة وقوة واعتماد ، وبأسلوب علمي ، واستدلال موضوعي ، لا يوجد له نظير في كثير من الأقطار ، فاقرأ ـ فيما يلي ـ مقتبسات من رسائله في هذا الصدد :

يقول في رسالة ـ محرِّضاً على نشر السنن النبوية ، وترويجها ، ومرغِّباً في رد المحدثات ، والقضاء عليها ـ موجهة إلى ابن شيخه ومرشده الشيخ محمد عبد الله :

---

(١) مثل « الوهابية » والجامدين والمحافظين ، والقشوريين ، والحرفيين ، وغيرها ، في عصرنا هذا .

(٢) سورة الأحزاب ـ ٢٣

(٣) وأكبر دليل للناس في هذه القضية قول عمر ـ رضي الله عنه ـ حين رأى الناس مجتمعين لصلاة التراويح : « نعمت البدعة هذه » ، مع أن العلماء متفقون على أن اطلاق لفظ « البدعة » هنا بمعناه اللغوي ، لأن صلاة التراويح ثابتة بالأحاديث الصحيحة ، وبالتواتر العملي ، وينبغي للاطلاع على تعريف البدعة ، والتفصيل فيها مراجعة كتاب « الاعتصام بالسنة » للإمام الشاطبي ، وكتاب « إيضاح الحق الصريح في أحكام الميت والضريح » للإمام محمد اسماعيل الشهيد ، وهما من أجود الكتب في هذا الموضوع .

« هذا هو العصر الذي مضت ببدايته ألف سنة على البعثة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ وبدأت أمارات الساعة تظهر ، فأصبحت السنة لبُعد عهد النبوة محجوبة متروكة ، والزمان زمان الكذب والاختلاق ، فتروج البدع وتنتشر المحدثات ، ويرنو العالم إلى بطل يحمي حوزة السنة ، وينصرها ، ويدحر البدعة ويغلبها ، فإن نشر البدعة إماتة السنة ، وإن تعظيم المبتدع وإكرامه بمثابة هدم لقصر الإسلام وتخريبه، وقد جاء في الحديث :

« من وقَّرَ صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام »[1].

فينبغي الاهتمام بالهمة العالية ، والعزيمة الصارمة ، بنشر سنة من السنن ، وإزالة بدعة من البدع ، لقد كان هذا العمل فريضة في كل عصر ، ولكن وجوبه في هذا العصر الذي ضعف فيه الإسلام ، وارتبطت إقامة معالمه ، وتعظيم شعائره بشنر السنة ، وهدم البدعة ، أقوى وأشد » .

ثم يقول في نفس هذه الرسالة مفنداً لاصطلاح البدعة الحسنة ، ومنكراً لوجود نوع من الحسن والخير فيها :

« رأى بعض الناس في العصر الماضي شيئاً من الحُسن في البدعة فاستحسنوا بعض أنواع البدع والمحدثات ، ولكن الفقير لا يوافقهم في ذلك ، فإنه لا يرى أي بدعة حسنة ، ولا يشعر فيها إلاّ بالظلمة والكدر ، وقد قال ـ ﷺ ـ : « كل بدعة ضلالة »[2].

ويقول في رسالة أخرى باللغة العربية ، كتبها إلى الشيخ مير محب الله :

« النصيحة هي الدين ، ومتابعة سيد المرسلين عليه وعلى آله وعليهم الصلاة

(١) رواه البيهقي في شعب الايمان مرسلا (مشكاة المصابيح ، باب الاعتصام بالكتاب والسنة) .
(٢) الرسالة رقم : ٢٣ ، المجموعة الثانية ، وهي موجهة الى ابن شيخه الشيخ محمد عبد الله ، روى هذا الحديث في صحيحه .

والسلام ، وإتيان السنة السنية ، والاجتناب عن البدعة الغير المرضية ، وإن كانت البدعة ترى مثل فلق الصبح ، لأنه في الحقيقة لا نور فيها ولا ضياء ، ولا للعليل منها شفاء ولا للداء منها دواء ، كيف والبدعة إما رافعة للسنة ، أو ساكتة عنها ، والساكتة لا بد أن تكون زائدة على السنة ، فتكون نساخة لها في الحقيقة أيضاً ، لأن الزيادة على النص نسخ له ، فالبدعة كيف كانت تكون رافعة للسنة نقيضة لها ، فلا خير فيها ولا حسن فيها ، وليت شعري من أين حكموا بحسن البدعة المحدثة في الدين الكامل والإسلام المرضي بعد إتمام النعمة ، ولم يعلموا أن الأحداث بعد الإكمال والإتمام وحصول الرضا بمعزل عن الحسن فماذا بعد الحق إلاّ الضلال ، ولو علموا أن الحكم بحسن المحدث في الدين الكامل مستلزم لعدم كماله ، ومنبىء عن عدم تمام النعمة ، لما اجترؤوا عليه ، ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ ، والسلام عليكم وعلى من لديكم »[1] .

ويقول في رسالة أخرى ، وهو يتحدث عن هذا الاستثناء المذكور ـ آنفاً ـ :

« لما كان كل محدث في الدين بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، فلا معنى للحسن في بدعة من البدع ، ولما كانت الأحاديث الصريحة تفيد بأن كل بدعة ترفع سنة ، من غير تخصيص وتقييد ، فلا معنى لذلك ، ولا بد أن تكون كل بدعة سيئة ، ورد في الحديث :

« ما أحدث قوم بدعة إلاّ رفع مثلها من السنة ، فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة »[2] .

وروي عن حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلها ، ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة » .

---

(١) الرسالة رقم : ١٩ ، المجموعة الثانية .

(٢) مشكوة المصابيح ، باب الاعتصام بالكتاب والسنة .

اعلم أن بعض البدع التي استحسنها بعض العلماء والمشايخ ، يتجلى عند التأمل الدقيق فيها أنها كذلك ترفع السنة وتمحوها[1].

ويقول في هذه الرسالة ، مستنكراً لوجود البدعة الحسنة :

« يقول الناس : إن البدعة قسمان : البدعة الحسنة ، والبدعة السيئة ، فيسمون العمل المحدث بعد عهد النبوة ، وعهد الخلفاء الراشدين بدعة حسنة ، وهي لا ترفع ـ عندهم ـ سنة من السنن ، والبدعة السيئة ، هي التي ترفع السنة ، أما هذا الفقير فلا يرى في شيء من البدعة أي حسن ونور ، ولا يجد فيها إلاّ ظلمة وكدراً ، ولو فرضنا أن إنساناً يرى في العمل المبتدع ـ لضعف بصره ـ نضرة وصفاءً ، فإنه ما يكون غدا حديد البصر ، بعيد النظر ، سوف لا يجد إلاّ الحسرة والندم ، ولات ساعةمندم ، وكان كما قال الشاعر :

وسوف ترى إذا انكشف الغبار أفرسٌ تحت رجلك أم حمار ؟

يقول سيد البشر ـ ﷺ ـ :

« من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »[2] .

كان من ضمن هذه « البدع الحسنة » التي كانت قد انتشرت في ذلك العصر مجلس مولد النبي ـ ﷺ ـ والاحتفال له ، وكان من العسير الإنكار عليه لعزوه إلى ذات الرسول ـ ﷺ ـ ولما كان يقصد منه من ذكر مناقبه ـ ﷺ ـ وما خصه الله به من فضل ومكانة ، وكان موضوع نقد هذه المجالس في ضوء الشريعة والسنة موضوعاً مثيراً للجماهير ومظنة حملهم ذلك على قلة الحب للرسول ـ ﷺ ـ وإساءة الأدب معه ، ولكن الإمام السرهندي قد شرح الله صدره في كل ما لم يؤثر عن خير القرون ، فكان مقتنعاً بأنه ليس في فلاح للأمة ، وليس في صالح هذا الدين ، وكان يخشى أن كل

---

(1) الرسالة رقم : ١٨٦ ، المجموعة الأولى ، كتبها الى الشيخ المفتي عبد الرحمن الكابلي.
(2) نفس الرسالة السابقة ، والحديث رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها .

ذلك يجرّ على مرّ الأيام إلى مفاسد مختلفة .

وقد سئل عن رأيه في هذا المجلس إذا تجرد عن محظورات شرعية ، واقتصر على مجرّد الاجتماع والاستماع إلى قصة المولد في يوم معينّ ، واهتمام خاص ، فأجاب عن ذلك بقوله :

« سيدي ! يجول في خاطر هذا الفقير أنه ما لم يسد هذا الباب على مصراعيه ، لم يزل لأهلَ الأهواء مجال في هذا الشأن ، فلو وسّع في الأمر ، وأطلق شيء من العنان ، انجرّ الأمر إلى ما لا تحمد عاقبته ، « قليله يُفضي إلى كثيره »[1] .

وهكذا كان موقفه الجريء الحاسم إزاء البدع وإنكاره لوجود « بدعة حسنة » سداً للذريعة ، وقضاءً على فوضى دينية قد بدت طلائعها بتأييد العلماء غير المحققين الذين لا ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، واحتضان المشايخ الذين لم يكن لهم رسوخ في العلم ، وإلمام بمقاصد الشريعة وعلوم الحديث والسنة ، ودافع عنها وتحمس لها أمراء وملوك لم يكن لهم نصيب من العلم ، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

---

(٢) الرسالة رقم : ٧٢ ، ٣ ، الى الشيخ حسام الدين الدهلوى .

الباب السادس

وحدة الوجود أو وحدة الشهود ؟

الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ، وتدوين نظرية «وحدة الوجود» وشرحها وتفصيلهـا :

لقد صدرت من لسان بعض الصوفية المتقدمين ممن غلب عليهم السكر والحال ، أقوال هي شبه نظرية الاتحاد ، وتدل على « وحدة الوجود » ، وقد اشتهر من بين هذه الأقوال العارف الشهير الشيخ أبي يزيد البسطامي ـ الذي هو من كبار المشايخ الذين تنتمي إليهم معظم السلاسل والطرق الصوفية ـ « سبحاني ما أعظم شأني » ، وقوله : « ليس في جبّتي إلاَّ الله » ، وما اشتهر عن الحسين بن منصور الحلاج من هتافه : « أنا الحق » .

ولكن الشيخ محيي الدين بن عربي (م ٦٣٨ هـ) ـ الذي عرف واشتهر باسم « الشيخ الأكبر » ـ كان مؤسساً لهذه النزعة ، والمذهب ـ من الناحية العلمية ـ ورائداً له ، ومجدداً ، وخاتمة المحققين لهذه النظرية ، ومنذ ذلك العصر الذي عاش فيه ابن عربي ، بلغت هذه النظرية من الذيوع والانتشار والقبول والرّواج ، حتى سرت في أوصال التصوف وجرت منه مجرى الدم كالوباء الذي لا يستطيع أقوى الناس طبعاً وجسماً أن يقاومه ، ولا يتأثر بمفعوله حتى ظلت شعار أصحاب الذوق والتحقيق ، وكلمتهم الجامعة ، وكان إنكارها دليلا على جهل صاحبه وتطفُّله على مائدة الصوفية ، وغفلته عن دقائقهم وأسرارهم ، وكما يقول الإمام السرهندي :

« إنه وضع لها أبواباً وفصولاً كما هو الشأن في علم النحو والصرف[1] »

(١) الرسالة رقم : ٨٩ ، المجموعة الثالثة ، كتبها الى القاضي الشيخ اسماعيل الفريد آبادي .

وبعد ، فما هي حقيقة « وحدة الوجود » عند الشيخ محيي الدين ، وكيف يعرضها ويبينها ، وما هي الأدلة والحجج التي يسوقها لإثباتها ؟ ، وكيف يحول هذه النظرية إلى عملية كشفية ، ومشاهدة ، وتجربة عملية تطبيقية ، بل إلى حقيقة بديهية ؟ ، ثم كيف اتخذت شكل فلسفة مستقلة ، وتحولت إلى مدرسة فكرية إشراقية ، وتكونت حولها تلك المكتبة الضخمة التي يحتاج استعراضها إلى كتاب ضخم مستقل ؟ كل ذلك لا يمكن أن يسعه هذا الكتاب ، ولما أن القضية من القضايا الدقيقة العويصة في الفلسفة والتصوف ، التي يحتاج الإنسان لإدراك مبادئها إلى مراجعة المصطلحات الدقيقة للفلسفة والتصوف ، كما أن لها صلة وثيقة بالتجارب الباطنية ، والسلوك العلمي ، فليس من السهل ـ لذلك ـ استيعابها وإلقاء الضوء الكامل عليها في هذا الباب الوجيز ، فمن كان عنده تذوق لهذه المعاني ، ورغبة في دراستها العلمية فليراجع كتب الشيخ محيي الدين بن عربي كـ « الفتوحات المكية » و « فصوص الحكم[1] » ، وقد كتب الإمام السرهندي في إثبات « وحدة الشهود » رسائل مفصلة طويلة ، يتوصل منها ـ في ضوء عرض الإمام السرهندي لمذهب ابن عربي وتلخيصه وشرحه ـ إلى فهم هذا المذهب وإدراك أبعاده وغاياته ومقاصده ، وسوف ترد مقتطفاتها المهمة في خلال هذا الباب ، في مواضعها المناسبة .

ونورد هنا مقتبسات من رسالة « وحدة الوجود » للعلامة عبد العلي بحر العلوم اللكنوي (م ١٢٢٥ هـ) إذ أنه مع تبحره في علوم الحكمة وأصول الفقه ، يعتبر شارحاً وترجماناً ، لنظرية الشيخ محيي الدين في « وحدة الوجود » وغواصاً ماهراً في بحر مؤلفاته : لا سيا « الفتوحات المكية » و « فصوص الحكم » وسوف تعين القارىء هذه المقتبسات في فهم مراد الشيخ الأكبر ومقاصده ، وإن كانت وردت فيها أيضاً مصطلحات وتعبيرات لا يعرف معانيها إلا أصحاب المعرفة والذوق في هذا

---

(١) ويفيد في هذا الصدد الاطلاع على كتاب « أصل الأصول في بيان مطابقة الكشف بالمعقول والمنقول » ، للسيد شاه عبد القادر مهربان فخري الميلابوري (م ١٢٠٤ هـ) طبعة جامعة مدراس ١٩٥٩ م ، فهو كتاب جامع في هذا الموضوع .

الشأن ، الملمّين بهذا الأسلوب وهذه التعبيرات ، ولم نقف على شرح لهذه النظرية في وضوح وإيجاز أخصر من هذا الشرح ، فرأيت أن أورده فيما يلي :

« جميع ما سوى الله ـ تعالى ـ عالم الشؤون والتعينات ، وجميع الشئون والتعينات مظاهره ، هو ظاهر فيها وسار ، ليس هذا السريان هو ما يقول به أصحاب « الحلول » أو يعتقده أهل « الاتحاد » بل إن هذا السريان كسريان عدد الواحد في الأعداد ، وجميع الأعداد ليست إلاّ وحدات ، فلا يظهر في العالم إلاّ عين واحدة أو ذات واحدة ، وهي التي ظهرت من ذات الله القدوس فتتجلى ذات الله ـ تعالى ـ في هذه الكثرة ، فالله هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، تعالى عن الشركاء والأنداد

ولا تظهر أسماء الله ـ تعالى ـ في غير مظهر ، سواء هذه الأسماء المباركة تنزيهية أو تشبيهية ، ولما كانت الأسماء بالمظاهر ، ولا يتصور كمالها بدون مظاهرها ، أوجد الله سبحانه وتعالى أعيان العالم، لتكون مظاهره وتنجلي كمال أسمائه بأجلى مظاهره ، وأن الله ـ تعالى ـ غني ـ في كماله الذاتي ولكنه لا يستغني في مرتبة الكمال الإسمي عن الوجود الخارجي للعالم ، يقول الحافظ الشيرازي ، ما معناه :

« لو استظل العاشق بظل المعشوق فماذا فيه ؟ فنحن في حاجة إليه وهو في شوق إلينا » .

وأشير إلى ذلك في هذا الحديث القدسي : « كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق[1] .

والذي يعتقد في وجودين اثنين ، وجود الله ـ واجب الوجود ـ ووجود الممكن ، فإنه يشرك ، وشركه هذا شرك خفي ، أما من يعتقد في وجود واحد ويقول

---

(١) هذا الحديث أو ما معناه قد كثر وروده في كلام الصوفية ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية « ليس من كلام النبي ـ ﷺ ـ ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف ، وتبعه الزركشي والحافظ ابن حجر في اللآلي ، والسيوطي وغيرهم . (مستفاد من « كشف الخفا ومزيل الالباس للعجلوني ، المؤلف) .

إنه لا وجود إلاّ الله ، وكل ما سواه فمظاهره ، وكثرة المظاهر لا تنافي وحدته ، فهو إنسان موحد » .

« ولست عين الحق ، لأنه هو الوجود المطلق ، وأنت المقيد المتعين ، ولا يمكن أبداً أن يكون المقيد عين المطلق ، ولكنك في حقيقتك عين الحق ، لأن الحق تعين فيك ، فتجد الحق - جل شأنه - مطلقاً من قيد التعين في عين الموجودات ، ومقيداً بقيد التعين فيها ، أي أنك ترى الحق ظاهراً في المتعين لا موجود ولا إلّه إلاّ الله[1] » .

وقد كان لهذه النظرية من التأثير العالمي الشامل - بعد عصر الشيخ محيي الدين حتى يمكن أن يقال إن تسعة وتسعين في المئة من الصوفية والفلاسفة ، والشعراء ، تهيباً وإجلالاً للنظرية أو لقائلها ، أيدوها واعتنقوها ، ومعظم من يعارض الشيخ محيي الدين في هذه المسألة هم المُحدِّثين والفقهاء وكبار العلماء ، منهم الحافظ ابن حجر العسقلاني ، والعلامة السخاوي ، والمفسر أبو حيان ، وشيخ الإسلام عزّ الدين بن عبد السلام ، والحافظ أبو زرعة ، وشيخ الإسلام سراج الدين البلقيني ، والعلامة نور الدين علي بن سلطان محمد الهروي (المعروف بملا علي القاري) والعلامة سعد الدين التفتازاني ، العلماء النوابغ ، وأئمة الفن ورجال الإسلام .

وإن هؤلاء العلماء - رغم تفوّقهم على الناس في التبحُّر، والتعمُّق في العلوم الدينية ، ودراستهم الواسعة العميقة للكتاب والسنة ، وفضلهم وصلاحهم وتورعهم - لا يعترف المتصوفة وأصحاب « الحقائق » بمعرفتهم . باستثناء شخص منهم أو شخصين - للعلوم الباطنية ، والحقائق الروحية الغامضة ، ولذلك حملوا معارضتهم على المثل الشائع : « الناس أعداء ما جهلوا » .

---

(١) رسالة « وحدة الوجود » (بالفارسية) للعلامة بحر العلوم عبد العلي الأنصاري للكنوي ، انظر ص ٢٩ - ٥٦

شيخ الاسلام ابن تيمية ، ونقد عقيدة
« وحدة الوجود » ، ومعارضتها والرد عليها :

إن أكبر قادة حركة المعارضة لنظرية « وحدة الوجود » الذي قام بنقدها وتحليلها تحليلاً علمياً ، والتعليق عليها ، وإبداء رأيه الحرّ عنها على أساس الكتاب والسنة ، وفي ضوء تلك النتائج والآثار التي ظهرت لاعتناق هذه النظرية ، خلال مدة قليلة في أوساط التصوف وعامة الناس ، هو شيخ الإسلام تقي الدين الحافظ أحمد بن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) الذي اسمه في صف المعارضة لهذه النظرية ، وكان قد ولد بعد وفاة الشيخ محيي الدين (عام ٦٣٨ هـ) بثلاث وعشرين سنة ، ونشأ في نفس المدينة (دمشق) - التي توفي فيها الشيخ محيي الدين ودُفِنَ فيها - وتعلّم ، وتربّى ، وبلغ المكانة الفريدة في المجالات العلمية والفكرية ، فلما بلغت مداركه النضج الفكري ، وتهيأ لدراسة بيئته ومحيطه دراسة ناقدة ، لم يكن قد مضى على وفاة الشيخ ابن عربي أكثر من أربعين أو خمس وأربعين سنة ، وكان لتحقيقاته العلمية النادرة دويّ في أجواء مصر والشام ، وكانت الأوساط الصوفية سكرى بمشربه في التوحيد ، وكان الشيخ أبو الفتح نصر المنبجي في مصر ، من غُلاة محُبيه ومريديه ، كما كان ركن الدين بيبرس الجاشنكير صاحب السلطة المطلقة في مصر والشام (بعد ما اعتزل السلطان ناصر بك قلاوون السلطنة سنة ٧٠٨ هـ) معجباً بالشيخ نصر المنبجي ومريداً له ، وكانت كتب الشيخ ابن عربي لا سيا « الفتوحات المكية » و« فصوص الحكم » متداولة في أيدي الناس بالشام ومعظم البلدان العربية آنذاك ، قد نالت القبول والإعجاب ، يقرأها الناس في نشوة وانفعال ، حتى الإمام ابن تيمية اعترف بأن في « الفتوحات المكية » و« كنه الحكم المربوط » و« الدرة الفاخرة » و « مطالع النجوم » بعض الفوائد العلمية ، والتحقيقات الجيدة[1] وكان من أشهر المعتنقين لمذهب ابن عربي ، ابن سبعين ، وصدر الدين القونوي - الذي كان تلميذاً مباشراً

(١) انظر « جلاء العينين ، ص ٥٨ ، للعلامة نعمان الآلوسي .

للشيخ ابن عربي - ، والبلياني والتلمساني وقد فضّل ابن تيمية الشيخ الأكبر على جماعته وأصحابه كلهم ، مما يدل على إنصافه وتحقيقه وموضوعيته ، وعمله بقول الله - عز وجل - « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

يقول ابن تيمية :

« لكن ابن عربي أقربهم إلى الإسلام ، وأحسن كلاماً في مواضع كثيرة فإنه يفرق بين المظاهر والظاهر ، فيقر الأمر والنهي ، والشرائع على ما هي عليه ، ويأمر بالسلوك بكثير مما أمر به المشايخ من الأخلاق والعبادات ، ولهذا كثير من العبّاد يأخدون من كلامه سلوكهم ، فينتفعون بذلك ، وإن كانوا لا يفقهون حقائقه ، ومن فهمها منهم ووافقه فقد تبين قوله[1] » .

ويقول في موضع آخر في إحساس مشوب بالحرج في الحكم الفاصل ، والشعور بدقة الموقف ، وإحسان الظن بمسلم له مكانته ، ومنزلته عند كثير من المسلمين :

« والله تعالى أعلم بما مات الرجل عليه ، والله يغفر لجميع المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، الأحياء منهم والأموات » ، « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم »[2] .

غُلاة الدُعاة لعقيدة :

« وحدة الوجود » ، وآثارهم ونتائجهم :

ولكن يبدو أنه - للحماس الزائد ، وقلة الحذر والحيطة في تعليم هذه النظرية وتلقينها للناس ، ونشرها والدعوة إليها دعوة عامة شاملة ، وللأذواق والنفسيات الخاصة - ظهرت هناك في الشام - التي كانت مركزاً كبيراً للعلوم الدينية ، وولاية

(١) جلاء العينين » ص ٥٨ .
(٢) أيضاً .

ذات شأن من ولايات دولة يحكمها حكام من سلالة تركية ـ فوضى خلقية وفكرية . ظلت تعم وتسود ، وبدأ الناس يتعدّون حدود العقل والشريعة ، والأخلاق ، ووقعت محنة خطيرة في المجتمع الإسلامي ، وحسب ما يقول بعض الحكماء « أن الشجرة بثمرتها لا بأصلها » ، كان ما تأتي به عقيدة « وحدة الوجود » من ثمار مرّة ، ونتائج خطيرة ، يدفع الغياري على الإسلام وحماة الشريعة والدعاة إلى الله إلى أن يقلقوا لهذا الوضع ويثوروا عليه ، وينتقدوه ، وكانت تستحق الرد والتفنيد .

يحكي ابن تيمية ـ وهو ثقة في حكايته وروايته ، إن « التلمساني » ـ وهو من حُذّاقهم علماً ومعرفة ـ كان يطبّق المذهب الوجودي عملياً فيستحل جميع المحرمات (لأنه إذا كان الموجود واحداً فَلِمَ التفريق بين الحلال والحرام[1] ؟)

ويقول ابن تيمية :

« وحدثني الثقة أنه قرأ عليه « فصوص الحكم » لابن عربي ، وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين ، فلما قرأه رآه يخالف القرآن ، قال : فقلت له : هذا الكلام يخالف القرآن ، فقال : القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد في كلامنا ، وكان يقول : ثبت عندنا في الكشف ما يخالف صريح المعقول »[2] .

ويمضي قائلاً :

« وحدثني من كان معه آخر نظير له ، فمرّت على كلب أجرب ميت بالطريق ، فقال له رفيقه : هذا أيضاً هو ذات الله ؟ ، فقال : وهل ثَمّ شيء خارج عنها ؟ ، نعم الجميع في ذاته »[3] .

ويقول في كتابه « الردّ الأقوم على « فصوص الحكم » :

« وقيل لبعضهم : إذا كان الوجود واحداً ، فلم كانت الزوجة حلالاً والأم حراماً ؟ فقال : الكُلُّ عندنا واحد ، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا : حرام ،

(١) و (٢) و (٣) الفرقان بين الحق والباطل ، ص ١٤٥ .

فقلنا : حرام عليكم »[1] .

ولا يمكن أن يقال إن مسئولية هذه الجراءة على الله ، والإباحية والفوضى الخلقية تقع ، على الشيخ محيي الدين بن عربي وحده ، الذي كان يجتهد في اتباع السنة[2] وكان عابداً زاهداً متنسكاً ، صاحب رياضات ومجاهدات ، ومحاسبة شديدة للنفس ومعرفة دقيقة واسعة بمصايد الشيطان ونزعاته ، وغوائل النفس وآفاتها[3] ، ولكن مع ذلك توجد عنده أقوال شاذة غريبة ، تكون مادة لمن يريد أن يجعل من الحبة قبة ، مثل قوله ، ان عبّاد العجل - في عهد موسى عليه السلام - ما عبدوا إلاّ الله ، وأن موسى أنكر على هارون ، لكون هارون أنكر عليهم عبادة العجل (لأنها في الحقيقة ، عبادة الله ، إذ الموجود واحد) وأن موسى كان بزعمهم من العارفين الذين يرون الحق في كل شيء ، بل يرونه عين كل شيء ، وأن فرعون كان صادقاً في قوله : « أنا ربكم الأعلى » بل هو عين الحق ، ولما كان فرعون في منصب الحكم صاحب الوقت ، جاز له أن يقول : « أنا ربكم الأعلى » أي وإن كان الكل أرباباً بنسبة ما ، فأنا الأعلى منهم بما أعطيته في الظاهر من مقاليد الحكم فيكم ، قال : ولما علمت السحرة صدق فرعون فيا قاله لم ينكروه ، وأقرّوا له بذلك وقالوا له : « فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا » ، فصح قول فرعون « أنا ربكم الأعلى » ولهذا عاب نوحاً ، وعظم قومه الكفار ، الذين عبدوا الأصنام ، وقال : إنهم ما عبدوا إلاّ الله ، وأن طوفان نوح كان طغيان المعرفة الإلهية ، وهيجان بحرها الذي غرقوا فيه[4] .

ولأجل ذلك كان كثير من المشايخ العارفين - الذين كانوا يعترفون بمكانة

---

(١) الردّ الأقوم على فصوص الحكم ، ص ٤٢ .

(٢) كان الشيخ ابن عربي متبعاً لمذهب داوود الظاهري الذي ينكر القياس ، ويأخذ بظاهر الحديث .

(٣) راجع كمثال على ذلك كتابه « روح القدس » .

(٤) هذه الأقوال كلها مقتبسة من « الردّ الأقوم على ما في كتاب فصوص الحكم » وينبغي الاشارة هنا الى ان فريقاً من المهتمين بعلوم الشيخ ابن عربي وكتاباته يقول بأن هناك إلحاقات وزيادات دُست في كتبه ، لا سيا في كتابه « فصوص الحكم »

الشيخ ابن عربي وعلو كعبه ، في العلوم ويرونه من الأولياء المقبولين - ينهون أصحابهم وتلامذتهم عن مطالعة كتبه ، يحكي الشيخ محيي الدين عبد القادر العيدروس مؤلف « النور السافر » عن شيخه العلامة بحرق إنه سمع الشيخ أبا بكر العيدروس يقول :

« لا أذكر أن والدي ضربني ولا انتهرني إلاّ مرة واحدة بسبب أنه رأى بيدي جزءاً من كتاب « الفتوحات المكية » لابن عربي ، فغضب غضباً شديداً ، فهجرتها من يومئذ قال : كان والدي ينهى عن مطالعة كتابي « الفتوح » و « الفصوص » لابن عربي ، ويأمر بحسن الظن فيه ، وباعتقاد أنه من أكابر الأولياء العلماء بالله العارفين »[1] .

عقيدة وحدة الوجود في الهند .

ولما وصلت هذه العقيدة في القرن الثامن إلى الهند ، كان لها - بسبب ما كانت الهند نفسها مركزاً قديماً للدعوة المتحمسة إلى هذا المذهب ، والذوق الإشراقي الخاص ، والايمان به إيماناً منبعثاً دافعاً ، وكما يقول بعض مؤرخي التصوف أن المتصوفة المسلمين الذين ولدوا في إيران والعراق والمغرب ، ونشأوا فيها ، إنما كانوا تعلّموا نظرية « وحدة الوجود » من الهند ، ولم تزل هذه البلاد حتى بعد الفتوح الإسلامية - باستمرار ومن غير انقطاع - حاملة لواء هذه العقيدة والمتمسكة بها ، وطبيعة النسل الآري تتجه دائماً إلى حب « الإطلاق » والتهرُّب من القيود والتعيّنات ، بعكس الديانات الناشئة في مواطن الشعوب السامية ، ومسقط رأس الأنبياء والمرسلين ، فكانت سمة هذه البلاد - الخاضعة لتأثير السلالة الآرية حكماً وعقلية وثقافة - التمسك بعقيدة وحدة الوجود ، ووحدة الديانات من آلاف السنوات ، لذلك كله ، كان لعقيدة وحدة الوجود في الهند من التأثير والقوة والقبول ، ما لم يكن لها في بلد آخر ، وقد انسجمت طبيعة هذه الفلسفة بطبيعة

(١) النور السافر ، ص ٣٤٦

البلاد ، وائتلفت أرواحهما ، واحتضنت إحداهما الأخرى ، فكان من هذا الوئام حماس جديد ، وحرارة جديدة ، وتشكلت مدرسة إشراقية جديدة ، فنجد عدداً كبيراً من أبناء هذه البلاد ومشايخها يتحمس لهذه العقيدة ، ويدافع عنها ويدعو إليها ، فمن أخصهم وأشهرهم في هذا الباب شيخ السلسلة الجشتية الصابرية الشهير الشيخ عبد القدوس الكنكوهي (م ٩٤٤ . هـ) والشيخ عبد الرزاق الجهنجهانوي (٩٤٩ هـ) والشيخ عبد العزيز الدهلوي المعروف بشكربار (م ٩٧٥ هـ) والشيخ محمد بن فضل الله البرهانبوري (م ١٠٢٩ هـ) والشيخ محب الله الإلّه آبادي (م ١٠٥٨ هـ)[١] ، وكان كل واحد من هؤلاء ابن عربي عصره ، وابن فارض مصره ، وتصدَّر معظم هؤلاء قبل الإمام السرهندي ، بزمن قليل أو بعده بقليل ، أو في عهده نفسه ، للتربية والإرشاد ، والدعوة والإفادة .

الشيخ علاء الدولة السمناني
ومعارضة نظرية « وحدة الوجود » :

قلنا فيما تقدم أن من تصدى للرد على مذهب «وحدة الوجود»وانتقاد الشيخ محي الدين بن عربي ، ومعارضته وكان معظمهم من العلماء المتبحّرين في العلوم الدينية ، غير المتذوقين للمعارف والحقائق ، لم يقاسوا الرياضات والمجاهدات ، ولم يلموا بالتجارب العملية الشخصية ، ولا سلكوا أودية الكشوف والمشاهدات ، فكان أصحاب المعرفة والذوق من هذه المدرسة الإشراقية لا يلقون لهذه الانتقادات والاعتراضات بالاً ، ويرونها لا تستحق أي اهتمام . ويقولون استصغاراً لشأنهم :

« لا تستطيع أن تعرف لذة الخمر ما دمت لم تذقها »

ويخاطبونهم بقول الشاعر :

وإذا لم تر الهلال فصدق لأناس رأوه بالأبصار

---

(١) يمكن الاطلاع على تراجمهم واتجاهاتهم وأذواقهم في الجزء الرابع والجزء الخامس من كتاب « نزهة الخواطر » للعلامة السيد عبد الحي الحسني .

وإن أول مسلم صوفي ، ومحقق عارف تصدى للرد على هذه العقيدة وتفنيدها بعنـاية بالغـة واهتمام كبـير ، هو الشيخ ركن الـدين أبـو المكارم علاء الدولـة السمناني[1] .

ولد علاء الدولة السمناني (٦٥٩ - ٧٣٦ هـ) في أسرة شهيرة ، كان أفرادها يتبوأون مناصب عالية في الحكومة والوزارة ، بقرية سمنـان من ولاية خراسـان ، واستفاد المعارف الباطنية من الشيخ نور الدين عبد الرحمن الكسرقي الاسفرائيني في الطريقة الكُبروية ، ونال الإجازة والخلافة ، واستمرّ في مناظراته ضد نظرية الشيخ الأكبر في « وحدة الوجود » ، وتعرض لها في مواضع كثيرة من رسائله ، فإنه يرى أن غاية السالك هي العبودية لا التوحيد الوجودي ، جمع رسائله ورتّبها أحـد مريديه الشيخ إقبال بن سابق السجستاني ، توجد عدة نسخ ، منها باسم « جهل مجلس » - أربعون مجلساً - أو « أقوال الشيخ علاء الدولة السمناني » وغيرهما في المكتبـات ، وتشتمل أكثر أجزاء « نفحات الأنس »[2] ، للجامي على أقواله ومواعظه »[3] .

وحدة الشهود :

لا نعلم - في حدود دراستنا واطلاعنا إلاّ شخصيتين شهيرتين ، نجد عندهما فكرة وحدة الشهود إزاء نظرية وحدة الوجود ، وإشارات متفرقة إليهـا ، رغـم ما بينهما من اختلاف في الذوق والمشرب ، وبون كبير في المنهج وأساليب الدعوة ، إلاّ أن بينهما وحدة الإخلاص وصفاء النية ، وسلامة الذوق ، واستقامة الفطرة ، التي تفتح لها أبواب الهداية الربانية « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » أحدهما شيخ

---

(١) انظر « رسائل الامام الرباني » الرسالة رقم ٨٩ ، المجموعة الثالثة .

(٢) انظر « نفحات الأنس » ص ٥٠٤ - ٥١٥ ، وللشيخ علاء الدولة رسالة خطية أسماها « العروة لأهل الخلوة مكتبة خدابخش خان بتنه - مخطوطة رقم : ٩٠٥ ، اقرأ ورق ٨٣ - ٨٤ (ألف) ورق ٨٦ (ألف) .

(٣) (دائرة المعارف الاسلامية) مقال F. Meier .

الإسلام الحافظ ابن تيمية الذي كان محدثاً ومتكلماً وفقيهاً ، والآخر الإمام شرف الدين يحيى المنيري الذي كان عارفاً محققاً ، و إماماً من أئمة التصوف والإحسان ، يتجلى من كتابه المتقدم الذكر « العبودية » أنه من المطلعين على فكرة وحدة الشهود ، ويعرف هذه الحقيقة أنها مقام يعترض السالك أثناء تربيته وسلوكه ، وأنها منزلة لا تسمو إلى مكانة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وأتباعهم بإحسان من الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - وغيرهم ، ولكنها على كل حال منزلة فوق منزلة « وحدة الوجود » وأفضل منها حالاً وأرفع مكاناً[1] ، ولكنه - لعدم خوضه في هذا المجال - يكتفي بإيماءات وإشارات .

وأما الشيخ المنيري (م ٧٨٢ هـ) فقد قدَّم هذه الفكرة في رسائله بتفصيل أكثر ، فيقول في ضوء تجاربه الشخصية ، وتحقيقه العلمي لهذا المقام الخاص :

« إن ما يظن وحدة الوجود ، وفناء كل موجود سوى واجب الوجود ، وعدمه عدماً كاملاً ، هو - في واقع الأمر - ليس إلاَّ أفول الموجودات إزاء الوجود الحقيقي ، وغروبها ، وانقهارها ، كما يخبو ضوء النجوم وينطمس إزاء ضوء الشمس الوهاج ، وتصبح الذرات كأنها لا حقيقة لها ولا وجود »

إنه يلخص النظريتين في كلمتين خفيفتين ، فيقول : « عدم الأشياء وفناؤها شيء وعدم رؤيتها شيء آخر » ، ويقول : « إنه مقام دقيق خطير تتعثر فيه أقدام الكبار من المشايخ ، وتتعسر الاستقامة إلا بتوفيق الله ، ثم بتربية المرشد المحنّك الخبير »[2].

الحاجة إلى شخصيه تجديدية جديدة :

ولكن كانت الحاجة ماسَّة - لتنقيح هذه الفكرة وإيضاحها ، وإقامة الحجة على

---

(١) انظر « رسالة العبودية » ص ٨٥ - ٨٨ ، وأما النوع الثاني فهو الفناء عن شهود السوي .. الخ (المكتب الاسلامي ، دمشق) .

(٢) راجع الرسالة الأولى من كتوبات « سه صدى » .

الناس في بيانها - إلى شخصية جديدة ، خاضت في أودية السلوك والإشراق الشائكة ، ومرت برباعها ومنازلها ، وعرّجت على مقاماتها العالية ، وسبحت في بحور المعارف الإلهية ، والحقائق الربانية ، وعبرت البحر الطاغي المتلاطم بالتجارب التطبيقية العملية إلى شاطئ الحقيقة ، فلا يستدل بعدم العلم على عدم الوجود ، بل يقول كشاهد العيان والمسافر المغامر الطموح في ثقة وقوة ، وبصيرة واعتماد ، « أعرف كل ربع من هذه الرباع (وحدة الوجود) بل كل ذرة من ذرات هذه الدار ، فقد استمر بها عهدي ، ودامت بها صلتي ، ولكن يردفه بهذا القول : « إن وراء هذه الكواكب والنجوم عوالم أخرى ، ومجالات أفسح » .

لقد كانت هناك ثلاثة مذاهب بين المثبتين والنُّفاة لنظرية « وحدة الوجود » ، وهي :

١ - التأييد الكامل لنظرية وحدة الوجود ، وأنها حقيقة بدهية ، وغاية المعرفة والتحقيق .

٢ - المعارضة الكلية لنظرية وحدة الوجود ، وأنها ليست إلاّ نتائج القوة الوهمية والمتخيلة ، والمشاهدات الباطنية ليس غير .

٣ - عرض نظرية « وحدة الشهود » بدلاً من وحدة الوجود ، وأن ما يراه السالك ، والذي هو واقع الحال ليس أن الوجود واحد ، وما سوى واجب الوجود معدوم لا حقيقة له ، بل الواقع أن الموجودات قائمة في مكانها ، ولكن نور الوجود الحقيقي لواجب الوجود حجب وجودها عن الأبصار حتى كأنها فانية معدومة ، وكما أن النجوم تنكدر وتأفل إزاء ضوء الشمس بعد طلوعها ، حتى لو قال قائل : إن النجم غير موجود لما كان كاذباً ، كذلك هذه الموجودات إزاء الوجو الكامل الحقيقي ، تتضاءل أمامها ، وتهون وتصغر حتى كأنها معدومة لا وجود لها .

مركز الإمام السرهندي الاجتهادي والتجديدي :

اختار الإمام السرهندي مذهباً رابعاً إزاء هذه المذاهب الثلاثة ، وهو أن « وحدة الوجود » مقام يعرض للسالك خلال السلوك ، فيشاهد - عند ذاك - عياناً وجهاراً - أنه لا وجود هناك إلاّ لواجب الوجود ، وكل ما يراه الإنسان من وجود ، فهو وجود واحد ، وما سواه فليس إلاّ « تنوعاته وتلويناته » وفي تعبير الشيخ محي الدين بن عربي ، والعارفين المتذوقين لهذا المشرب الوجودي إنما هي « تنزُّلاته » .

ولكن لو حالف التوفيق الرباني ، ورافق الهدى النبوي ، وكان السالك صاحب طموح وعلو همة ، فإنه يفوز بمقام آخر ، وهو مقام « وحدة الشهود » .

وهكذا يضيف الإمام السرهندي - مع نقضه لنظرية وحدة الوجود - الذي كان مذهب غالب المتصوفين والحكماء المدققين ، والإشراقيين المتعمقين ، واعترافه بعلو كعب مؤسس هذه النظرية - علمياً - ورائدها الأكبر ، الشيخ محي الدين بن عربي - في كثير من العلوم والتحقيقات - إضافة جديدة ، ويكتشف عالماً جديداً يوافق عقيدة جمهور المسلمين ، ويتفق مع الكتاب والسنة والشريعة الإسلامية ، في جانب ، ويضيف شيئاً - بدون أن يرجع بالعلوم القهقري ، ويلغي تحقيقات جماعة كبيرة ذات شأن و وعلومها ومداركها - ينسجم مع التحقيقات والكشوف الأخيرة في الأنفس والآفاق ، ويتلاءم مع النصوص الشرعية ، والأصول القطعية ، ويطابق بينها جميعاً .

التجربة والمشاهدة الشخصية :

واقرأ معي - بعد هذا التمهيد البسيط - مقتبسات من رسائل الإمام العالية - التي هي أقرب إلى الفهم ، وأوضح في العبارة ، وأسهل للإدراك .

يتحدث عن تقدمه ورقيه في الروحانية ، وانتقاله من مذهب « وحدة الوجود »

إلى « وحدة الشهود » وما شاهد أثناء ذلك ، فيكتب إلى بعض أصحابه المتصلين به من المشايخ الصوفية :

« سيدي العزيز ! كان هذا الفقير ـ من الصغر ـ يعتقد اعتقاد أهل التوحيد (أصحاب وحدة الوجود) وكان والد الفقير ـ قدس سره ـ على هذا المذهب ، ويشتغل بهذه الطريقة ، فنال هذا الفقير ، حسب ما يقال : « ابن الفقيه نصف الفقيه » قسطاً علمياً وافراً من هذه الطريقة ، فكان يجد فيها لذة ومتعة كبيرة ، حتى ساقني سائق التوفيق الرباني إلى الإمام العارف بالحقائق والمعارف ، مؤيد الدين ، الشيخ الراشد المرشد إلى صراط الله المستقيم ، محمد الباقي ـ قدس سره ـ فعلمه الشيخ المرشد الطريقة النقشبندية العلية ، واهتم بأمره غاية الاهتمام ، حتى انكشف عليه ـ بعد ممارسات وتطبيقات لهذه الطريقة لمدة قليلة ـ « التوحيد الوجودي » ، وكان في هذا الاكتشاف شيء من التطرف والمغالاة ، وفاضت عليه في هذا المقام علوم ومعارف كثيرة ، حتى لم يبق شيء من دقيق وجليل يتعلق بها المقام إلاّ انكشف عليه وظهر له جلياً .

وتجلت له علوم الشيخ محي الدين بن عربي الدقيقة الخطيرة ، كما ينبغي أن تتجلى ، وفاز بمعارج التجلي الذاتي الذي ذكر صاحب الفصوص ، والمقام الأعلى فيه الذي يقول عنه : « ما بعد هذا إلاّ العدم المحض » ووقف على علوم هذا التجلي ومعارفه التي يظن الشيخ اختصاصها بخاتم الولاية ، بإفاضة وتفصيل ، وبلغ منه السكر في هذا المقام وغلبة الحال حتى كتب في بعض رسائله التي بعث بها إلى الشيخ المرشد ، أبياتاً من الشعر في السكر .

وطال هذا الحال مدة طويلة ، ودام شهوراً بل أعوام ، إذ فاجئته العناية الربانية ، وتطلعت من نافذة الغيب ، وتجلت ، وجلّت ذلك الغطاء الذي كان مسدلاً على « لا كيف ولا كم » ، « ليس كمثله شيء » ، ومالت تلك العلوم والمعارف السابقة التي كانت تنبيء عن الاتحاد والوحدة إلى الزوال والانقراض ،

وتستّرت تلك الإحاطة ، والسريان ، والقرب والمعيّة الذاتية التي كان انكشافها في ذلك المقام ، واختفت ، وظهر العلم الذي هو يقين اليقين ، إنه ليست لهذا العالم الصانع للكون ، أي نسبة من تلك النسب التي تعزى إليه ، وأن إحاطته ومعيته علمية ، وليست بذاتية ، كما هي عقيدة أهل الحق ، « شكر الله سعيهم » إن الله الأحد القدوس لا يتحد بشيء « ليس كمثله شيء » والعالم متسم بالحدوث والنقص ، والمحدودية ، فكيف يمكن أن يكون ما لا يوصف بالكيف والكم عين أو مثل ما يوصف بالكيف والكم ، وكيف يقال للواجب إنه عين الممكن ؟ ، ولن يكون القديم عين الحادث ، ولا ممتنع العدم عين جائز العدم ، وانقلاب الحقائق مستحيل ـ عقلاً وشرعاً ـ ولا يصح ـ أبداً ـ أن يحمل شيء على شيء آخر أصلاً ورأساً ، والعجب من الشيخ محي الدين وأتباعه إذ يصفون واجب الوجود بالمجهول المطلق ، ولا يرونه محكوماً عليه بحكم ، ورغم ذلك يثبتون الإحاطة الذاتية والقرب ، والمعية الذاتية ، والصحيح في هذا الباب ما قاله علماء أهل السنة ، إن الأمر كله راجع إلى القرب العلمي ، والإحاطة العلمية .

وفي أيام فيضان هذه العلوم والمعارف المخالفة لوحدة الوجود ، قاسى هذا الفقير فترة صعبة قلقة ، لأنه ما كان يظن أن وراء هذا التوحيد توحيداً آخر ، فكان يدعو متضرعاً مبتهلاً ، أن لا يسلب هذه المعرفة ، حتى انقشعت تلك الحجب كلها التي كانت ملقاة على وجه هذه الحقيقة ، وتجلت الحقيقة الواقعة وعلم أن العالم وإن كان بمثابة مرآة لصفات الله الكاملة ، ولكن العكس الذي تراه على وجه المرآة لا ليس هو ذلك الوجود نفسه الذي ينعكس مظهره عليها ، وأن الظل لا يمكن أن يكون عين صاحب الظل ، كما يعتقد أصحاب وحدة الوجود .

ولنضرب لشرح ذلك أكثر من ذي قبل ، مثالاً ، أراد عالم بارع يجمع بين جميع العلوم والفنون ، أن يظهر كماله وكفاءاته المتنوعة الكثيرة ، ويعلن فضائله ومحاسنه الخفية على مشاهد الناس ، فأبدع حروفاً وأصواتاً ليظهر كمالاته المخفية في مرآة هذه الحروف والأصوات ، فلا يمكن ـ في هذه الحال ـ أن يقال : إن هذه

الحروف والأصوات التي هي مظهر هذه المحاسن المستورة ، ومرآة الكمال المكنون ، إنما هي عين هذه المحاسن والكمال ، أو أنها محيطة بها إحاطة كاملة ، أو أنها قريبة منها أو معها معية ذاتية ، وقرباً ذاتياً ، بل إنْ بينهما من النسبة ما بين الدالّ والمدلول عليه ، فليست هذه الحروف والأصوات إلاّ دليلاً على هذا الكمال ، وما نشأت من النسبة بينهما ، إنما هي بفعل الوهم والخيال ، والحق أنه لا تتحقق نسبة من نسب ـ العينية ، والاتحاد ، وإحاطة القرب ، والمعية الذاتية ـ هناك ، ولكن لما أن نسبة الظاهر ، والمظهر ، والدال والملول عليه متحققة بين هذه الأصوات والحروف ، والمحاسن والكمال لذلك تحصل ـ بتأثير بعض العوامل والعوارض ـ لبعض الناس ، هذه النسب ، الوهمية المتخيلة ، ولكن هذه المحاسن ـ في حقيقة الأمر ـ خالية بعيدة من جميع هذه النسب ، ولا صلة بين الحق والخلق ، إلاّ ما يتصور من صلة بين الدال والمدلول عليه ، والظاهر والمظهر ، وتؤدّي كثرة مراقبة التوحيد ببعض السالكين إلى إصدار هذه الأحكام الوهمية ، لأن صورة هذه المراقبات تنقش في القوة المتخيلة ، وتتثبت فيها ، ويحصل لبعض الناس ـ للإمعان في دراسة علم الوحدة ، ومذاكرتها ، وإجالة النظر فيها ـ ذوق خاص في هذه الأحكام ، ويدفع بعض الناس إلى هذه النزعة الوجودية ، والاعتقاد بالوحدة ، غلبة الحب عليهم ، لأن استيلاء حب المحبوب على القلب يطرد غير المحبوب ، فلا يرى في العالم إلاّ المحبوب ، وليس الواقع أن غير المحبوب معدوم ، إذ أنه معارض للعقل والحس والشرع ، وتدفع هذه المحبة نفسها أحياناً إلى الحكم بالقرب الذاتي والإحاطة الذاتية . . . وأن هذا النوع من التوحيد أرفع وأفضل من النوعين السابقين ، وداخل في دائرة « الأحوال » وإن كان لا يطابق الواقع ولا يتفق مع العقل ، وتطبيقها مع الشريعة والواقع ، تنطع وتكلف خالص ، وغاية ما في الباب أنه خطأ كشفي ، وهو في حكم الخطأ الاجتهادي يرتفع عنه العتاب واللوم ، بل يصوب أحياناً لغلبة الحال واستيلاء السكر »[1] .

---

(١) الرسالة رقم : ٣١ ، المجموعة الأولى كتبها الى شيخ صوفي .

التوحيد الشهودي (أو وحدة الشهود) :

ويقول الإمام في رسالة أخرى ، كتبها إلى الشيخ فريد البخاري :

« إن التوحيد الذي يحصل للصوفية في أثناء سلوكهم ينقسم قسمين : التوحيد الشهودي ، والتوحيد الوجودي ، والتوحيد الشهودي عبارة عن رؤية واحد ، أي أن لا يكون شهود السالك إلاَّ فرداً أحداً ، والتوحيد الوجودي عبارة عن اعتقاد وجود واحد ، وفناء كل ما سواه وعدمه » .

ثم يقول :

« مثل أن يطمئن قلب إنسان على وجود الشمس ، فلا يستلزم استيلاء هذا اليقين أن يعتقد عدم النجوم وفناءها ، ولكنه عندما يرى الشمس ولا يرى النجوم ، فإن مشهودد ـ حينئذ ـ ليس إلاَّ الشمس ، ولكنه رغم ذلك لا يعتقد أن النجوم فانية معدومة ، بل يكون على يقين من أنها مختفية ، ومغلوبة بضوء الشمس وشعاعه » .

ويضيف قائلاً :

« كان شيخنا المرشد الشيخ الكبير عبد الباقي ـ لمدة يسيرة ـ على مذهب التوحيد الوجودي ، وقد أبدى ذلك في رسائله ، ولكن العناية الربانية تقدمت به من هذا المقام إلى مقام أعلى ، وهدته إلى ذلك الصراط السوي ، والطريقة الفسيحة التي نجا بها من ضيق هذه المعرفة »[1] .

ويقول في رسالة أخرى ، مبيناً مذهب الشيخ ابن عربي وأتباعه :

« إنه يقول بـ « وحدة الوجود » ، ويرى أنه لا موجود في الخارج إلاَّ موجود واحد ، ليس غير ، وهو الحق ـ سبحانه ـ ولا وجود للعالم في الخارج ـ بتاتاً .. إلاَّ أنه يعتقد بتحققه العلمي ، ويقول : « الأعيان ما شمت رائحة الوجود » ويعتقد أن

---

(١) الرسالة رقم : ٤٣ ، المجموعة الأولى ، وهي موجهة الى الشيخ فريد البخاري .

العالم ظل الله ـ سبحانه ـ ولكن هذا الوجود الظلي ـ بزعمه ـ في مرتبة الحسّ ، أما في نفس الأمر وفي الخارج فعدم محض .

ويحكي الإمام السرهندي في نفس هذه الرسالة قصة انتقاله من مقام « وحدة الوجود » إلى « وحدة الشهود » ، فيقول :

« لقد كان كاتب السطور يعتقد أولاً في التوحيد الوجودي ، وكان على علم بهذا التوحيد من صغره ، وقد رسخ يقينه في قلبه ، إلاّ أنه لم يكن ـ عند ذلك ـ صاحب الحال في هذا المقام ، فلما شدا في طريق السلوك ، انكشف له طريق توحيد الوجود ، فجال في هذا المقام ومراتبه وصال ، لمدة طويلة من الزمن ، وفاز بعلوم كثيرة خاصة بهذا المقام ، وانحلت عقد تلك الواردات والخواطر المشكلة التي تعرض لسالكي طريق الوحدة ، بهذه المكاشفات ، والعلوم المفاضة الموهوبة ، ثم استولت على هذا الفقير بعد مدة غير قليلة نسبة أخرى ، فتردد في طريق توحيد الوجود في حال استيلاء هذه النسبة ، ولكن هذا التردد كان يرافقه حسن الظن ، لا الإنكار والجحود ، وبقي متوقفاً متردداً مدة طويلة من الزمن ، حتى بلغ به الحال إلى الإنكار ، وكشف له أن هذه المنزلة أدنى وأحط ، ووصل إلى مقام الظلّية الذي يفوقها ويفضل عليها ، وكان هذا الإنكار اضطراراً وعن اندفاع ، فإنه لم يكن يحب الخروج من هذا المقام ، لأن كبار المشايخ والعارفين ألقوا به عصا الترحال ، ولكنه لما بلغ مقام الظلّية ، ورأى نفسه والعالم كله ظلاّ ، تمنى أن لا يفارق هذا المقام ، لأنه كان يعتقد الكمال في وحدة الوجود ، ولهذا المقام مناسبة بها بالجملة ، ولكن كان من مقادير الله ، ولطفه وكمال شفقته عليه ، أن رقّاه وصعد به إلى مقام أسمى وأرفع ، هو مقام العبدية ، فتجلى له ـ عند ذاك ـ كمال هذا المقام وعظمته ، وجعل يتوب إلى الله ، ويستغفره من المقامات السابقة ، فلو لم يكن لطف الله أرشد هذا المسكين إلى هذه الجادة الواضحة ، ولم يكشف له تفوق مقام على مقام ، لكان يعتقد انحطاطه وسقوطه في ذلك المقام ، لأنه كان يرى أن لا مقام أفضل وأعلى من مقام « وحدة

الوجود » ، « والله يقول الحق وهو يهدي السبيل »[1] .

الرأي الوسط العادل عن الشيخ الأكبر :

يقول الإمام ـ رغم ما بيه وبين الشيخ ابن عربي من اختلاف ، مبيناً مذهبه ومنهجه :

« يرى هذا الفقير أن الشيخ محيي الدين بن عربي من الرجال المقبولين ولكنه يرى معارفه وعلومه التي يخالف فيها عقائد جمهور الأمة ، وظاهر الكتاب والسنة ـ خطأ وضرراً على قارئيها . . . وقد سلك الناس في أمره مسلك الإفراط والتفريط ، وابتعدوا عن التوسط والاعتدال ، ففريق من الناس يطعن في الشيخ ويجرحه ، ويخطئه في علومه ومعارفه ، وفريق قلده تقليداً كاملاً ، واعتقد جميع معارفه وعلومه حقاً وصواباً ، ويثبت صحتها وحقيقتها بالحجج والبراهين ، وما من شك أن كلا الفريقين وقع في الإفراط والتفريط ، وجانب الاعتدال » .

« ومما يعجب له أن الشيخ ابن عربي يبدو من المقبولين ، وتبدو أكثر معارفه وتحقيقاته التي جانب فيها أهل الحق خاطئة بعيدة عن الصواب »[2] .

ويذكر ـ في موضع من رسائله ـ الفارق الحقيقي بينه وبين عامة المثبتين أو النافين « لوحدة الوجود » ، فيقول :

« إن اختلاف هذا الفقير مع القائلين بوحدة الوجود ، عن طريق الكشف والشهود ، والعلماء يستقبحون هذه الأمور (كوحدة الوجود ، والنفي المطلق لما سوى واجب الوجود) أما الفقير فلا يتردد في الاعتراف بحسن هذه الأقوال والأحوال الصادرة من فكرة وحدة الوجود ، إذا أدّت بصاحبها إلى العبور ، (أي أن يعبر السالك هذا المقام إلى مقام أرفع)[3] .

---

(1) الرسالة رقم : ١٦٠ ، المجموعة الأولى ، كتبها الى الشيخ يار محمد الجديد البدخشي الطالقاني .

(2) الرسالة رقم : ٢٦٦ ، المجموعة الأولى .

(3) وهو مقام العبدية والتوحيد ، الذي جاء به الأنبياء (صلوات الله عليهم وسلامه) ، الرسالة رقم : ٤٢ ، المجموعة الثانية ، بعث بها الى الشيخ جمال الدين حسين .

الحاجة إلى معارضة وحدة الوجود والرد عليها :

وهنا يثور سؤال ، وهو أنه ما دامت « وحدة الوجود » مقاماً من مقامات السلوك ، ومرحلة انتقالية ، مرّ بها - في كل عصر - جم غفير من السالكين والعارفين ، فتوقف فريق كبير منهم عند هذه المرحلة وثبت عليها ، وقاد بعضهم التوفيق الإلهي ، والسعادة الربانية من هذه المرحلة ، إلى مقام « وحدة الشهود » ، فما وجه الاستنكار والاعتراض ؟ ، ولماذا يكرُّ عليها الإمام السرهندي بالرد والتفنيد ، ويستخدم قلمه السيال - في قوة وحماس - لتقرير وحدة الشهود وتفضيلها على « وحدة الوجود » ؟ .

وللإجابة على ذلك نقول : إنه نشأ هناك بين القائلين بنظرية « وحدة الوجود » والحاملين للوائها ، والدعاة المتحمّسين إليها - في عصر الإمام السرهندي ، وقبل عصره - عدد كبير من الصوفية المتزعمين ، الذين تحرروا من كل القيود والحدود الشرعية ، وخلعوا ربقة الفرائض ، والواجبات الإسلامية واعتقدوا أن كل شيء من عند الحق ، بل كله عين الحق ، فلماذا هذا التفريق والتمييز بين الحق والباطل ، والكفر والايمان ، والحلال والحرام ؟ ، وأن غاية أنفسهم مقام أسمى وأرفع لا يحظى بها إلا الكاملون الواصلون إلى حضرات القدس ، وهو مقام وحدة الوجود ، وقد كانت هذه الصبغة الوجودية- في القرن العاشر ، العصر الذي ولد فيه الإمام السرهندي ، وعقل ووعي ونضج روحياً وفكرياً - هي السائدة في الهند ، حتى كان الشعراء المتذوقون لهذه المعاني يتغنون بهذه العقيدة ، ويساوون بين الكفر والايمان ، بل قد يتعدون حدود ذلك إلى ترجيح الكفر على الايمان ، وكان الناس يرددون أبياتاً معناها :

« الكفر والايمان قرينان ، فمن لم يتمتع بالكفر لم يتمتع بالايمان » .

ثم قيل في بعض الكتب شرحاً لهذا البيت ، وإيضاحاً لمعناه :

« ثبت من ذلك أن الإسلام في الكفر ، والكفر في الإسلام ، يعني « تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل » فالمراد بالليل هو الكفر ، والمراد بالنهار الإسلام » .

وينقل في موضع آخر ، البيت الذي معناه :

« للعشق مع الكفر صلة وقرابة ، الكفر يتجلى في نفس الإشراق والتصوف » .

ثم يقول :

« أصبح العلم حجاباً أكبر ، ـ والمراد بهذا العلم هو العبودية التي هي حجاب أكبر ـ فإذا ارتفع هذا الحجاب ، اختلط الكفر بالإيمان ، والإيمان بالكفر وارتفعت العبادة والعبودية[1] .

هذه هي الخلفيات الخطيرة التي بعثت الإمام السرهندي على المحاسبة الدينية العلمية لهذه العقيدة ، وقد وهبه الله قسطاً كبيراً من الحمية الدينية الثائرة ، والغيرة « العمرية » الشديدة ، والذي كانت تتحقق به تلك النبوءة العظيمة في الحديث المشهور ، التي قيل فيها :

« يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين »[2] .

وقد قام بالنقد العلمي الموضوعي لهذه الفكرة التي تستخدم لنشرها وتعميمها كل وسائل النشر والإذاعة في ذلك العصر ، وفي بلاد الهند ـ بصفة خاصة ـ في حماس بالغ ، ونشاط زائد ، وبكل حرية وانطلاق ، وكان الإمام السرهندي يشهد بأم عينيه أن التمسك بالشريعة ، وتعظيم حرماتها ، وشعائرها نحو الزوال ، وأن التفكك

---

(١) انظر « رسالة عشقية » ، ص ٧٣ .
(٢) مشكاة المصابيح ، كتاب العلم

والانحلال يتسرَّبان إلى صفوف الأمة الإسلامية ، يقول في رسالة من رسائله :

« إن معظم أبناء هذا العصر - اعتماداً على التقليد أو على قوة العلم المحض ، أو اعتماداً على العلم الذي يختلط معه الذوق ، ولو في قدر محدود - أو بسبب الزندقة والإلحاد - تمسكوا بفلسفة « وحدة الوجود » فيعتقدون أن كل شيء من الحق ، بل هو عين الحق ، ويخلعون - بحيلة أو أخرى - عن رقابهم ربقة التكاليف الشرعية ، ويتساهلون في العمل بالأحكام الشرعية ، ويداهنون ، وهم فرحون بسلوكهم هذا ومطمئنون ، وأنهم إذا اعترفوا بضرورة العمل بالأوامر والنواهي الشرعية ، واعترفوا به كعمل ثانوي فرعي ، ويرون الغاية المبتغاة وراء طور الشريعة ، حاشا لله ، ثم حاشا لله ، أعاذنا من هذه العقائد الفاسدة السيئة » .

ويقول في نفس هذه الرسالة :

إن كثيراً من الناس ، الذين تلبسوا بلباس الصوفية ، في عصرنا هذا ، يعلنون عقيدة وحدة الوجود على ملأ من الناس ، ولا يعتقدون الكمال والرقي إلاَّ فيها ، فقد جانبوا بعملهم هذا وجه الحقيقة والصواب ، وحملوا أقوال المشائخ على ما يخطر في عقولهم من معان وأفكار ، ثم قلدوها ، واعتنقوها ، وهكذا جعلوا سوق أوهامهم وتخيلاتهم الكاسدة نافقة متحركة »[1] .

ميزة الإمام السرهندي وعبقريته :

ليست مأثرة الإمام التجديدية في إثباته بالدليل والبرهان أن نظرية « وحدة الوجود » التي كان لها القبول العام ، وكانت كالعملة السائدة ، لا تجدر بأن تكون مقياساً صحيحاً ، وغاية أخيرة في طريق السلوك والمعرفة ، بل إن ميزته وعبقريته في هذا الباب ، أنه تناول هذه النظرية بالنقد في ضوء تجاربه الشخصية ومشاهداته الذاتية ، وأثبت للناس أنه سبر أعماق هذا البحر الزاخر وأبعاده ، ونزل إلى قعره ثم

(١) الرسالة رقم : ٤٣ ، المجموعة الأولى ، بعث بها الى الشيخ فريد البخاري .

خرج ، وقد ساقه التوفيق إلى أن يجدف سفينـة المعرفـة والتحقيق إلى بر الأمـان ، وشاطىء السلامة ، وأنه يتعذر ـ في هذا المجال ـ أن يكون له زميل أو مثيل ، وقد أصاب المؤلف الغربي بيتر هاردي(Peter Hardy) رغم أنه ليس حجة في هذا الباب :

« إن سرّ النجاح العظيم الذي أحرزه الشيخ السرهندي يكمـن في أنـه قد خلّص الإسلام الهندي عن طريق التصوف من التطرُّف الصوفي ، ولعـل السبب وراء ذلك ، أن النظرية التي رد عليها وعارضها ، كان على إدراك شخصي عميق لمعانيها ومقاصدها ، وأهميتها وخطورتها »[1].

موقف العلماء والمشايخ السلمى بعد الإمام السرهندي
تجاه نظرية وحدة الوجود :

وقبل أن ننتهي من هذا الباب لا بد من إعلان هذه الحقيقة التاريخية كمؤرخ محايد ، إنه لم تبق هناك بعد وفاة الإمام السرهندي ـ باستثنـاء سلسلتـه وطريقتـه الخاصة التي انتشرت على أيدي ابنه الشيخ محمد معصوم في الهند وخارج الهند ـ نزعة واضحة حاسمة فيما يتعلق بنظرية وحدة الوجود ، ولم يبـق ذلك اليقـين والإيمـان بصحة نظرية « وحدة الشهود » التي رفع الإمـام السرهندي لواءها ، وكان يقول بها على بيّنة ويدعو إليها على بصيرة ، ونشأت بعد وفاته نزعة جديدة في أوساط التصوف والطرق الصوفية ، والأوساط التي كانت تنتمي إليها هي : نزعة التوفيق والتطبيق بين النظرتين ، حتى قال بعض كبار العلماء المحققين : « إن هذا النزاع كان نزاعاً لفظياً صرفاً » ، وقال بعضهـم : « إن الإمـام السرهنـدي أخطـأه التوفيق في هذا المجال ، وأنه لم يطّلع على جميع مؤلفات الشيخ الأكبر ، ابن عربي » ، ولأجل ذلك ألف الشيخ غلام يحيى البهاري (م ١١٨٠ هـ) أحـد مريدي الشيخ الأجـل مرزا

---

(1) Sources of Indion Tradition. N.Y.P - 449

مظهر جان جانان (أحد المشايخ الكبار في السلسلة المجددية) بأمر منه ، كتاباً بعنوان « كلمة الحق » صرح فيه بتحقيق الإمام السرهندي ، وبينه بياناً شافياً ، ورد على تلك النزعة التطبيقية التي كان بعض أوساط السلسلة المجددية أيضاً يحاول على أساسها التوفيق بين وحدة الوجود ، ووحدة الشهود .

الإمام أحمد بن عرفان الشهيد
على أثر الإمام السرهندي :

وإذا كان هناك في هذه السلسلة المجددية العالية بعد وفاة الإمام ـ شيخ من المشايخ العارفين المحققين ، يدعو إلى نظرية « وحدة الشهود » الواضحة النيرة ، ويسير على آثار الإمام السرهندي ، فهو شيخ السلسلة المجددية الأحسنية[1] المعروف ، الداعي إلى الله ، والمجاهد في سبيل الله الإمام أحمد بن عرفان الشهيد الرائي بريلوي[2] (ت ١٢٤٦ هـ) .

---

(١) وهي سلسلة الشيخ السيد آدم البنوري ، خليفة الإمام السرهندي ، التي تسمى السلسلة الآدمية ، والسلسلة الأحسنية .

(٢) ويمكن أن يكون ذلك نتيجة الميول التي ورثها عن آبائه ، لأن جده الرابع الشيخ الأجل السيد علم الله الحسني ، كان خليفة الشيخ السيد آدم البنوري ، كما يمكن أن يكون نتيجة بحثه وتحقيقه ، واجتهاده الذي كان جديراً به .

الباب السابع

جهود الإمام الدؤوبة الصامتة في توجيه الدولة إلى الإسلام من جديد

العلماء والمشايخ الشجعان الصرحاء
في عهد « أكبر » و « جهانكير » :

ونرى من الواجب ـ قبل أن نذكر تلك الجهود الموفقة التي بذلها الإمام السرهندي ، والتي غيرت مجرى الدولة وحولت تيارها العنيف ـ أن نصرح بحقيقة مهمة ، وهي أنه لا يصح التصور عن عهد الملك أكبر ، أنه كان يسود الهند ، خلال هذا الاضطراب ـ الذي يشبه الاضطهاد ـ صمت كامل ، ويخيم عليهم من أقصاها إلى أقصاها ، هدوء تام في صفوف العلماء ، ولم يكن هناك من ينتقد « أكبر » ، ويعترض عليه ،ويعمل بالحديث المثير ولو بأدنى درجة من درجاته :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان »(١).

فنذكر ـ فيما يلي ـ رجالاً تشهد كتب التاريخ والتراجم ، بأنهم بذلوا جهودهم ، وأبدوا استنكارهم لهذه الأوضاع في نطاق عملهم وقدر مستطاعهم ، وجاهروا بعواطفهم الدينية وحميتهم الإسلامية .

ذهب الشيخ ابراهيم المحدث الأكبر آبادي (م ١٠٠١ هـ) ـ ذات مرة ـ إلى معبد الملك الأكبر على دعوته ، فلم يأت بالآداب والتحيات التقليدية للملك ، التي

---

(١) متفق عليه .

كانت مخالفة للشريعة ، ثم خطب عنده ، فرغبه ورهبه ، وذكره بالله ، ولم يتهيب الشوكة والحشمة الملوكية[1] . وغادر الشيخ حسين الأجميري ، الذي توفي بعد عام (١٠٠٩هـ)، مدينة أجمير استنكاراً لمجيء الملك أكبر هناك ، وساخطاً عليه ، فعزله الملك أكبر عن نظارة زاوية جده الشيخ الكبير معين الدين الجشتي وضريحه ، وأمر بجلائه إلى الحجاز ، فلما رجع إلى الهند ، لم يباشر سجدة التحية له ، غضب عليه السلطان ، وأمر بحبسه في قلعة بكّهر ، فلبث بها بضع سنين ، ثم أطلقه ، فلما مثل بين يديه أبى أن يحييه على الوجه المرسوم ، ولم يقبل هدية السلطان[2] .

وغضب السلطان ـ مرة ـ على الشيخ سلطان التهانيسري ـ الذي كان من أصحاب الحظوة والتقرب لديه ، وكان السلطان أمره ، بترجمة « مهابهارت » ـ الكتاب المقدس عند الهنادك ، في اللغة السنسكريتية ـ إلى اللغة الفارسية ، وكان سبب هذا الغضب اتهام الهنادك إياه بذبح بقرة ـ وكان ذبحها محظوراً في القانون « الإلهي » الجديد ـ وأمر بجلائه إلى بهكّر ، من أرض السند ، وولاّه على كروركيري » ، أي جعله محصلاً للخراج بها ، ثم بلغ السلطان عنه بعض الشكاوي ، التي كانت تتعلق بموقفه الإسلامي الخالص ، فأمر السلطان بإعدامه ، ونفّذَ فيه الحكم عام ١٠٠٧ هـ[3] .

وأكبر خطوة جريئة ومغامرة قام بها الشيخ شهباز كنبوه (م ١٠٠٨ هـ) الذي كان من كبار الأمراء في بلاط السلطان أكبر ، وتولى أخيراً ـ منصب « ميربخشي[4] » ، وكان ذا جرأة ونجدة لا يقصر عن قول الحق عند السلطان ، ولا يخافه ، ولا يبالي برضاه أو سخطه في الأمور الشرعية ، فلم يقصر اللحية ، ولم يشرب الخمر ، ولم

(١) انظر « نزهة الخواطر » ج ٥ .

(٢) انظر « نزهة الخواطر » ج ٥ ، ترجمة الشيخ حسين الأجميري .

(٣) منتخب التواريخ ، وكان الشيخ التهانيسري والد زوجة الإمام السرهندي .

(٤) الأمير الكبير الذي يرجع إليه أمر العساكر السلطانية المعيّنة في تلك الولاية . وأمر « الداغ » أي وسم الخيل ، والتصحيح ، وغير ذلك من المهمات العسكرية ، وهو من أمراء الألوف (الهند في العهد الإسلامي) .

يرغب في الدين الإلهي المخترع قط » .

وقال شاه نوازخان في « مآثر الأمراء » : « إن أكبر شاه السلطان كان يتفرج يوماً بين العصر والمغرب ، على بركة ماء بفتحبور ، وكان شهباز خان بين يديه ، فأخذ بيده والتفت إليه ، وكان يمشي ويتكلم معه ، والناس كانوا يزعمون أن شهباز لا يستطيع أن ينزع يده عن يد السلطان ، فتفوته الصلاة ، وكان من عادته أن لا يتكلم بعد العصر إلى المغرب ، فلما رأى شهباز أن الشمس قد مالت إلى الغروب استأذن السلطان للصلاة ، ، فقال السلطان : تداركها بالقضاء ، ولا تتركني خلياً ، فنزع شهباز يده ، وبسط مئزره على الأرض واشتغل بالصلاة ، ثم بالأوراد الراتبة والسلطان واقف على رأسه يشدِّد عليه ، وتواجد مير أبو الفتح ، والحكيم علي الكيلاني أيضاً في تلك الساعة فشعرا بدقة الموقف فتقدما وقالا ـ لصرف نظر السلطان وغضبه عنه ـ نحن نستحق أيضاً ، أن يلتفت إلينا السلطان ، فسكن غضبه ، وانصرف عن شهباز خان ، والتفت إليهما[1] .

وكان الشيخ عبد القادر الأجّي كذلك من أصحاب النجدة والجراءة ، لم يوافق السلطان في مخالفة الشريعة ، قدَّم إليه أكبر ـ ذات يوم ـ الأفيون ، على جري عادته ، فامتنع عن بلعه ، فأنكر عليه السلطان ، فبينما هو قد فرغ من الصلاة المكتوبة يوماً في « عبادت خانه » ـ القصر الذي بناه أكبر للعبادة ـ واشتغل بالنوافل ، إذ خرج عليه أكبر ، وقال ينبغي لك أن تَتَنَفَّلَ في بيتك ، فقال عبد القادر : يا مولانا ، هذا ليس بملك فيكون تحت سلطانك ، فغضب عليه السلطان وقال : إذا لم تكن ترضى عن ملكي ، فاخرج عنه ، فخرج الشيخ من ساعته ، ورحل إلى مدينة « أج » ، وعكف على الإفادة والعبادة[2] ، وكذلك سميه عبد القادر اللاهوري (م ١٠٢٢ هـ) الذي كان السلطان ساخطاً عليه لتصلبه في الدين ، وشدة تمسكه بالشريعة ، فأمره أن يسافر إلى مكة المكرمة[3] .

---

(١) نزهة الخواطر ، ج ٥ ، ترجمة شهباز خان .

(٢) و(٣) أيضاً ، وراجع هؤلاء المذكورين .

ومنهم مرزا عزيز الدين الدهلوي كوكه (م ١٠٣٣ هـ) الذي كان تربا لأكبر وأخاه من الرضاعة ، يحبه « أكبر » حباً مفرطاً ، ويقدمه في كل باب ، وكان عزيز الدين - مع ذلك - يغلظ القول عليه فيما يأمره وينهاه ، لا سيما فيما يخالف الشرع ، فعزله عن ولاية كجرات ، ثم ولاه على بنكاله وبهار ، ولقبه بالخان أعظم وكان رغم ذلك ، لا يستحسن بعض ما اخترعه من السجدة بحضرته ، وحلق اللحية وغيرها ، ومنهم الشيخ منور بن عبد الحميد اللاهوري (م ١٠١٥ هـ) ولاه أكبر الصدارة عام ٩٨٥ هـ بأرض مالوه ، ولكن لم يدم له هذا الحال ، لصلابته في الدين ، واستقامته في السلوك ، وضيق عليه في السجن حتى مات[1] .

واستمرت - بعد جلوس السلطان جهانكير على عرش الدولة - القوانين والطقوس التي اخترعها أكبر ، وكانت نافذة في عصره إلى مدة غير يسيرة ، فكانت تسود الدولة نفس الأساليب - والأعمال - عدا المعارضة الصريحة للإسلام - التي كانت من قبل ، إلى أن مال السلطان جهانكير إلى تعظيم الشريعة الإسلامية ، واحترام شعائرها ، وقد تصدّى عدد من العلماء والمشايخ أثناء تلك الفترة من عهد جهانكير - للإنكار على هذه التقاليد والقوانين ، وخاطروا بأنفسهم في رفض تلك التقاليد والآداب الملوكية ، التي كانت تعارض الدين والشريعة الإسلامية البيضاء ، ولم يرضوا لأنفسهم بأن يتجاوزوا حدود الله ، ولم يتلعثموا في الجهر بكلمة الحق ، فكان الشيخ أحمد بن محمد بن إلياس الحسيني الغرغشتي أحد مشايخ الطريقة في الحدود الشمالية الغربية للهند ، طلبه جهانكير بين يديه ، فلم يرض أن يحييه بالآداب المرسومة ، فحبسه في قلعة كواليار ، فلبث بها ثلاث سنين ثم أطلق سراحه عام ١٠٢٠ هـ ، واستصحبه إلى آكره .

ميزة الإمام السرهندي من بين هؤلاء

ولكن الفضل الأكبر في مقاومة انحراف الدولة وضلالها ، ومعارضتها بقوة

(١) المصدر السابق نفسه ، وراجع تراجم هؤلاء المذكورين .

وتنظيم ، والجهود الموفقة الحكيمة في إصلاحها وتقويمها يرجع إلى الإمام السرهندي الذي قيضه الله ـ عز وجل ـ لصيانة الدين ، ونصر الإسلام والمسلمين ، وقدر أن يناط به هذا العمل التجديدي العظيم ، الذي واصل ليله بنهاره في إكمال هذه الخطة التجديدية ، وإحداث تلك الثورة الصامتة الهادئة التي لم تهرق فيها الدماء وغيرت مجرى التاريخ ، ولا يوجد لها نظير في تاريخ الدول والبلاد الإسلامية الأخرى ، وكان نتيجة هذه الجهود أن تولى الدولة ـ بعد وفاة السلطان أكبر ـ من كان خيراً منه وأفضل ، يمتاز بحميته للإسلام ، وتعظيمه لحرمات الدين ، وسلامته من الجراثيم المناوئة للإسلام، والكراهية له ، وانتهت هذه السلسلة الذهبية ، وبلغت الأوج والكمال على يد السلطان محيي الدين أورنك زيب الذي مكان مثله الأعلى حياة الخلفاء الراشدين ، وخدمتهم للاسلام والمسلمين .

جلوس السلطان جهانكير على عرش الدولة
واستئناف الإمام السرهندي عمله التجديدي لإصلاح الدولة والسلطان :

مات السلطان جلال الدين أكبر عام ١٠١٤ هـ ، وكان الإمام السرهندي ـ إذ ذاك ـ في الثالثة والأربعين من سنّه ، لقد كانت الأيام الأخيرة من حياة السلطان أكبر ـ التي أحدقت فيها الفتن والأخطار بالهند ، وهُدِّد الإسلام بالزوال والانقراض ـ هي الفترة التي بلغ فيها الإمام السرهندي كماله الروحي ، ونضجه الفكري ، وذروة الصفاء والربانية ، ولم تكن له أي صلة بأركان الدولة وأمرائها ، كما أنه لم يحن الوقت الذي يطلع فيه أهل البلاط على جلالة شأنه ، وعظم منزلته ، وإخلاصه ، وربانيته ، وكماله الباطني ، ولأجل ذلك كان الإمام السرهندي لا يجد الطريق لبداية عمله ، وإزجاء مشاعره وانطباعاته ، وتسريب خواطره ، وأحاسيسه إلى البلاط الملكي ، وتأثيره على سياسة الدولة العامة ، فيما يتعلق بالدين والقانون ، وكان يستولي على البلاط ، وعقلية السلطان ونفسيته ، وعلى التنظيم والإدارة ـ عند ذاك ـ الأشخاص الذين كانوا يحولون بين السلطان وبين كل رجل متدين مخلص ،

(٢) نزهة الخواطر ، ج ٥ ، ترجمة أحمد بن محمد البجواروي .

وقد أقاموا سوراً حديدياً حول البلاط ، حتى لا تصل إليه نفحة طيبة منعشة ، ونسمة خالصة نقية من الخارج ، ولا يعرف السلطان وحاشيته ما يدور في البلاد وما يختلج في نفوس الرعايا من كره أو حب ، أو سخط أو رضا ، وكان الإسلام والمسلمون في هذه البلاد الواسعة ـ التي قامت فيها حكومات مسلمة قوية في اتصال واستمرار ـ يعانون ما صوره القرآن الحكيم في تعبيره البليغ المعجز :

﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه ﴾[1].

ولكن لم يبق الوضع على ذلك بعد أن أخذ السلطان جهانكير زمام هذه البلاد بيده عام ١٠١٤ هـ ، ولئن كان جهانكير ـ لعوامل خاصة من التعليم والتربية في إشراف والده السلطان أكبر ـ لا يمتاز بصلاح ونزعة دينية ملحوظة ، وتقيد بالشريعة الإسلامية ، والتزام للفرائض والواجبات الدينية ، فإنه لم يكن ـ كذلك ـ يحمل في صدره البغض والاستيحاش من الإسلام ، أو الشغف والتأثر بحضارة قومية ، أو فلسفة من الفلسفات الدينية ، والرغبة في إعلان دين جديد ، وقانون جديد ، وتنفيذهما ، وبتعبير آخر ، أنه إن لم يكن حامياً لبيضة الإسلام ، ذاباً عن حماه لم يكن كذلك راغباً في محو آثاره ، وطمس معالمه ، فإن السلاطين المغرمين باللهو والمجون ، والمعيشة الفارهة الباذخة ، لا يُعنَون ـ بصفة خاصة ـ بإزالة النظم السائدة ، وإحلال النظم الجديدة مكانها ، بل إنما كلُّ همّهم في حياة الأفراح والليالي الملاح ، وعز السلطان ، وفخفخة الدولة ، وقد شوهد فيهم في مطاوي النفس إعجاب وإكبار لأولئك الرجال الذين يتسامون بأنفسهم عن هذا المستوى المادي ، ولا يلتفتون إلى بهرج الدنيا وزينتها ، ويستغنون عن الجاه والمنصب ويكون لديهم استعداد أكثر لقبول الحق منهم ، والخضوع له ، من أولئك الذين يدعون إلى حركة ويتبنون فلسفة جديدة ، أو يطمحون إلى أن يكون لهم ذكر في التاريخ أو شهرة في الناس كمخترع طريقة ، أو مبتكر مذهب خاص .

(١) سورة التوبة ـ ١١٨

المنهج الصحيح :

كانت في هذه الفترة ـ أمام الإمام السرهندي وجميع العلماء الغيارى على الإسلام ـ الذي كانوا يتحلّون بالعلم الديني ، والصلاح الباطني ، وكانوا مشغولين بخواصّ أنفسهم ويقطعون فيافي السلوك إلى الله ، وتملك قلوبهم ومشاعرهم الحمية الدينية الثائرة ، والغيرة الإسلامية المتأجّجة لمواجهة هذه الأوضاع التي كانت تظل الدولة وتحيط بها ـ ثلاث طرق :

١ ـ الطريقة الأولى ، أن يعتزلوا الدولة والبلاد ، ويتركوا حبلها على غاربها ، ويلجأوا إلى زاوية ، يشتغلون فيها بذكر الله ـ في سكينة وطمأنينة ـ وتربية الطالبين وإرشاد السالكين ، والانهماك في الطاعات والعبادات ، كان هذا هو الطريق الذي اختاره ـ في عهد الإمام السرهندي ـ عشرات بل مئات من العلماء والمشايخ ، وكانت لهم رباطات وزوايا في كل بقعة من البقاع ، حيث كانوا منصرفين إلى التربية والإرشاد في هدوء وصمت وانهماك ، وكان الطالبون والمسترشدون من عباد الله يشدون إليهم الرحال ، ويستفيدون منهم فوائد روحية ، وإيمانية كبيرة .

٢ ـ الطريقة الثانية ، أن يقطعوا الرجاء ـ بصورة حاسمة ـ من إصلاح السلطان ـ الذي كان انتماؤه إلى الأسرة الإسلامية إسمياً ـ ويعتبروه معارضاً عنيداً للإسلام تشهد بذلك كثير من القوانين والمراسيم الملكية ، وسيرته وسلوكه ، وييئسوا من إصلاح الدولة ، فيلجأوا إلى إقامة جبهة دينية معارضة مقابل الدولة والسلطان وإلى محاربته ، والنضال المستمر معه نظراً إلى أنه عدو لدود للإسلام ، ومعارض دائم للدين .

وأن يجمعوا حولهم رجالاً تغلي فيهم الحمية الدينية ، وتستولي على مشاعرهم عواطف الجهاد والاستماتة في سبيل الله ، ويتميزون غيظاً من الأوضاع الراهنة ، من الأمراء والأتباع والمريدين ، والمحبين والمعجبين بهم ، ويحدثوا ـ بعد ذلك ـ ثورة في

الدولة ، بالإجراءات السياسية والعسكرية ، ويحاولوا أن يولوا السلطة رجلاً صالحاً ديّناً ـ ولو كان من الأسرة المغولية ، ومن أبناء « بابر » ـ يغير وجهة الدولة ، فتتغير الأوضاع ، وتتحسن الظروف .

٣ ـ الطريقة الثالثة ، أن يتصلوا بأعضاء الدولة وأمرائها ، ويثيروا الحمية الإسلامية ، والعواطف الدينية ، فيمن عرفوهم واتصلوا بهم من قبل ، ويعتقدون في إخلاصهم ، وسمو شخصيتهم ، وتوجعهم للأوضاع وينفضوا الرماد عن تلك الجمرات الكامنة في قلوبهم ، ويشعلوها وينفخوا فيها ، ويحرضوهم على النصيحة للسلطان ، وأن يحركوا تلك العروق الإسلامية التي ورثها عن آبائه ، وأجداده المؤمنين ، ويحملوه على حماية حوزة الإسلام ، وتضميد القلوب الجريحة للمسلمين وتدارك العهود الماضية ، وأن يسموا بأنفسهم ويترفعوا على الجاه والمناصب ، ويثبتوا للناس زهدهم وتقشفهم في الحياة واستغناءهم عما في أيدي الناس ، ويكلوا الدولة إلى أهل الدولة ، والمناصب إلى أهلها ، والمتبوئين عليها ، ويتظاهروا بإخلاص ونزاهة ، وسمو نفس لا ترقى إليه شبهة ، ولا يقدر أشد الناس معارضة لهم ، وأكثرهم كيداً وحسداً ، أن يتهمهم بالحرص والطمع في الجاه والسلطان ولا تنجح أي مؤامرة لإسقاط شأنهم وحط منزلتهم .

أما الطريق الأول فما كان يلائم طبيعة الإمام وعلو همته وشدة عزيمته ، وعظيم مكانته التي بوأه الله ـ تعالى ـ إياها ، ولا ينسجم معها أيما انسجام ، فقد كان الإمام السرهندي ـ بعد أن فاز بالتكميل الباطني ، والتربية الروحية العالية ـ على ثقة ويقين تام ، بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هيأه لأمر عظيم ، وأن لم يخلق للعبادات الفردية المكتوبة ، والتقدم في المراحل الروحية ، فحسب ، أو بشياخة الطرق ، وإرشاد السالكين فحسب ، وقد أباح سرّه وتحدث عن نفسه عندما أشار إلى قول من أقوال الشيخ الكبير الشيخ عبيد الله أحرار (م ٨٩٥ هـ) الذي كان شيخاً رفيع المكانة من مشايخ سلسلة الإمام السرهندي ،

بل يعتبر إمام هذه السلسلة ـ يقول :

كان الشيخ عبيد الله الأحرار يقول :

« لو تصديت للشياخة والإرشاد ، وأخذ البيعة من الناس لما وجد أي شيخ من مشايخ الطرق ، من يبايعه ، وينخرط في سلك مريديه ، ولكن الله ـ تعالى ـ أراد بي أمراً آخر ، وهو نشر الشريعة السمحة ، وتأييد الملة الحنيفية » .

ثم يقول الإمام تعليقاً على ذلك :

« كان (الشيخ الكبير عبيد الله) يدخل على السلاطين ويحضر في مجالسهم ، ويؤثر فيهم بقوته الباطنية ، وملكته الروحية ، فينقادون له ، ويطيعونه ، ثم يستعين بهم في نشر الشريعة » .

أما الطريق الثاني ، فإنه لا يسلكه من الدعاة أو القادة إلا صاحب عقلية سياسية ، قاصر النظر ، محدود التفكير الذي يبدأ عمله من الشك وسوء الظن ، ويجعل الحكومة ـ بتسرعه وترجيح إقامة الجبهة المعارضة على حكمة الدعوة ، وعاطفة الإصلاح والنصيحة ـ تقف إزاءه وجهاً لوجه ، وتعارضه من أول الطريق ، وهو بذلك يضيق عليه الأرض بما رحبت ويقلل إمكانيات انتصار الدين وهيمنة الشريعة وليس هذا طريق الداعي الموفق إلى الله الذي لا يريد لنفسه ولحزبه علواً في الأرض ، وسيطرة على الحكم بل كل همه أن يظهر الدين وتنفذ أحكام الشريعة ، وتصلح الدولة ، كائناً من كان المنفذ لهذه الأحكام المسيطر على البلاد .

وكان القيام بتكوين جبهة معارضة للدولة ، وإعلان الحرب عليها محفوفاً بالصعوبات والأخطار ، وكانت هذه الخطوة ـ في الأوضاع السياسية السائدة في البلاد ـ نوعاً من الانتحار في حق الإسلام ، لأن الدولة المغولية ، التي وطّد أركانها السلطان بابر وثبت جذورها بيديه ، وتجشم لها الملك همايون مشاق الرحلة الخطيرة إلى أيران ، وأحكمها وقواها السلطان أكبر بفتوحه ، وانتصاراته المتتالية ، وتسخير

البلاد ـ كانت شابة فتية ، لم تبد فيها آثار الضعف والهرم ولم يستطع السلطان سليم شاه خليفة الملك العصامي السلطان شيرشاه السوري أن يقضي عليها ، وأخفقت كل المحاولات ـ في فترات مختلفة ـ للثورة وقلب نظام الحكم ، ثم إذا نجحت الجهود لخلع السلطان المغولي ، كان من المتوقع جداً ، أن يستولي الراجبوت ـ الذين تولوا في عهد السلطان مناصب عالية خطيرة في الدولة ـ وكانت قوتهم العسكرية هي الوحيدة التي كان السلطان يثق بها ويعتمد عليها ـ على الحكم ، فيكون ذلك ضربة قاصمة للسلطة المسلمة في هذه البلاد إلى الأبد .

ثم إن هذه التجربة لقيت إخفاقاً ذريعاً ، من قبل ، فقد قامت ـ في عهد السلطان أكبر ـ حركة دينية ، منظمة كبيرة تحت قيادة الشيخ بايزيد ـ باسم الفرقة الروشنائية ـ وقد تقدم ذكر شيء من تاريخها وعقائدها ـ وحاربت هذه الفرقة جيوش الدولة المغولية الجرّارة ، طوال أعوام وسنين ، واستولت على ممر خيبر ، بعد أن جعلت مقرها « جبل سليمان » وشنت غارات على المناطق المجاورة ، وبعث السلطان أكبر لمقاومتها « راجه مان سنكهه » و « راجه بيربل » وزين خان ، وكلهم باؤوا بالخيبة والهزيمة ، وقتل بيربل في معركة من المعارك واستولت الفرقة الروشنائية بجيشها اللجب على غزنين ، ولم يمكن التغلب على هذه الفتنة الداهية إلا في عهد السلطان جهانكير ، ثم قضى عليها قضاءً باتا في عهد السلطان شاهجهان ، ورغم كل ذلك ، لم تنتج هذه الثورة إلاّ فوضى واضطراباً ، واستسلمت ـ أخيراً ـ للدولة المغولية ، وبقي اسمها يذكر في التاريخ .

إن مثل هذه الإجراءات العسكرية باسم إصلاح الأوضاع الفاسدة ، تستهدف للظنون السيئة ، والشكوك المريبة عند أصحاب السلطة والحكومات فيشمرون عن ساق الجد ـ لظنهم أن الدين هو المعارض المناوىء لسلطتهم ـ لاستئصاله والقضاء عليه ، ويتتبعون أتباعه والمتحمسين له ، فيصفونهم ويبيدونهم إبادة كاملة ، ولعل الإمام السرهندي لأجل ذلك ـ بعد خروجه من معتقل كواليار ،

ومرافقة العسكر الإجبارية أربع أو خمس سنين ، أشار على الوزير الشهير في بلاط السلطان جهانكير الأمير مهابت خان عندما قام بالثورة عام ١٠٣٥ هـ على الدولة أن يكف عنها ، ولا يثير الاضطراب ، فكان دليلاً واضحاً على فراسته الإيمانية ، والتوفيق الرباني الذي كان حليفه ، إنه ما اختار - لاحداث تغيير جذري في الأوضاع - هذا الطريق المشبوه المحفوف بالأخطار ، بل سلك طريق البناء بدل الهدم ، والايجاب بدل السلب ، والإمالة بدل الإزالة ، الطريق الذي كان بمأمن من كل خطر وضرر .

ولم يبق بين يدي الإمام إلاّ طريق واحد ، وهو أن يبدأ باتصالات خاصة ، مع أركان الدولة وأعيانها - الذين كانوا مسلمين - وكان الإمام السرهندي يعرف بذكائه الموهوب - معرفته العميقة للنفوس ، إنه لم يكن لهم في هذه المؤامرة والكيد على الإسلام في عهد السلطان أكبر ، ناقة ولا جمل ، بل كانوا يستنكرون كثيراً من إجراءاته ، ولكن السلطة لم تكن بأيديهم حتى يعملوا شيئاً ، وكان عدد منهم يتصف بالحب العميق للإسلام ، والحمية الدينية ، وعدد آخر كانوا معجبين بشيخ الإمام ومرشده الشيخ الكبير عبد الباقي ، ويحبونه ويعتقدون في علو مكانته ، وإن لم يكونوا من مريديه ، والمبايعين على يديه ، وكانوا يعرفون إخلاص الإمام السرهندي ، وتحرقه للإسلام وتوجعه للدين ، و ورهده وعفافه .

وكان أشهر هؤلاء الأعيان ، وأجلهم شأناً النواب السيد مرتضى المعروف بالشيخ فريد (م ١٠٢٥ هـ) وخان أعظم مرزا كوكه (م ١٠٣٣ هـ) وخان جهان اللودهي (م ١٠٤٠ هـ) وصدر جهان البهانوي (م ١٠٢٧ هـ) والآله بيك جهانكير .

ما صدر من القلب نفذ إلى القلب :

وَجّه الإمام السرهندي خطابه إلى أركان الدولة وكبار الأمراء والوزراء ،

واستأنف المراسلة معهم ، ونثر قطع قلبه ، ومُزع نفسه على صفحات الرسائل ، التي تمتاز ـ بين مجاميع الرسائل التي كتبت في لغة من لغات العالم وفي تاريخ أي حركة دينية إصلاحية ـ ببلاغتها ، ونصاعة أسلوبها ، وروعة تأثيرها ، وتدفق معانيها ، وقد تجلى فيها تألم منشئها للوضع والواقع ، وإخلاصه واستحواذ الفكرة عليه في أروع مظاهره ، ولا تزال ـ رغم مضي مئات السنين عليها ـ تحمل ذلك التأثير والروعة ، والجمال ، يقدر بملاحظتها القارىء ما كان لها من فعل وتأثير في نفوس من وجّهت إليهم ، والواقع أن هذه الرسائل هي رسول الإمام السرهندي ، وسفيره في الدعوة والتبليغ ، وترجمانه الصحيح لقلبه المكلوم الجريح ، وهي قطرات دموعه ، وفلذات أكباده ، وقد كانت لها مساهمة أساسية فعالة في إحداث ذلك الانقلاب العظيم الذي ظهر في الدولة المغولية في القرن العاشر بالهند .

الرسائل الدعوية المحرضة إلى أمراء الدولة :

إن عدداً كبيراً من هذه الرسائل بعث بها الإمام السرهندي إلى الأمير السيد فريد[1] ، الذي كان يتمتع بمكانة مرموقة في أركان الدولة ، وأمراء الولايات ، وكان مستشاراً خاصاً ، وصاحب حظوة وزلفى في الدولة ، من عهد السلطان أكبر ، وكان معجباً بالشيخ عبد الباقي ، محباً له مع الإجلال والاحترام وانتهز الإمام هذه الحمية

(١) هو الأمير الكبير مرتضى بن أحمد أبي بكر البخاري المعروف بنواب فريد الدين ، أحد أجواد الدنيا ، لم يكن له نظير في زمانه في السياسة والتدبير ، والسخاء والكرم ، والمحبة لأهل الفضائل والميل إلى معالي الأمور ، أدرك أكبر بن همايون في صغر سنه ، فتقرب إليه وتدرج إلى الإمارة حتى نال « الميربخشي كري » (وهو الذي يرفع إليه أمر العساكر ويعين لها الرواتب) ثم لما ولي المملكة ولده جهانكير أضاف في منصبه ، ولقبه بصاحب السيف والقلم ، وولاه على كجرات أولا ، ثم على بنجاب ، فأقام بها مدة حياته ، وكان أجود الناس ، وأنفعهم خيرا ، لم يخيب سائله قط حتى كان يبذل عليهم قباءة ، ودثاره ، ورداءه ، وما كان عليه ، وكان قد وظف الأيامى والمتوكلين ، وأهل الحاجة ، من يومية وسنوية ، وكان يكفل اليتامى ويربيهم كتربية الآباء للأبناء ويزوج البنات العوانس ، ويجهز لهن ، وكان يأكل على سفرته قرابة ألف وخمسمائة نفس كل يوم، وسميت مدينة « فريد آباد » (بقرب دهلي) نسبة إليه ، توفي في عام ١٠٢٥ هـ . (ملخص من ترجمته في « نزهة الخواطر » ، ج ٥) .

الدينية فيه وشرف نسبه ، وحرضه ـ مذكراً إياه بما خصه الله به من صفات النبل وكرم المحتد ـ على أداء مسئوليته الدينية ، وما يفرض عليه كونه من أهل بيت النبوة من واجبات إسلامية ، وأن ينصح السلطان جهانكير ، ويشير عليه بما يغير مجرى الدولة من سيرها على خطة الملك أكبر ، وغفلتها من مقتضيات الإسلام ، وقلة الاهتمام بشأن الدين ، وما يعاني الإسلام والمسلمون من غربة ووحشة ، ويوجهها إلى تعظيم شعائر الدين الحنيف ، وحماية بيضة الإسلام ، واحترام الأحكام الشرعية والتعاليم النبوية .

ولا تحمل هذه الرسائل ـ للأسف ـ تاريخ كتابتها ، وإلاّ تعرفنا على جوانب كثيرة ، من حكمة الدعوة ، والتقدم التدريجي فيها ، ووقفنا على سلسلة هذه المراسلة ، وكيف وجّه الإمام السرهندي من خاطبه في رسائله توجيهاً تربوياً وماذا عملوا هم للتأثير على السلطان ، ثم كيف قام السلطان بتغيير وجهة الدولة إلى صيانة الإسلام وحمايته ، وكيف بدأت مخلفات الحكومات السابقة ورواسبها تضمحل وتتلاشى ـ تدريجياً ـ ويحل محلها احترام الإسلام ومعرفة قدره وأهميته، والميل إليه .

ونحن نحاول ـ حسب تقديرنا ـ أن نقدم هذه الرسائل مرتبة ترتيباً تدريجياً ، إلى حد ممكن .

يقول الإمام السرهندي في رسالة بعث بها إلى الأمير السيد فريد البخاري فور جلوس السلطان جهانكير على عرش المملكة ، كما يبدو :

يدعو له باستقامته على جادة آبائه الميامين وبخاصة جده سيد المرسلين ـ ﷺ ـ ثم يقول :

« إن السلطان في الدنيا ، كالقلب في البدن ، فإذا صلح القلب صلح الجسد ، وإذا فسد القلب فسد الجسد ، وإن صلاح السلطان ، صلاح الدنيا وفساد السلطان فساد الدنيا .

وأنتم تعرفون جيداً ما مني به الإسلام في القرن الماضي - في عهد السلطان أكبر - من رزيئة ونكبة ، ولم يكن الإسلام - رغم غربته في القرون التي مضت قبله - ذليلاً مهاناً ، مثل ما كان في هذا القرن ، فقد كان في الزمن الذي مضى قبله ، يتمسك الكافر بكفره والمسلم بإسلامه ، « لكم دينكم ولي دين » ولكن ظهر أهل الكفر في القرن الماضي وغلبوا أهل الإسلام ، وبدأوا ينفذون أحكام الكفر بصورة سافرة - في دار الإسلام ، وكان المسلمون لا يقدرون على إظهار أحكام دينهم ، ومن تجاسر على إظهار دينه لقي العقاب ، وحكم عليه بالإعدام .

واويلاه ، وامصيبتاه ، واحزناه ، واحسرتاه ! أتباع محمد - ﷺ - الذي هو حبيب رب العالمين - أذلة ضعفاء مهانون ، والجاحدون بنبوته ، أعزة أقوياء مكرمون ، كان المسلمون بقلوبهم الجريحة المكلومة ، يندبون الإسلام ، ويرثونه وينوحون عليه ، وكان المكابرون الجاحدون يسخرون ، ويستهزؤون وينكثون جروح المسلمين الدامية ، غابت شمس الهداية في ظلام الضلال ، واختفى نور الحق في حجب الباطل وسحبه الداكنة .

واليوم بعد أن زال ما كان يحول بين الإسلام ، وتقدمه وانتصاره ، وتشنفت الآذان ، ببشرى تمكن سلطان الإسلام من عرش الحكومة ورأى أهل الإسلام من الواجب عليهم أن يساعدوا السلطان ويناصروه ، ويبصروه بطريق نشر الشريعة الإسلامية ، وتأييد الملة الحنيفية ، سواء كانت هذه المساعدة والمناصرة باليد أو باللسان » .

ويقول بعد بضعة سطور ، وقد وضع الأصبع على الداء الذي أصيبت به الدولة في العهد الماضي :

« كل رزيئة رزىء بها الإسلام في القرن الماضي ، كان من شؤم علماء السوء ، فهم الذين أضلوا السلطان وأغووه ، وعندما تفرقت الملة الإسلامية اثنتين

وسبعين فرقة واتخذت طريق الزيغ والضلال ، كان علماء السوء رؤوس هذه الفتن ، وقادة هذا الانحراف ، وقليل من ضل من العلماء وانحرف ، ولم يؤثر ضلاله على الناس ، وأن معظم جهلة هذا العصر ، المتزعمين للتصوف يمثلون دور علماء السوء ، ففسادهم ـ كذلك ـ فساد متعدّ مُعدٍ ، فإذا كان هناك من يستطيع أن يناصر في هذا العمل (نصر الدين الحنيف) ثم يقصر ويتكاسل ولا يؤدي دوره ، فإنه مسئول عن الإسلام ، يستحق الملام .

نظراً إلى ذلك يحب هذا الفقير ـ الذي بضاعته مزجاة ـ أن ينضم إلى معسكر المناصرين للإسلام ، وللدولة المسلمة ، ويحاول جهده في نصرة الدين ، فإن « من كثّر سواد قوم فهو منهم » ، ومن يدزي ، لعل الله يجعل هذا الفقير من هذه الجماعة الكريمة ، وهو يرى أن مثله مثل تلك العجوز المسكينة ، التي فتلت عدداً من الحبائل ، لتنسلك في سلك المساومين في يوسف الكريم[1] ، ويأمل هذا الفقير أن يتشرف بالحضور لديكم في وقت قريب ، أرجو منكم ـ لتقربكم إلى السلطان وتهيئو الفرص في الحديث معه ـ أن تبذلوا جهودكم في تمكين الشريعة المحمدية ونشرها ، وتخرجوا المسلمين من غربتهم ومسكنتهم ومهانتهم »[2] .

ويقول في رسالة أخرى إلى السيد فريد :

« إن المسلمين الغرباء الذين هم في هذه الورطة الهائلة ـ في هذه الأيام ـ إنما يتوقعون خلاصهم منها بسفينة أهل البيت ، فقد قال الرسول ـ ﷺ ـ : « مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها هلك »[3].

فركزوا همتكم القعساء على هذا الهدف العظيم ، لتنالوا هذه السعادة

(١) قصة يحكيها بعض القصاص ، وأوردها بعض المفسرين في كتب التفسير ، وقد أصبحت مثلاً لمن يلقي دلوه في الدلاء ، ويريد أن ينخرط في سلك الأغنياء والعظماء ، على قلة البضاعة .

(٢) الرسالة رقم : ٤٧ ، المجموعة الأولى .

(٣) رواه الطبراني والبزّار وغيرهما عن أبي ذر رضي الله عنه ، وروي عن ابن عباس ، وابن الزبير ، وأبي سعيد قال في مجمع الزوائد ، فيه ابن لهيعة وهو لينٌ ، وقال الهيثمي فيه جماعة لم أعرفهم ، مجمع الزوائد ٩/ ١٦٨ .

العظمى ، وقد وهبكم الله ـ عز وجل ـ كل أنواع الحشمة والجاه والسلطان ، فلو جمعتم بين شرفكم في النسب ، وبين هذه السعادة الجليلة ، لبذّت سعادتكم جميع السعادات ، وينوي هذا الفقير ـ للتحدث معكم في هذه الأمور التي يقصد من ورائها تأييد الشريعة الإسلامية وترويجها ـ أن يتشرف بالحضور لديكم[1] .

ويقول في رسالة ثالثة إليه :

« سيدي الشريف ! إن الإسلام ـ اليوم ـ مسكين غريب ، وإن فلساً واحداً ينفق ـ الآن ـ لتقوية الإسلام وتأييده ، يعادل الملايين ، فلننظر من يكون ذلك الصقر الجريء الذي ينعم الله عليه بهذه النعمة الجليلة ، إن العمل الذي يقوم به الإنسان لنشر الدين وتأييد الملة ـ في أي عصر من العصور ـ جميل محبوب ولكنه اليوم حيث الإسلام غريب أجمل وأحب ، فجديرٌ بكم ـ أنتم الأشراف ـ إذ أن هذه الثروة العظيمة من ميراثكم ، وهو لكم مباشرة ، ولغيركم بواسطة ، وإن وراثتكم لجدكم الكريم لها أهميتها الكبيرة في نيل هذه السعادة ، فإن هذه الساعة هي التي ورد عنها الحديث ، ذلك : « عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إنكم في زمان من ترك منكم عشر ما أُمر به هلك ، ثم يأتي زمان من عمل منهم بعشر ما أمر به نجا »[2] .

وإن هذه الجماعة من الناس ، هي تلك الجماعة ، « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » .

والشخصية الثانية التي وقع اختيار الإمام السرهندي عليها بعد الأمير السيد فريد ، هو ركن الدولة المغولية المكين خان أعظم[3] الذي كانت له مع الأسرة الملوكية

(١) الرسالة رقم : ٥١ ، المجموعة الأولى .

(٢) رواه الترمذي ، وقال حديث غريب .

(٣) هو الأمير الكبير مرزا عزيز الدين ، كان يلقب بكوكه لكونه أخا السلطان أكبر من الرضاعة ، استوطن غزنين ، ثم مدينة دهلي ، كان والياً على كجرات عام ٩٨٠ ـ ولما خالفه محمد حسين مرزا وحاصره ، سار إليه أكبر وجاب ١٤٠٠ ميل في تسعة أيام ، وولي على بكاله وبهار بعد ولاية كجرات ، ولقب بلخان الأعظم ، وولي على كجرات مرة ثانية عام ٩٩٧ هـ .

صلة وقرابة ماسة ، وكان جهانكير معترفاً بعلو مكانته ، وأهميته وكان في قلبه إجلال وإكبار ، لمشايخ الطريقة النقشبندية ، ولعل الإمام بعث بهذه الرسالة التالية إليه بعد تولي السلطان جهانكير للدولة ـ يقول فيها :

« أيدكم الله ـ سبحانه ـ ونصركم على أعداء الإسلام في إعلاء الإسلام ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء »[1]. فقد بلغت غربة الإسلام في هذه الديار أن أطال الكفار ألسنتهم على الإسلام ، ويعيبون المسلمين ، ولا يستحيون من إظهار أحكام الكفر ، ومدحه والثناء عليه في المشاهد والأسواق ، والمسلمون إزاءهم لا يقدرون على إظهار أحكام الإسلام ويُعابون إذا عملوا بها ويُذمون » .

وقد قال الشاعر ما معناه :

« ما بال الحور العين مصفرة الوجوه ، شاحبة الألوان ، والسعالى في الجمال والدلال ، يا للحيرة القاتلة ، ويا للعجب العجاب » .

ثم يقول :

« نرى وجودكم الكريم ـ اليوم ـ نعمة سابغة ، ولا نرى فارساً غيركم في الساحة لإدالة الإسلام من منافسيه ، وخصومه وإقالة عثاره ، أيدك الله ونصرك بحرمة النبي وآله الأمجاد عليه وعليهم الصلوات والتسليات والبركات ، وورد في الحديث الشريف ، ما معناه : « لن يؤمن أحدكم حتى يقال أنه مجنون »[2] ، وإن

ومع هذا التقرب والزلفى لدى السلطان ، كان يغلظ القول عليه ، فيما يأمره وينهاه ، ورغم ذلك سلم إليه السلطان خاتمه « مهراوزك » وجعله وكيلاً مطلقاً في مهمات الأمور وأسند إليه السلطان وجهانكير أيضاً مناصب خطيرة ، وولاه على كجرات وتوفي عام ١٠٣٣ هـ ، (ملخص من ترجمته في « نزهة الخواطر » ج ٥) .

(١) رواه مسلم .

(٢) ولفظ الحديث كما أخرجه الحاكم في المستدرك : « أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون » (ص ٤٩٩ . ج ١) . قال الذهبي في التلخيص : صحيح . ورواه الامام أحمد في المسند وابن حبان في الصحيح كما جاء في الجامع الصغير للسيوطي .

اك الجنون الذي يكون دافعه الغيرة المفرطة على الإسلام ، لا نحس به الآن إلاّ في طبيعتكم الفياضة ، فالحمد لله سبحانه على ذلك ، اليوم يوم الجزاء الجزيل الجليل على العمل الحقير القليل ، لم يظهر من أصحاب الكهف من الأعمال البارزة إلاّ الهجرة العملية ، فكانت لها هذه الأهمية الكبيرة ، وإذا أبدى الجندي عند غلب الأعداء وانتصارهم ، شجاعته ونجدته ، يلقى من التبجيل والإكرام ما لا يلقاه في حال الأمن والسلام ، إذ الأعداء في بلادهم ، إن هذه الفرصة للجهاد بكلمة الحق ، التي أتاحها الله لكم اليوم ، هو الجهاد الأكبر ، فانتهزوا هذه الفرصة وقولوا : هل من مزيد ، واعتبروا هذا الجهاد باللسان ـ في هذا الوقت بالذات ـ أفضل من الجهاد بالسيف والسنان ، ونحن الفقراء العجزة . حرمنا هذه النعمة العظيمة :

هنيئاً لأرباب النعيم نعيمهم ... وللعاشق المسكين ما يتجرّع

هديناك إلى مكان الكنز الدفين ، فإن كنتُ لم أظفر به لعلك أنت تظفر به » .

ثم يقول بعد بضعة سطور :

« إن ما كان يشاهد من المعارضة العنيفة للدين الحنيف في الدولة السابقة لا نجدها في هذه الدولة اللاحقة ، وإن كان هناك شيء من ذلك فسببه الجهل ، ويخاف أن يصل الأمر ـ بتدريج ـ إلى نفس تلك المعارضة والمعاندة ، ويضيق الخناق على المسلمين »[1] .

ويكتب إلى شخص آخر من أصحاب المناصب العالية في بلاط السلطان جهانكير ، وهو خان جهان[2] ، في نفس الموضوع :

« لو جمعتم بين ما تتبوأون من منصب كبير وبين العمل على الشريعة

(١) الرسالة رقم : ٦٥ ، المجموعة الأولى .

(٢) الأمير الكبير خان جهان بن دولت خان اللودهي ، كان جهانكير يعتمد عليه ، ويحبه حباً مفرطاً لا يتصور فوقه ، وكان من خيار الأمراء ، يحب العلم والعلماء ، ويحسن الى الناس كافة ، قام في عهد السلطان شاهجهان بالثورة ضده ، وقتل ١٠٤٠ هـ (« نزهة الخواطر » ، ج ٥ باختصار) .

الإسلامية لأديتم أمانة الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ وأوضحتم الدين المتين وأضأتموه ، وعممتموه ، ولو جهدنا ـ نحن الفقراء ـ أنفسنا أعواماً طوالاً ، لما لحقنا بغبار أمثالكم من صقور الإسلام .

ألا نفوس أبيّات لها همم أما على الخير أنصار وأعوان ؟

ويقول في رسالة مسهبة :

« لا يعرف الناس قيمة تلك النعمة الجسيمة التي شرفكم الله ـ عز وجل ـ بها وأخاف أنكم كذلك لا تعرفونها حق معرفتها ، ذلك ، أن السلاطين في هذه البلاد من سبعة أجيال ، مسلمون ، ومن أهل السنة والجماعة ، متمسكون بالمذهب الحنفي ، وإن كان في الزمن الأخير منذ بضعة أعوام ـ إذ الزمان زمان دنو الساعة ، وبعد العهد بالنبوة ـ تقرّب بعض الأذكياء بشؤم طمعهم وحرصهم ـ الذي هو وليد فساد باطنهم ـ إلى الحكام والسلاطين ، وتملقوهم ببذر الشبه والشكوك في الدين ، وأضلّوا السذّج من الناس عن الصراط المستقيم ، ولما كان السلطان العظيم جهانكير يستمع إلى حديثكم بإصغاء واهتمام ، ويقدره قدره ، فما أجمل هذه الفرصة لتبلغوا إلى السلطان ـ بصريح العبارة أو الإشارة ـ كلمة الحق التي يعتقدها أهل السنة والجماعة ، شكر الله سعيهم ، وتتقدموا إليه بكلام أهل الحق ما اتسع له المقام ، واقتضى الحال ، بل انظروا والتمسوا دائماً مناسبة من المناسبات يتطرق فيها الكلام إلى الدين والشريعة الإسلامية ، حتى تنتهزوا الفرصة لإظهار أن الإسلام حق ، والكفر باطل شنيع »[1] .

وقد كتب الإمام السرهندي ـ عدا هؤلاء الأمراء الكبار وأعيان الدولة ـ رسائل عديدة تشير نفس المواضيع إلى الآله بيك ، الذي كان يحتل منصب « بخشى » للسلطان مراد ، ابن السلطان أكبر ، وكان والياً على بهار ، يقول :

« زادنا الله ـ سبحانه ـ وإياك حمية الإسلام ، لقد مضى على غربة الإسلام

---

(١) الرسالة رقم : ٦٧ ، المجموعة الثانية .

ومسكنته قرن كامل ، وبلغ الحال بهذه البلاد إلى أن أهل الكفر لا يرضون بالعمل على أحكام الكفر فحسب ، بل يريدون أن تزول الأحكام الإسلامية ـ بتاتاً ـ ولا يبقى أي فرق بين الكفر والإسلام ، لقد تجاوز الأمر إلى أن مسلماً لو أراد إظهار شعيرة من شعائر دينه (كذبح البقرة) يعاقب بالقتل والإعدام » .

ويزيد قائلاً :

« فلو تمكن الإسلام في بداية هذه الدولة ، وارتفعت رؤوس المسلمين ونالوا العزة والكرامة ، فبها ونعمت ، وإذا حال توقّفٌ وتردّدٌ في هذا الأمر دون ذلك ، والعياذ بالله ، فسوف يزداد حال المسلمين سوءاً وتعقّداً ورزيئة ، فالغياث الغياث ، ثم الغياث الغياث ، فلننظر من المقبل المنصور الذي يشرفه الله بهذه السعادة ، ومن هو الصقر الجسور الذي يظفر بهذه النعمة الجليلة « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم »[1] .

يقول في رسالة إلى « صدر جهان »[2] أحد أمراء الدولة في عهد جهانكير :

« أنا على يقين من أن قادة الإسلام الأشراف العظام ، العلماء الكرام منصرفون إلى تأييد الدين المتين وتقويته ونصره ، وبناء الصراط المستقيم وتكميله ـ سراً وعلانية ـ فلا داعي لهذا الفقير العاجز إلى إطالة النفس ، والإفاضة في الحديث »[3] .

---

(١) الرسالة رقم : ٨١ ، المجموعة الأولى .

(٢) هو الشيخ العالم المفتي صدر جهان الحسيني البهانوي (مديرية هردوئي حالياً) كان من العلماء المبرزين في العلوم العربية ، ولي الافتاء في المعسكر ثم ولي الصدارة ، وتتلمذ عليه جهانكير ، أخذ عنه أربعين حديثاً ، ولاه على منصب أربعة آلاف ، وأقطعه أراضي واسعة عاش مئة وعشرين سنة ، مع صحة حواسه وسلامة أفعاله ، توفي سنة ١٠٢٧ هـ (نزهة الخواطر ، ج ٥ ملخص) .

(٣) الرسالة رقم : ١٩٤ ، المجموعة الأولى .

ينبغي أن لا يعاد الخطأ مرة أخرى :

وحان ـ أخيراً ـ ذلك العهد السعيد الذي شعر فيه السلطان جهانكير بخطئه ، وأراد ـ حسب القوانين العامة للحكومة والإدارة ـ أن يكوّن لجنة من العلماء للاستشارة في الأمور الدينية ، وتجنيب الدولة من الأخطاء والمشاكل التي تقع في هذا الصدد ، فطلب من أعيان الدولة المتدينين أن يبحثوا عن العلماء الصالحين ، ريدعوهم إلى البلاط ، ويحثّوهم على أن يقيموا في البلاط ـ بصفة دائمة ـ ليبينوا المسائل الشرعية ، ويستفتوا في القضايا الدينية ، ويهتدي بهم .

ولما اطلع الإمام السرهندي ـ الذي آتاه الله الحكمة والفراسة الإيمانية ، والبصيرة في الدين ، وكان يعرف خطأ الانحراف في الدولة السابقة وتاريخه ، وعوامله وخلفياته معرفة عميقة ـ ارتاع لذلك ، بدل أن يفرح بهذا النبأ السار ـ في الظاهر ـ وكتب رسالة إلى الأمير السيد فريد ، وأخرى إلى الأمير صدر جهان ، وقال فيهما ما يلي :

« أناشدكم بالله ـ سبحانه ـ أن لا تقدموا على هذا الخطأ ، واختاروا عالماً واحد ، ً ربانياً مخلصاً ، بدل أن تختاروا عدداً من علماء الظاهر » .

ويقول في الرسالة التي وجهها إلى السيد فريد

« ثبتكم الله ـ سبحانه ـ على جادّة آبائكم الكرام ، سمعنا ، أن سلطان الإسلام ـ بما جُبل عليه من سلامة الفطرة ، وحبه للإسلام ـ أوصاكم بأن تختاروا أربعة من العلماء ، ليقيموا في البلاط ، ويبينوا المسائل الشرعية ، حتى لا يقع عمل من السلطان ، أو لا يصدر حكماً من الأحكام خلاف الشريعة الإسلامية ، الحمد لله ـ سبحانه ـ على ذلك ، فليست هناك بشرى للمسلمين أعظم من هذه البشرى ، ولا خبر يدخل السرور على المفجوعين والثكالى أعظم من هذا الخبر ، ولكن الفقير مضطر إلى أن يتحدث معكم قليلاً ، رجاء المعذرة ، فإن صاحب الغرض مجنون .

فالذي أريد أن أقوله ، هو أن مثل هؤلاء العلماء المتدينين الذي يتسامون بأنفسهم عن حب الجاه والسلطان ، ولا همّ لهم إلاّ تأييد الإسلام ونصر الدين ، ونشر الشريعة الحنيفية ، أقل قليل ، فإن كان واحد من هؤلاء العلماء يميل إلى الجاه ، ويتظاهر بفضله وتفوقه وبراعته ، ويثير مسائل خلافية ، ويحاول عن طريق ذلك ، الزلفى لدى السلطان ، والحفاوة والإكرام ، فإن ذلك يسيء إلى الدين ويعرضه للخطر ، فقد كانت هذه الخلافيات الجزئية بين العلماء في القرن الماضي ، هي التي سببت الكارثة ، وأصابت الدنيا بداهية ، ويعود نفس ذاك الخطر ، الذي يكون سبباً لتلف الدين وضياعه فضلاً عن تمكين الدين وتأييده ، العياذ بالله ـ سبحانه ـ من ذلك ، ومن فتنة العلماء السوء ، فلو اختير ـ بدل العلماء الأربعة ـ عالم واحد ، لكان أصلح وأحسن ، لأنه إن كان من علماء الآخرة فما أحسن ذلك ، ومجالسته كالكبريت الأحمر ، وإن لم يكن من علماء الآخرة ؛ فينبغي أن يختار من طبقة العلماء من هو أحسنهم حالاً ، وأفضلهم شأناً « فما لا يدرك كله لا يترك كله » .

ثم يقول :

« لا أدري ماذا أكتب ، إن نجاة الخلق وخلاصهم كما هو مرتبط بالعلماء ، كذلك خسرانهم وضياعهم مرتبط بالعلماء ، فأفضل الناس في العلماء أفضلهم في الدنيا ، وشر الناس من العلماء ، أسوأهم وأفسدهم في الدنيا ، فقد ارتبط بهم الهداية والإضلال ، رأى بعض الصالحين إبليس اللعين قاعداً في تعطل وبطالة ، فسأله عن سبب ذلك ، فقال : إن علماء هذا العصر يكفوننا همنا ، ويؤدون دورنا في الإغواء والإضلال ، ويقول الشاعر مخاطباً للعلماء :

يا أيها القرّاء يا ملح البلد   ما يصلح الملح إذا الملح فسد ؟

والغرض من كل ذلك ، أن لا تتخذوا أي إجراء في هذا الصدد إلاّ بعد تروٍّ

كثير وتفكير عميق ، لأنه إذا انقضى الأمر فلا تدارك ولا علاج ، وأنا خجل من مثل هذا الحديث مع أصحاب الفطنة والألمعية ، ـ مثل شخصكم الكريم ـ ولكن لاعتقادي أن هذا سبب سعادتي وجدت في نفسي اندفاعاً إلى هذا الحديث »[1] .

المعجبون بالإمام السرهندي
من أعيان الدولة وأمرائها ، ومراسلته معهم :

عدا هؤلاء الأمراء ـ الذين تقدَّم ذكرهم ممن راسلهم الإمام السرهندي ، وبكى في رسائله ، دموعاً غزيرة من الدم على غربة الإسلام ، ومهانته ، وقلة حيلته وانتهاك حرمات الشعائر الإسلامية ، والأحكام الدينية ، وهوان المسلمين وإلجام ألسنتهم أن تنطق بالحق ، ووجههم ـ باستخدام مناصبهم الكبيرة ، ومكانتهم الخطيرة ، وخدماتهم العظيمة للدولة ـ إلى أن يلفتوا نظر السلطان إلى الأوضاع المتردية ، وما يعاني الإسلام من غربة ، وأن يثيروا فيه عرقه الإسلامي الذي ورثه عن آبائه ، ويوقظوا الحمية الدينية من سباتها ، عدا ذلك هناك رسائل إصلاحية تربوية أخرى ـ في عدد كبير ـ كتبها إلى عدد من كبار الأمراء وأركان الدولة ، وعالج فيها مواضيع التربية والسلوك ، وحل فيها مشكلات الطريق ، وغوامض الفن ، وأرشدهم فيها إلى الزهد في الدنيا والرغبة عنها ، والشوق إلى نعيم الجنة ، والاهتمام بتنوير الباطن ، وتزكية النفس ، وهذه الرسائل موجهة إلى عبد الرحيم خان خانان (م ١٠٣٦ هـ) وقليج خان الأندجاني الأكبري (م ١٠٢٣ هـ) وخواجه جهان (١٠٢٩ هـ) ومرزا داراب ابن خان خانان الجهانكيري (م ١٠٣٤ هـ) وشرف الدين حسين البدخشي ، ويُقدر من هذه الرسائل ، أن هؤلاء الأمراء الكبار كانوا يحبون الإمام ، ويجلونه إجلالاً كبيراً وهي مثل ما يكتب الشيخ المرشد إلى مريديه ومسترشديه ينبههم على أخطائهم ، ويذكرهم وينصحهم ، ويبدي سروره وارتياحه

---

(١) الرسالة رقم ٥٣ ، المجموعة الأولى ، وعالج نفس هذا الموضوع في رسالة أخرى ، رقم : ١٩٤ ، المجموعة الأولى ، التي بعث بها الى الأمير صدر جهان .

على تقدمهم في الدين ، ورقيهم في الاستعداد الروحي ، وصفاء الباطن وقوة النسبة .

ويستطيع الإنسان أن يقدر من خلالها أيضاً أن هؤلاء الأمراء الكبار لم يكونوا قد قصروا في النصيحة للإسلام والعطف عليه ، والجهر بكلمة الحق عند السلطان ـ حسب ما أراد الإمام السرهندي منهم لإصلاح الدولة والبلاد ـ وتحقيق آمال شيخهم ومرشدهم التي كان يعلقها بهم ، والتعاضد مع الأمراء الآخرين وتأييدهم في انجاز ذلك الهدف العظيم الذي وجههم إليه الإمام السرهندي في رسائله .

تأثير الإمام السرهندي الشخصي
وأثره الباطني في إصلاح الأوضاع :

ما ذكرنا ـ فيما تقدم ـ يتصل بتلك المحاولات والجهود التي بذلها الإمام عن طريق الأمراء ، فإن هذه الرسائل التي كانت تترى على الأمراء وأعيان الدولة من قبل الإمام السرهندي ، والتي كان يحرضهم فيها على نصر الإسلام وحماية الدين ، وتوجيه السلطان إلى احترام شعائر الإسلام وتنفيذ الشريعة الإسلامية ، وإصلاح الأوضاع الفاسدة ، الرسائل التي تبرق وترعد حماساً وحمية ، وتتدفق قوة وغيرة ، وتكاد تسيل رقة وعذوبة ، لم تذهب هذه الجهود عن طريق الرسائل سدى في تكميل خطته ، وأداء دوره ، وقد لعب من وجهت إليهم هذه الرسائل دورهم ، لا سيما الأمير السيد فريد الذي قام بمهمة موفقة أساسية في تغيير تيار الدولة ، وتحويل اتجاهها إلى الإسلام من جديد .

ولكن لم يحدث ـ إلى ذلك الوقت ـ في نفسية السلطان جهانكير ذلك التغيير الجذري الذي كان يحتاج إليه هذا العمل العسير العظيم ، ومعلوم أن شخصية السلطان في الحكومات الملوكية تحتل مكان النقطة المركزية والقطب الذي تدور حوله جميع أنظمة الدولة ، فلو قصد أمراً ، أو اعتنق فكرة ، أو أحب شخصاً ، أو اعتقد

في رجل رباني مخلص وأكن له الإجلال والإكبار ، واعتمد على صلاحه ووثق بإخلاصه ، فإنه يقطع مسافة آلاف الأميال في ساعات ودقائق ، وقد يجعل المستحيل ممكناً بل أمراً واقعاً .

وكان جهانكير ـ إلى تلك الساعة ـ يجهل مكانة الإمام السرهندي ومنزلته في العلم والربانية ، لأنه لم يكن من العلماء والمشايخ الذين يترددون إلى البلاط ، ويختلفون إليه ، إذن فما هو الطريق للاتصال به مباشرة ، حتى يعرف علو مكانته ، وعظم منزلته ـ في حدود استعداده وكفاءته ـ ؟ .

هنالك دبرت مقادير الله ـ تعالى ـ في ذلك تدبيراً ، وكان تفسيراً عملياً لقوله تعالى : ﴿ عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ .

تأثر السلطان جهانكير :

قرأنا في الباب الثالث قصة اعتقال الإمام في قلعة كواليار ، والإقامة الجبرية في المعسكر ، وكان الإمام السرهندي مكث في المعسكر ثلاث سنين وستة أشهر[1] صحب فيها السلطان وجالسه ، وذاكره في المسائل الدينية وشهد السلطان شدة شكيمته وصلابته ، واستقامته في الدين في مظهر إبائه الصريح عن سجدة التحية ، والآداب الرسمية ، وإقامته في قلعة كواليار سجينا في عزة نفس واعتداد وكرامة ، وعدم خضوع لطلب العفو ، كما شهد تأثير صحبته ومجالسته ، وتأثيراته الباطنية ، وقوته الروحية ، في دخول المئات من الكفار في حظيرة الإسلام ، واطلع ـ أثناء إقامته في المعسكر ـ ومرافقته الطويلة ـ على زهده وتقشفه ، واستغنائه ، وانهماكه في العبادات ، واهتمامه بالأوراد والأذكار ، ورأى تبحره ورسوخه في العلم أثناء مجالسته ، وفي الحديث معه .

---

(١) أطلق سراحه من قلعة كواليار في شهر جمادي الأخرة عام ١٠٢٩ هـ ، وودع المعسكر في شهر ذي الحجة عام ١٠٣٢ هـ ، وهكذا تكون هذه المدة ثلاث سنين وستة أشهر .

وكان جهانكير حاكم دولة عظيمه ، يمتاز بسلامة الفطرة ، والذكاء والنبوغ ، وسنحت له فرصة الخبرة بكثيرة من الأمراء والعلماء ، والمشايخ ، وأبناء الدنيا وعبّاد المادة . والصالحين المتدينين من عهد والده أكبر ، إلى عهد حكمه ، نشأت فيه ملكة التعرف على طبائع الناس وخصائصهم التي لا يتمتع بها من لم تحصل له هذه الفرصة الكثيرة ، للخبرة والنقد ، وتمييز الزيف من الصحيح ، فلا شك أنه أدرك أن الإمام السرهندي طراز آخر من الرجال ، يختلف اختلافاً كبيراً عَمَّنْ كانوا يحتلون المناصب في الدولة ، ويتجمل بهم البلاط ويزدان بهم دست العلم والشياخة .

يتجلى هذا التأثير لصحبة الإمام وخواطره وعواطفه ، في الحادثة التالية التي سجلها السلطان جهانكير نفسه في شيء من الفخر والاعتزاز ، وتزداد أهمية هذه الخطوة التي اتخذها جهانكير ، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذه القلعة فتحت بأيدي الراجه بكر ماجيت الهندكي ، لا بأيدي قادة الجيش المسلمين المحنكين .

يقول جهانكير :

« خرجنا يوم ٢٤ من شهر « دي[١] » المذكور للتفرج والنزهة في قلعة كانكره ، فأمرنا أن يرافقنا القاضي ومير عدل وغيرهما من العلماء ، ليظهروا في هذه القلعة شعائر الدين الإسلامي ، وأحكام الشريعة المحمدية ، على سبيل الإيجاز ، وصلنا بعد سير فرسخ واحد إلى ذروة القلعة ، فأمرت ـ بتوفيق الله تعالى ـ بالأذان ، فأذن ، ثم ألقيت خطبة ، وأمرت بذبح البقرة ـ ولم يتفق ذلك قط منذ بناء هذه القلعة ـ خررت لله ساجداً على أن وفقني إلى ما لم يوفق إليه أي سلطان قبل ، وأمرت ببناء مسجد واسع عال في داخل القلعة »[٢] .

وهكذا تحول اتجاه الدولة ـ بالجهود المباشرة أو غير المباشرة ـ من إهمال

---

(١) الموافق غرة ربيع الأول ١٠٣١ هـ

(٢) توزك جهانكيري ، ص ٣٤

الإسلام ، والغفلة عنه ، بل من معارضته ومشادّته ، إلى تعظيم الشعائر الإسلامية وإعلاء كلمة الله ، واحترام الدين ، وشغف السلطان المسلم بالإسلام بدأ هذا التحول الكبير من أواخر عهد السلطان جهانكير ، وامتدت ظلاله الوارفة إلى عهد السلطان شاهجهان .

عهد السلطان شاهجهان :

لقد كان عهد السلطان الغازي شاهجهان (١٠٠٠ ـ ١٠٧٥ هـ) الملقب « بصاحب القران الثاني »[١] عهد الخير والإصلاح التدريجي ، وقد بدأ من عام ١٠٣٦ هـ واستمر بأبهته وعظمته ٣١ سنة ، وكان قد تولى زمام البلاد بعد وفاة الإمام السرهندي بعامين ، وليست لدينا وثيقة تاريخية موثوق بها ، تفيد اتصال السلطان شاهجهان بالإمام السرهندي أو بابنه الجليل الشيخ محمد معصوم اتصال بيعة واسترشاد خاص ، ولكن الذي لا يشك فيه أنه كان دائم الإجلال والتعظيم للإمام السرهندي ، ولأجل ذلك لما قصد الإمام السرهندي زيارة السلطان على طلب منه ، وكان يعرف أن الإمام لا يباشر الآداب الرسمية ، ويرفض سجدة التحية ، بعث بالشيخ أفضل خان والمفتي عبد الرحمن ـ اللذين كانا من المصاحبين لولي العهد والمقربين لديه ـ ببعض الكتب الفقهية وأمرهما أن يقولا له : أن سجدة التحية تجوز للسلاطين ، وقد أجازها بعض الفقهاء في ظروف خاصة[٢] « فلو باشرت هذه الآداب الرسمية عند مقابلة السلطان ، فأنا ضامن لك بأنه لا يصلك أي ضرر » ، فأبى الإمام السرهندي ورفض هذا العرض ، وقال : إنها رخصة ، والعزيمة أن لا يسجد لغير الله ، مهما كانت الأوضاع والظروف[٣] » .

---

(١) سمي بذلك لأن الألف الثاني يلتقي بالألف الأول في عهده .

(٢) لم نطلع على هذه النصوص الفقهية ، وفتاوي الفقهاء التي تبيح السجدة لغير الله ، والذي نعرف أنها محرمة اطلاقاً ، الا ان يكون ذلك كأكل الميتة وتناول المحرمات ، وقاية للحياة وعصمة من القتل ، مع فضل من عمل بالعزيمة ، وتجنب الرخصة .

(٣) راجع للتفصيل الباب الثالث من هذا الكتاب .

واتفق المؤرخون على أن السلطان شاهجهان كان طيب النفس ، معظماً للشريعة الإسلامية ، شغوفاً ببناء المساجد ، ملتزماً ـ في ذات نفسه ـ بالفرائض الشرعية ، يدنى إليه العلماء والصالحين ، ويقربهم ، ويعتمد عليهم ، وكان وزيره المدبر الحصيف جملة الملك سعد الله خان العلامي (م ١٠٦٦ هـ) من نوابغ العلماء والمدرسين في عصره[١] ، ورفع السلطان شاهجهان بعض التقاليد والآداب الرسمية التي كانت اخترعت في العهود السابقة واستمرت إلى عهده ، يقول الأستاذ المؤرخ ذكاء الله الدهلوي ، على أساس ما جاء في الكتب التاريخية المعاصرة بالفارسية كـ « بادشاه نامه » وغيره .

« لما تربّع السلطان على أريكة الدولة ، كان له من الاهتمام والاحترام لشعائر الملة الحنيفية ، والشريعة المحمدية ـ التي كان تسرب إليها الإهمال والغفلة من قبل ـ أن أمر بأنه لا يستحق السجود إلاّ المعبود بحق ، فلا يعفرنّ أحد جبهته في الأرض لأحد من بعد ، وأشار عليه مهابت خان بتحية « زمين بوس » ـ التي يلمس فيها الأرض باليد عند التحية ـ فأمر بها ، ولكن رأى أن فيها كذلك شبهاً بالسجدة ، فنهى عنها ، وأمر بـ « التسليم الرابع »[٢] .

ويقول سير ريجرد برن : (SIR RICHARD burn)

كان السلطان شاهجهان يريد إحياء العقائد الإسلامية وإعادتها بقوة وشدة ولكنه ـ في الوقت نفسه ـ لم يكن يحب التعرض لأصحاب الديانات الأخرى ، ورفع بعد اعتلائه على سرير الملك بيسير ، سجدة التحية الرسمية ، وانتهى استخدام التقويم الإلهي ، الذي بدأه أكبر ، وروجه في الناس ، من الأوراق والوثائق الرسمية ، والعملات السائدة ، بعد ولاية شاهجهان ببضعة أعوام وأصدر أمراً عام

---

(١) راجع لترجمته الحافلة « نزهة الخواطر » ج ٥ .
(٢) تاريخ هندوستان ج ٧ ، ص ٥٥ ـ ٦٦ ملخصاً .

١٦٣٤ م بمنع الزواج بين المسلمين والهندوكين ، الذي كان سائداً منتشراً في بنجاب وكشمير[1] » .

ويقول المؤرخ ذكاء الله :

« وظف القضاة والمعلمون من قبل السلطان ، ليعلموا الناس أحكام الشريعة ، وآداب العبادة ، وعين الشيخ محمود ليفك النساء المسلمات ـ بعد التحقيق والإثبات ـ من حبالة الرجال الهندوكيين ، ويميز عمارات المسلمين ومساجدهم عن أبنية الهنادك ومعابدهم ، فنفذ هذا الأمر ، واستعاد كثيراً من المساجد التي كانت تحت تصرف الهنادك ، وفرض عليهم غرامات ، ثم بناها من جديد ، وعاقب من الهنادك من ثبت عليه إهانة القرآن الكريم عقاباً رادعاً ، ثم أمر السلطان ، أن يحقق جميع الموظفين للمهمات الشرعية في مثل هذه الأمور ـ إن كانت وقعت ـ في سائر ولاية بنجاب[2] » .

ولكن ـ رغم كل هذه الحمية الدينية واحترام الشعائر الإسلامية ـ لا نشك في أن السلطان شاهجهان كان يفضل ابنه دارا شكوه على ابنه اورنك زيب العالم المتدين ، وصاحب الكفاءة والمقدرة ، ويحب أن يتولى دارا شكوه أمر هذه الدولة ، ويخلفه في الملك ، وهذه خصيصة الحكام والسلاطين المتمسكين بمبدأ الحكومات الشخصية الوراثية ، والفصل بين الدين والسياسة ، حيث لا يكون لتدينهم الذاتي أي تأثير على شئون الدولة ، ولا يحول بينهم وبين أن يختاروا خليفة غير كفؤ ، يلحق الأضرار بما بنوه وأنشئوه ويخل بالنظام .

ولي العهد دارا شكوه :

تفيدنا تصريحات المؤرخين من غير المسلمين أن دارا شكوه ، كان أقرب إلى

(١) Cambridge History Of India Vol. IVP. 217 باختصار .

(٢) « تاريخ هندوستان » ج ٧ ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦ ، باختصار .

مذهب جده السلطان أكبر ومشربه ، وكان معجباً بفلسفة وحدة الديانات ، ويحاول التوفيق والتطبيق بين الشريعة الإسلامية ، و « الويدانت » - شريعة الهنادكة - يقول الدكتور الفرنسي برنير :

« كان دارا شكوه يصغي إلى مواعظ البطريق فليمش الدينية ، ويستمع اليها بشوق ورغبة زائدة ، وكان يحاول الجمع بين الديانة الإسلامية ، والديانة الهندوكية » .

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية :

« كان دارا شكوه ولوعاً بالتصوف ، معجباً بالفلسفة الهندوكية ، أقام علاقات وطيدة مع الصوفية المسلمين ، والنساك الهندوكيين ، كان منهم (مع العلماء والصوفية المسلمين) « سرمد » المعروف بعقيدته في وحدة الوجود وبابالال داس بيراكي ، تلميذ « كبير » « ومريده » .

« تنم بعض مؤلفات دار شكوه الأخيرة عن عقيدته وتمسكه بنظرية وحدة الوجود ، وكأنه كان متأثراً بالفلسفة الهندوكية ، معجباً بالوثنية ، ولأجل ذلك نزع إلى عدد من الآراء الملحدة التي توجد نظائرها الصريحة في الفلسفة الهندوكية ، ولا مجال لها في الإسلام ، وقد توصل دارا شكوه إلى أن التصوف ، والويدانت - اللذان يستعان بهما في إدراك « الحق » - لا يتعارضان ، وأن الفارق بينهما لفظي ، وحاول دارا شكوه في ترجمته لـ « أوبنيشد » . . . التي كان يعتبرها منبع « الوحدة » التوفيق والتطبيق بين نظريات وآراء أتباع الديانتين الكبيرتين - الإسلام ، والهندوكية - المشتركة ، وأراد أيضاً أن يعرف المسلمين عن طريق الترجمة بمعتقدات الهنادك[1] » .

وليس محل استغراب - بسبب هذه الآراء والنظريات ، والميول والنزعات التي

(١) راجع دائرة المعارف الإسلامية (أردو) المقال بعنوان « دارا شكوه » ج ٩ ، وكاتب المقابل هو ستيش جندر الباحث الهندكي ، وراجع أيضاً (AURANGZEB) تأليف ظهير الدين الفاروقي ، ص ٣٨ - ٤٧ .

كان يحملها دارا شكوه ، ولم تكن لتخفى على المجتمع المسلم ـ آنذاك ـ في الهند والتي يمكن أن يكون ولي العهد أورنك زيب انتفع بها في صالحه ، أن تكون الأوساط الدينية من علماء الدين ، ومشايخ الطريقة المتمسكين بالشريعة ، وأتباعهم ـ الذين شهدوا بأم أعينهم غربة الإسلام ، وذلته في عهد السلطان أكبر ، أو سمعوا قصصها وحكاياتها من آبائهم ـ في صف ولي العهد أورنك زيب ـ أعظم حماة الإسلام في الهند المتمسك بالشريعة والدين ـ في هذه الحرب الداخلية بين الأخوين ، وأن يساعدوه ويناصروه باستمالة الناس إليه ، وحثهم على تأييده ، والدعاء له[1] » .

ويعرف جميع المطلعين نتيجة هذه الحرب ، فقد انتصر السلطان أورنك زيب على دارا شكوه ، وتربع على عرش المملكة عام ١٠٦٨ هـ ، وحكم نصف قرن من الزمان ، بالشوكة والقوة والسلطان .

السلطان محيي الدين أورنك زيب عالمكير
وحميته الدينية ، وحمايته للإسلام :

اتصل السلطان أورنك زيب ـ الذي كان يجلّ أسرة الإمام السرهندي ورجالها ويعظمهم ، وينسجم مع دعوتهم ، ومذهبهم ، بالشيخ محمد معصوم بن الإمام السرهندي ، اتصال بيعة وسلوك[2] ، وتشهد قرائن كثيرة على صلة السلطان بالشيخ محمد معصوم لم تكن صلة إجلال واحترام عادية فحسب ، بل كانت صلة التربية والاسترشاد ، وتحصيل علم السلوك على يديه ، وقد كان الشيخ محمد معصوم من يوم أن كان السلطان ولي العهد ، يعتني به اعتناءً خاصاً ، ويلقبه بولي العهد الحامي لذمار الإسلام ـ الذي كان إرهاصاً لمستقبله العظيم ، وتفاؤلاً نافعاً ـ يقول الشيخ

---

(١) راجع للتفصيل مقال البرفيسور محمد اسلم بعنوان « دور العلماء والمشايخ في توليه السلطان « اورنك زيب » في كتابه « المحاضرات التاريخية » ص ٢٢٦ ـ ٢٤٣ .
(٢) « المكتوبات السيفية » الرسالة رقم : ٨٣ ، وهي موجهة الى الشيخ الصوفي سعد الله الأفغاني .

سيف الدين في رسالة بعث بها إلى والده الشيخ محمد معصوم :

« إن إخلاص السلطان الحامي لذمار الإسلام لسيدي الشيخ من طراز آخر ، وقد مر بمقام ذكر اللطائف الستة ، وسلطان الأذكار ، إلى مقام ذكر النفي والإثبات وهو يقول : إنه لا تدغدغه الوساوس ـ بإطلاق ـ وإذا طرأت وسوسة من الوساوس ، لا يكون لها قرار ، فهو في مأمن من خطرها ، ويقول : إنه كان ـ قبل ذلك ـ يقلق ويضطرب لزحمة الوساوس والخطرات ، ويشكر هذه النعمة » .

وأثنى الشيخ محمد معصوم على الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحمده كثيراً في تلك الرسالة التي بعث بها رداً على رسالة الشيخ سيف الدين ، وشكره الله ـ عز وجل ـ أن وهب السلطان هذه المقامات الروحية العالية ، ويستفاد من هذه الرسالة أيضاً ، أن السلطان بلغ مرتبة « الفناء القلبي » الذي هو من أعلى « المقامات وأرفعها في السلوك[1] » .

يقول أبو الفتح في « آداب عالمكيري » :

جاء الشيخ محمد معصوم وأخوه الأكبر الشيخ محمد سعيد فور جلوس السلطان أورنك زيب على عرش الدولة إلى البلاط ، وأهدي إليهما اورنك زيب ـ بهذه المناسبة ـ ثلاث مئة خاتم ذهبي[2] » ..

ونقل البروفيسور محمد أسلم في مقاله بعنوان « دور العلماء والمشايخ في تولية السلطان أورنك زيب » حوادث من « مرآة العالم » و « فتوحات عالمكيري »[3] ، تدل على الصلات العميقة بين السلطان ، وبين أسرة الإمام السرهندي ، وأبنائه

(١) رسائل الشيخ محمد معصوم ، الرسالة رقم : ٢٢٠ .

(٢) آداب عالمكيري « لأبي الفتح ، النسخة الخطية في India office library London ٣١٧ ، ق ب ٤٣١ ، محمد كاظم « عالمكيرنامه » طبعة كلكته ١٨٦٨ م ، ص / ٢٩٣ ، مقتبس من « المحاضرات التاريخية » للبروفيسور محمد اسلم .

(٣) يوجد الكتابان في مكتبة المكتب الهندي India office Library ومكتبة المتحف البريطاني British Museum .

الكرام ، فكانوا يقابلون السلطان ، ويقدم السلطان إليهم هدايا فاخرة ثمينة ، وقابل الشيخ محمد معصوم وغيره من أفراد الأسرة المجددية عدة مرات في سرهند ، ذاهباً من دهلي إلى لاهور ، أو آيباً في طريقه إلى دهلي .

تفيد دراسة رسائل الشيخ سيف الدين ـ التي بعث بها إلى السلطان أورنك زيب وطبعت باسم « المكتوبات السيفية » دراسة عميقة أن صلة السلطان أورنك زيب بالشيخ سيف الدين ـ بصفة خاصة ـ وبأسرة الإمام السرهندي ـ بصفة عامة ـ لم تكن صلة حب وإجلال فحسب ، كما توجد لدى السلاطين المتدينين مع علماء ومشايخ بلادهم وعهودهم ، بل كانت هذه الصلة عملية أكثر منها عاطفية وتربوية إصلاحية أكثر منها حباً وإجلالاً محضاً ، يقول الشيخ سيف الدين في رسالة كتبها إلى والده ، وهي الرسالة الثالثة في الترتيب :

« سيدي الوالد نعيش هذه الأيام مجالسات ومذاكرات طويلة ، ونذاكر في بعض الرسائل الدقيقة ، ويستمع السلطان بغاية الإخلاص والإصغاء » .

ويقول في رسالة رقم : ١٤٢ ، بعثها إلى الشيخ محمد باقر اللاهوري :

« شرفنا السلطان في البيت ليلة السبت التي كانت الليلة الثالثة من هذا الشهر ، وتناول ما حضر من الطعام من غير كلفة ، وطالت الصحبة ، ووقع في أثنائها السكوت والصمت ، وبالجملة فإني آمل ظهور الطريقة العالية أيضاً كما يحب ويتمناه المخلصون ». (ص ١٦٨ ـ ١٦٩) .

واستمرت هذه الصلاة والعلاقات وذلك التأثير إلى وفاة السلطان اورنك زيب ، وقد وردت إشارات وتنبيهات في الرسائل التي كتبها شيخ الطريقة الجشتية النظامية الشهيرة الشيخ كليم الله الجهان آبادي (م١١٤٣ هـ) إلى خليفته الخاص الشيخ نظام الدين الاورنك آبادي أنه يرافق السلطان ـ في هذه الأيام ـ أبناء الإمام السرهندي ، فينبغي أن تأخذوا بالحيطة والحذر في عقد حفلات الغناء والأناشيد لئلا

يتكدر صفو خاطرهم ، ويسيء إليهم ، تدل هذه الشواهد دلالة واضحة على أن أفراد هذه الأسرة ذوي المكانة العالية كانوا يرافقون السلطان ـ من حين لآخر ـ في غزواته ورحلاته إلى الدكن ، وإقامته الطويلة فيها ، ويساهمون معه بتفكيرهم ودعائهم كذلك .

وقد طلب السلطان ـ مراراً ـ كما يحكي المفتي غلام سرور مؤلف « خزينة الأصفياء » ـ من الشيخ محمد معصوم أن يرافقه في سفره وإقامته ، ولكنه ما اختار مرافقة السلطان ـ حسب وصية والده ـ وبعث مكانه ابنه الشيخ سيف الدين إلى دهلي ، وتفيد رسالتان رقم : ٢٢١ ، و٢٣٧ من «المكتوبات المعصومية» وجهتا إلى السلطان أن علاقة السلطان بالشيخ علاقة مريد مسترشد مع شيخه ، وسوف يأتي ذكر صلاته بالسلطان ، وتأثر السلطان به ، والعمل وفق إشارته وإرشاداته في الباب الثامن ، في ترجمة الشيخ سيف الدين ، وقد واصل الشيخ سيف الدين جهوده مع السلطان في إحياء السنة ، وتنفيذ الشريعة الإسلامية ، ولم يدخر في ذلك وسعاً ، وتوجد في مجموعة رسائله « المكتوبات السيفية » ثماني عشرة رسالة[1] كتبها إلى السلطان ، لفت فيها انتباهه إلى إزالة البدع والمنكرات ، وإحياء السنة ، وإعلاء كلمة الله ، وتمكين الدين الإسلامي في هذه البلاد .

ويصعب الحكم على جميع أعمال أي حاكم أو سلطان لدولة ما من الدول ، وجميع عاداته وأخلاقه ، وأحكامه وأقضيته ، وإجراءاته ، بأنها موافقة ـ مئة في المئة ـ للتعاليم الإسلامية ، والأحكام الشرعية ، ولا يمكن أن يقال ذلك إلاّ في الخلفاء الراشدين المهديين ، وبعض الولاة الذين كانوا على سيرة سيدنا عمر بن عبد العزيز في إقامة الخلافة على منهاج النبوة ، كما يتعذر الإدراك الدقيق للمصالح والضرورات التي اتخذت في ضوئها هذه الإجراءات السياسية والإدارية ، التي تختلف فيها الآراء ، وأنه ما مدى واقعية تلك الصورة التي تتجلى لهذه الأعمال والإجراءات في

(١) وأرقام هذه الرسائل كما يلي : ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٥ ، ٢٩ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، انظر «المكتوبات السيفية » .

ضوء بيانات المؤرخين وتصريحاتهم ، وإلى أي حد تقوم على الصدق والواقع ، فمن الصعب جداً ـ بعد مضي مدة طويلة ، وعدم توفر الشواهد والوثائق التاريخية المعتبرة ـ أن نحكم عليها حكماً قطعياً حاسماً .

ورغم كل ذلك ما يوجد لدينا من الوثائق التاريخية الثابة عن السلطان اورنك زيب ، يدلنا بكل وضوح ، ويورث فينا الاعتماد على أن السلطان كان متأثراً بالغ التأثر بحركة الإمام السرهندي الإصلاحية التجديدية ، ومحاولاته المتواصلة الصامتة لإحداث تغيير أساسي في الدولة وتحويل اتجاهها من هدم وتخريب للإسلام ، إلى بناء وتعمير وتمكين له ، كما كان متأثراً معجباً غاية الإعجاب بربّانية أبنائه الكرام وأفراد أسرته الآخرين ، وإخلاصهم ، وصفاء نفوسهم وشخصياتهم المؤثرة الآخذة بمجامع القلوب ، وقد كان انسجم مع دعوة الإمام وحركته ، وأهدافه كل الانسجام ، وكان يريد أن يخطو خطوات جريئة ، ويحدث تغييرات عميقة بعيدة المدى في نظام الدولة ، وفي المجتمع المسلم الخاضع لهذا النظام ونفذ ـ لأول مرة ـ بعض الإصلاحات التي كانت تؤثر على اقتصاد الدولة ، تطبيقاً لبعض الأحكام الصريحة في الشريعة الإسلامية .

وبغضّ النظر عن حياته الشخصية التي اتفق المؤرخون على أنه كان فيها متديناً متورعاً ، يتمسك بالشريعة ، ويعمل بها ، والتي نكتفي في الإشارة إليها ببعض الأمثلة التي تلقي الضوء على نبذة من حياته الدينية :

يقول مؤرخ الهند الأستاذ ذكاء الله الدهلوي :

« كان شهر رمضان وكانت تهب السموم اللافحة ، وكان النهار طويلاً ، ولكن السلطان يصوم النهار ، ويقرأ الأوراد ، ويتلو القرآن ، ويحفظه غيباً ، ويكتب ويؤلف ، ويدير دفة شؤون الدولة ، ويقوم بأعمال المحكمة والقضاء والسلطة وبعد أن يدخل « مسجد غسل خانه » («مسجد الدرّة» المعروف في داخل القلعة الحمراء) فيصلي المكتوبات ، والتراويح ، والنوافل حتى ينتصف الليل ،

فيتناول قليلاً من الطعام ، وقليلاً ما يهجع وينام ، ويحيي بقية الليل بالقيام ويحيي بعض الليالي ذات الخيرات والبركات كلها ، وهكذا يقضي شهر رمضان[1] » .

ويقول المؤرخ وهو يصف حاله عند احتضاره :

« غلبته الحمى العام الواحد والخمسين من جلوسه ، الموافق ١١١٨ هـ ، والتزم الصلاة بالجماعة ـ رغم شدة المرض ـ أربعة أيام ، لكمال تورعه وتقواه ، وكان قد كتب وصية من قبل ، أوصى فيها بأن ينفق أربع روبيات ونصف روبية ـ وهي ما بقي مما اكتسبه بيده بخياطة القلانس ـ فيشتري بها ما يحتاج إليه في التكفين والتدفين ، وتوزع ثمانمائة وخمس روبيات ، وهي ما حصلت لي من أجرة كتابة المصاحف ، على الفقراء والمساكين ، ولما كان يوم الجمعة ٢٨ ذي القعدة عام ٥١ للجلوس ، الموافق ١١١٨ هـ ، صلى السلطان صلاة الفجر ، ثم اشتغل بالتهليل ، حتى فارق هذه الدنيا الفانية بعد أن تعالى النهار ، ورحل للأبد إلى دار القرار »[2] .

ونقتصر ـ فيما يلي ـ على تلك الأحكام والفرامين السلطانية التي تتعلق بتعظيم الشعائر الإسلامية ، وتنفيذ الأحكام الشرعية :

يقول المؤرخ في حوادث العام الثاني من ولاية السلطان الموافق عام ١٠٦٩ هـ :

« أسس التقويم المتبع في الإدارة والولاية منذ عهد السلطان جلال الدين أكبر علي غرة « فروردي » التي تدخل فيها الشمس برج الحمل ، ويزدهر الربيع وكان تاريخ جلوس السلطان قريباً من هذا التاريخ ، فوضع التقويم بدءاً من شهر « فروردي » إلى شهر « اسفنديار »[3] ، وسمى الشهور « شهوراً إلهية » ، ولما كان

---

(١) « تاريخ هندوستان » ج ٨ ، ص ٢١٤ ، تاليف الاستاذ ذكاء الله الدهلوي . (نقلاً عن « مآثر عالمكيري » وغيره) .

٢) أيضاً ، ص ٤٦٥ .

٣) وهما شهران في التقويم الايراني القديم

هذا الأمر يشبه طريقة السلاطين المجوس عباد النار ، بدأ السلطان ـ مراعاة للشريعة الإسلامية ـ التقويم الهلالي العربي للشهور والسنين لجلوسه وإدارته ومهرجاناته ، وأمر بتقديم التقويم العربي الهلالي على التقويم الشمسي ، وأمر بإلغاء الاحتفال بمهرجان نوروز .

ويعلم جميع الناس أن الشهور الهلالية تتغير دائماً ، وتحدث مشاكل وتعقيدات في استخدام التقويم الهلالي ، ولكن هذا السلطان المتدين لم يبال بمشاكل هذا التقويم ، ونهى عن الاحتفال بمهرجان « نوروز » لتشبهها بطريقة عباد النار المجوس ـ أصلاً ـ وقرر بداية تاريخ الجلوس الثاني بغرة شهر رمضان وهكذا بدأ تقويماً جديداً للجلوس ، أبدل مهرجان نوروز ، بمهرجان عيد الفطر[1] .

ويذكر المؤرخ وقف السلطان للدخل الكبير الذي كان يأتي الدولة من طريق غير شرعي ، فيقول :

« أمر السلطان بإلغاء « راهداري » ـ ضريبة الطريق ـ الذي كان يؤخذ على جميع الحدود والثغور ، وتوضع جميع وارداته في خزانة الدولة ، فكان دخلها ودخل خراج « بانداري » الذي يسمى « ته بازاري » . . . يزيد على مئات الآلاف ويدخل الخزانة السلطانية ، كما ألغى السلطان جميع الواردات التي كان دخلها من الحانات والخمارات ، والغرامات وما يقدم إلى الموظفين والحكام إظهاراً للشكر وغير ذلك ، مما يبلغ الملايين من الروبيات ،وكان دخلاً كبيراً للدولة »[2] .

كانت الحسبة منصباً خطيراً في الحكومات الشرعية ، وشعاراً ظاهراً من شعائر الخلافة الإسلامية ، وألف كثير من العلماء لبيان مسئوليات هذه الوظيفة المهمة ونوعية العمل فيها ، كتبا بعنوان « الحسبة في الإسلام » وكانت هذه المهمة ، الخطيرة مهجورة معطلة في الحكومات المسلمة في الهند ، وأحيا السلطان هذه السنة أيضاً .

---

(١) أيضاً ص ٨٣ ـ ٨٤ .

(٢) أيضاً ، ص ٩٠ .

يقول المؤرخ :

« عين السلطان الشيخ عوض وجيه محتسباً ، وأمره بأن ينهى الناس عن جميع المحرمات ، خاصة عن شرب الخمور ، وتناول الحشيش وجميع المسكرات ، وجميع الفواحش ، ويمنعهم ـ قدر المستطاع ـ من جميع المسيئات والمنكرات»[1].

ويقول المؤرخ في حوادث ووقائع السنوات من عام ١١ للجلوس الى ٢١ للجلوس ، الموافق عام ١٠٧٨ هـ .

« كان السلطان يزداد ـ كل يوم ـ اهتماماً بإجراء الأحكام الشرعية وتنفيذها ، ومراعاة الأوامر والنواهي الإلهية ، فكان يصدر فرامين مفصلة لإلغاء دخل « راهداري » و « بانداري » الذي كان يبلغ مئات الآلاف من الروبيات كل عام ، وكان يدخل في الخزانة السلطانية ، وكان يأمر بإغلاق الحانات والخمارات ، ومكامن الريبة والفساد »[2].

ويزيد قائلاً :

« أمر السلطان بإلغاء الرقص والغناء ، ونهى عن اجتماع الناس تحت قصر السلطان لزيارته ، ورؤية طلعته من نافذة في أعلى القصر ـ وكان هذا تقليداً من التقاليد السلطانية المخترعة ، ويسمى « جهروكه درشن » ، وترك نفسه الجلوس على النافذة ، استنكاراً لهذه التقاليد غير الشرعية » .

كان السلاطين المسلمون في الهند ـ حسب معتقدات الهنادك وعادتهم القديمة ـ يثقون كثيراً بالتنجيم والمنجمين ، ويعينون الأيام والشهور لأعمالهم الخاصة حسب

---

(١) أيضاً ص ٩٢ ، ذكر مؤلف « نزهة الخواطر » اعتماداً على كتب التاريخ بالفارسية ، أن علامكير نسخ عام ١٠٦٩ هـ ثمانين نوعاً من الخراج والضرائب ، التي كان دخلها السنوي للخزانة السلطانية ثلاث ملايين روبية .

(٢) أيضا ، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ باختصار .

ما يقرر المنجمون في ضوء علم التنجيم ، فقضى السلطان عالمكير على هذه العقيدة والعادة المتبعة ، وأهم من ذلك أن الأحكام القضائية كانت تقتصر على محاكم الحكام والأمراء وأحكامها ، فعين السلطان عالمكير قضاة شرعيين وأعطاهم السلطة المطلقة فيما يتعلق بالقوانين الشرعية .

« الشعراء والمنجمون الذين كان لهم مكانة واعتبار في الدولة ، منعوا من ممارسة أعمالهم خاصة ، في عهد السلطان شاهجهان ، وعين القضاة للشؤون الداخلية والمرافعات الجزئية والكلية ، وحصل لهم من التمكن والاستقلال في شؤونهم ما بعث الأمراء وأعيان الدولة ، على الغبطة والحسد »[1].

وتكفل السلطان ـ لتنفيذ القوانين الشرعية في سائر البلاد ، وتوفير التسهيلات للقضاة ـ بترتيب المسائل الفقهية ، وتدوينها من جديد ، وكوّن لأجل ذلك لجنة من العلماء البارعين ليرتبوا المسائل في عبارة سهلة واضحة ترتيباً جيداً ، ويقتصروا في المسائل على ظاهر الرواية ، ولا يلتفتوا إلى « النوادر » إلا عند الضرورة ، ويحيلوا على المراجع التي يقتبسون منها ، وعين لذلك ـ في أوائل حكمه ـ الشيخ نظام الدين البرهانبوري رئيس هذه اللجنة ، الذي استعان بكبار العلماء البارعين في الفقه الحنفي[2] ، وتم هذا العمل الضخم في ستة مجلدات وأنفق عليه من الخزانة السلطانية مئتا ألف روبية ـ وهي تساوي الآن ملايين الروبيات ـ ويعرف هذا العمل الفقهي العظيم في الهند بـ « الفتاوي العالمكيرية » وفي بلاد مصر والشام ، وتركيا بـ « الفتاوي الهندية » ويحتل لبعض خصائصه وميزاته أهمية كبيرة في كتب الفقه والفتاوي ، وكانت الخطوة الأخرى أكثر جراءة وشجاعة ، فقد أذن السلطان لرعاياه أن يرافعوا إلى المحكمة ضد السلطان ، ويطالبوا بالحكم طبق الشريعة الإسلامية ،

---

(١) أيضاً ، ص ٢٧٧ ، وراجع كذلك كتاب (Aurangzeb And His Age) لمؤلفه الفاضل ظهير الدين الفاروقي « أورنك زيب وعصره » الباب بعنوان A Reformer .

(٢) راجع ترجمة « أورنك زيب علامكير » في « نزهة الخواطر » ج ٦ ، و« الثقافة الاسلامية في الهند » للعلامة عبد الحي الحسني طبع المجمع العلمي بدمشق ، وقد سرد فيه أسماء أعضاء هذا المجمع الفقهي ، وهم من كبار علماء الهند ، فبلغ عددهم الى عشرين عالماً .

وعين لذلك محامين شرعيين ، يقول مؤرخ الهند :

« أمر السلطان عام ١٠٨٢ هـ ، بأن ينادي في البلاط والمدن والقرى : من كانت له دعوى شرعية على السلطان ، فليحضر وليراجع وكيل السلطان ، وليأخذ حقه إذا ثبتت دعواه ، وأمر بتعيين المحامين والوكلاء في البلاط ، وفي المدن القريبة والبعيدة حتى يرفع من لا يستطيع الوصول إلى البلاط أمره إليهم ، ويثبتوا عن طريقهم دعواهم ، ويطلبوا حقهم »[1] .

كانت الآداب والتقاليد الجاهلية للتحية - التي كانت فيها مناقضة صريحة للشريعة الإسلامية ، والتعظيم المتطرف المفرط الذي لا يصح لغير الله - سائداً في البلاط المغولي للسلاطين المغولية ، أما التسليم فلم يكن سائداً في أوساط كثير من المشايخ والعلماء فضلاً عن الأعيان والأمراء ، وفي محيط البلاط الملكي ، فتناول السلطان هذه العادة بالإصلاح ، وأمر بالاقتصار على التسليم .

يقول المؤرخ نفسه :

« وصدر الأمر - في تلك الأيام - بأن المسلمين عند مقابلة السلطان ، ينبغي أن يقتصروا على أن يقولوا السلام عليك ، ولا يضعوا أيديهم على رؤوسهم مثل الكفار ، ويجب على الحكام والأمراء أن يتبعوا ذلك مع الخاصة والعامة .

ولقبت الأوساط الدينية السلطان أورنك زيب - بناءً على هذه الإجراءات والعواطف الإسلامية - « بمحيي الدين » وكان الدكتور إقبال - كذلك - الذي يعرف فلسفات الهند ونزعاتها ، والحرب القائمة فيها بين الشريعة و « الويدانت » والصراع الشديد بينهما في صيانة المستقبل للهند ، معرفة عميقة دقيقة - يعدّ السلطان أورنك زيب من تلك الشخصيات العديدة البارزة التي يرجع إليها الفضل في صيانة الدين

---

(١) « تاريخ هندوستان » لذكاء الله ، وللاطلاع على تفاصيل أخرى تلقي الضوء على اتجاه عالماكير الديني يحسن مطالعة كتاب (History Of Aurangzeb) للمؤرخ الهندكي الفاضل جادو ناتهركار ، وكتاب Aurangzeb للمؤرخ الانجليزي المشهور استينلي لين بول

وحماية المسلمين عن الذوبان في الحضارة الهندية ، وقد كان كاتب هذه السطور ذكر في مقالة بعنوان « ساعات مع العارف الهندي » الذي كتبه كمذكرة لمقابلته مع الدكتور محمد إقبال يوم ٢٢ نوفمبر عام ١٩٣٧م بلاهور ، والاجتماع به لمدة ساعات ، ما يلي :

« وتطرّق الحديث إلى حركة الإصلاح والتجديد في الهند ، فأثنى الدكتور على مجدد الألف الثاني الإمام السرهندي ، والإمام ولي الله الدهلوي ، والسلطان محيي الدين عالمكير ـ رحمهم الله ـ ثناءً كثيراً ، وقال إنني أقول دائماً إنه لولا وجود هؤلاء ، وجهودهم الموفقة لذاب الإسلام في الديانة الهندكية وحضارتها » .

وقال فيه ـ لأجل هذا اليقين والإيمان بعظمة شخصيته ودوره في تاريخ الهند الإسلامي ـ هذه القصيدة المثيرة المؤثرة الرائعة ، التي أحاول ترجمتها فيما يلي :

« ذاك السلطان أورنك زيب ذو المجد السامق الذري الذي تتباهى به الأسرة الكوركانية ، وتعتز به ، علا به نجم المسلمين ، وارتفعت مكانتهم ، ونالت به الشريعة الإسلامية عزها وكرامتها ، كان السهم الأخير في كنانة الإسلام ، للحرب الحامية بين الكفر والإيمان ! . ، تعرضت الأمة الإسلامية لمحنة عظيمة ، بسبب بذرة الإلحاد والزندقة ، التي بذرها أكبر ، وسقاها ونماها ، والتي نشأت ـ مرة ثانية ـ في فطرة دارا شكوه ، وكانت شموع القلوب في الصدور خامدة مظلمة بسبب الفساد الشامل والظلام الحالك .

هنالك قيض الله ـ سبحانه وتعالى ـ السلطان عالمكير ، ذلك الزاهد الغيور والفراس الجسور ، الذي اجتباه الله ـ عز وجل ـ لإحياء الدين وتجديد الإيمان واليقين ، فحرقت صواعق سيوفه المهندة بيادر الكفر والزندقة ، وأضاءت شموع الدين في محافل المسلمين ، وتخرص المتخرصون من قصار النظر ، وضعاف

النفوس ، فحكموا عليه بأحكام قاسية ، وقاسوه بمقاييسهم الزائفة[1] ، ولم يعرفوا عمق مداركه ، وأبعاد تفكيره ، لقد كان فراشة متهافتة على شعلة التوحيد ، وكان في بلاد الشرك والـوثنية كإبـراهيم في نار نمـرود ، نسيج وحـده في صف الملـوك والسلاطين ،ومثالاً فريداً في زمرة الزهاد والناسكين »[2].

وأخيراً أثمرت جهود خليفتي الإمام السرهندي الكبيرين ـ الشيخ محمد معصوم والشيخ السيد آدم البنوري ، وخلفائهما الربانيين المخلصين العظام ، وأصبحت هذه البلاد ـ تدريجياً ـ مركزاً روحياً وعلمياً للعالم الإسلامي الذي كانت تغشاه سحب الضعف والانحطاط الفكري والعلمي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، وبدأت الوفود من أقاصي العالم الإسلامي ، تتوجه إلى الهند لينهلوا من معينها العلمي والروحي ، ويتلقوا التربية الدينية ، ويقطعوا مفاوز السلوك على مشايخها الربانيين ، ويأخذوا الحديث الشريف على محدثيها البارعين ، وقامت في كل بقعة من بقاع هذه البلاد ، زوايا روحية للطريقة المجددية ، ومراكز علمية لتعليم الكتاب والسنة ،واستفاد بها القاصي والداني .

---

(١) اشارة الى كتاب المؤرخين المغرضين من غير المسلمين ، والشائعات التي شاعت عنه في أوساط غير المحققين من المسلمين .

(٢) « رموز بيخودي » الديوان الفارسي ، ص ٩٨ .

الباب الثامن
قيام خليفتي الإمام السرهندي وأصحابهما بتوسيع نطاق عمله التجديدي وتكميله

مشاهير خلفائه :

إن استيعاب أسماء خلفاء الإمام السرهندي العظام ، وإحصاء مآثرهم الجليلة ، ليس أمراً ميسوراً ، فقد بلغ عددهم الآلاف ، وتفرقوا في أقطار العالم يحملون هذه الدعوة ، وينشرون هذه الحركة ، وقد مرَّت بنا ـ في الصفحات المتقدمة ـ أسماءُ عدد من كبار خلفائه الذين بعثهم الإمام إلى بعض البلدان الخارجية ، للتربية والدعوة والإرشاد ، وعين بعضهم في المناطق الرئيسية الحساسة في الهند ، للقيام بهذه الخدمة العظيمة ، ونذكر هنا ثبت المشاهير من خلفائه مرتباً على الحروف الهجائية ، ثم نذكر خليفتيه الجليلين ـ الشيخ محمد معصوم والشيخ السيد آدم البنوري ـ بشيء من التفصيل ، ونقدم ـ بصورة إجمالية ـ نبذة من أخبار خلفائهما الكبار ، وانتشار سلاسلهم ، وما قاموا به في مجال التربية والإصلاح ، وأسسوا من المراكز الروحية التربوية ، وما استفاده العامة والعلماء منهم من فوائد العلم والتزكية والتربية ، نستطيع أن نقدر به ذلك القبول العظيم والانتشار الواسع الذي أحرزته طريقة الإمام السرهندي ، وكيف أثمرت جهوده الإصلاحية والتجديدية ، وآتت أكلها يانعاً شهياً ، ولا يمكن كل ذلك إلاَّ بالتأييد الرباني ، والإرادة الإلهية ، والقبول عند الله ـ سبحانه ـ وغاية الإخلاص والصفاء واتباع السنة النبوية والشريعة الغراء

وفيما يلي ثبت الخلفاء المشاهير ، ويعرف منه تنوع أوطانهم وأصولهم ويفهم منه انتشار سلسلة الإمام في بلاد الإسلام :

١ ـ الشيخ السيد آدم البنوري ، ٢ ـ الشيخ أحمد البركي ، ٣ ـ الشيخ أحمد الدبيني ، ٤ ـ الشيخ أمان الله اللاهوري ، ٥ ـ الشيخ بدر الدين السرهندي ، ٦ ـ الشيخ بديع الدين السهارنبوري ، ٧ ـ الشيخ حسن البركي ، ٨ ـ الشيخ حميد البنغالي ، ٩ ـ الحاج خضر خان الأفغاني ، ١٠ ـ الشيخ مير صغير أحمد الرومي ، ١١ ـ الشيخ طاهر البدخشي ، ١٢ ـ الشيخ طاهر اللاهوري ، ١٣ ـ الشيخ خواجه عبيد الله المعروف بخواجه كلان ، ١٤ ـ الشيخ خواجه عبد الله المعروف بخواجه خورد ، ١٥ ـ الشيخ عبد الحي الحصاري ، ١٦ ـ الشيخ عبد الواحد اللاهوري ، ١٧ ـ الشيخ عبد الهادي الفاروقي البدايوني ، ١٨ ـ الشيخ فرّخ حسين الهروي، ١٩ ـ الشيخ قاسم علي ، ٢٠ ـ الشيخ كريم الدين بابا حسن الابدالي ، ٢١ ـ الشيخ السيد محب الله المانكبوري ، ٢٢ ـ الشيخ محمد صادق الكابلي ، ٢٣ ـ الشيخ محمد صالح الكولابي ، ٢٤ ـ الشيخ محمد صديق الكشمي ٢٥ ـ الشيخ مزمل ، ٢٦ ـ الشيخ الحافظ محمود اللاهوري ، ٢٧ ـ الشيخ نور محمد الفتني ، ٢٨ ـ الشيخ يار محمد الجديد البدخشي الطالقاني ، ٢٩ ـ الشيخ يار محمد القديم ، ٣٠ ـ الشيخ يوسف البركي ، ٣١ ـ الشيخ يوسف السمرقندي .

الشيخ محمد معصوم السرهندي[١] :

الشيخ الإمام العالم الكبير معصوم بن أحمد بن عبد الأحد العدوي العمري الشيخ محمد معصوم النقشبندي السرهندي ، كان أحب أولاد أبيه ، وأشبههم سمتاً

(١) هذه الترجمة للشيخ محمد معصوم ، التي جاءت فيها معظم الجوانب المهمة من حياته ، مقتبسة من « نزهة الخواطر » ج ٥ ، بتعديل يسير .

به ، وأقربهم منزلةً إليه ، وأتبعهم لسيرته ، وأخصهم بمعارفه ، وأبعدهم صيتاً بين الناس ، وأنفعهم لهم .

ولد لإحدى عشرة خلون من شوال سنة سبع أو تسع بعد الألف ، وقرأ بعض الكتب الدراسية على صنوه الكبير محمد صادق، وأكثرها على والده ، وعلى الشيخ محمد طاهر اللاهوري ، ولازم أباه ، وأخذ عنه الطريقة وحفظ القرآن في ثلاثة أشهر ، وحاله في تحصيل نسبة والده كحال صدر الشريعة صاحب « شرح الوقاية » حيث كان يحفظ ما يؤلفه جده بلا تأخير ، ولذلك بلغ رتبة لم يصل إليها أحد من أصحاب والده ، فبشره والده بمقامات عالية ، ولما توفي أبوه ، جلس على مسند الإرشاد ، وسافر إلى الحرمين الشريفين فحج وزار ، وأقام بالمدينة المنورة زماناً صالحاً ، ثم رجع إلى الهند وصرف عمره في الدرس والإفادة ، وكان أكثر اشتغاله تدريساً بتفسير البيضاوي ، والمشكاة ، والهداية ، والعضدي والتلويح .

قال الشيخ مراد بن عبد الله القزّاني في « ذيل الرشحات » « إنه كان آية من آيات الله مثل والده الماجد ، قد نوّر العالم ، وبدّد ظلمات الجهل والبدع بيمن توجهاته العليّة ، وأحواله السنيّة ، وصار ألوف من الرجال ، محرماً للأسرار الخفية ، وتحققوا بالحالات السنية بشرف صحبته العلية ، حتى قيل إن جميع من بايعه في الطريقة تسعمائة ألف ، وعدد خلفائه سبعة آلاف ، منهم الشيخ حبيب الله البخاري كان أعظم مشائخ خراسان وما وراء النهر في زمانه ، وقد تنورت بخارى بنور السنّة بعد ما غشيتها ظلمة البدعة وشرّف بالاخلافة والإجازة أربعة آلاف من مريديه بعد إيصالهم إلى رتبة الكمال » ، انتهى .

وللشيخ معصوم مكاتيب في ثلاثة مجلدات مثل مكاتيب والده متضمنة

لغوامض الأسرار واللطائف ، أكثرها في حل مغلقات معارف والده المرحوم .

توفي في اليوم التاسع من ربيع الأول سنة تسع وسبعين وألف بمدينة سرهند ، فدفن بها .

الشيخ آدم البنوري[1] :

الشيخ العارف الولي الكبير آدم بن اسماعيل بن بهوه بن يوسف بن يعقوب بن الحسين الحسيني الكاظمي البنوري ، أحد كبار المشائخ النقشبندية بشر به والده في رؤيا صالحة ، بشره بذلك النبي ﷺ ، ولد ونشأ بقرية « بنور » بفتح الموحدة وتشديد النون من أعمال سرهند ، وأخذ الطريقة عن الحاج خضر الروغاني أحد أصحاب الشيخ أحمد بن عبد الأحد العمري السرهندي ، بمدينة ملتان ، ولازمه شهرين كاملين ، ثم قدم سرهند بأمره ، ولازم الشيخ أحمد المذكور مدة من الزمان ، وأخذ عنه ، وقد ذكر في « خلاصة المعارف » أنه حصلت له نفحة من الجذبات الربانية عن الشيخ محمد طاهر اللاهوري بحق ما وصل إليه عن الشيخ اسكندر عن جده كمال الدين الكيتهلي ، وبالجملة فإنه بلغ رتبة لم يصل إليها كثير ممن عاصره من المشائخ ، وكانت طريقته اتباع الشريعة المحمدية واقتفاء آثار السنة السنيّة لا ينصرف عنها قدر شعرة في الأقوال ، ولا في الأفعال .

أخذ عنه خلق كثير حتى قيل إن أربعمائة ألف مسلم بايعوه ، ثم ألف رجل منهم نالوا عنه حظاً وافراً من العلم والمعرفة ، وقيل إن زاويته قلّما كانت تخلو عن ألف رجل كل يوم ، وكلهم كانوا يأكلون الطعام من مطبخه ويستفيدون منه .

وفي « التذكرة الآدمية » أنه سار إلى لاهور سنة اثنتين وخمسين وألف ، وكان معه عشرة آلاف من السادة والمشائخ ، ومن كل طبقة ، وكان شاهجهان بن جهانكير سلطان الهند بلاهور في ذلك الزمان ، فاستعظمه وأمر سعد الله خان أن يذهب

(١) مقتبس من « نزهة الخواطر » ، ج ٥ ، بتعديل يسير .

إليه ، فجاء سعد الله خان ، وتكدرت صحبته بالشيخ ، فسعى إلى السلطان بالوشاية ، فأمر السلطان أن يسافر الشيخ إلى الحرمين الشريفين زادهما الله شرفاً ، فسافر معه أصحابه وعشيرته فحجج وسكن بالمدينة المنورة حتى مات بها » انتهى .

وللشيخ آدم رسائل في الحقائق والمعارف ، منها « خلاصة المعارف » في مجلدين بالفارسية ، أوله : « الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً بقدر كمالات أسمائه وآلائه . . . الخ » ومنها « نكات الأسرار »

وكان الشيخ آدم أمّياً ما قرأ شيئاً من الكتب على أهل العلم .

مات لِسبْع بقين من شوال سنة ثلاث وخمسين وألف بالمدينة المنورة ، فدفن ببقيع الغرقد عند قبة سيدناعثمان بن عفان رضي الله عنه .

السلسلة المجددية المعصومية
ومشايخها الكبار :

نذكر ـ أولاً وبصورة إجمالية ـ نبذة من حياة المشايخ الكبار في سلسلة الشيخ محمد معصوم ، لعلنا نستطيع أن ندرك بها ما أحرزوا من القبول والإعجاب ، وتهافت الناس عليهم تهافت الفراش على النور ، وسعة حلقتهم للتدريس والإفادة والتربية ، والإفاضة ، وكثرة وفود الطالبين والمسترشدين ، وتأثيرهم الواسع العميق في المجتمع الإسلامي المعاصر وحياة المسلمين ـ بصفة عامة ـ وينبغي للاطلاع على تراجمهم المفصلة الرجوع إلى الكتب التي ألفت في حياتهم ـ بصفة مستقلة ـ أو كتب السير والتراجم العامة التي تقدم ذكرها إجمالاً ، أما ما يتعلق بالهند ، فيكفي إلقاء نظرة على الأجزاء : الخامس ، والسادس ، والسابع ، من كتاب العلامة السيد عبد الحي الحسني الشهير « نزهة الخواطر » .

الشيخ سيف الدين السرهندي :

انتشرت طريقة الشيخ محمد معصوم ، وحققت أهداف الإمام السرهندي ـ مؤسس هذه الطريقة ـ ومقاصده ـ التي تشتمل ـ بصفة خاصة ـ على تجديد الصلة مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ والدعوة إلى اتباع السنة ، ونبذ البدع والمنكرات ، وبلغت ذروة الرقي والكمال على يد الشيخ سيف الدين بن الشيخ محمد معصوم وخليفته الراشد (١٠٤٩ ـ ١٠٩٦ هـ) الذي اختار بلدة دهلي للإقامة بأمر والده فصار مرجعاً للطالبين ، ومجمعاً للسالكين ، وتأسست على يديه تلك الزاوية العامرة التي أصبحت في عهد الشيخ المرزا مظهر (جان جانان) ، والشيخ غلام علي مركزاً عالمياً روحياً للتربية والإفاضة ، واستنارت بها أرجاء أفغانستان وتركستان ـ في جانب ـ وأضاءت العراق والشام في جانب آخر ، وصدق قول الشاعر الذي وصف الشيخ محمد معصوم بما معناه :

« الشيخ محمد معصوم سراج يضيء الممالك والبلاد ، استنارت به الآفاق من الهند إلى الروم » .

وتلقّى السلطان أورنك زيب التربية الروحية على يد الشيخ سيف الدين ، ويذكر في كتب التاريخ دخول الشيخ سيف الدين في قصر السلطان ، وإنكاره على الصور المنحوتة في الجدران ، وانقياد السلطان له ، وأمره ـ مباشرة ـ بإزالة هذه الصور[1] ، وأخبر الشيخ سيف الدين والده بهذه الحادثة في رسالة إليه ، فوجه والده الشيخ محمد معصوم رسالة إلى السلطان ، وأبدى فيها سروره ، يقول فيها :

« إنها لنعمة عظيمة أن يسمع السلطان ـ رغم أبهته وشوكته وحشمته ـ كلمة الحق وينصاع لها ، ويؤثر فيه قول مسكين فقير[2] » .

---

(١) « ذيل الرشحات » للشيخ محمد مراد القزاني ، ص ٤٨ ، المطبعة الميرية بمكة المحمية ١٣٠٠ هـ .
(٢) رسائل الشيخ محمد معصوم ج ٣ ، الرسالة رقم : ٢٢٧ .

كما أخبر الشيخ سيف الدين والده بظهور آثار الذكر على السلطان ، وقطعه المسافات الطويلة في « السلوك » ، فكتب إليه والده الشيخ محمد معصوم في سرور وارتياح وغبطة ، يقول :

« ما ذكرته من أحوال السلطان الحامي لذمار الإسلام ، مثل سريان الذكر في اللطائف ، وحصوله على « سلطان الأذكار » و « الرابطة القلبية » وقلة الوساوس والخطرات ، وتقبله الحسن لكلمة الحق ، وإزالة بعض المنكرات وزوال « لوازم الطلب » انكشف لي كل ذلك برسالتك غاية الانكشاف ، فيجب علينا أن نحمد الله ـ عز وجل ـ على ذلك ، فإن هذه الصفات شاذة نادرة في طبقة السلاطين[1] .

وداوم السلطان على الاتصال به روحياً وتربوياً ، فقد ذكر مؤلف « مآثر عالمكيري » محمد ساقي مستعد خان ، في وقائع يوم ١٣ محرم العام الثاني عشر للجلوس الموافق لعام ١٠٨٠ هـ ، أن السلطان ذهب بعد ما مضى هزيع من الليل إلى بيت الشيخ سيف الدين ، من البستان الذي كان فيه ، وجلس عنده ساعة ، يستفيد بصحبته المباركة وكلماته الطيبة النافعة ، وأبدى له إجلاله واحترامه ، ورفع شأنه ثم رجع إلى قصره[2] .

قال الشيخ مراد بن عبد الله القزاني في « ذيل الرشحات » :

« كان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على رتبة لم يكن عليها شيخ من المشايخ مثله ، حتى كادت البدع ترتفع عن بلاد الهند في زمنه وتستأصل ، ولذلك لقبه والده بمحتسب الأمة ، وكان صاحب جذب قوي ، وتصرف عال بحيث كان الناس يضطربون من قوة توجهاته ، ويبقون بلا اختبار في يده » .

وكانت له شوكة ظاهرة حتى كان السلاطين والأمراء يقومون على أرجلهم

---

(١) أيضاً ج ٣ ، الرسالة رقم : ٢٢٠ .

(٢) مآثر عالمكيري ، قام بنشره « مجمع بنغال الأسيوي » (BENGAL ASIATIC SOCIETY) .

بالأدب التام بين يديه ، ولا يتجاسرون على القعود أمامه ، وكان يأكل من مطبخه كل يوم ألف وأربعمائة رجل مرتين مما يوافق طبعه ، وترغب فيه نفسه[1] » .

وخلف الشيخ سيف الدين السيد نور محمد البدايوني (م ١١٣٥ هـ) الذي عمر هذه الزاوية ، ونورها بنور الشريعة المحمدية ، ثم خلفه الشيخ مرزا مظهر جان جانان ، الذي ازدادت به هذه الزاوية بهاءً ونوراً .

من الشيخ محمد زبير إلى الشيخ
فضل رحمن الكنج مراد آبادي :

وكان الابن الثاني للشيخ محمد معصوم هو الشيخ محمد نقشبند (م ١٠٣٤ - ١١١٤ هـ) الذي اشتهر بحجة الله نقشبند ، استخلفه الشيخ محمد معصوم وأجازه فانصرف - بعد وفاته - إلى التربية والإرشاد ، انصرافاً كلياً .

وكان من خلفائه الشيخ محمد زبير بن أبي العلاء بن الشيخ محمد معصوم (م ١١٥١ هـ) حصل له من رجوع الناس إليه ، وتقاطرهم عليه من كل حدب وصوب ما لم يحصل لغيره ، في عصره إلا نادراً ، وإذا خرج يعود مريضاً أو يلبي دعوة ، تبعه الملوك والأمراء فيظن أنه موكب السلطان[2] .

خلفه في الدعوة والإرشاد الأعلام من الرجال ، اشتهر منهم ثلاثة : الشيخ ضياء الله ، الذي خلفه الشيخ محمد آفاق ، والشيخ محمد ناصر عندليب ، الذي خلفه ابنه الشاعر العارف ميردرد الدهلوي ، والشيخ عبد العدل ، الذي كان من خلفائه الشيخ عبد القادر الدهلوي أول مترجم لمعاني القرآن الكريم بالأردية لسان مسلمي الهند ، وابن الإمام حكيم الإسلام ولي الله الدهلوي .

وكان الشيخ ضياء الله من أجلة المشايخ ، وصاحب الصلة القوية مع الله ،

---

(١) انظر « نزهة الخواطر » ج ٦ ، نقلاً من « ذيل الرشحات » . ص ٤٨ - ٤٩ .
(٢) « در المعارف » مجموعة أقوال الشيخ غلام علي ، وانظر « نزهة الخواطر » ج ٦ .

حتى كان الشيخ غلام علي يقول : من لم يشهد النسبة المجددية فلينظر إلى الشيخ ضياء الله[1] .

ورزق خليفته الشيخ محمد آفاق (١١٠٦ - ١١٥١ هـ) قبولاً عظيماً ، وطبق ضيته الآفاق ، فاستفاض به الناس من دهلي إلى كابل ، ولما سافر إلى أفغانستان بايعه زمان شاه‌ملك « كابل » وخلق كثير[2] .

وكان خليفة الشيخ محمد آفاق ، الشيخ فضل رحمن الكنج مراد آبادي ، الذي عمر الهند وأضاءها - لا سيما المنطقة الشمالية منها - بروحانيته وطهارة أنفاسه ، وحرارة حبه ولوعته ، وزهده في زخارف الدنيا ، واتباعه للشريعة الغراء ، واشتغاله بتدريس الحديث الشريف ، وتمسكه بالسنة في دقيق وجليل ، أكثر من نصف قرن من الزمان ، وبتعبير دقيق « قامت سوق الحب الإلهي ونفقت نفاقاً عظيماً » .

ويقول مؤرخ الهند ومترجم رجالها ، المعروف بأمانته العلمية ، وسعة نظره وتحرّيه للدقة وعدم المبالغة ، العلامة السيد عبد الحي الحسني مؤلف « نزهة الخواطر » في ترجمته الحافلة الجميلة في كتاب « نزهة الخواطر ، وبهجة المسامع والنواظر » :

« الشيخ العلامة المحدث المسند المعمر صاحب المقامات العلية ، والكرامات المشرقة الجلية شرف الإسلام فضل رحمن بن أهل الله بن محمد فياض ابن بركة الله بن عبد القادر بن سعد الله بن نور الله المعروف بنور محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحيم بن محمد الصديقي الملانوي ثم المراد آبادي ، كان من العلماء الربانيين .

ولد سنة ثمان ومائتين وألف بملاّ نوان - بتشديد اللام - وقرأ العلم على مولانا نور بن أنوار الأنصاري اللكهنوي وعلى غيره من العلماء ، ثم سافر إلى دهلي بصحبة الشيخ حسن علي اللكهنوي المحدث ، فأدرك بها الشيخ عبد العزيز بن ولي الله

(١) در المعارف ، ص ١٦ .

(٢) انظر « نزهة الخواطر » ، ج ٧ .

والشيخ غلام علي ، والشيخ محمد آفاق وغيرهم من كبار المشايخ ، وأخذ الحديث المسلسل بالمحبة عن الشيخ عبد العزيز المذكور ، وسمع منه شطراً من صحيح البخاري ثم رجع إلى بلدته ولبث برهة من الزمان ، ثم سافر إلى دهلى بعد ما توفي الشيخ عبد العزيز ، فلازم سبطه الشيخ اسحاق بن محمد أفضل العمري ، وقرأ عليه الصحاح الستة ، وأخذ الطريقة عن الشيخ محمد آفاق النقشبندي الدهلوي ، صحبه مدة ، حتى نال حظاً وافراً من العلم والمعرفة ، ثم عاد إلى بلدته وأقام بها ، زماناً ، ولما توفيت أم عياله انتقل إلى مراد آباد على أربعة أميال من ملانوان وتزوج بها وسكن ، ولكنه كان في ذلك الزمان يؤثر السفر على الإقامة ، فربما يسير إلى لكهنئو وكانبور وبنارس وقنوج وغيرها من البلاد ، وربما يشتغل بتصحيح المصاحف في دور الطباعة ، ويشتغل بتدريس الحديث الشريف .

ثم لما كبر سنه ترك السفر واعتزل بمراد آباد ، فتهافت عليه الناس تهافت الظمآن على الماء ، وتواترت عليه التحف والهدايا ، وخضع له الوجهاء وسراة الناس يأتون إليه من كل فج عميق ومرمى سحيق ، حتى صار علماً مفرداً في الديار الهندية ورزق من حسن القبول ما لم يرزق أحد من المشائخ في عصره .

وكان أكبر من رأيت وأعلمهم بهدي النبي ﷺ ، ودلّه وسمته ، لا يتجاوز عنه في أمر من الأمور مع العفاف والقناعة ، والاستغناء والسخاوة ، والكرم والزهد ، لا يدخر مالاً ، ولا يخاف عوزاً ، تحصل له الألوف من النقود فيفرقها على الناس في ذلك اليوم ، حتى كان لا يبيت ليلة ، وفي بيته درهم أودينار ، وكان لا يحسن الملبس والمآكل ، ولا يلبس لبس المتفقهة من العمامة والطيلسان فضلاً عن تكبير العمامة وتطويل الأكمام ، ولا يهاب أحداً في قول الحق ، وكلمة الصدق ، ولو كان جباراً عنيداً ، قد انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل والزهد والورع ، والشجاعة والكرم ، والجلالة والمهابة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مع حسن القصد والإخلاص ، والابتهال إلى الله تعالى ، ودوام المراقبة له والدعاء إليه ، وحسن

الأخلاق ونفع الخلق ، والإحسان إليهم ، فإن حلفت بين الركن والمقام أني ما رأيت في العالم أكرم منه ، ولا أفرغ منه عن الدينار والدرهم ، ولا أطوع منه للكتاب والسنة ما حنثت ، وأني ما رأيت أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ منه .

وكان ربع القامة ، نقي اللون ، عظيم الهامة ، مرسل اللحية ، قصيرها ، يصلي بالناس في المسجد ، ويسكُنُ في حجرة بفنائه ، ويسعى مع أصحابه في مصالحهم ، وملبوسه كآحاد الناس ، يدرس القرآن الحكيم والحديث الشريف قبل الظهيرة ، وبعد الظهر وبعد العصر في أغلب الأوقات ، سمعت منه المسلسل بالأولية والمسلسل بالمحبة ، وشطراً من صحيح البخاري ، كان يقرأ رضي الله عنه ، ويتكلم في أثناء القراءة على الأحاديث .

وأما كشوفه وكراماته فلا تسأل عن ذلك ، فإنها بلغت حد التواتر ، وأني ما وجدت في الأولياء السالفين من يكون مثله غير الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه .

توفي لثمان بقين من ربيع الأول سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة وألف بمراد آباد فدفن بمقبرة مراد خان[1] » .

الشيخ مرزا مظهر جان جانان والشيخ غلام علي :

كان الشيخ مرزا جان جانان ، الشهيد (١١١ ـ ١١٩٥ هـ) خليفة السيد نور محمد البدايوني الذي بقي ٣٥ سنة يشعل بحرارة أنفاسه مجامر القلوب ، وينور بإشراقه الأرواح والنفوس ، وأقام سوق الحب لله بدهلي العاصمة ، يقول عنه العالم الكبير ، ومعاصره الناقد البصير الإمام ولي الله الدهلوي :

« لا تخفى عليّ أخبار رجال الهند وسيرهم ، فقد ولدت هنا ، وعشت ، وزرت البلدان العربية ، وقمت فيها برحلات وجولات ، وسمعت أحوال رجال

(١) نزهة الخواطر ، ج ٨ ، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٤ .

أفغانستان ، وإيران من أهلها الثقات ، وتوصلت بعد كل ذلك إلى أنه لا يوجد في أي بلد من هذه البلدان مربٍّ روحي يضاهيه في اتباعه للكتاب والسنة ، وتمسكه بهما ، واستقامته على جادة الشريعة والطريقة ، ويساويه في علو كعبه في إرشاد الطالبين وتربية السالكين ، وفي قوة تأثيره ، في عصرنا هذا ، يمكن - من غير شك - أن يكون أمثاله في القرون الماضية ، وفي الأولياء المتقدمين بل الواقع أنه لا يوجد أمثاله في كل عشر ، إلاَّ في عدد قليل ، فضلاً عن هذا العصر الذي عم فيه الفساد وشمل البلاد والعباد[1] » .

وخلفه - في تربيته وإرشاده - نوابغ العلماء وأعلام المشايخ[2] ، كالشيخ نعيم الله البهرائجي (١١٥٣ - ١٢١٨ هـ) والشيخ القاضي ثناء الله الباني بتي (م ١٢٢٥ هـ) بيهقيّ عصره (كما لقبه بذلك مسند الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوي) ومؤلف « التفسير المظهري » و « ما لا بد منه » والشيخ غلام يحيى البهاري (١١٨٠ هـ) ، ولكن قيض الله - سبحانه وتعالى - لنشر طريقته ، بل الطريقة المجددية وتبليغها على النطاق العالمي الواسع خليفته الشيخ غلام علي البتالوي[3] (١١٥٦ - ١٢٤٠ هـ) الذي يستحق أن يدعى بمجدد الطريقة المجددية ، بل مجدد علم السلوك والإحسان والتزكية - الذي يعرف بعلم التصوف - في القرن الثالث عشر الهجري ، الذي قصده الطالبون من البلاد العربية والعجمية ، وتهافتوا عليه تهافت الفراش على النور ، ولم تبق مدينة من مدن الهند ، إلا وتشرفت بخليفة من خلفائه ، وكان في مدينة « أنباله » وحدها خمسون شيخاً مرشداً من خلفائه ، يقول السر السيد أحمد خان الدهلوي مؤسس جامعة عليكره الإسلامية ، وقد أدرك آخر أيام حياته في كتابه « آثار الصناديد » :

« شاهدت بأم عيني في زاويته رجالاً من الروم والشام ، وبغداد ومصر ،

(١) « كلمات طيبات » ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) وقد جاء في كتاب « مقامات مظهري » ص ٦٤ أسماء ٤٣ شخصاً من خلفائه .

(٣) كان اسمه عبد الله ، ولكنه اشتهر باسم الشيخ غلام علي

والصين والحبشة ، وفدوا عليه وبايعوه ، ورأوا خدمة هذه الزاوية سعادة العمر وحسنة الدهر ، أما البلدان والمدن القريبة مثل الهند ، وبنجاب وأفغانستان فلا تسأل عن أهلها ، الذين قصدوه كالجراد المنتشر ، وكان يسكن في زاويته زهاء خمسمائة من الطالبين المنقطعين إلى التربية والتزكية ، وكان الشيخ متكفلاً بطعامهم وملابسهم[1] » .

ويذكر الشيخ رؤوف أحمد المجددي في كتابه « در المعارف » فهرس القرى والمدن والبلدان التي ينتمي إليها المحتشدون من أنحاء مختلفة في هذه الزاوية وذلك في يوم ٢٨ جمادي الأولى عام ١٢٣١ هـ ، واقرأ ـ فيما يلي ـ هذا الفهرس .

« سمرقند ، وبخارى ، غزنين ، تاشقند ، حصار ، قندهار ، كابل ، بشاور ، كشمير ، ملتان ، لاهور ، سرهند ، أمروهه ، سنبهل ، رامبور ، بريلي ، لكهنئو ، جائس ، بهرائچ ، كوركهبور ، عظيم آباد ، دهاكة ، حيدر آباد ، بونا ، وغيرها من المدن والقرى[2] » .

الشيخ خالد الرومي :

وقدر الله ـ عز وجل ـ أن تنتشر سلسلة الشيخ غلام علي وطريقته ، ويمتد رواقها على العراق والشام وتركيا ، بالشيخ خالد الرومي الشهرزوري ، أحد الفضلاء الأكراد ، الذي بلغه صيت الشيخ غلام علي وإرشاده وتربيته في بلاده ، فشد رحله في شوق وحنين واضطراب ، وقطع المفاوز والمسافات الشاسعة ، حتى وصل في مدة عام كامل إلى دهلي ، فألقى رحله في زاويته ولزمها إلى أن أكرمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعد التربية والسلوك ، بالإجازة والخلافة ، وقد كان من انقطاعه الكامل إلى الاشتغال بتزكية نفسه أثناء إقامته ، أن العلماء والمشايخ من أهل دهلي

(١) آثار الصناديد ، الباب الرابع .
(٢) در المعارف ، ص ١٠٦ .

الذين كانوا يسمعون ـ من أعوام وسنين ـ أخبار فضله ونبوغه ، وسمو منزلته ، يأتون لزيارته ، فيقول لهم :

« لا يستطيع الفقير أن يلتفت إلى شيء آخر غير هدفه المنشود الذي جاء لأجله » .

ولما رجع إلى بلاده تهافت عليه الناس من كل صوب وحدب ، وقصدوه زرافات ووحداناً ، ورزق من القبول ورجوع الطالبين ما يندر نظيره ، يقول الشيخ رؤوف أحمد المجددي في « در المعارف » في مذكرة يوم الجمعة ٢٤ رجب ١٢٣١ هـ :

« حضر شيخ مغربي متجشماً عناء السفر الطويل في هذه المسافة الشاسعة البعيدة عندما سمع بذكر شيخنا الجليل ، ولقي في الطريق ببغداد الشيخ خالد الرومي ، فذكر من حال قبوله العظيم ورجوع الناس إليه ، وقال إنه بايعه ، وتاب على يديه زهاء مائة ألف شخص ، وانخرطوا في سلك مريديه ، كما بايعه ألف من العلماء المتبحرين ، الذين يمثلون لدى الشيخ في إجلال واحترام[1] » .

ويقول الشيخ خالد الرومي نفسه في رسالة كتبها إلى الشيخ أبي سعيد ـ تحديثاً بالنعمة وشكراً على آلاء الله ـ :

« جميع بلاد الروم والعرب والحجاز والعراق ، وبعض بلاد العجم وجميع كردستان متأثرة تأثراً عميقاً بالطريقة النقشبندية العالية ، وبركاتها ، ويتذاكر الناس ـ صغارهم وكبارهم ـ في مجالسهم ومحافلهم ، ومساجدهم ومدارسهم ـ صباح ومساء ـ محاسن الإمام الرباني مجدد الألف الثاني ومنوّره ومآثره وفضائله ، فهو حديث المجالس والنوادي ، وما كنا نتوقع ـ في أي بلد وفي أي عصر ـ أن تشنف سمع الزمان هذه الألحان ، أو تشهد السماء هذه الرغبة ، والشوق والاجتماع ، وإن كان الحديث عن هذه الأمور يحمل نوعاً من الجراءة والإعجاب بالنفس ، والفقير

(١) « در المعارف » ، ص ١٧٠ .

خجلان ، ولكنه أقدم على بيان ذلك ، مراعاة لحق الأحباب والأصدقاء » .

كان العلامة ابن عابدين المعروف بالعلامة الشامي مؤلف « رد المحتار شرح الدر المختار » تلميذ الشيخ خالد الرومي ، تربّى على يديه ، وألف رسالة مستقلة عنه بعنوان « سلّ الحسام الهندي لنصرة مولانا خالد النقشبندي » وهي في الحقيقة رد على كتاب ألفه بعض الحاسدين الكائدين ، في معارضة الشيخ خالد الرومي وتضليله ، وتناول في آخر الرسالة ترجمة حياته ـ بإيجاز ـ .

الشيخ أحمد سعيد وخلفاؤه :

كان خليفة الشيخ غلام علي الحقيقي ـ الذي نشر طريقته في الآفاق ـ الشيخ أحمد سعيد بن الشيخ أبي سعيد (١٢١٧ ـ ١٢٧٧ هـ)[١] ، الذي كان سليل الأسرة المجددية الذي تلقى التربية في أحضان الشيخ غلام علي وازدانت به ـ بعد وفاة والده عام ١٢٥٠هـ زاوية الشيخ غلام علي ، والشيخ مرزا مظهر جان جانان ، وقضى ٢٣ سنة كاملة ـ من ١٢٥٠ إلى ١٢٧٣ هـ ـ في الجهود المتواصلة لنشر الطريقة المجددية ، واضطر في هذا العام نفسه ـ الموافق ١٨٥٧ م أن يغادر الهند ويودع زاوية آبائه الميامين ، فغادر دهلي في شهر محرم الحرام عام ١٢٧٤ هـ ، ووصل مكة المكرمة في شهر شوال ١٢٧٤ هـ ، ثم اختار السكنى الدائمة بالمدينة المنورة ، وعاش عامين ، حتى وافاه الأجل المحتوم ، فدفن بها ، وتهافت المئات من العرب والأتراك عليه ـ في هذه المدة القليلة ـ للبيعة والتوبة على يديه ، حتى قال أحد شاهدي العيان : « لو مد في أجله واستمرت هذه السلسلة للبيعة لبلغ عدد تلامذته ومريديه مئات الألوف من الناس[٢] » .

ويتعذر استقصاء خلفاء الشيخ أحمد سعيد ، فقد ذكر عددهم في « المناقب

---

(١) راجع لترجمته المفصلة « نزهة الخواطر » ، ج ٧ .
(٢) رسالة الشيخ محمد عمر بن الشيخ أحمد سعيد الى الشيخ السيد عبد السلام الهنسوي .

الأحمدية[1] » ثمانين ، وانتشرت طريقته في الهند لجهود الشيخ دوست محمد القندهاري ، الذي تصدى خليفته الأكبر الشيخ عثمان الداماني (م ١٣١٤ هـ) في قرية « موسى زئي » من قرى « ديره اسماعيل خان » في المنطقة الشمالية الغربية من الهند[2] ، للإفادة والإفاضة ، وملأ الجو بحيوية الحب الدافق وحرارة العشق الطاهر ، وغشاها بسكينة النسبة النقشبندية ، ثم قام خليفته الأكبر الشيخ سراج الدين (م ١٣٣٣ هـ) بنشر هذه الطريقة في الآفاق ، وقد كساه الله ـ سبحانه وتعالى ـ ثوب المهابة والوقار ، فعمر زاوية سلفه الكرام بالتربية والإرشاد ، والتدريس والإفادة ، والاشتغال بعلم الحديث الشريف .

وخلفه الشيخ حسين علي (١٢٨٣ ـ ١٣٦٣ هـ) من « وان بجهران[3] » الذي كان له أسلوب خاص في تفسير القرآن الكريم يُعنَى فيه بشرح آيات التوحيد عناية خاصة ، وكان داعياً متحمساً إلى التوحيد الخالص ، قام بإصلاح العقائد الفاسدة ، ودحض البدع الباطلة ، ورفع راية التوحيد الخالص في بنجاب ، وفي مناطق عمت فيها الأعمال الشركية ، وانتشرت فيها البدع ، واتخذ فيها الناس الضرائح مساجد ومعابد ، والأولياء والصالحين أرباباً من دون الله لا يهاب في ذلك أحداً ، ولا يخاف لومة لائم[4] .

وكان في هذا العصر بالذات ، الشيخ إمام علي المكانوي (١٢١٢ ـ ١٢٨٢ هـ) أحد المشائخ الكبار في السلسلة المجددية ، كان لكثرة وفود الناس وتهافتهم عليه وقبوله العام فيهم ، يذبح في مطبخه ـ كل يوم ـ ثلاثمائة طيّ لقري الضيوف[5] .

وكان من أجلّة خلفاء الشيخ أحمد سعيد ، الشيخ عبد السلام الواسطي

(١) تأليف الشيخ محمد مظهر .
(٢) الآن في باكستان الغربي .
(٣) تقع هذه القرية في مديرية « ميانوالي » في البنجاب الغربية في باكستان .
(٤) اقرأ ترجمته في « نزهة الخواطر » ج ٨ .
(٥) نزهة الخواطر ، نقلاً عن « تذكره بي مثل راجكان راجور » لمرزا ظفر الله خان ، ص ٥٠٨ ـ ٥٢١ ،

المنسوي[1] (١٢٣٤ ـ ١٢٩٩ هـ) الذي كان صاحب نسبة عالية ، واستقامة وورع وانتشرت به هذه الطريقة في الولايات المتحدة بالهند ، وكان الشيخ عبد الرشيد ـ أحد أبناء الشيخ أحمد سعيد ـ الذي تلقى التربية على يديه الأمير كلب علي خان أمير ولاية رامبور ـ خليفة أبيه بعد وفاته في المدينة المنورة ، وسكن في مكة المكرمة آخر أيام حياته ، وبقي مشتغلاً بتربية السالكين وإرشاد الطالبين ، إلى أن لبى داعي الأجل ، ودفن في المعلاة ، وأسس ابنه الشيخ محمد معصوم (١٢٦٣ ـ ١٣٤١ هـ) الزاوية المعصومية برامفور ، وأقام بها ٣٢ سنة ، وتوفي في مكة المكرمة عام ١٣٤١ هـ ، والابن الثاني للشيخ أحمد سعيد هو الشيخ محمد مظهر (١٢٤٨ ـ ١٣٠١ هـ) كان صاحب نسبة قوية ، وشيخاً كثير الاشتغال بالتربية والإرشاد ، واستفاد به مئاتٌ من الطالبين الوافدين من سمرقند وبخارى ، وقزان وأرض الروم ، وأفغانستان ، وإيران وجزيرة العرب ، والشام ، وبنى عام ١٢٩٠ هـ عمارة فخمة ذات ثلاثة طوابق لزاويته في المدينة المنورة ، تعرف بالرباط المظهري وتقع بين باب النساء والبقيع .

وكان ابنه الثالث الشيخ محمد عمر (١٢٤٤ ـ ١٢٩٨ هـ) الذي أنجب الشيخ أبا الخير المجددي .

الشيخ عبد الغني :

هو أخو الشيخ أحمد سعيد الصغير ، ولكنه الكبير منزلة ، وهو المحدث الجليل الشيخ عبد الغني بن أبي سعيد ولد في سنة ١٢٣٥ هـ ، جمع بين تدريس الحديث الشريف ، والتربية والتسليك بحيث يتعذر نظيره باستثناء الشيخ عبد العزيز الدهلوي ، كان ـ مع تحليه بنعمة الصفاء الباطني والنسبة المجددية وشياخة الطرق ـ انتهت إليه رئاسة التدريس في الحديث الشريف في الهند والحجاز وتخرج على يديه أعلام العلماء ، كالشيخ الأجل الإمام محمد قاسم النانوتوري ، ـ مؤسس

(١) راجع لترجمته المفصلة ، نزهة الخواطر ج ٧ .

دار العلوم ديوبند ـ والشيخ المحدث الكبير العلامة رشيد أحمد الكنكوهي ، وانتشر به علم الحديث ، وأصبحت مدرستا دار العلوم بديوبند ، ومظاهر العلوم بسهارنفور ، العظيمتان مركزاً لتدريس الحديث الشريف .

ولما وقعت كارثة عام ١٨٥٧م هاجر من الهند مع أخيه الأكبر إلى المدينة المنورة وأقام فيها ، وأحيا سنة العلامة الشيخ علي المتقي مؤلف « كنز العمال » فاشتغل ـ طول عمره ـ بخدمة الحديث الشريف في الحرمين الشريفين ، وأفاد الطلاب ـ عرباً وعجماً ـ حتى توفي سنة ١٢٩٦ هـ ، ودفن في البقيع[1] ، له ذيل نفيس على سنن ابن ماجه سماه « انجاح الحاجة على سنن ابن ماجة » .

ومن مشاهير خلفاء الشيخ عبد الغني ، الشيخ عبد الحق الإلّه آبادي المهاجر إلى مكة المكرمة المعروف بـ « صاحب الدلائل » (م ١٣٣٣ هـ) والشيخ أبو أحمد المجددي البوفالي (م ١٣٤٢ هـ) ، والشيخ رفيع الدين الديوبندي ـ العميد الأول لدار العلوم ديوبند ـ (م ١٣٠٨ هـ) الذي نال منه المفتي عزيز الرحمن الديوبندي (م ١٣٤٧ هـ) الإجازة والخلافة .

واقفرت هذه الزاوية ـ العامرة من نصف قرن ـ بعد هجرة الشيخ أحمد سعيد والشيخ عبد الغني إلى مكة المكرمة ، وأخيراً عمرها وأعاد اليها الحياة سليل هذه الأسرة العظيمة وأحد المشايخ الأجلاء الشيخ أبو الخير المجددي (١٢٧٢ ـ ١٣٤١ هـ) الذي كان حفيداً للشيخ أحمد سعيد ، فأمّ هذه الزاوية ـ في مدة قريبة ـ القاصي والداني ، وأصبحت مرجعاً للطالبين المسترشدين .

---

(١) ألف تلميذه النجيب الشيخ محمد يحيى الترهتي في سيرته وسير مشايخه كتاباً مستقلاً بالعربية ، أسماه « اليانع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني » ، وترجم له العلامة عبد الحي الحسني الادريسي الكتاني الفاسي في الجزء الثاني من كتاب « فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات » ، فجاءت ترجمته في أربع صفحات من القطع الكبير (طبع المطبعة الجديدة بطالعة فاس سنة ١٣٤٧ هـ) قال فيها أخذ عن الشيخ عبد الغني الناس بالحجاز والهند والمغرب ، طبقة بعد طبقة .

وتفرقت أسرة الإمام السرهندي العالية في جيلها الرابع والخامس في مختلف أقطار العالم وأنحائه ، وكان في ذلك مصالح كبيرة ، من اجتناب مجاورة قبور الآباء الكرام ـ التي أصبحت عادة عند كثير من خلفاء المشايخ الصوفية ، وظهرت مفاسدها وعيوبها الكثيرة ـ ونشر الطريقة المجددية ، والقيام بالدعوة والتربية في البلاد النائية ، فأقام فرع من فروع هذه الأسرة في عز ووقار ، وإفادة وإرشاد ، بكابل ـ وكان مركزه الأخير قلعة جواد[1] ، وكان الشيخ نور المشائخ فضل عمر المجددي المعروف بـ « شير آغا » ينتمي إلى هذا الفرع ، وقد تجاوز عدد مريديه المئات ، وكانوا منتشرين في الهند وباكستان[2] ، وكان أخوه الأصغر الشيخ محمد صادق المجددي ـ سفير أفغانستان في الشرق الأوسط سابقاً ، وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي ـ يمتاز بالمكانة المرموقة في البلدان العربية ، وقد كان لهذين الأخوين مساهمة فعالة رائدة في الحركة التي اضطرت الأمير أمان الله خان إلى الاعتزال عن الدولة ، وتولية نادر شاه مكانه .

وكان أحد فروع هذه الأسرة الكريمة يسكن في قرية تنده سائين داد ، بحيدر آباد السند ، نبغ فيه واشتهر الشيخ محمد حسن المجددي وابنه الشيخ الحافظ محمد هاشم جان المجددي ، وتوجد بعض فروع هذه الأسرة في المدينة المنورة ، ومكة المكرمة ، وهي معروفة بتمسكها بتقاليد هذه الأسرة الموقرة مع الاشتغال بالوظائف والمهن الكريمة ، محتفظة بحسن الصيت وجميل الذكر .

السلسلة الأحسنية ومشايخها الكبار :

وبالرغم من أن الشيخ السيد آدم البنوري من المنتمين إلى طريقة الإمام السرهندي ، وتلقى التربية في أحضانه ، كان مؤسس طريقة جانبية ، تسمى لكثير

(١) ومما يؤسف له أن هذا المركز ـ بغزو الجنود السوفيتية والحكومات الأفغانية الاشتراكية عاد خراباً بلقعاً ، واعتقل علماؤه ، ومشائخه ، وطردوا من بلادهم ، وكان المؤلف قد سعد بزيارة هذا المركز عام ١٩٧٣ م وكان عامراً ناصراً ، راجع كتاب المؤلف من نهر كابل الى نهر اليرموك » ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

(٢) توفي ٢٥ محرم الحرام ١٣٧٦ هـ ، زاره المؤلف بمكة المكرمة ولاهور .

من خصائصها الاجتهادية بالطريقة الأحسنية ، وكان من مظاهر حكمة الله ـ عز وجل ـ وقدرته أن حظيت هذه الطريقة العالية التي أسست بيد رجل أمي ، بكثير من العلماء النابغين ، والمحدثين البارعين ، وأساتذة عصرهم ، والقائمين بنشر الكتاب والسنة والدعاة والمصلحين ، ومؤسسي المدارس الدينية الكبيرة ، والمؤلفين والباحثين المحققين ، وهو في ذلك على أثر جده سيد المرسلين ـ ﷺ ـ والسائر على سنته ، والوارث لميراثه ، فقد كان حكيم الإسلام ولي الله الدهلوي ، وسراج الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوي ، والداعي إلى الله المجاهد في سبيل الله الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، والعلامة محمد اسماعيل الشهيد ، ومسند الهند الشيخ اسحاق الدهلوي ، ومؤسس دار العلوم ديوبند الشيخ محمد قاسم النانوتوي ، والعالم الرباني الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي ، والمجاهد الكبير الشيخ ولاية علي العظيم آبادي ، والمربي الكبير الداعي إلى الله الشيخ عبد الله الغزنوي الأمرتسري ، ونجله الشيخ عبد الجبار الغزنوي الامرتسري ، كلهم ينتمون إلى الطريقة المجددية النقشبندية ، بوساطة المشايخ الكبار للطريقة الأحسنية ، وكانوا أصحاب الإجازة والخلافة فيها .

وكان خلفاء الشيخ آدم البنوري في عدد كبير ينعذر احصاؤهم في هذا الباب ، وقد وردت هذه الأسماء التالية في « نزهة الخواطر » لأصحاب الشيخ آدم البنوري من مريديه ومسترشديه ، وحاملي نسبته ، وبعضهم ممن نال منه الإجازة والخلافة وهم :

ديوان خواجه أحمد النصير آبادي (م ١٠٨٨ هـ) ، والشيخ بايزيد القصوري (م ١٠٩٠ هـ) ، والشيخ فتح الله السهارنفوري (م ١١٠٠ هـ) ، والشيخ سعد الله البلخاري اللاهوري (م ١١٠٨ هـ) .

ولكن انتشرت هذه الطريقة بهؤلاء الأعلام الأربعة الذين كانوا مثالاً كاملاً لتربيته واجتهاده وتعليمه ، وصورة حية لتأثيره وإفادته ، وهم : الشيخ السيد علم الله الحسني (١٠٢٣ ـ ١٠٩٦ هـ) ، والشيخ سلطان البلياوي ، والشيخ الحافظ

السيد عبد الله الأكبر آبادي ، والشيخ محمد شريف الشاه آبادي .

الشيخ السيد علم الله الحسني وأسرته :

قال الشيخ آدم البنوري للشيخ علم الله الحسني عند توديعه « سر على بركة الله ، وتصدّ للتربية والإرشاد بجميعة القلب وطمأنينة البال ، فإنك ستكون بين مشايخ ولاية « أوده » كالشمس بين النجوم[1] » .

ويقول عنه الشيخ محمد أمين البدخشي - خليفة الشيخ آدم البنوري ومن خواص أصحابه - : « لا يسمح لرائحة الدنيا أن تمر ببابه ، وقد طبق صيته لورعه واستقامته ، الهند والبلدان العربية . . . وأكثر الناس الذين يرونه يقولون لعل الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا هكذا[2] » .

ويقول مؤلف « البحر الزخار » في ترجمته :

« ان المجاهدات الشاقة التي ظهرت من هذا النابغة الفريد في النفور من الدنيا ، واتباع السنة النبوية - صلى الله على صاحبها وسلم - يندر مثلها بعد الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - في الأولياء والمشايخ المتأخرين » ، ويقول : « إنه لما سافر إلى مكة المكرمة ، والمدينة المنورة للحج والزيارة ، كان الناس عندما يشاهدون جده واجتهاده وقوته على الطاعات ، وكمال اتباعه للسنة ، والأخذ بالعزيمة ، يقولون : « هذا كأبي ذرّ » حتى سارت هذه الكلمة مسير الأمثال على ألسنة الناس » .

وكانت نتيجة هذا التمسك الشديد ، بالسنة النبوية ، أن رأى السلطان عالمكير في المنام ليلة وفاته ، أن الرسول - ﷺ - توفي ، فاضطرب ، وأهمّه هذا الأمر ، فعرض على العلماء والمشايخ ، وسألهم تأويله ، فأولوه بأنه توفي في تلك

---

(١) راجع لترجمته المفصلة « سيد احمد الشهيد » (بالاردية) للشيخ غلام رسول مهر ، ج ١ ، و« سيرة سيد احمد شهيد » ج / ١ ، للمؤلف ، و« تذكرة شاه علم الله » للأستاذ محمد الحسيني ، وراجع أيضاً « أنفاس العارفين » للامام ولي الله الدهلوي .

(٢) « نتائج الحرمين » رواية الشيخ عبد الحكيم .

الليلة من كانت له نسبة صحيحة بالنبي -ﷺ- وقدم راسخة في اتباعه ، ثم أخبر بأن السيد علم الله توفي في تلك الليلة ، فأجمع العلماء على أنه هو المعبر عنه بذلك المنام[1] » .

واستمرت هذه الطريقة الأحسنية في أسرته ، والتي نبغ فيها من العلماء والمشايخ الكبار كابنه الرابع الشيخ السيد محمد (١١٥٦ هـ) وابنه الشيخ السيد محمد عدل المعروف بشاه لعل (م ١١٩٢ هـ) والشيخ السيد محمد صابر بن السيد آية الله بن الشيخ علم الله (م ١١٦٣ هـ) والشيخ أبو سعيد بن السيد محمد ضياء بن السيد آية الله بن السيد علم الله (١١٩٣ هـ) والسيد محمد واضح[2] ابن السيد محمد صابر ، والسيد محمد ظاهر الحسني (م ١٢٧٨ هـ) والسيد خواجه أحمد بن السيد يسين النصير آبادي ، والشيخ السيد ضياء النبي الحسني (م ١٣٢٦ هـ) الذين نفع الله بهم خلائق لا يحصون ، وتاب على أيديهم الألوف المؤلفة ، وفازوا بنعمة الإيمان والإحسان ، والتمسك بالشريعة الإسلامية ، واتباع السنة النبوية ، ونبذ البدع والمحدثات[3] .

الشيخ سلطان البلياوي :

كان الخليفة الثاني للشيخ آدم البنوري الشيخ سلطان البلياوي ، ويستفاد من « نتائج الحرمين » أنه كان من أجلّة خلفاء الشيخ البنوري ، وكبار أصحابه ، ويذكر اسمه قريناً باسم الشيخ علم الله الحسني .

---

(١) انظر « نزهة الخواطر » ، ج ٥ ، و« البحر الزخار » للشيخ وجيه الدين أشرف وقد جاء فيه المنام مفصلاً ، و« در المعارف » للشيخ رؤوف احمد المجددي ، ص ٤٦ ، وذكرت فيه هذه الرؤيا الصادقة اجمالاً .

(٢) توفي في بداية القرن الثالث عشر الهجري .

(٣) راجع لتراجمهم « نزهة الخواطر » ج ٦ - ٧ .

الشيخ الحافظ السيد عبد الله الأكبر آبادي
والطريقة الولي اللهية :

وكان الخليفة الأجل الثالث للشيخ آدم البنوري ، الذي انتشرت به هذه الطريقة في أوسع نطاق ، هو الشيخ الحافظ السيد عبد الله الأكبر آبادي(1) .

وكان والد الإمام ولي الله الدهلوي ، الشيخ عبد الرحيم الفاروقي (م ١١٣١ هـ) خليفته ، تلقى عنه التربية الروحية ، وينتمي إلى هذه الطريقة الأحسنية المجددية في سلسلة الإمام ولي الله الدهلوي ، وسراج الهند الإمام عبد العزيز الدهلوي ، الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، وعن طريقة الشيخ الحاج عبد الرحيم الولايتي الشهيد ، والشيخ نور محمد الجهنجهانوي ، وعن طريقه شيخ العرب والعجم الشيخ الأجل إمداد الله التهانوي المهاجر إلى مكة المكرمة ، وخلفاؤه الشيخ محمد قاسم النانوتوي ، والشيخ رشيد أحمد الكنكوهي ، والمصلح الكبير الشيخ أشرف علي التهانوي ، ثم عن طريق الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي ، شيخ الهند الشيخ محمود حسن الديوبندي ، والشيخ عبد الرحيم الرائي بوري ، والشيخ خليل أحمد السهارنبوري ، والمجاهد الكبير السيد حسين أحمد المدني ، ومن خلفاء الشيخ عبد الرحيم الرائي بوري ، الشيخ عبد القادر الرائي بوري ، ومن خلفاء الشيخ خليل أحمد السهارنبوري ، الداعية الكبير محمد إلياس الكاندهلوي ، مؤسس « جماعة التبليغ » والعلامة المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي صاحب « أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك » ، و « حجات النبي ﷺ وعمراته » وكتب كثيرة ، وكلهم من أصحاب الإجازة والخلافة في هذه الطريقة ، ونقل الشيخ غلام علي وصف الشيخ مرزا مظهر جان جانان للإمام الدهلوي في كتابه « مقامات

---

(1) راجع للاطلاع على ترجمته ومناقبه الجليلة « أنفاس العارفين » ، ص ٦ - ١٥ ، ألفه الامام ولي الله الدهلوي في ترجمة والده ، وتناول فيه حياته وأعماله وتراجم أسرته ، بتفصيل ، وطبع عام ١٣٣٥ هـ بمطبعة مجتبائي ، انظر ص ١٥ - ٨٧ .

مظهري » ، فقال :

« إن الشيخ ولي الله قد بين طريقة جديدة ، وله أسلوب خاص في تحقيق أسرار المعارف ، وغوامض العلوم ، وإنه ربّاني من العلماء ، ولعله لم يوجد مثله في الصوفية المحققين ، الذين جمعوا بين علمي الظاهر والباطن وتكلموا بعلوم عديدة ، إلاّ رجال معدودون[1] » .

ولما وقف إمام العلوم العقلية العلامة فضل حق الخير آبادي على كتابه « إزالة الخفاء » قال بمحضر من تلامذته ، « إن الذي صنف هذا الكتاب لبحر زخار لا يرى له ساحل » .

أما سراج الهند الإمام عبد العزيز الدهلوي فإنه نادرة عصره في نبوغه وبراعته ، في العلوم العقلية والعلوم النقلية ، والفنون الأدبية - في حين واحد وانهماكه في التدريس والإفادة ، ونشر علم الحديث ، والإفاضة الباطنية ، والتربية الربانية ، وسيلان قلمه في التأليف ، وحلاوة منطقه وملاحة كلامه ، ورحابة صدره ، وجميل عشرته ، وتوجعه للأمة الإسلامية الهندية ، واهتمامه بها ، وعموم إفادته ، وكثرة فيضه ، ويندر نظيره في أنحاء العالم الفسيحة ، والأقطار النائية[2] .

الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وجماعته :

أما الإمام أحمد بن عرفان الشهيد الذي كانت له صلة خاصة بالطريقة الأحسنية المجددية ، قد ألف حوله كتباً ضخمة ، يكفي الاطلاع منها : على كتاب « سيد أحمد شهيد » لمؤرخ الباكستاني الشهير الأستاذ غلام رسول مهر في أربعة

---

(١) نزهة الخواطر ، ج ٦ ، ص ٤٠٥ ، نقلاً عن « مقامات مظهري » طبعة المطبع الأحمدي ص ٦٠ - ٦١ .

(٢) راجع للاطلاع على أحواله ومناقبه العظيمة بتفصيل وافاضة ، نزهة الخواطر ، ج ٧

أجزاء ، و« سيرت سيد أحمد شهيد » للمؤلف في جزئين[1] ، ونكتفي هنا للإشارة إلى تأثيره العميق في عصره وفي تاريخ الهند ، وما أنجز الله ـ تعالى ـ على يديه من هداية عامة شاملة ، ونشر للدعوة الإسلامية وحفاظ على خصائص الإسلام وميزاته ، ببعض الشهادات .

يقول معاصره العالم الجليل الشيخ عبد الأحد الذي له خبرة واسعة بأحوال الهند وأخبارها :

« أسلم على يديه أكثر من أربعين ألف شخص من الهنادك والكفار ، وبايعه ثلاثة ملايين من المسلمين ، ولو وضعنا في الاعتبار سلسلة البيعة والإرشاد التي لا تزال متصلة الحلقات ، وتجري حتى اليوم على أرض الله عن طريق أتباعه وأتباع أتباعه ، ليكون قد دخل في بيعته ملايين الملايين من الناس » .

ويقول مؤلف الهند الشهير العلامة السيد صديق حسن خان أمير بوفال (م ١٣٠٧ هـ) ـ الذي شاهد آثار تربيته وإرشاده ، واطلع عليها عن كثب ، وعاصر كثيراً ممن شاهدوه وصحبوه ، في كتابه « تقصار جيود الأحرار » :

« إنه كان آية من آيات الله ـ تعالى ـ في هداية عباده ، وإصلاح حالهم ، والرجوع بهم إلى الله وعبادته ، وبلغ خلق كثير وعالم بأسره إلى درجة الربانية و« الإحسان » بتعليمه وتربيته ، وتزكيته القلبية والجسمية ، وتطهرت الهند من أدناس الشرك والبدع والخرافات والأوهام ، بفضل مواعظ أصحابه وخلفائه واهتدت إلى جادة الكتاب والسنة ، ولا تزال مواعظه ، وتعاليمه تفعل فعلها وتؤتي أكلها » ، إلى أن قال :

(١) وكلاهما بالأردية ، وللمؤلف كتاب بالعربية بعنوان « إذا هبت ريح الإيمان » يتحدث عن دوره العظيم ، وجهوده الموفقة في اقامة الدولة الاسلامية في اسلوب قصصي مشرق ، وكتيب آخر بعنوان «الامام الذي لم يوف حقه من الانصاف والاعتراف» ، رد فيه على الشبه المثارة حوله ، وصدر لها اكثر من طبعة في الهند ومصر .

« وقصارى القول : إننا لا نعلم رجلاً يدانيه في جلالة شأنه وفضله في أي جزء من أجزاء العالم المعاصر ، وما جناه الخلق من المنافع الايمانية والمكاسب الروحية من هذه الجماعة الحقة ، لم ينالوا معشاره من العلماء والمشايخ المعاصرين الآخرين » .

وإن أعلام مشايخ ديوبند ، وصاد قبور[1] ، ـ كما تقدم من قبل ـ ينتمون إلى الطريقة المجددية النقشبندية ، وحصلوا على الإجازة والخلافة فيها عن طريق الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، ولا يستطيع أن ينكر فضلهم وجهادهم في نشر العلوم الدينية ، وتأسيس المدارس الإسلامية ، وجهودهم العظيمة في سبيل الدعوة والتربية والإرشاد ، وأعمالهم الإصلاحية الواسعة النطاق في شبه القارة الهندية ، إلاّ جاحد مكابر .

وكل ذلك من نتائج العمل الإصلاحي التجديدي الذي قام به الإمام السرهندي وثماره اليانعة الجنية ، لأنه هو الذي شق الطريق أمام الناس في فترة القرن الحادي عشر الهجري الحرجة الشائكة المليئة بالفتن والأخطار ، وهيأ الجو الملائم وغير مجرى الأحداث للعمل الإسلامي العظيم ، وأيقظ النائمين ونبه الخاملين ، ونفخ في جسم الأمة الإسلامية الهامدة روحاً جديدة ، وعاطفة فياضة ، وربى أمة سهرت على الدين والحفاظ عليه ، وحفظت بلوعة قلبها ، وحرارة نفسها ، ونور باطنها

---

(١) « صاد قبور » حي من أحياء مدينة بتنه ، كان مركزاً مهماً لدعوة الامام احمد بن عرفان الشهيد وجهوده الإصلاحية ، وواصل أهله مهمة هذه الحركة الى أن قضت عليها الحكومة الانجليزية قضاءً كاملاً ، وصبت عليها كأس غضبها وحقدها ، كان من أشهرهم وأرفعهم مكاناً الشيخ ولايت علي العظيم آبادي ، والشيخ يحيى علي ، والشيخ احمد الله ، والشيخ عنايت علي الغازي ، والشيخ عبد الله ، أمير جماعة المجاهدين (جمرقند) والشيخ عبد الرحيم الصادقبوري ، وكان شعارهم الجمع بين عقيدة التوحيد الخالصة ، والعمل بالحديث الشريف ، والاشتغال بالذكر ، والتزكية والجهاد في سبيل الله .

(﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا ﴾ .

شعلة الإيمان واليقين مضيئة ملتهبة ، واستمرت هذه الشعلة تنتقل من جيل إلى جيل ، تلهب النفوس وتضيء القلوب ، ولم تعد الجاهلية والكفر ، والشرك والوثنية ، والمنكرات والبدع تنشر جناحها الأسود المظلم ، وظلها الكثيف الثقيل على المجتمع الإسلامي الهندي ، كما نشرته في القرن العاشر الهجري ، وحق لمن انتمى إليه ـ مباشرة ـ أو بواسطة ـ أن يقول في ثقة واعتزاز :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

مؤلفات الإمام السرهندي ورسائله :

وللإمام السرهندي مؤلفات ورسائل أكثرها بالفارسية ، وأشهرها وأنفعها مجموع رسائله التي تسمى « مكتوبات أمام رباني » ، وهي من أعظم مآثره العلمية والإصلاحية والتجديدية ، وتصوير حي لعواطفه ، ومشاعره ، وبها تعرف مكانته في التجديد والإصلاح ، وبلوغه درجة الاجتهاد والإمامة في المعارف الإلٰهية والعلوم الدقيقة ، والانتصار للكتاب والسنة ، وهي مليئة بالتحقيقات العالية ، والنكت البديعة التي لا يوفق لها ولا يخص بها إلا الأفذاذ من العدول ، الذين ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، وانتحال المبطلين ، عبر القرون والأجيال ، ويحتاج الحديث عن مكانتها العلمية ، وتعيين درجتها في الأدب الفارسي إلى كتاب مستقل ، قلما حظى مجموع من الرسائل في الآداب واللغات التي نعرفها بالقبول والانتشار وعني بالدراسة والتأمل مثل ما حظى هذا المجموع ، وقد ترجم إلى العربية والتركية ، وقرر ككتاب دراسي في المراكز العلمية والروحية ، وعكف عليه العلماء والسالكون واشتغلوا به ورددوه ، ولا يزال ـ إلى يومنا هذا ـ غضّاً طرياً ،كأن الرسائل كتبت اليوم .

ويقع هذا المجموع في ثلاثة أجزاء ، وعدد هذه الرسائل يبلغ ٥٣٦ رسالة ، وطبعت مجاميع هذه الرسائل عدة طبعات في مختلف السنوات ولا يزال يعاد طبعها .

ومن رسائله : ١ ـ « اثبات النبوة » ، ، و ٢ ـ « رد الروافض » ، وهو رد على بعض علماء الشيعة الايرانيين ، ألفت حوالي سنة ١٠٠١ هـ ، بالفارسية ، وقد شرح الإمام ولي الله الدهلوي هذه الرسالة ولم يطبع بعد ، ٣ ـ و « الرسالة التهليلية » (بالعربية) فرغ من تأليفها في عام ١٠١٠ هـ ، وهي مطبوعة مع الترجمة الأردية ، ٤ ـ « وشرح رباعيات » وللإمام ولي الله الدهلوي شرح له ، باسم « كشف العين في شرح رباعيتين » وكلاهما مطبوع ، ٥ ـ و « معارف لدنيه » بالفارسية ، يشتمل على معارف الإمام السرهندي وتحقيقاته الخاصة في علم السلوك والطريقة ، ألفه عام ١٠١٥ هـ ؛ ويبلغ عدد هذه المعارف ٤١ معرفة ، والكتاب مطبوع عدة طبعات ، ٦ ـ « المبدأ والمعاد » بالفارسية ، يشتمل على معارف الإمام السرهندي وعلومه ، وتبلغ هذه الفصول ٦١ فصلاً ، والكتاب مطبوع ، وقد ترجم الشيخ مراد المكي هذه الرسالة إلى العربية ونشرت هذه الترجمة مع مجموعة رسائله المترجمة إلى العربية في الحاشية ، ـ ٧ ـ و « مكاشفات عينية » بالفارسية ، والكتاب مطبوع .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على نبيه محمد وآله وأصحابه وأهل بيته ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

محتويات الكتاب

الباب الثالث

الباب الرابع

الباب الخامس

الباب السادس

الباب السابع

الباب الثامن

رقم الايداع

١٩٩٤/١٥٠٤



تطلب جميع منشوراتنا من :
دار القلم الكويت
دار القلم دبي
دار القلم القاهرة